عبد القادر فكاير

الـ غزو الإسباني للسواحل الجزائرية
910-1206هـ / 1505-1792م

دراسة تتناول الآثار السياسية والاقتصادية
والاجتماعية والثقافية على الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح ولدي

قائمة المختصرات المستعملة

1 . باللغة العربية:

ج. : جزء
د.ت.: دون تاريخ
د.م.ج.: ديوان المطبوعات الجامعية
ش.و.ن.ت.: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
ص.: صفحة .
صص. صفحتان فما أكثر.
ط. : طبعة .
م.: التاريخ الميلادي.
مخ.: مخطوط
م.و.ك.: المؤسسة الوطنية للكتاب.
هـ.: التاريخ الهجري.
و.ت.أ.ش.د.: وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية

2 - باللغة الأجنبية

A.G.S.: Archivo General de Simancas
A.H.N.: Archivo Historico Nacional (Madrid)
B.S.G.A.: Bulletin de la société géographique d'Alger
B.S.G.A.C.:Bulletin de la société géographique et d'Archéologie de Constantine
B.S.G.A.O.:Bulletin de la société et d'Archéologie géographique d'Oran
B.S.G.P.: Bulletin de la société géographique (Paris).
C.T.: Les Cahiers de Tunisie
Estado: Etat : دولة
Leg.: Legajo: حزمة
P.U.F.: Presse Universitaire de France
R.A.: Revue Africaine
R.H.M.: Revue d'Histoire Maghrébine
R.O.M.M.: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée (Aix-en-Provence) .
S.D.: Sans date
Vol.: volume.

مقدمـة

هذا الكتاب نسخة معدلة ومراجعة لأطروحة دكتوراه نوقشت في قسم التاريخ جامعة الجزائر عام 2009 . وهو يعالج انعكاسات أو آثار الحملات الإسبانية على الجزائر من خلال الغارات على السواحل الجزائرية واحتلاله لبعض المدن في هذا النطاق . وما آلت إليه حالة العلاقات بين البلدين بعد قيام الدولة الجزائرية في بداية القرن السادس من حروب وعداء استمر إلى أواخر القرن الثامن عشر.

إن كثيرا من الدراسات التاريخية عندما تتناول تاريخ الجزائر الحديث ، تركز على الجانب السياسي ، أو تركز على جانب واحد ضمن دراسة قد تشمل الفترة الممتدة ما بين 1500- 1830 ، أو جزء منها . وأهم حدث عرفته الجزائر في بداية هذه الفترة تعرض السواحل الجزائرية سلسلة من الغارات الأسبانية . وقد خلف الاحتلال الأسباني العديد من المواقع على هذه الشواطئ أثارا في مختلف جوانب الحياة ، أعتقد أنها جديرة بالبحث ، ولذلك اتخذتها موضوعا لهذه الدراسة . وتجدر الإشارة هنا إلى أن المكتبة التاريخية في الجزائر تفتقر إلى دراسة شاملة للآثار الناجمة عن الاحتلال الأسباني لبعض المدن الساحلية الجزائرية ، وسياسة الإسبان تجاه الجزائر خلال الفترة المذكورة آنفا، باستثناء رسالة الماجستير **للسيد أحمد بلبوري** وعنوانها " الاحتلال الأسباني الأول لوهران وانعكاساته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية "، التي ناقشها سنة 1985 . وقد اقتصرت دراسته على الفترة المحددة ما بين (1505-1708) وانعكاسات ذلك على المنطقة الوهرانية . فماعدا ذلك فإن جل الدراسات والمؤلفات التي صدرت عن الموضوع تتناول الجانب السياسي مثل كتاب **أحمد توفيق المدني** " حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا" ، أو تتناول مجابهات الجزائر مع الأسبان في نطاق تناول تاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانية (1516-1830) . وهناك من الدراسات ما تتعرض إلى أحداث جزئية كحملة أو معاهدة أو تاريخ مدينة ما وقعت تحت الاحتلال الأسباني.

وقد حفزتني مجموعة من الدوافع للوخوض في هده الدراسة أذكر منها:

- رغبتي في فهم دواعي تركيز الاحتلال الأسباني على المدن الساحلية وعدم تمكنه من التوغل إلى المناطق الداخلية ، والسعي إلى الاستقرار فيها.
- رغبتي في الوقوف على جملة الآثار التي ترتبت عن العدوان الأسباني على السواحل الجزائرية، واحتلاله لبعضها فترات متفاوتة من الزمن. لأنني وجدت خلال قراءاتي الاستطلاعية عن الموضوع أن تلك الآثار شملت جوانب عديدة

مهمة جديرة بالبحث والدراسة لكنها رغم أهميتها لم تحظ بدراسة شاملة لمختلف الجوانب.

ـ تطلعي إلى الوقوف على أطوار العلاقات بين الجزائر وأسبانيا أثناء الاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير وغيرهما(1505- 1792).

إذا كان الاحتلال الأسباني المقتصر على المواقع الساحلية فقط دون الداخلية يطرح إشكالا جديرا بالبحث لفهم وأسباب فشله في التغلغل إلى الجهات الداخلية من البلاد باستثناء المنطقة الجنوبية لوهران ؛ فإن إشكالا آخر يطرح نفسه بقوة وهو ما الذي ترتب عن ذلك الاحتلال من نتائج وآثار في مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ؟ . تلك هي المحاور التي تبحث فيها فصول هذة الدراسة، بالإضافة إلى تساؤلات فرعية عنها وفي مقدمتها : هل ترتب عن الحملات الأسبانية على الجزائر آثارا ؟ وما هي طبيعة تلك الآثار؟ وهل شملت تلك الآثار جانبا معينا أو جوانب متعددة ؟ وهل مست تلك الانعكاسات منطقة معينة ، أي التي تعرضت للغزو أو النفوذ ، أم تجاوزتها إلى مناطق أخرى؟ وهل كانت كل الآثار سلبية ؟ أم هناك ما كان منها إيجابيا ؟ وهل تجلت تلك الآثار في الفترة المحددة (1505-1792) أم امتدت تداعياتها إلى ما بعد عام 1792 . للإجابة على هذه الأسئلة وغيرها اعتمدت على مادة علمية متنوعة . خصصت لها عنوانا خاصا .

لقد قسمت البحث إلى خمسة أبواب وخاتمة ، تناولت في الباب الأول ـ الذي عنونته (**الغزو الأسباني للسواحل الجزائرية**) ـ ثلاثة فصول هي :

الفصل الأول : دوافع العدوان الأسباني على السواحل الجزائرية: عرضت فيه بالتحليل الأسباب التي جعلت الأسبان يقدمون على شن هجماتهم على السواحل الجزائرية في بداية القرن السادس عشر ، فكانت متنوعة ، سياسية وإستراتيجية واقتصادية ودينية.

الفصل الثاني : المواقع التي احتلها الأسبان في الأراضي الجزائرية : تناولت فيه المناطق الجزائرية التي تعرضت للاحتلال الأسباني ، أو التي وصلت إليها الجيوش الأسبانية .

الفصل الثالث: أسباب فشلهم في التوغل إلى المناطق الداخلية من البلاد : فقد عرضت فيه العوامل التي حالت دون استقرارهم في المناطق الداخلية. فمما يلاحظ أن وجودهم قد اقتصر على بعض المناطق الساحلية ، ولم يتمكنوا من التغلغل إلى المناطق الداخلية باستثناء الجهة الغربية من البلاد حيث استطاعت جيوشهم أن تصل إلى ماوراء تلمسان .

الباب الثاني : عنوانه الآثار السياسية ، عرضت فيه التسلط الأسباني على الأنظمة التي قامت في المغرب الأوسط في بداية القرن السادس ، ومنها على الخصوص مملكة تلمسان في الغرب ، مملكة بجاية في الشرق، ثم مشيخة الثعالبة في الوسط ،عرضت فيه مختلف المتاعب التي لحقت بهذه الوحدات السياسية . وقد أدت تلك المضايقات بأعيان مشيخة الثعالبة إلى الاستنجاد بعروج وإخوته مما أسفر على نهاية هذه الإمارة وقيام سلطة جديدة بمدينة الجزائر. وقد أدى استمرار الخطر الأسباني إلى ارتماء هذه الدولة الفتية في أحضان الدولة العثمانية ، التي ساندتها ومكنتها من مواجهة الخطر الأسباني وخاصة الغارات التي شنووها على مدينة الجزائر، لينتقل بعد ذلك الصراع إلى البحر المتوسط ، وتطبيق سياسة الرد على الاعتداء ونقل المواجهة إلى الأراضي الأسباينة .

الباب الثالث: تتناولت فيه الآثار الاقتصادية. منها التراجع التجاري للجزائر مع الخارج بعد احتلال بعض الموانئ الهامة مثل المرسى الكبير ووهران وبجاية ، أو تدمير بعضها مثل هنين . وقد أصابت هذه الهجمات اقتصاديات مملكة بني زيان بالسوء إثر احتلال موانئها وخاصة هنين فأغلق الأسبان بذلك آخر منفذ بحري لها مع الخارج ، إلى جانب إثقالها بالضرائب . ومن أهم الإجراءات التي قام بها الأسبان خاصة في الجهة الغربية من البلاد هو الحصول على المحاصيل الزراعية والمواشي من السكان . سواء الموالين لهم عن طريق الشراء بأسعار تناسبهم ، أوالمعادين عن طريق الغارات على مواقعهم . وكانت العملات الأسبانية أكثر من العملات الأجنبية الأخرى رواجا وتداولا في الأسواق الجزائرية.

الباب الرابع: تناولت فيه الآثار الاجتماعية التي أصابت المجتمع الجزائري من جراء الاحتلال الأسباني ، وهي متعددة منها ما أصاب السكان القاطنين في المدن المستهدفة حيث اضطروا إلى مغادرة مساكنهم والبحث عن مناطق أخرى آمنة، كما كانت تجمعاتهم السكانية الجديدة أو القرى المجاورة للمدن المحتلة عرضة لهجمات الجنود الأسبان . كما لايخفى على أحد أن المواجهات المختلفة مع الأسبان قد خلفت خسائر بشرية غير محصورة العدد في مجملها لسكوت

الكثير من الكتابات الأوربية أو حتى المحلية عنها في بعض الأحيان مما يجعل البحث في هذا الشأن متواصلا . وكانت قضية الأسرى المسلمين من اهتمامت الجنود الأسبان خلال غزواتهم ، أو مداهماتهم للقرى . فكان الكثير منهم يباعون في الأسواق ويحولون إلى عبيد . وأهم ما ميز هذه الفترة من الناحية الاجتماعية هو قبول بعض القبائل التعاون مع الأسبان في الجهة الغربية من البلاد، مما ساعد على طول فترة بقاء الأسبان في وهران والمرسى الكبير .

الباب الخامس: عرضت فيه الآثار الثقافية التي انعكست على الجزائر من جراء هذا الغزو ، فبعد هذه الأعمال عرفت كثير من الحواضر التي كانت تشتهر بالعلم والعلماء تراجعا كبيرا بل قضي على صفتها الثقافية تماما كما هو الحال بالنسبة لوهران وبجاية ، وقد شهدت مدن أخرى هجرة علمائها إلى الخارج وخاصة إلى المغرب مثل تلمسان ومعسكر . ونتج عن هذه المواجهة نوع من الأدب يعرف بالأدب السياسي ، أو أدب الجهاد ، حيث نظم العديد من الشعراء والعلماء قصائد شعرية تحدثت عن مختلف مظاهر المواجهة مع الأسبان. كما ألف آخرون مصنفات أرخت لكثير من الأحداث التي وقعت مع الأسبان ، فكان هذا الإنتاج مصدرا لتاريخ الجزائر خلال هذه الفترة . ثم تعرضت في آخر هذا الفصل إلى الآثار العمرانية التي كان الأسبان قد استعملوها خلال وجودهم ، بعضها كانت قائمة قبل دخولهم إلى المدن التي احتلوها وبعضها قاموا هم بتشييدها. مازالت الكثير منها موجودة بوهران وبجاية.

لا يخلو أي مجهود يخص البحث العلمي من الصعوبات ، خاصة إذا كان الباحث مشغولا بعناء مشاغل الحياة المختلفة ومسؤولية التدريس . إن هذه الانشغالات تأخذ من الباحث وقتا يكون على حساب البحث الأكاديمي وإنجاز العمل في وقته المحدد رسميا. إلى جانب ذلك واجهتني مشكلة اللغة الأسبانية التي يتعلق بها بحثي ، خاصة منها القشتالية التي تعود إلى القرن السادس والسابع عشر. وللتغلب على هذا العارض فإنني اجتهدت في التغلب على هذا المشكل حيث اتبعت مختلف الطرق لتعلم هذه اللغة ، كالكتب والأشرطة وأقراص التعليم ، والدروس بالمراسلة ، بل تابعت برنامج التعليم المكثف لدى مركز سيرفانتيس بالجزائر . كما استعنت ببعض أساتذة اللغة الأسبانية عندما كانت تعترضني صعوبات في فهم بعض النصوص.

ولا يفوتني في الأخير أن أتوج بالشكر الجزيل إلى أستاذي المشرف الدكتور عمار بن خروف الذي لم يدخر جهدا في متابعة مسار هذا العمل منذ أن كان مشروعا إلى أن أصبح على هذه الصورة . حيث لم يبخل علي بوقته حتى أيام

العطل حين كان يستقبلني في بيته ويوجهنني لمدة ساعات في كثير من الجلسات وذلك في أستاذية رفيعة .
كما أتقدم الشكر الجزيل إلى كل من قدم لي يد المساعدة من قريب أو بعيد وأخص بالذكر كل القائمين على المكتبات ودور الأرشيف ، سواء هنا في الجزائر أو في أسبانيا. وإلى كل من قدم لي يد العون وشجعني ولو بكلمة طيبة.

نبذة عن المصادر والمراجع

لقد اعتمدت في هذه الدراسة على مجموعة متنوعة من الوثائق والتقارير والرسائل والمذكرات أو اليوميات والمصادر المحلية منها والأجنبية ، وكثير من المراجع والمقالات، يمكن تقسيمها إلى المجموعات التالية .

1 - **الوثائق الأرشيفية** ، الموزعة بين دور الأرشيف سواء الموجود منها في الأرشيف الوطني الجزائري ، أو الموجودة بمختلف دور الأرشيف بأسبانيا.

بالنسبة للمادة المتعلقة بالوجود الأسباني في الأرشيف الوطني بالجزائر فهي نادرة، فباستثناء بعض الحسابات التجارية مع الخارج التي ورد فيها ذكر لبعض النقود الأسبانية ، استفدت منها في موضوع استعمال العملة الأسبانية في الجزائر، لا تجد ما يشبع نهم الباحث .

وأغلب الوثائق الأرشيفية التي وظفتها في هذا البحث كانت من دور الأرشيف بأسبانيا ، منها الأرشيف العام لسيمانكاس بمقاطعة بلد الوليد ، الذي يحتوي على وثائق متنوعة تعود إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، ونظرا لقدمها فإن الكثير منها يصعب قراءتها ناهيك عن صعوبة اللغة القشتالية السائدة في ذلك الوقت .

أما أرشيف التاريخ الوطني بمدريد فإنه يحتوي على وثائق تتعلق بالقرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فهي على العموم سهلة للقراءة. فإلى جانب الوثائق المتعلقة بالجانب السياسي وتتمثل في تبادل الرسائل بين حكام الجزائر وملوك الأسبان ، وكذلك رسائل القناصلة الأسبان في الجزائر إلى زعماء بلادهم فيها كثير كمن الحقائق التاريخية تبين العلاقات بين البلدين . إلى جانب ذلك فإنني استفدت من نصوص المعاهدتين المبرمتين بين الجزائر وأسبانيا في سنة 1786، 1791. وجدتهما مكتوبتين في عدة نسخ. إلى جانب ذلك فإن الكثير منها تتناول المجال الاقتصادي وخاصة الجانب التجاري بين البلدين إثر توقيع معاهدة الصلح بين البلدين سنة 1786. كما يحتوي رصيده على وثائق تتعلق بوجود الأسرى الجزائريين بأسبانيا، وقد تمكنت من العثور على قائمة لأسماء بعضهم كانوا مأسورين في مدينة قرطاخنة.

أما أرشيف وزارة الخارجية الأسبانية بمدريد الذي يحتوي في أغلبه على وثائق تتعلق بالقرن التاسع عشر والعشرين ، والقليل منها تخص القرن الثامن عشر. كما زرت المكتبة الوطنية بمدريد حيث استفدت من بعض المؤلفات ومقالات لكتاب أسبان تحدثوا عن جوانب مختلفة من العلاقات بين أسبانيا وبلاد المغرب العربي ومنها الجزائر. وقد استفدت من قسم المخطوطات بالمكتبة

المذكورة على بعض الرسائل التي بعثها دايات الجزائر إلى الملوك الأسبان التي كانت تتعلق في كثير من الأحيان بالأسرى .

2 ـ المصادر المحلية العربية والأسبانية المترجمة إلى اللغة الفرنسية :

أما بالنسبة للمصادر المحلية فهي على قلتها فإنها تعبر عن الحالة التي عانت منها البلاد من الاحتلال الأسباني لبعض المناطق الساحلية الجزائرية . نذكر منها:

كتاب **"غزوات عروج وخير الدين" لمجهول** وفيه تحدث عن قدوم عروج وخير الدين إلى الجزائر ، ثم تعرض إلى مختلف الحملات الأسبانية على الجزائر.

مخطوط المحكمة فقد ركز حديثه عن حملة شارلكان على الجزائر في سنة 1541. وكتاب **"عنوان الأخبار فيما مر على بجاية"** لصاحبه **إبراهيم المريني** الذي عاصر عهد الاحتلال الأسباني لهذه المدينة .

وكتاب **"الزهرة النيرة" محمد ابن رقية التلمساني** الذي أرخ لتسع حملات عسكرية على الجزائر، كان معاصرا ومشاركا لحملة عام 1775 .

وكتاب **"الأخبار المبيتة لاستيلاء الترك على قسنطينة"** ، الذي كان صاحبه أحمد العنتري معاصرا كذلك للحملة السابقة الذكر.

مخطوط **" تاريخ مجيء الصبنيول إلى الجزائر"** لأحداث حملتي بارثيلو سنة 1783، 1784 حيث كان معاصرا لهما.

وكتاب **"الثغر الجماني" لابن سحنون الراشدي** الذي كان مرافقا لجيش فتح وهران سنة 1791 . وكتاب **"الرحلة القمرية" لابن زرفة** . الذي نشره الدكتور حساني مختار مع كتاب فتح وهران للجامعي .

وكتاب **"بهجة الناظر" لعبد القادر المشرفي** الذي تناول قضية القبائل العربية التي تعاونت مع الأسبان .

وكتاب **"التحفة المرضية"** لابن ميمون. ومما يلاحظ عن المؤلفات المحلية فإن بعضها تتناول قضية محددة ، وخاصة الجانب السياسي والمتمثل على الخصوص في العدوان الأسباني. وأن العديد منها لا تشمل جوانب مختلفة من الحياة السائدة في الجزائر خلال الفترة المدروسة . وفي كثير من الأحيان تغفل عن التطرق إلى بعض القضايا التي تتعلق بالغزو الأسباني أو السياسة التي انتهجوها خلال بقائهم في المناطق التي تمكنوا من احتلالها.

أما المصادر الأسبانية المعربة أو المترجمة إلى الفرنسية فهي عديدة منها مثل الجندي **دييغو سواريز (Diego suarez Montanes)** الذي عاش بين القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وكتابات **دييغو دي هايدو (Haedo** Diego de) والمتمثلة في **"تاريخ ملوك الجزائر" و"طبوغرافيا والتاريخ العام لمدينة الجزائر"** . وكان قد زار الجزائر في بداية القرن السادس وترك وصفا لكثير من الأوضاع في العديد من المناطق تعكس الوضع السائد في بداية الوجود الأسباني في بعض السواحل الجزائرية .

دراسة **ساندوفال** (**Sandoval, C.X.**) المتعلقة بوهران والمرسى الكبير.

ومارمول كاربخال (Marmol Carvajal) صاحب كتاب **' "إفريقيا" '** الذي تناول أحداث الوجود الأسباني بالجزائر في بدايته .

وهناك عدة دراسات كتبها قادة أسبان عاشوا في وهران خلال الاحتلال، سلطت الضوء على بعض المظاهر التي كانت تمر بها المنطقة الغربية من الجزائر في ظل الوجود الأسباني بوهران والمرسى الكبير نذكر منهم :

خوزي باليخو (**José Vallejo**) الذي كتب دراسة عنوانها : **Contribution a l'histoire du vieil d'Oran** .

بالتزار دي موراليس (Baltazar de Morales) دراسة حروب وهران صدرت في سنة 1595 سماها : **Dialogues sur les guerres d'Oran**.

أما **الدون هونتابات (Don Hontabat**) فله عمل عن وهران والمرسى الكبير عنوانه : **Relacion general de la consistencia de plazas de Oran y Mazalquibir**

3 - الوثائق المنشورة :

أذكر منها :الوثائق التي نشرها **بريمودي** (**Elie de la Primaudaie**) من أرشيف سيمانكاس بعنوان : **Documents inédites sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique 1506-1574** التي تناولت كثيرا من الأحداث التي تعرضت لها المدن الساحلية الجزائرية للاحتلال الأسباني .

كتاب **شاريير (Charrière**) صاحب كتاب: **Négociations de la France dans le Levant** الذي يحتوي على كثير من المراسلات والمعاهدات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية والسفراء الأجانب ومنهم الأسبان وانعكاس هذه العلاقات مع الجزائر.

يوجين بلانتي (**Eugène Plantet)** الذي عنوانه **Correspondance des Deys d'Alger avec la cour de France.** فإنه يشير في كثير من الأحيان إلى جوانب من العلاقات بين الجزائر وأسبانيا في تلك المراسلات .

إدوارد كات (**Edouard Cat**) كتابا بعنوان : **Mission Bibliographique en Espagne** ، يحتوي على الكثير من الوثائق والرسائل التي تتعلق بالصراع الجزائري الأسباني .

ومن المؤرخين الجزائريين الذين نشروا العديد من الوثائق والرسائل الأجنبية والمحلية، **الدكتور جمال قنان** الذي وضع كتابا عنوانه **" نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر 1500-1830"**

والدكتور المرحوم يحيى بوعزيز صاحب كتاب " المراسلات الجزائرية الأسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد(1780-1798)". إلى جانب ذلك فقد استفدت كثيرا من وثائق منشورة في الكتب العامة والمتخصصة التي تناولت جوانب مختلفة من العلاقات بين الجزائر وأسبانيا .

4 ـ المؤلفات المتخصصة والعامة والمقالات فهي عديدة . سواء منها الأجنبية أو المحلية ، فقد تناولت جوانب مختلفة من العلاقات بين الجزائر وأسبانيا ، وهي كثيرة يطول المقام لذكرها في هذا العرض ، فهي واردة في قامة البيبليوغرافيا. غير أن ما يمكن ملاحظته عنها أن بعضها يتناول بالدراسة لطبيعة البلاد الجزائرية خلال الفترة العثمانية ، وأن بعضها يدرس فترة معينة، أو تركيز الدراسة على مدينة معينة أو إقليم .

الـبـاب الأول

الغزو الأسباني للسواحل الجزائرية

مقدمة الباب :

الفصل الأول : دوافع الغزو الأسباني للسواحل الجزائرية

الفصل الثاني : المواقع التي شملها الغزو الأسباني في الأراضي الجزائرية

الفصل الثالث : أسباب فشلهم في التوغل إلى المناطق الداخلية

خاتمة الباب :

الباب الأول

الغزو الأسباني للسواحل الجزائرية

مقدمة الباب:

إن معالجة موضوع الآثار المنجرة عن الهجمات الأسبانية ، واحتلال الإسبان لبعض المدن الساحلية الجزائرية يستدعي تسليط الضوء على جملة من المواضيع ، التي تتعلق بتلك الهجمات ، وهي دوافع الهجمة الأسبانية على سواحل الجزائر التي كانت تعتمد على أسباب دينية سياسية واقتصادية وغيرها .
ثم أهم المناطق الساحلية الجزائرية التي تعرضت إلى الاحتلال ، سواء كان ذلك بواسطة الاحتلال العسكري الذي استعملت فيه أسبانيا جنودها من أسبانيا أو من مناطق أوربية أخرى كانت موالية لها . أو بواسطة فرض معاهدات الولاء على زعماء بعض المدن الذين كانوا منشقين عن السلطات القائمة في البلاد . وهذا ما جعل أسبانيا تستفيد من هذا الولاء خاصة ما يتعلق بالجزية والمواد الزراعية الحيوانية التي كانت تدفع لهم من قبل هذه السلطات المحلية الضعيفة .

أما المحور الثالث فهو العوامل التي حالت دون تمكن الأسبان من التوغل إلى المناطق الداخلية من البلاد ، وبقاء نشاطهم فقط في المناطق الساحلية. وقد رصدت في هذا الشأن مجموعة من الأسباب بعضها يعود إلى طبيعة البلاد الطبيعة والبشرية . فرغم اتباعهم لسياسة تجسس منظمة أشرف عليها رجال سياسة ودين أسبان فإنهم لم يتمكنوا من بسط نفوذهم نحو الداخل . ذلك يعود على عوامل تتعلق بطبيعة التحول الذي عرفته الجزائر في بداية القرن السادس بتشكيل سلطة جديدة اتخذت من مدينة الجزائر عاصمة لها ، ثم ارتبطت مع الدولة العثمانية التي ساندتها عسكريا في رد العدوان الأسباني . وهناك عوامل تتعلق بأسبانيا التي كانت مشغولة بما كان يجري في داخل أسبانيا من اضطرابات في بعض الأوقات ، وكذلك ما كانت تعرفه أوربا آنذاك من أحداث ، ثورات الإصلاح الديني . إلى جانب هذا كانت أسبانيا مشغولة بالتوسع في القارة الأمريكية، وتشكيل مستعمراتها في العالم الجديد ، خاصة بعدما اكتشف أنها تحتوي على ثروات طبيعية هامة منها على الخصوص معدن الفضة .

الفصل الأول

دوافع الغزو الأسباني للسواحل الجزائرية

إن موضوع الدراسة يستدعي التطرق إلى أسباب الاحتلال الأسباني لسواحل المغرب الأوسط ، فعلى الرغم من أن كثيرا من الكتاب قد تعرضوا إلى دوافع ذلك التحرش ، فإن عملنا هذا هو الآخر لا يستغني عن تناول هذا الموضوع ، الذي

سيكون بنظرة تحليلية نقدية لبعض الآراء فيما ذهب إليه بعض الكتاب الغربي ين على الخصوص.

في حقيقة الأمر أن المرء ، يبقى يتساءل عن تلك الهجمة التي تعرضت لها السواحل الجزائرية بصفة خاصة ، والسواحل المغربية الإسلامية بصفة عامة ، التي تزعمتها على الخصوص الدولتان الأيبيريتان أسبانيا والبرتغال ، لاشك وأنه كانت لهاتين الدولتين أهدافا تودان بلوغها . فهناك من الكتاب الغربيين من ركز على أن تلك الحملات كانت أعمالا انتقامية من البحارة المغاربة الذين كانوا يهاجمون السواحل الأوربية ، والأندلسية منها على الخصوص . وهناك من جعلها تكتسي طابعا دينيا صليبيا، وهو ما تضعه في هذه الزاوية الكثير من الكتابات الإسلامية ، وقليل من هؤلاء وأولئك من أرجعها إلى دوافع أخرى .

فمن خلال مطالعاتي للأحداث التي وقعت بين الجزائر وأسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، تمكنت من الوقوف ع لى جملة من العوامل ، كانت وراء تلك الحملات ، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . تتمحور حول أسباب دينية واقتصادية واستراتيجية وعسكرية ، إلى جانب طبيعة بعض الشخصيات السياسية والدينية في أسبانيا التي كانت تنزع إلى سياسة الغزو، وأعمال القرصنة أو غيرها ، هذا ما سنبينه فيما يلي :

1 . الدافع الديني :

لا شك أن هذه الهجمة تندرج ضمن الطموح المسيحي ؛ والحقد الصليبي الدفين ، الذي ظل حيّا في نفوس الكثير من رجال السلطة الدينية والدنيوية ، منذ الحروب الصليبية في المشرق ، لينتقل إلى بلاد المغرب ؛ انطلاقا من إسبانيا ، وقد ركز كل مؤرخي الكاردينال خيمسنيس على الأسباب الدينية للمشاريع الأسبانية في بسط نفوذها على السواحل الإفريقية المقابلة لها [(1)]. فلأصبحت أسبانيا تعتبر نفسها تمثل العالم المسيحي بعد ما تمكنت من القضاء على الوجود الإسلامي في شبه جزيرة أيبيريا ، وإثر ذلك أخذت تنشط في هذا السبيل لبسط نفوذها ، والتوسع على حساب الممالك المغربية .

فكان للتعصب الديني ، والرغبة في وقف المد الإسلامي في القارة الأوربية، منذ أواخر القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر ، دفعت الأسبان إلى الزحف إلى البلاد الإسلامية في شمال إفريقيا . فلم يكن للأسبان طموح آخر سوى

نقل الحرب ـ التي كانت تجري على أراضيهم لعدة سنوات ـ إلى بلاد الممالك المغربية ، والسعي من وراء ذلك إلى الحصول بقوة السلاح على هذه البلاد ، وفي نفس الوقت تصبح تحت سلطة المسيح [2]. وحسب أحد الكتاب الغربيين فإن << الكاردينال خيمينيس يستحق بأنه كان مشهورا بفكرة العمل وفق منهج اقتلاع إفريقيا الشمالية من البربرية الإسلامية ، من أجل نصرة المسيحية والحضارة >> [3].

وكانت البابوية مهتمة في هذه الأثناء بالشؤون الإيطالية ، في عهد كل من البابا السكندر السادس (Alexandre VI Borgia) (1492-1503)[4]، وبولس الثاني (Jules II) (1503-1513) أكثر في توجيه الاهتمام للأحداث القائمة في الشمال الإفريقي. ولكن رغم ذلك فقد صدر في سنتي 1493 و1494 أمران بابويين في عهد البابا الكسندر السادس ، تتعلق بالحرب الصليبية الإفريقية المباركة ، ومنحها عبارات الطموح ، كان من بينها الأمر البابوي الصادر في سنة 1494 ، الذي بارك فيه الحرب الصليبية بإفريقيا ، وطلب من جميع المسيحيين أن يدفعوا ضريبة "الكروزاد" (Crusada)[5] لصالح الملوك الكاثوليك الأسبان.

ولم يقف نشاط الأسبان في تدعيم الخدمات القائمة ضد المسلمين ، حيث اتجه زعماؤهم إلى العمل على توفير مصادر تمويلها ، ولهذا الغرض اجتهدوا في تحصيل الجباية المقترنة بالبابوية ، إذ بعد موافقة هذه الهيئة المسيحية في روما ، شرعوا في تحصيل هذه الضريبة . وكان الزعماء الأسبان يعملون على القيام بوظائفهم كملوك كاثوليك حيث أن كل مراسلاتهم المتعلقة بالشؤون الإفريقية تشير بشكل واضح إلى الطابع الديني لسياستهم. فقد ردد فيرديناند الكاثوليكي في عدة مرات بأنه يكافح<<من أجل خدمة الإله ونتصرف بحمية في اتجاه ديننا المقدس ، وأنه يهاجم أعداء العقيدة الكاثوليكية المقدسة >> [6]. ولهذا الغرض جند الملوك الكاثوليك عددا من الجواسيس ، فقد تردد على سواحل المغرب الأقصى كل من لورينثو دي ثافرا (Lorenzo de Zafra) وليثكانو (Lezcano)[7]، وتغلغل في مملكة تلمسان لورينثو دي باديا(Lorenzo de Padilla)[8].

ومنذ منتصف القرن الخامس عشر بدأ العثمانيون فتوحاتهم في أوربا الشرقية، فسيطروا على القسطنطينية سنة 1453 ، لم تتلق بيزنطة من الكنيسة الكاثوليكية في روما أي دعم ، فقد اشترط البابا نيكولاس الخامس لقاء تأييده لها اتحاد الكنيستين [9]. ولما انطلق العثمانيون في فتح بلاد البلقان، وإلى مناطق أخرى من القارة الأوربية . كان لهذا الفتح العثماني ردة فعل من طرف الكنيسـة

المسيحية ومن طرف البابوية . حيث سعى البابا بيوس الثاني (Pie II) إلى تحريض الأمم المسيحية على محاربة المسلمين حربا دينية ، كما فعل العديد من البابوات الذين جاءوا من بعده[10]. وحضيت دولتا أسبانيا والبرتغال بتأييد خاص من الكنسية من أجل تشديد الوطأة على المسلمين في الغرب الإسلامي، وأقرب البلاد إلى أوربا في شمال إفريقيا [11].

فعلى سبيل المثال فإن العثماني ين فتحوا القسطنطينية سنة 1453 ، وكان الهجوم البرتغالي على مدينة القصر الصغير في شمال المغرب في سنة 1458. وبعدها وقع احتلال طنجة سنة 1471 ، ثم احتلت بعدها مدن أخرى . فكان للفتح الإسلامي لعاصمة الدولة البيزنطية المسيحية في الوقت الذي كان الإسلام ينتشر بالقوة في أوربا الشرقية ردة فعل سريع من قبل المسيحيين، وتجلى ذلك في الغزو البرتغالي للشواطئ المغربية. ثم توالت العمليات العسكرية التي قام بها الأسبان ، إذ كان البابا خلال هذه الفترة يخطط للتوسع البرتغالي الأسباني . وذلك بالإشراف على تقسيم مناطق نفوذ البلدين ، باعتبار مدينة سبتة هي الحد الفاصل بينهما ، تجعل ما هو شرق هذه المدينة للأسبان ، وما هو غربـها للبرتغال .

ولم يتأخر الأسبان في القيام بتنفيذ المخطط إذ انطلقوا بعد احتلال مليلية سنة 1497 ، نحو المرسى الكبير ووهران وبجاية ، وغيرها من المدن الساحلية حتى وصلوا إلى طرابلس . هذه الانطلاقة بتوز لنا بدء الاهتمام الاستعماري نحو هذه الجهة من العالم الإسلامي ، بناء على دوافع دينية [12] .

وقد أحدث سقوط القسطنطينية في يد المسلمين أثرا كبيرا في نفوس المسيحيين عموما وكبار رجال الدين على الخصوص . في هذا السياق كان رجل الدين الأسباني خيمينيس ، الذي يعد رجلا صليبيا بارزا ، حيث غضب غضبا شديدا إثر سقوط عاصمة البيزنطيين . ولهذا فإن شدة إيمانه الكاثوليكي دفعه إلى مواصلة الحرب الصليبية ابتداء من تطهير الوجود الإسلامي في الأندلس ، ونقل الحرب إلى شمال إفريقيا[13] .

فمنذ تولي هذا الرجل وظيفة مطران سنة 1495 ، أصبح يحلم بإظهار نواياه التي كان عليه القيام بها ضد الأندلسيين ، فمنذ شبابه بدا متحمسا للقيام بالمهمة بنفسه . فقد أتيحت له فرص التعرف على الأندلسيين ، الذين كانوا يعدون في نظر المسيحيين كفارا. فإثر سقوط غرناطة مباشرة قام الملكان الكاثوكيليان بوضعه بين يدي الكونت تينديا(Tendilla) ، الذي كان يتولى حكم مدينة غرناطة. ولما كان الأندلسيون لا يزالون يحتفظون بديانتهم الإسلامية ، فإن الملكين كانا يثقان في هذا الرجل المتدين لحملهم على التحول إلى النصرانية. وقد تولى هذا الحبر بمهمة

تحويل المسلمين إلى العقيدة الكاثوليكية سواء بالرضا أو القوة . ويذكر عنه أنه رأي في أحلامه إمكانية نقل الإنجيل إلى ما وراء الحدود الأسبانية ، عندما يصبح مبعوثا للملكة إيزابيلا في هذه المهمة [14].

2 . الدافع الاقتصادي :

لقد تعرضت أسبانيا إلى انهيار اقتصادي رهيب بعد طرد المسلمين واليهود من أراضيها ، الذين كانوا يشكلون العمود الفقري لاقتصاد بلاد الأندلس ، وبذهابهم تعطل الإنتاج وغابت وسائل التصنيع ، فتوجه زعماء هذا البلد إلى اكتساح بلاد المغرب ، وعلى وجه الخصوص المغرب الأوسط ، كإجراء وقائي وسلوك يراد منه الرغبة في وضع حد لهذه الأزمة الخانقة ، وذلك عن طريق الاستفادة من موارده المتنوعة التي لاتنضب [15].

فقد سبق للبرتغاليين أن احتلوا سبتة ، في تاريخ مبكر سنة (1415) ، وذلك بقصد وضع أيديهم على مضيق جبل طارق ، لأن التجارة البرتغالية في البحر المتوسط بعد أن كانت تأتي من موانئه الشرقية ، أصبحت تصل من موانئ فرنسا الجنوبية مثل مرسيليا ، وبرشلونة ، حيث أصبحت السفن التجارية تعبر هذا المضيق لتصل إلى مدينة لشبونة قبل أن تصبح عاصمة للبرتغال [16].

ومما لا شك فيه أن المغرب الإسلامي كان يتوفر على خيرات لم تكن موجودة في أية دولة في أوربا حتى عصر الكشوفات الجغرافية ، وكان التجار الأوربيون يجوبون كثيرا أراضي بلاد المغرب ، وخاصة منها المدن الساحلية مثل مراكش وآسفي وهران وتونس، وغيرها من المدن الأخرى . وكان لهؤلاء التجار اهتمامات كبيرة بالوضع الإقتصادي الداخلي ، فأخذوا يدرسونه بعناية ودقة ويكتبون التقارير ثم يرسلونها إلى حكوماتهم . وكان بعضهم يرغب الملوك في ذلك الوقت باحتلال أطراف من هذه البلاد [17].

حتى نهاية القرن الخامس عشر ظل النشاط التجاري للبندقية وفلورنسا وجنوة مستمرة ومزدهرة في مملكة تلمسان ، فقد كانت السفن (Galères) البندقية تنتقل من ليدو(Lido)[18]. في النصف الثاني من شهر جويلية بعد توقفها في موانئ سيراكوزي (Syracuse)[19] لمدة يومين ، وفي طرابلس 8أيام، جربة 8أيام ، تونس 8 أيام ، بجاية 4 أيام ، الجزائر 4 أيام، وهران أو حجر باديس Velez de (Gomara) 10 أيام ، وتنتهي الرحلة عند هنين ، حيث كانت الميناء الرئيسي لمملكة تلمسان[20] .

هذا ما يثبت أنه مع بداية حملة خيمينيس ، كان التجار المسيحيون يقيمون في تلمسان وفي كل المملكة ، وكان لهم وجود ا معتبرا باستثناء الأسبان الذين كانوا في حالة حرب مستمرة .

وهناك جانب اقتصادي آخر يستدعى تأمينه من خطر البحارة المسلين الذين كانوا يجوبون أطراف البحر المتوسط . فمن وراء تلك الحملات ، كان الأسبان يهدفون إلى حماية طرق مواصلاتهم مع جزيرة صقلية ، التي كانت تزودهم بالحبوب [21] .

3 ـ الدافع الاستراتيجي العسكري :

كان البحر المتوسط وما يزال إلى يومنا هذا يتمتع بموقع استراتيجي هام بالنسبة للقارات الثلاث التي تحيط به ، إلى جانب انفتاحه على المحيط الأطلسي في جهته الغربية. وكانت الدول المطلة عليه تسعى على الدوام للتفوز بمكانة متميزة تجعلها تنفرد بفرض هيمنتها عليه ، أو على الأقل أن يكون لها نصيب في السيطرة على خطوط ملاحة السفن فيه ، أو احتلال المواقع البرية الرئيسية المطلة عليه [22].

ومن هذه الزاوية سعى الملوك الأسبان إلى احتلال المغرب الأوسط وكذلك بقية بلاد المغرب الأخرى الواقعة على الضفة الجنوبية لهذا البحر ، حتى تتمكن من فرض هيمنتها على جزئه الغربي ، والتحكم في مدخله المتصل بالمحيط الأطلسي عبر مضيق جبل طارق ، الذي بدأ الإبحار فيه نحو العالم الجديد ضرورة اقتصادية تستدعي الهيمنة عليه . فقد اكتشف الأسبان في هذه الفترة ، سنة 1492 العالم الجديد ، وبعد ذلك بخمس سنوات (1597) تبعهم البرتغاليون فاكتشفوا رأس الرجاء الصالح . وهذا ما وجه أنظار الأوربيين وبصفة خاصة دولتي شبه جزيرة إيبيريا . حيث قامت هاتان الدولتان باكتشاف الطرق البحرية المؤدية إلى أمريكا ، وإلى الهند والصين المشهورتان بإنتاج التوابل والحرير. ومادامت بلاد المغرب لها واجهتان ، الأولى على البحر المتوسط والثانية على المحيط الأطلسي. وقد لعبت هاتان الواجهتان دورا رئيسيا في اتجاه الأسبان نحو أمريكا ، وانطلاق البرتغاليين نحو رأس الرجاء الصالح للطواف حول إفريقيا نحو قارة آسيا[23]. وهذا ما دفع الأسبان والبرتغال إلى احتلال المدن الساحلية الرئيسة ، لاتخاذها قواعد بحرية تستفيد منها سفنهم في الإبحار للوصول إلى أهدافها.

لقد كانت لأسبانيا طموحات توسعية ، وتشكيل إمبراطورية تهيمن على أوربا وكذلك على العالم الجديد ، ومن أجل تحقيق هذا المسعى وجهت أسبانيا أنظارها إلى الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط لكي تستكمل دائرة توسعها[24].

لقد جاءت الحملات الأسبانية ضد سواحل إفريقيا الشمالية تاريخيا بعد سقوط غرناطة مباشرة ، فهل يمكن اعتبارها نتيجة مباشرة لذلك ؟ حقيقة فإنه من أولى نتائج انتصار الأسبان في إسقاط مملكة غرناطة سنة 1492 ، هو جعل الدولة المسيحية الجديدة (أسبانيا) على اتصال مباشر مع شمال إفريقيا . حيث أصبح مضيق جبل طارق يعد الحد الجنوبي لأسبانيا . وهو خط حدودي غير فاصل بين العالم المسيحي في شبه جزيرة أيبيريا ، والعالم الإسلامي في شمال إفريقيا . ففي الحوض الغربي للبحر المتوسط تقع السواحل الأسبانية والسواحل المغربية قريبة من بعضها البعض. هذا القرب أصبح يعد بؤرة توتر بين الطرفين ، إذ يعد المسطح المائي الذي يفصل بينهما بمثابة القنال يسهل قطعه ، ولا يمكن اعتباره حاجزا ، فلقد كانت تقطعه يوميا القوارب الصغيرة بين حجر باديس (Valez de Gomera) ومالقة[25] . دون الخشية من الزوابع البحرية ، ولا تستغرق الرحلة أكثر من يوم لقطع المسافة الفاصلة بين بلنسية والسواحل الوهرانية .

ففي سنة 1492 لم يحز الملوك الكاثوليك على المناطق الغنية من غرناطة (La riche Vega) فقط ، ولكنهم استولوا كذلك على السواحل الجنوبية للأندلس مع كل الموانئ الهامة ، الصالحة للاستطلاع . ولم يكن طبيعيا التفكير في مواصلة القتال في الأراضي الإفريقية ، ضد الأعداء الذين وقعوا في نزاع متواصل مع تجار جبل طارق أو مع صيادي سمك التونة من ألمرية [26]. وفي سياق آخر فإن انتصار غرناطة قد دفع الأسبان إلى الخوض في حرب طويلة ضد الأندلسيين ، هذه الحرب التي امتصت كثيرا من مقدرات البلاد .

فإذا كان غزو شمال إفريقيا بعد نهاية هذه الحرب الطويلة من أجل التحرير، التي شرع فيها الملك(Pélage) [27] . منذ 800 سنة في جبال (Asturies) . أو الأجدر فإنها تمثل في الوقت الذي تعتبر فيه المسيحية أنه قد حان للتحول من النظام الدفاعي إلى العمل الهجومي ، وذلك بنقل الحرب بعد سقوط غرناطة إلى داخل أراضي مملكة تلمسان، التي كانت منذ قرون تعد طرفا في تقديم العون للأندلسيين ومصدر التحريضات. ولهذا فإنه من الضروري العمل على ملاحقتهم إلى سواحلهم [28].

4 ـ الرغبة في فرض السيادة على البحر:

إن قضية المواجهة بين المسلمين والمسيحيين في البحر المتوسط قديمة ، ومن دون شك تعود جذورها إلى أعقاب الحروب الصليبية . حيث يؤكد ابن خلدون ذلك في قوله : << كانت أمة الفرنج وراء البحر الرومي في الشمال قد صار لهم تغلب ودولة بعد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره وسردانية وميورقة وصقلية وملأت أساطيلهم فضاءه ثم تخطوا إلى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها وعادت لهم سورة التغلب في هذا البحر بعد أن كانت سورة المسلمين فيه لا تقاوم إلى آخر دولة الموحدين بكثرة أساطيله ومراكبه >>[29] .

وقد أصبحت هذه المواجهة تدعى في القرن الخامس عشر بعبارة القرصنة، وقد ازدادت شدتها منذ امتداد النفوذ العثماني في البحر المتوسط . علما بأن كلمة قرصنة دخيلة على اللغة العربية ، إذ لا تحتوي هذه اللغة على مرادف لها ، وإنما أدخلت في القرن الخامس عشر إلى العربية من عبارة كورسة(Corsa) الإيطالية، ومعناها الجري [30] . وكان النشاط البحري في بلاد المغرب الأوسط نابعا من الدفاع عن المدن الإسلامية ، انطلاقا من بجاية ووهران ، ضد الخطر الأسباني ، وبالتالي الحصول على الغنائم . كما كان لذلك النشاط البحري الإسلامي نابعا من ضرورة مساعدة إخوانهم الأندلسيين ونقلهم إلى أراضيهم ، وقد اشتهر بهذا العمل الأخوان عروج وخير الدين ، الذين لجآ إلى جيجل ، بعد طرد الجنويين منها ، والتحق بهما أكثر من 20 ألف من السكان المحليين وقدموا لهم خدماتهم [31]. ولما أصبحا يحظيان بالعناية العثمانية ، أخذت أسبانيا تنظم هجماتها على السواحل المغربية ، مما أدى إلى صدام مباشر بين الجزائر وأسبانيا طوال ثلاثة قرون.

إلى جانب ما ذكرناه سابقا ؛ كانت الحرب البحرية بين الأسبان والمسلمين الأندلسيين أمرا واقعا بين الجانبين ، مما أفضى إلى عنف معادل للقرصنة أو النخاسة . وأن سقوط غرناطة قد زاد من نشاط هذه الظاهرة ، فكانت السواحل الأسبانية حول مضيق جبل طارق، هدفا لبحارة هنين وهران ، لمساندة إخوانهم وهذا ما جعل الكتاب الغربيون يعتبرونها << أعمال القرصنة تزداد خطورة>>[32].

وقد صاحب هذه الظاهرة اكتشاف أمريكا ، مما جعل الحركة البحرية بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسط تكون أكثر نشاطا . وكان الأسبان يرون أن مضيق جبل طارق يجب أن يكون آمنا ، وإلا فإنهم سيخسرون ما كانوا يودون الحصول عليه من تنامي إمبراطوريتهم في العالم الجديد . ونسجل من جهة أخرى أن المدينتين الإيطاليتين جنوة والبندقية كانتا تتنافسان حتى ذلك الحين على التجارة مع إفريقيا الشمالية ، وكانتا على اتصال بهذه المنطقة لما كان لديهما من تجار

مغمورين. وقد سعى الأسبان إلى انتزاع هذا السوق منهما ، من أجل جعل البحر المتوسط من تونس إلى رأس فالكون بحيرة أسبانية ، والاحتفاظ بالأمن في هذا الجزء من إفريقيا وجعله خاص بالمسيحيين ، وتحطيم المحطات الرئيسية التي كانوا يعتبرونها وكرا للقرصنة ، وتحرير ما كان بها من الأسرى، حيث كانوا يعتقدون أن أعدادهم كبيرة [33] .

5 ـ تنافس أسبانيا مع البرتغال :

ظهر البلدان أسبانيا والبرتغال ضمن مرحلة التغير الذي شهدته القارة الأوربية ببروز الكيانات السياسية و الدول القومية الحديثة في أوربا ، ورغبتهما في التوسّع، وتحقيق الأمـجاد خارج القارة العتيقة . سواء بالتوجّه نحو المناطق المجهولة ، الذي أدّى إلى اكتشاف ـ ما سمّي ـ بالعالم الجديد (قارة أمريكا) ، أو نحو العالم القديم والمتمثل في قارتي إفريقيا وآسيا .

وكان لحركة الكشوفات الجغرافية التي استهلتها البرتغال ومعها أسبانيا قد أدت إلى دخول البلدين في صراع وتنافس في هذا المجال . ونتج عن هذه الحركة تغيير الطرق التجارية التقليدية ، وتراجع القوى التجارية التي كانت تهيمن على النشاط التجاري في البحر المتوسط ، والمتمثلة في المدن الإيطالية ، على رأسها مدينتا جنوة والبندقية . كما دفعت تلك الحركة ببعض الأمم الأوربية، وفي طليعتها البرتغال وأسبانيا ، إلى البحث عن مناطق نفوذ خارج القارة العتيقة ، فكانت سواحل إفريقيا الشمالية والغربية هدفا لطموح هذين البلدين [34].

وفي ظل هذا السباق البحري بين البلدين ، شاع أن ملك البرتغال يوحنا الثاني يجهز أسطولا لعبور الأطلنطي . استغاث فرديناند بالبابا ألكسندر السادس، وطلب منه أن يحدد حقوق أسبانيا في المحيط الأطلسي . فأصدر البابا ذي الأصل الأسباني، قرار في 4 ماي 1493 حدد فيه لأسبانيا ملكية كل الأراضي التي لا تدين بالمسيحية في الغرب، وللبرتغال كل الأراضي في الشرق ويفصل بينهما خط وهمي مرسوم بحيث يمر من الشمال إلى الجنوب على بعد 270 ميلا غرب الأزور وجزر الرأس الأخضر . ولكن البرتغاليين رفضوا قبول هذا الخط الفاصل وأوشكت الحرب أن تنشب بين الحكومتين المتنافستين . وخلال مؤتمر توردیسیاس اتفق الطرفان على وضع خط يفصل بين مناطق نفوذ البلدين ، يمتد طوله بحوالي 2000 كيلومتر . وقد نصت الاتفاقية التي أبرمت بين ملك البرتغال يوحـنا الثاني (Jean II) [35] ، والملك الأسباني فيرديناند الخامس (Fernando V) الكاثوليكي، في 7 جوان 1494 ، على أن كل المناطق الواقعة إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر تخص التاج القشتالي ، وكل البلاد الممتدة

إلى الشرق من هذه الجزر تكون من نصيب البرتغال . وقد عرفت هذه الاتفاقية في بعض الأحيان باتفاقية تقسيم العالم. وفي سنة 1509 حددت اتفاقية سينترا (Cintra) ، حجر باديس حدا فاصلا لمجال نشاط كل دولة، فأصبح مجال الأسبان يمتد إلى الشرق من باديس ، ومجال البرتغال إلى الغرب منه . ونتيجة لذلك تركز الغزو الأسباني في البحر المتوسط الذي وصل حتى طرابلس الغرب، وتركز الغزو البرتغالي في المغرب وسواحل الأطلسي[36].

6 - رغبة الأسبان في التوسع الاستعماري:

لقد اتجه الأسبان بعد سقوط غرناطة إلى سياسة توسعية تتعلق بانتهاج سياسة استعمارية في إفريقيا ، تنطلق أولا من المناطق الساحلية ، ثم التوغل فيما بعد إلى الجهات الداخلية . وقد تحدثت بعض الكتابات الأوربية في هذا السياق أن هدف الكاردينال خيمينيس ليس العزم على احتلال وهران كهدف نهائي ، ولكنها وسيلة للتوغل والانطلاق من أجل احتلال كل إفريقيا . إذ بعد ثلاثة أيام من احتلال وهران كتب الكاردينال خيمينيس لزعماء بلاده يدعوهم إلى إرسال المزيد من الأسبانيين . كما طلب من السلطات العسكرية البقاء ، والشروع في تنفيذ المخطط الاستعماري للأراضي الإفريقية . وفي هذا السياق ، أرسل الملك فيرديناند الكاثوليكي خطابا إلى بيدرو نافارو في شهر ماي من سنة 1510 يدعوه فيه ، أن عليه ألا يترك أحدا من سكان المدن التي يحتلها في شمال إفريقيا ، وذلك من أجل إعمارها مستقبلا بالمسيحيين فقط ، وإلا فإنه من المستحيل عليه الاحتفاظ بها لمدة طويلة [37]. لكن فيرديناند والذين تلوه من الملوك الأسبان لم يفلحوا في تطبيق هذه السياسة ، لأنهم لم يرضوا التخلي عن الدور الذي كانوا يمارسونه في إيطاليا وكذلك في ألمانيا محتفظين بكل قدراتهم المالية والعسكرية من أجل الحروب الأوربية [38].

لقد فكر خيمينيس أولا في حرب صليبية في أرض مقدسة ومن أجل تحقيق هذه الرغبة تفاوض من أجل تكوين تحالف يجمع الملوك ، فرديناند ملك أسبانيا ، ومانويل (Manuel) ملك البرتغال ، وهنري ملك إنكلترا . ووراء هذا الطموح التوسعي راحت الكتابات الغربية تنسب إلى الكاردينال المذكور أنه كان يحمل تجربة كبيرة في الميدان العسكري وفي ميدان البحرية ، والاختيار الحكيم للقادة الذين يتولون أمر المهمة ، كما كان لديه مخطط مدروس في شأن التحرك . كل هذا يثبت حسب هؤلاء الكتاب أنه كان منذ مدة طويلة يخفي هذه المسألة [39].

وبعد احتلال وهران ذكر (فيرنانديز دورو Fernandez Duru) في كتابه: (Historia de la armada espanola) إن القيام بالحرب ضد الأندلسيين في أسبانيا أصبح رغبة شعبية أكثر منها مطلبا من لدن الشخصيات ، حتي يتسنى لهم تقديم خدماتهم. لقد كان الناس في هذا العصر يودون الذهاب جماعيا إلى إفريقيا ، وذلك من أجل غزو كامل للبلاد . غير أن هذه الفكرة قد كبحت في تلك الأثناء في أعقاب معاهدة كامبري(Cambrai) [40] .

لقد دفع الحرص الشدّيد لهؤلاء الملوك على غزو السواحل الإفريقية ، إلى الإسراع لتنفيذ مخططهم ، ولكن موت الملكة إيزابيلا المفاجئ سنة 1504 ، قد أخّر تنفيذ العدوان إلى وقت لاحق ، وتحقيق وصية الملكة وأمنيتها المشهورة التي تقول : إنه << يجب علينا أن لا نتأخّر في غزو إفريقيا ، ولا نتوقّف في مقاتلة الأعداء >> [41] ، وكذلك من قبل البابا على الرغم من أنه كان الأول الذي بارك العملية . على أن جزء من القوات اجتمعت من أجل الذهاب إلى إيطاليا ، والأخرى تبقى في الموانئ الأسبانية بعدما تقرر بأن الملك لا يبرح شبه الجزيرة .

7 - الدافع الانتقامي :

إن أغلب الكتابات الأوربية تعتبر الحملات الأسبانية على السواحل المغربية، بمثابة رد فعل عن اعتداءات التجار المغاربة على السواحل الإسبانية ، وحصرها في هذا المجال ، لأن تلك السواحل - حسب رأيهم - كانت تستقبل سفنا محملة بالبضائع ، وهي قادمة من قارة أمريكا ، فتكون معرضة حسب رأيهم لخطر هؤلاء البحارة . وفي هذا السياق فإن سبب احتلال مدينة المرسى الكبير وهران حسب ما أوردته الوثائق الأسبانية، كان ردا على الحملات التي كانت تقوم بها السفن الإسلامية ضد السواحل الأسباينة من أجل تحرير المهاجرين الأندلسيين من الاضطهاد ، والذين تعرضوا له من قبل رجال الكنيسة بعد سقوط مدينة غرناطة عاصمة بني الأحمر . ولهذا فقد اعتبر "مونتانيس" أن الغزو الأسباني لبلدة المرسى الكبير سنة 1505 ؛ كان مسبوقا بعمليات بحرية قام بها سكان هذه البلدة ضد المدن الساحلية والجزر الإسبانية[42].

واكتفى البعض الآخر بذكر تبرير "مونتانيس" ؛ دون اللجوء إلى البحث عن الأسباب الحقيقية للعدوان ، فقد أورد أحدهم أن نشاط هؤلاء البحارة المسلمين قد <<أدى بالملك فرديناند إلى تحطيم وكر القراصنة >>[43]. وأكد كاتب آخر السبب ذاته في سياق حديثه عن احتلال بجاية فقد ذكر: << إن السبب الرئيسي للعملية هو أن المنطقة محصنة، وتقع في منحدر جبل ، في وسط منطقة غير مستوية

يصعب اختراقها . لقد كانت بموانئها الكثيرة وكرا لعدد كبير من القراصنة >>[44].

ولا يخفى على أحد أن المسلمين الأندلسيين قد تعرضوا إلى الاضطهاد من قبل رجال الكنيسة الأسبانية الذين كان لهم تأثيرا كبيرا على البلاد الأسبانية منذ فترة حكم فرديناند الكاثوليكي وإيزابيلا ، لذا لا يمكن للباحث أن يستغرب عندما يرى بأن تمويل الكنيسة ، وتولي القيادة خيمينيس الذي يعتبر الموجه للحركة المعادية للمسلمين في الأندلس والمغرب الإسلامي[45].

لاشك أن تردد المسلمين على سواحل بلاد الأندلس ؛ كان بهدف التخفيف عن إخوانهم الذين كانوا لا يزالون يعانون من مختلف أصناف التضييق ، بعد سقوط مملكة غرناطة ، وذلك بنقل ما استطاعوا من بني دينهم إلى بر الأمان في الشمال الإفريقي . كما أنهم كانوا في بعض الأحيان يقومون بذلك النشاط والهجوم على السواحل والسفن الإسبانية ؛ كإجراء انتقامي من الأعمال العدوانية التي كانت تقوم بها السفن الإسبانية على سواحلهم . فقد قامت بعض السفن من مدينة مالقة (Malaga) بعدوان على بلدة زيزلي (Zezil)[46] ، ونهبت الكثير من البضائع، وأخذ عددا من الأسرى ، فكان رد فعل سكان هذه المنطقة سريعا ، حيث لاحقوا السفن المعتدية حتى وصلوا إلى مدينة مالقة ، وقاموا بحرق السفن التجارية المسيحية التي كانت راسية هناك ، وألحقوا بها خسائر كبيرة [47] . أضف إلى ذلك ؛ فإن الأحداث التي عرفتها المملكة الإسبانية منذ قضائها على مملكة غرناطة كان طموحها يتجاوز تدجين مسلمي الأندلس ، بل بلغ بهم الأمر إلى تعقب الذين فروا بأرواحهم وبدينهم إلى البلاد الإسلامية في جنوب البحر المتوسط ؛ والانتقام من الذين أنجدوهم وآووهم ، بدعوى خشيتهم من هؤلاء الفارين أن يستجمعوا قواتهم ، بالتعاون مع أهالي شمال إفريقيا ؛ فتتعرض أراضيهم إلى الغارات. ولهذا الغرض جنّد الملوك الكاثوليك إمكانياتهم المادية والبشرية بالتعاون مع رجال الدين ؛ وعلى رأسهم الكاردينال خيمينيس . وبذلوا قصارى جهدهم لنقل حربهم ضد المسلمين من بلاد الأندلس إلى شمال إفريقيا عامة والجزائر خاصة .

وكان حرص الأسبان على احتلال السواحل الإفريقية ؛ نابع من رغبتهم في القضاء على النشاط البحري للمسلمين ومحاصرتهم ، ولا شك أن ذلك كان يندرج ضمن الفكرة التي صرّح بها الملاّح البرتغالي فاسكو دي غاما ' (Vasco de Gama) ، عندما وصل إلى رأس الرجاء الصالح عندما قال : << الآن قد طوّقنا العالم الإسلامي ، وما علينا إلاّ أن نشدّ الخيط ليختنق>>[48].

8 ـ ظروف داخلية بالمغرب الأوسط ساعدت على الغزو :

وكانت الأوضاع السائدة في المغرب الأوسط قد ساعدت الغزو الأسباني وتتمثل فيما يلي :

ـ **التفكك الداخلي** : وتتمثل في مختلف المظاهر التي كانت سائدة في المغرب الأوسط ، قد شجعت الأسبان على القيام بتلك الحركة . فقد كانت تتميز البلاد بالتفكك والتجزؤ إلى وحدات سياسية صغيرة متنافسة ، تسود بينها الخصومات ، وهذا ما جعلها عرضة لتلك الحملات ، وساعد حالها على وقوع الغزو الأسباني . إلى جانب ذلك كانت الصراعات الداخلية قائمة في كل إقليم بين الأمراء من أجل الحكم .

فكان حال الانقسام السياسي قد ظهر بشكل واضح ، فقد أصبحت القبائل والأمراء وزعماء الطرق الدينية يتمتعون بالاستقلالية ، كما كانت بعض المدن والقرى تشكل وحدات دول مستقلة ، وخاصة الساحلية منها ، مثل وهران وتنس وشرشال والجزائر ودلس وبجاية وجيجل والقل . وتأسست ببعض المناطق الجبلية إمارات . فمثلا كانت مدينة وهران قبل الاحتلال الأسباني خارج سلطة تلمسان ، تبدو وكأنها جمهورية مستقلة . وتمتعت بجاية من جهتها بالثراء في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر نتيجة للعوائد التجارية التي كانت تربطها مع المدن الإيطالية ، وكذلك من عوائد نشاطها البحري [49]. فكان وضعها مغريا من دون شك من أجل احتلالها .

وفي مملكة تلمسان كان كبار الأعيان قد تحرروا من الوصاية الملكية ، بل أصبح الكثير من ذوي الطموح السياسي يجندون لصالحهم أعدادا من الأفراد من أجل مكافحة السلطة القائمة في تلمسان ، في الوقت الذي كان فيه الملوك يتعرضون لعمليات خلع من طرف أبنائهم . ومما زاد الوضع تعفنا دخول هؤلاء الأبناء في خصومات فيما بينهم من أجل الفوز بالعرش ، وهذا ما أدى بالبلاد إلى أن تتعرض إلى الفتن والحروب الداخلية تكاد لا تنقطع [50].

أما فيما يتعلق بالقسم الأوسط من المغرب الأوسط الذي يمتد بين مملكتي تونس وتلمسان ، فكانت المدن الساحلية في حالة استقلال . أما منطقة الونشريس التي كانت تقطنها قبائل عديدة ، فإنها كانت غير مقيدة بسلطة مملكة تلمسان [51].وفي جبال منطقة القبائل ، كانت تقيم قبائل متنافسة . وعلى العموم فإنه يمكن القول أن

المنطقة الوسطى كانت تتميز بتمزق سياسي ، وهي السمة العامة التي كانت تتميز بها البلاد.

ـ التجسس الأسباني: لم تكن تلك الأوضاع غائبة عن الملوك الأسبان ، فقد كان لديهم جواسيس مندسّين في المنطقة ، وعلى الخصوص في الأراضي الجزائرية يرسلون تقاريرهم إلى هؤلاء الملوك ، ولعل من بين أشهر التقارير التي وصفت الوضع القائم في بلاد المغرب المتهاوية قواه ، ذلك التقرير الذي أرسله أحد الجواسيس إلى الملك فيرديناند في شهر أفريل من سنة 1494، وهو فيرناندو دي ثافرا (Fernando de Zafra) ـ الذي كان مكلفا منذ سنة 1492 بمراقبة حركة الأندلسيين المطرودين إلى إفريقيا ـ ويقول فيه : << إن الحالة النفسية في كامل البلاد بلغت حدا من الانهيار يحمل على الاعتقاد أن الله أراده في متناول أصحاب الجلالة >>[52].

لقد سمحت له تلك الأوضاع بتحصيل المعلومات بشكل دقيق عن أحوال بلاد المغرب ، وبالخصوص حول القبائل المغربية الواقعة على سواحل البحر المتوسط ، التي كانت خارجة عن طاعة ملوك فاس وتلمسان . وعلى العموم فقد اتسمت أوضاع هذه المنطقة في أواخر القرن الخامس عشر ، بالفوضى السياسية وعدم استقرار الأقاليم[53].

ـ الضعف العسكري: إن نجاح الأسبان في النيل من سكان شمال إفريقيا ناتج عن الوضع الذي كان يسود بلادهم ، وخاصة في تدني مستواهم العسكري بالمقارنة مع الأسبان . فعلى ما يبدو أن المغاربة لم يعرفوا التطور التقني وفن القتال . وقد استمر هذا الوضع طوال القرن السادس عشر ، حيث ظلت طرق القتال التقليدية هي السائدة ، والمتمثلة في التلاحم رجل لرجل ، واستعمال الخنجر والسيف والرمح والأحجار والأسهم. كما أنهم لم يعرفوا بناء القلاع وكيفية محاصرتها تعود هزائم الأسبان في مواجهاتهم للمغاربة في كثير من الأحيان إلى نقص المؤونة ، وإلى الهجمات المفاجئة التي كان يشنها سكان المناطق الجبلية ليلا ، وإلى الفوضى التي كانت تصيب الجنود الأسبان وهم في طريق عودتهم من الأعمال الغزو الناجحة ضد السكان . ولم يعد ذلك بتاتا إلى أسلحة خصومهم . [54].

ـ سوء الحالة الاجتماعية : كان المجتمع الجزائري في أغلبه يعيش حياة ريفية، يعاني حالة البؤس وانعدام التماسك الشعبي وانسياقهم نحو العصيان والتمرد في وجه الحكومات المتهاوية ، وشيوع الخرافات بين أوساط السكان مما تسبب في ضعف المقاومة في بعض الأحيان [55]. لقد حفزت تلك الأوضاع التي

كانت سائدة في هذه المنطقة القوى الأوربية على ممارسة العدوان على المناطق الساحلية الإفريقية للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، التي امتد نطاقها من طرابلس شرقا إلى بداية مياه المحيط الأطلسي غربا.

هوامش الفصل الأول:

(1) Fernand Braudel: Les espagnols en Algerie , in Histoire et historiens de l'Algerie , Félix Falcan , Paris , 1930 , p.231.

(2) حكمت ياسين : الغزو الأسباني للجزائر في القرن 16 الأصالة ، الجزائر ، 1973، العدد 14-15، ص.242 .

(3) André Berbrugger: Le Pegnon d'Alger , Alger , 1960 , p.6.

(4)اسمه الأصلي "رودريق بورجيا " (Rodrigo Borgia) ، ولد سنة 1431 بمدينة *خاتيبا* (Jativa) ، الواقعة إلى الجنوب من مدينة بلنسية على بعد حوالي ستين كيلومتر ، تولى البابوية سنة 1492 ، استمر في هذا المنصب إلى أن توفي سنة 1503.

(5) هي ضريبة منحها البابا للزعماء الأسبان المسيحيين في حربهم ضد المسلمين في الأندلس، ثم في حربهم ضد غرناطة ، ولم امتد توسع الملكين الكاثوليكيين في شمال إفريقيا ، تم الإبقاء عليها.

(6) Edouard Cat: Mission bibliographique en Espagne ,Leroux, Paris, 1891, pp.9-12.

(7) H. De Castries , Les Sources inédites de l'histoire du Maroc, Espagne,3t., Paris et Madrid, 1921, t.1 p.3.

(8)C.X. Sandoval: Les Inscriptions d'Oran et de Mers-el-Kebir, traduit de l'espagnol, Dr.Monnereau, R.A., Alger, t.15, 1871, p.177.

(9) كارل برولكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، ط.9 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 181، ص.430.

(10)Pont-Augustin: Histoire abrégée des Papes depuis Saint Pière jusqu'à ClementXIV, Moudard, Amesterdam, 1776, p.161 et suivre.

(11) ندوة : موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ لمغرب العربي ، الأصالة ، العدد السابق، 14-15، ص. 217.

(12) ندوة : مرجع سابق، صص 216-217.

(13)René François Rohrbacher: Histoire universelle de l'Eglise Catholique, , Letouzey et ané, paris , 1900 t.9, p.301.

(14)Niel Blum: les croisades de Ximinès en Afrique, B.S.G.A.O., T.18, Oran,1897, pp.318-319.

(15) للمزيد أنظر : أنطونيو دوميـنغيز هورتز ، برنارد بنثنت ، تاريخ مسلمي الأندلس، ترجمه من اللغة الأسبانية:عبد العال صالح طه ، ط. 1 ، دار الإشراق ، قطر ، 1988 .صص.251-268.

(16) عثمان شبوب ، موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ المغرب العربي ، الأصالة ، عدد سابق ، 14-15، ص.216.

(17) De Mas Latrie: Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique du nord au moyen age, H. Plon, éditeur, Paris, 1866, p.320.

(18) وهي جزيرة تقع بالقرب من البندقية.

(19) ميناء في صقلية على الساحل الشرقي للجزيرة ، يقع جنوب مدينة أوغوستا الساحلية.

(20) Blum : Op Cit, p. 325.

(21) أندري كلو : سليمان القانوني ، ترجمة : البشير بن سلامة ، دار لجيل ، بيروت ، 1991 ، ص. 168 .
(22) Fernand Braudel : La Méditerranée et le monde méditerranéen a l'époque de Phillipe II , Armand Colin , 5e ed., Paris , 1966. , T.1 pp.94-95.
(23) John Leyden: Histoire complète des voyages et de découvertes en Afrique, A.Bertrand, Paris, 1821, t.3, p.323.
(24) حكمت ياسين : مقال سابق ، ص.243.
(25) Blum : Op.Cit., p.73 .
(26) Fernand Braudel: Les espagnols et l'afrique du nord, R.A., 1928, T.69, p. 193 .
(27) يعد مؤسس أول مملكة في شبه جزيرة أيبيريا ، في مملكة أستوريس ، تولى محاربة المسلمين في الأندلس، توفي بيلاج سنة 737.
(28) Blum: Op.cit.,p.323.
(29)عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربرومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، 7أجزاء، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، 1982، ج.6 ص.902.
(30) مولاي بلحميسي : الجزائر والغزو البحري في القرن السادس عشر ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، كلية الآداب ، جامعة الجزائر جانفي 1968 ، العدد 4 ، ص.8.
(31)Rang ,Sander & Ferdinand Denis : Fondation de la régence d'Alger , Histoire des Barberousses , 2 t., J.Angé , Paris , 1837, t.1, p.53.
(32) Blum, Op.Cit.,p.323.
(33) Ibid., p.324.
(34) Victor Duruy: Histoire des temps modernes depuis 1453 jusqu'à 1789, Librairie Hachette et Cie, Paris, 1899, p.135-136.
(35)ولد في العاصمة البرتغالية لشبونة سنة 1455، أصبح ملكا على بلاده سنة 1481 ، وهو الذي استطاع أن يرسخ السلطات الملكية في بلاده ، كما تميزت سياسته بتشجيع التوسع البحري ، توفي سنة 1495. Petit Larousse Illustré, 1983, p.1525
(36) للمزيد أنظر : Carlos Calvo: Recueil complet de traités, conventions, capitulations, armistices et autres actes diplomatiques de touts les états de l'amérique latine depuis l'année 1493 jusqu'à nos jours, Durant, Paris, 1862, p.16etsuivantes.
(37) Louis Salvatore de Habsbourg Archiduc d'Autriche : Bougie la perle de Afrique du nord , Traduction de Viviane Jambert , L Harmattan, Paris, 1999, p.37.
(38) Blum, Op.Cit., p.322.
(39) Ibid., p.329.

(40)عقدت في سنة 1529 معاهدة في هذه المدينة ، عرف كذلك بسلم السيدات لأنه أجري بين "لويز دو سافوا" (Luise de Savoie) ممثلة للملك فرانسوا الأول ، ومرغريت النمساوية ، باسم شارلكان ابن أخيها ، تم ضم كامبري إلى فرنسا سنة 1681.

(41) Leon Fey : Histoire d'Oran avant pendant et, après la domination espagnole , Typographie Adolphe Ferrier éditeur, Oran, 1858, p.57.

(42) فقد أورد مونتنيس أنه خلال ربيع سنة 1505 قام بحارة من المرسى الكبير ، ومعهم 12 سفينة من مختلف الأنواع ، جيدة التسلح قامت خلال شهر ماي خلال السنة المذكورة بغزو مدينة بلنسية ، في ليلة ظلماء ، ثم انتقلوا إلى ضواحي مدينة إلش (Elche) وأليكانت (Alicante) وعادوا من هناك بغنائم وأسرى إلى المرسى الكبير ووهران أنظر : Diego Suarez de Montanes, Mers El-kebir , traduction , A. Berbrugger, R.A., 1865, T.9,p.337.

(43) H.D. Grammont : Histoire d'Alger sous la dommination turque 1515-1830 , Erneste Leroux , Paris, 1887, p.5.

(44) Salvatore: Op.cit, p.35.

(45) Ibid.: p.35.

(46) تعرف حاليا باسم " تيرغا (Terga) ، تقع إلى الشمال من مدينة عين تيموشنت ، على بعد حوالي عشرين كيلومتر ، وعن البحر بحوالي خمسة كيلومترات.

(47) Montanes : Op.Cit , pp 337-338 .

(48) للاطلاع على حركة الكشوفات الجغرافية أنظر : اسماعيل العربي ، تاريخ الرحلة والإستكشاف في البر والبحر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986.

(49) Braudel: Les espagnols…, Op.cit., p.213.

(50)كانت معظم القبائل في الجزائر تعيش التمرد على حكامها ، ومنهم من التف حول مملكتي كوكو وبني زيان في تلمسان.

(51) Ibid.: p.215.

(52) شارل أندري جوليان ، تاريخ إفريقيا الشمالية ، تعريب ، محمد مزالي والبشير بوسلامة ، جزءان، الدار التونسية للنشر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، تونس ، 1978، ج.2، ص.324.

(53) Braudel: Les espagnols..., p.212.

(54) Ibid., p.216-217.

(55) محمد العربي الزبيري، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث ، المؤسسة الجزائرية للطباعة،ط.2، الجزائر ، 1985 ، صص.15-16

الفصل الثاني

المناطق التي تعرضت للغزو الأسباني

سنعالج في هذا الفصل المناطق التي استطاع الأسبان الوصول إليها من الأراضي الجزائرية ، سواء تمكن الجيش الأسباني من احتلالها أم لم يتمكن . وإذا كان الأسبان قد نجحوا في احتلال بعض المدن الساحلية لفترات متفاوتة من الزمن ، فإنهم فشلوا في السيطرة على مدن ساحلية أخرى رغم جديتهم في مسعاهم التوسعي . غير أن الشيء الملفت للانتباه هو أنه رغم الاندفاع الذي أبداه القادة الأسبان نحو الأراضي الجزائرية بقواتهم العسكرية ، وتمكنهم من احتلال بعض المواقع الساحلية إلا أنهم لم يتمكنوا من التغلغل إلى المناطق الداخلية من البلاد . باستثناء قدرتهم على الوصول إلى مدينة تلمسان مرورا ببعض المناطق المؤدية إليها .

ضمن هذا الإطار فإنني سوف أتتبع مسيرة تحرك القوات الأسبانية عبر المناطق التي وصلوا إليها وتمكنوا من احتلالها ، أو فشلوا في ضمها إلى سيادتهم. وذلك من أجل أن يتسنى لنا استخلاص الانعكاسات المترتبة عن مسعاهم التوسعي ، والوقوف على مدى التأثير الذي انعكس على هذه البلاد وسكانها . وحتى أتمكن من الإحاطة بهذا الموضوع رأيت أن أدرسه من خلال مرحلتين أساسيتين ، المرحلة الأولى في القرن السادس عشر، والمرحلة الثانية ما بعد هذا القرن .

أ : في القرن السادس عشر :

تميز هذا القرن بتعرض الجزائر إلى غارات أسبانية عديدة ، نجحوا في بعضها من احتلال بعض المدن وفشلوا في أخرى .

1 - مناطق نجحوا في احتلالها بالقوة العسكرية :

لقد استعمل الأسبان طرقا مختلفة في فرض سيطرتهم على المدن الساحلية الجزائرية، من أهمها طرقتان رئيسيتان هما : أسلوب القوة العسكرية ، وأسلوب فرض المعاهدات على زعماء المناطق التي وصلوا إليها ، تحت طائلة التهديد .

- احتلال المرسى الكبير 1505: كانت تحتوي على أحسن المراسي في البحر التوسط ، ولكونها قريبة من السواحل الأسبانية وتشرف على مدينة وهران. وقد تم هذا الغزو رغم ما كانت تعانيه الخزينة الأسبانية من متاعب مالية، التي أنهكتها الحروب في كل من غرناطة وإيطاليا [1]. وذلك بفضل مجهودات الكاردينال خيمينيس ، الذي سخر أموال كنيسة طليطلة ، وأمواله الخاصة لتمويل نفقات الحرب[2] .

وقاد الحملة الدون دييغو القرطبي (Don Diego de Cordoba) ، وعندما وصلت قواته إلى المرسى الكبير لم تجد سوى عددا من المرابطين يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة ، بعد انسحاب الكثير من المتطوعين لطول الانتظار والترقب. ورغم قلة عددهم فإنهم حاولوا منع الغزاة من الإنزال واحتلالهم للقلعة . لكن اختلاف الطرفين في امتلاك العدد والعدة ، مكن الجنود الأسبان من النزول إلى البر ومحاصرة الحصن ثم احتلاله . وانتهت هذه المعركة بعقد الطرفين لهدنة مكنت أفراد الحامية من الانسحاب ، بعد أن جردهم الأسبان من أسلحتهم [3].

وبعد احتلالهم للقلعة فرض الأسبان سيطرتهم على المدينة ، وعملوا على تغيير معالمها الإسلامية ، إذ تم تحويل المسجد إلى كنيسة . وأشرفوا على ترميم الأسوار التي تسببت قذائف المدفعية في تحطيمها ، ثم أدخلوا بعض الإصلاحات على الحصن وقاموا بتنصيب المدافع على أسواره . وذلك خوفا من تعرضهم لعمليات انتقامية يشنها سكان المدينة وضواحيها ، وتمكين رجال الحامية الأسبانية الإقامة فيه[4] . وتم اتخاذها موقعا تنطلق منه قواتهم لتوسيع نطاق الاحتلال في المناطق المجاورة وخاصة مدينة وهران التي كانت هدفهم الموالي.

ـ احتلال وهران 1509: لقد أغرى موقع مدينة وهران وجمالها وأسال لعاب القادة الأسبان وخاصة الكاردينال خيمسنيس ، فبناء على التقرير التجسسي الذي تلقاه من فيانيلي الذي اعتبرها من أشهر مدن بلاد المغرب لغناها بالأسواق والتجارة ، عزم على غزوها[5]. فتحت إلحاح هذا الكاردينال صدر بيان ملكي في ديسمبر 1508 يوافق فيه على غزوها. ولهذا الغرض جمع الكاردينال وبيدرو نافارو (Pedro Navarro) القوات العسكرية الموجودة في خارج أسبانيا وداخلها في مدينة قرطاجنة ، ولعظمة المهمة شارك في الحملة كبار القادة العسكريين نذكر منهم صديق الكاردينال غونثالبو دي كوردوبا(Gonzalvo de Cordova) ، والدون دييغو دي فييرا(Don Diego de Verra) [6].

أقلع الأسطول يوم 16 ماي 1509 ، الذي كان يتألف من عشرة آلاف من المشاة وأربعة آلاف حصان وثمانمائة متطوع [7] ، ولم يتجه مباشرة إلى وهران بل توقف في المرسى الكبير ليتم فيه وضع الترتيبات النهائية . ولما علم السكان بالخطر الذي يستهدف مدينتهم اعتصموا في المرتفعات المواجهة للمناطق الساحلية الممتدة بين المرسى الكبير ومدينة وهران . ولمنع الغزاة من احتلال بلادهم ، رموهم بالسهام والحجارة ، ودفعوا عليهم الصخور من المواقع العليا التي كانوا يتموقعون بها[8].غير أن التفوق العددي للأسبان ونظام سلاح المدفعية مكنهم من إجبار المقاومين على التراجع نحو المدينة للاحتماء وراء أسوارها .

وتمكن الأسبان من الدخول إلى المدينة من أحد أبوابها بفعل خيانة قام بها أحد اليهود حسب الرواية التي ذكرها مارمول . وقاموا بقتل كل شخص وجدوه أمامهم ، ولم يسلم من أذاهم حتى النساء والأطفال ، وقد ذكر أحد الكتاب الغربيين أن الجنود الأسبان لم يلتزموا بالأوامر التي أعطيت لهم ، ولا بتعليمات ضباطهم ، وقد أدت هذه الحملة إلى هلاك أكثر من أربعة آلاف شخص، وأسر أكثر من خمسة آلاف. واستولى الأسبان على كثير من الأسلاب بلغت قيمتها حسب بعض التقديرات خمسة آلاف أوقية ذهبية [9] ، عادت بالثراء على كبار العسكريين والجنود على السواء . فقد ذكر أن أحد الضباط قد استحوذ لصالحه على عشرة آلاف دوكا . وقام الكاردينال خيمينيس بتبديل مساجد وهران إلى كنائس ، حيث تم تحويل المسجد الأعظم إلى كاتدرائية ، كما أنهم خربوا معالم المدينة . وهكذا أصبح الدون دييغو فيرنانديز دي كوردوبا أول حاكم على مدينة وهران [10] .

- **احتلال بجاية 1510:** كانت مدينة بجاية تتميز منذ عهودها السابقة ، كمركز إشعاع علمي وحضاري ، ، فكانت تشتهر بمدارسها في علوم الطب والفلسفة وعلم الكلام. وصفها صاحب كتاب "وصف إفريقيا " أنه كان << فيها جوامع كافية ومدارس يكثر فيها الطلبة وأساتذة الفقه والعلوم بالإضافة إلى زوايا المتصوفة وحمامات [11] >> .

وقد شجع الأسبان على احتلالها جملة من العوامل ، منها ثراء سكانها والبالغ عدده م نحو ثمانية آلاف أسرة [12] ، وأن سفنهم الحربية كانت تقوم بعمليات إنتقامية لإخوانهم الأندلسيين ، الذين التحق بعضهم بالمدينة هروبا من الضغوط التي كانوا يتعرضون لها في أسبانيا ، وقد أصبح بعضهم يشارك في تلك العمليات. كما كانت بجاية في تلك الأثناء تعيش أجواء من الفتن العائلية على الحكم بين الأمراء الحفصيين ، ووقوع الحروب بينهم [13].

لم تكن تلك الأحداث غائبة عن الأسبان ، إذ سرعان تولى بيدرو نافارو إعداد الحملة بسرية تامة ، حيث توجه في أواخر شهر نوفمبر سنة 1509 من المرسى الكبير إلى الشمال متظاهرا الدخول إلى أسبانيا ، إلاّ أنه توقف بجزيرة إبيزا (Ibiza)[14]،حيث بقي فيها طوال شهر ديسمبر ، لإعداد القوات اللازمة لتنفيذ الحملة ، قدرها بعضهم بعشرين سفينة[70] .

وفي أول جانفي 1510 غادر بيدرو نافارو الجزيرة ، يقود الأسطول ، وعلى متنه أكثر من عشرة آلاف جندي[71] ، ومعدات أخرى ومؤن . ووصل إلى بجاية يوم خمسة من نفس الشهر . ولما ظهرالأسطول أمام المدينة سارع أهلها إلى

إعلان حالة الإستنفار ، وجمع قواتهم وأسلحتهم ووزعوها على المواقع الحساسة، منها حامية تتألف من عشرة آلاف رجل تم نشرها على مرتفع غورايا.
تمكنت فرق المشاة من جيش الغزاة من الإنزال والتموقع في مكان آخر قرب المدينة تحت ضريح الولي سيّدي عيسى السّبوكي [17] يدعى حاليا زغواط (Egouades) . وكان يقطن بهذه المنطقة أغلبية أندلسية هاجرت إليها من الأندلس . وجه بيدرو نافارو إنذارا إلى الأمير عبد الرحمن بن السلطان عبد العزيز ، يطلب منه تسليم المدينة وفتح أبوابها ، لكن الأمير رفض ذلك التهديد . ولما فشل الأسبان في تحقيق مسعاهم في احتلال المدينة دون حرب ؛ احتلوا المواقع المرتفعة للإشراف على المدينة ، ثم شرعوا في قصف المدينة بالمدافع ، ورد أهلها عليهم بالمثل ، واستمر القصف المدفعي المتبادل لمدة عشرة أيام .
تمكن الأسبان من تعزيز تحصنهم في منطقة سيدي عيسى ، وذلك بفضل حصولهم على الماء والمؤونة ، والرجال والأسلحة ومختلف الضروريات التي كانت تصلهم من البحر بواسطة السفن القادمة من وهران . وهو ما ساعد على تفوقهم العسكري ، ومكنهم من الصمود أمام دفاعات أهل المدينة ، الذين لم تكن قطع مدفعيتهم في مستوى مدفعية أعدائهم[18] .
ولأجل فك الحصار ، نظم فريق من المقاتلين البجائيين ، وعددهم خمسمائة وعشرون رجلا ، هجوما مفاجئا تم على جبهتين ، قسم هاجم الغزاة عبر المرسى القديم ، بينما القسم الثاني عبر قمة الجبل. فقد ذكر أحد المهاجمين وهو ابن عبد الحق : << أنني كنت ضمن الفريق المهاجم بحرا >> . غير أن منطق نوعية القوة قد تفوق في الأخير، حيث قتل الكثير من الفريق الذي هاجم الأعداء عبر الجبل ، واضطر المهاجمون عبر البحر إلى الانسحاب بسرعة ، بعد أن لحقت بهم خسائر قليلة ، وتمكنوا من الإختفاء[19] .
وفي هذه الأثناء وصل إلى بجاية الأمير أبو فارس ابن السلطان عبد العزيز بصحبة أخيه أبو عبد الله ، ومعهما عدد من المقاتلين ، وأربعة من علماء مدينة بجاية [20] ، الذين أعطوا المقاومة طابعا جهاديا ، وحاولوا محاصرة أعدائهم ومنع الطريق عنهم إلى المدينة، والهجوم عليهم عن طريق البر والبحر . غير أن سوء التنظيم ، وقلة الاستعداد والتدريب القتالي ، رغم التفوق العددي ؛ فإن فعالية نوعية السلاح الأسباني مكنتهم من احتلال مواقع جديدة تشرف على المدينة ، وقام في نفس الوقت قسم من الجيش الأسباني بغزو المدينة من جهة البحر ، اضطر إثرها بعض الجنود المسلمين إلى التراجع نحو أسوار المدينة للإحتماء بها ومواصلة المقاومة من ورائها . وكان القصف المدفعي المتواصل قد أدى إلى

تحطيم بعض أجزاء الأسوار ، مما سمح للأسبان بالتغلغل إلى داخل المدينة . ولما أدرك أهل المدينة عدم جدوى المقاومة اليائسة لجأ أغلبهم إلى إخلاء المدينة .

ذهب ضحية هذا الغزو حسب تقدير ابرهيم المريني أربعة آلاف وخمسمائة وخمسون شهيدا [21]، كان من بينهم بعض رجال الدين من علماء وشيوخ زوايا، وبعض الأندلسيين . أما عن الخسائر البشرية الأسبانية فقد ذكرت بعض المصادر الغربية أنهم قد فقدوا بعض الرجال[22].

2 ـ مناطق فرضوا عليها معاهدات الولاء:

بعدما خضعت المدن السابقة الذكر إلى الاحتلال العسكري ، تعرضت مدن أخرى وإمارات إلى نفس المصير إذ وجدت نفسها مجبرة على توقيع معاهدات الولاء للأسبان . فنتيجة للضعف الذي أصاب السلطة المركزية في تلمسان ، توجهت الأقاليم الساحلية التابعة لها إلى إعلان انفصالها ، ثم وجدت نفسها بعد ذلك مضطرة إلى التحالف مع الأسبان ، كما هو الشأن بالنسبة لتنس ومستغانم ، ونفس المصير لحق بمدينة الجزائر ، حيث دفعها ضعفها إلى الرضوخ لتهديدات الأسبان وتوقيع معاهدة الولاء ، وخاصة بعد سقوط مدينة بجاية . وقد عرفت مدينة دلس التي كانت تتبع مدينة الجزائر[23] نفس المصير.وفيما يلي عرض لذلك المصير:

ـ مدينة تنس : كانت مدينة تنس أول المدن التي أعلنت ولاءها للأسبان ، فبعد احتلال المرسى الكبير ، وبينما كان هؤلاء يعدون أنفسهم لاحتلال مدينة وهران ؛ وقعت أزمة داخلية بين أمراء العائلة الحاكمة في تلمسان . فإثر وفاة الملك محمد السابع

(المعروف بالثابتي) منذ سنة 1503 ، آل الحكم لابنه الأكبر عبد الله[24] . وكان له شقيقان ، وهما أبو زيان ويحي ، اللذان تآمرا على أخيهما الملك الثابتي مع بعض الشخصيات على اغتياله ، لكن اكتشاف المؤامرة ؛ أدى إلى إلقاء القبض على أبي زيان، وتم وضعه في السجن ، بينما تمكن أخوه يحي من الفرار مستنجدا بالأسبان [25] . وقد وجد هؤلاء في هذا النداء فرصة لهم لتوسيع نفوذهم ، فساعدوه على تنصيب نفسه حاكما على تنس ، على أن يكون تحت نفوذهم ملتزما بدفع الضرائب لهم . ولما مكنوه من السيطرة على المدينة ؛ زودوه بقوات عسكرية تساعده على تأمين موقعه ضد أخيه عبد الله ملك تلمسان، تتألف من أربعة سفن وخمسمائة جندي كان ذلك خلال سنة 1508[26].

ـ مدينة الجزائر : كانت مدينة الجزائر قبل أن تستقل بأمرها في أواخر القرن الخامس عشر ، تابعة للزيانيين مرة ، وللحفصيين مرة أخرى ، وأصبحت تعيش تحت سلطة يديرها مجلس متكون من أعيان المدينة تحت حماية الثعالبة ، يتولى حكمها الشيخ سالم التومي[27] .

وكان الملك فيرديناند قد أمر قائده بيدرو نافارو ؛ التقدم بأسطوله نحو مدينة الجزائر قصد احتلالها ، لأنها كانت في نظره تهدد السواحل الأسبانية[28]. ولتلافي المصير الذي حل بالمدن التي تعرضت من قبل للاحتلال ، وحفاظا على أرواح أهل المدينة وممتلكاتهم، قرر أعيانها ترضية الأسبان ، بإبرام اتفاق معهم يحفظ لهم بقاءهم في المدينة وسيادتهم عليها ، ولو بصورة تجعلهم موالين لهم ، يدفعون لهم الضرائب . ففي شهر جانفي من سنة 1510 ، توجه وفد من أعيان المدينة برئاسة سالم التومي[29] إلى مدينة بجاية لمقابلة بيدرو نافارو ، بغية التباحث معه، بهدف التوصل إلى اتفاق بين الطرفين. وفي 13 من نفس الشهر ، و قع الطرفان اتفاقا لمدة عشر سنوا ت [30] . و أهم ما جاء فيه، الاعتراف بسيادة الملك الكاثوليكي عليهم ، ودفع أهل المدينة للأسبان جزية سنوية ، وإطلا ق سراح الأسرى المسيحيين ، على أن يتوجه وفد من أهل المدينة إلى أسبانيا لعقد الاتفاق مع حكومة الملك .

ولما علم ابن التومي بنية الأسبان ببناء قلعة على إحدى الجزر المواجهة لمدينة الجزائر؛ عارض ذلك [31]، لأنه أدرك الخطر الذي ستواجهه المدينة . وتحت طائلة الضغط الأسباني ؛ وافق الشيخ على الانتقال بنفسه إلى أسبانيا صحبة وفد من أشراف المدينة ، لأداء يمين الولاء أمام الملك فيردين اند ، في بورغوس (Burgos) . وكان يرافقه في رحلته مولاي بن عبد الله صاحب مدينة تنس[32]، الذي سبق له وأن أعلن ولاءه للأسبان تحت نفس الشروط . كان الشيخ قد أخذ معه بعض الهدايا ومائة وثلاثون أسيرا ، عربون صدق نيته لإعلان الولاء لهم. وكان من نتائج هذا اللقاء ؛ أن اضطر ابن التومي على الموافقة بتسليمه للأسبان أكبر الجزر الصخرية ، التي كانت تدعى اصطفلة (Stofla) ، متراجعا عن موقفه السابق ، الذي عارض فيه تسليم الجزيرة .

وفور إبرام الاتفاق أسرع الملك الأسباني بإرسال أحد المهندسين العسكريين المهرة وهو مارتينو دي رينتيرا (Martino de Rentira)[33] ، إلى الجزيرة الصخرية للإشراف على بناء القلعة ، التي عرفت بعد ذلك باسم صخرة الجزائر (Penon de Argel) ، وكانت تبعد عن المدينة بثلاثمائة متر فقط . وتم بناء القلعة في وقت قصير ، في شكل ثمانية زوايا [34] ، محاطة بسور ومحصنة

بحصنين منيعين ، أسوارها عالية ومسننة . وتستطيع القلعة أن تأوي حامية قدرها مائتين رجلا. ورغم ذلك الاتفاق ، ظلت المدينة تتعرض إلى التهديد بلاحتلال ، وإلى القصف المدفعي، حيث كانت تنطلق منها << قذائف المدفعية تصل إلى اليابسة ، بل تمر فوقها ، من سور إلى سور >> [35] .

ـ **مستغانم :** لقد كان لموقع مدينة مستغانم القريب من مدينة وهران ، أن جذب إليها أنظار الأسبان ، بعد احتلالهم لمدينة وهران . وكانت المدينة محصنة بأسوار منيعة شأنها في ذلك كشأن المدن الحضرية الأخرى . وقد نعمت طويلا بازدهار كبير خاصة في الميدان الزراعي لخصوبة تربتها . لكن بعد انهيار مملكة تلمسان ، وضعف سلطتها المركزية ؛ أخذت بعض القبائل تعلن عصيانها، و تسيطر على ضواحيها[36].

لقد أدت تلك الأوضاع إلى تعرضها للتهديد الأسباني ، مما أجبر شيوخ المدينة وأعيانها إلى توقيع معاهدة استسلام مع حاكم وهران الأسباني ، وذلك 26 ماي 1511 يلتزم بموجبها شيوخ وسكان مدينة مستغانم وكذلك مزغران بعدة شروط منها: أن يكونوا في خدمة الملك والملكة بكل وفاء . أن يدفعوا الضرائب والرسوم التي كانوا يدفعونها لتلمسان في أول جوان من كل عام لأمين مخزن مدينة وهران . إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين . أن يزودوا مدينة وهران والمرسى الكبير بالمواد الغذائية والسلع الأخرى ، بأسعارها العادية. أن يعلموا القائد العام في وهران بأي عمل يقومون به ، فيما يتعلق بخدمة الملك (الأسباني)، أو فيما يتعلق بأمن مدينة وهران[37].

ـ **مملكة تلمسان:** ولما أصبحت مملكة تلمسان يحيط بها الخطر الأسباني من كل جهة ، وتدخل الأسبان في الاضطرابات الداخلية للمملكة ، مما أدى بحكامها إلى سلوك نفس الطريق . إذ وقعوا مع أسبان مدينة وهران معاهدة لمدة خمس سنوات ، وذلك في 20 جوان من نفس 1511 [38] . كما أبرم باي تونس كذلك معاهدة مع الأسبان، رغم فشلهم في احتلال جزيرة جربة خلال السنة المذكورة . وبهذه الطريقة تمكن الأسبان حتى سنة 1511، أن يتمركزوا في مواقع حساسة في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط ، عبر عنها أحد الكتاب الغربيين بالعبارة التالية : << وباحتلال طرابلس في سنة 1511، فإن أسبانيا تحكمت في نصف دائرة من الأرض كانت تراقبها بواسطة مواقع عسكرية محصنة توزعت عبر أعالي الشمال الإفريقي [39]>> .

3 ـ مواقع فشلوا في الاحتفاظ بها رغم دخولهم إليها :

ـ طردهم من قلعة صخرة الجزائر 1529 : من أجل التخلص من الخطر الأسباني القائم أمام مدينة الجزائر قرر خير الدين تحرير الصخرة المحتلة. فقام بتنظيم الجيش وتجهيزه ، وإعداد مدافع للبارود ذات العيار الكبير من البرونز بلغ عددها ثمانية عشر قطعة[40]. كما اشترى شحنة سفينة جنوية مملوءة بالبارود والذخيرة ، كان بحارة أهل جزيرة جربة قد غنموها [41]. و مما شجعه على ضرب قلعة الصخرة في هذه السنة (1529) أنها كانت تعاني من قلة التموين، ونقص المياه التي كان يؤتى بها من جزر الباليار[42].

وقبل أن يشرع خير الدين في الهجوم على القلعة ، وجه إنذارا إلى من كانوا متحصنين بها دعاهم فيه إلى الكف عن اعتداءاتهم عن المدينة . لكن الأسبان واصلوا اعتداءاتهم عليها ، حيث أسرع قائد الحصن مارتين دي فرغاس (Martin de Fargas)، يطلب من الملك إرسال المزيد من النجدات بسرعة أكثر إذا كان يريد الاحتفاظ بذلك الموقع لصالح بلاده [43]. بدأ في قصفها يوم 6 ماي 1529 [44]. ورد الأسبان على ذلك بالقصف << بالمدافع والمكاحل رميا واحدا حتى صارت البنادق والكور تنزل على المدينة كالمطر ، وصاروا يقصدون صوامع الجوامع بالرمي ينكون المسلمين بذلك حتى هدموا صومعة الجامع الأعظم، وكثيرا من شرابات الصوامع ، وأتى الهدم على دور كثيرة من دور أهل الجزائر >>[45]. استمر القصف المدفعي المتبادل لمدة أسبوع ، استطاعت خلالها المدفعية الجزائرية من هدم أبراج القلعة و الأسوار المقابلة للمدينة[46] ، وتسببت في القضاء على بعض أفراد الحامية . ثم طلب خير الدين من بقية المعتصمين بالحصن ، الانسحاب منه بكل حرية إلى بلادهم ، وأن يأخذوا معهم كل احتياجاتهم . لكن قائد القلعة ورجاله رفضوا الاستسلام ، مجيبين بأنهم يفضلون الموت وهم يدافعون عن موقعهم [47].

ولما رفض أفراد الحامية التسليم ، صمم خير الدين على مهاجمتهم ، قبل وصول النجدات إليهم ، فجهز خمسة وأربعون سفينة[48]. وفي صبيحة يوم الجمعة 27 ماي 1529 ؛ أحاطت السفن الجزائرية ، البالغ عددها خمس وأربعون سفينة بالجزيرة [49]، فحاصرتها على الفور . ثم تمكن الجزائريون من التوغل إلى داخل الحصن ، والاستيلاء على كل من كان فيه من أفراد الحامية . تكاد تجمع معظم الكتابات التاريخية التي عالجت هذه الملحمة ، أن عدد الأسرى قد بلغ تسعين شخصاُ من مجموع المائة والخمسون الذين كانوا في الحصن ، بالإضافة إلى خمس وعشرون طفلا وامرأة ، قتل منهم ستون شخصا[50]، وكان قائد القلعة مارتين دي فارغاس ضمن الأسرى . أما عن عدد الضحايا من الجزائريين ، فقد

قدرهم بعضهم بستة وأربعون شخص(51). وفور سقوط الحصن في أيدي القوات الجزائرية ، قاموا بهدم القلعة ، والتحصينات التي كانت تحيط بها ، وذكر بعضهم أنهم استخدموا الأسرى الأسبان في ذلك الهدم. وبعد أربعة أيام من سقوط القلعة ، ظهرت في البحر إحدى السفن الأسبانية من نوع (Brigantin) ، تحمل جنودا وذخيرة ومؤونة . وبينما كان قائدها يفتش عن موقع القلعة ، لكي يقدم الدعم لها، لدرجة اعتقاده بأنه أخطأ الطريق(52). غير أنه فوجئ بالأسطول الجزائرى، الذي تمكن احتجاز تلك السفينة ، وأسر أفردها البالغ عددهم 700 شخص ، و ذلك في أول جوان 1529.

وهكذا تخلصت مدينة الجزائر من الخطر الأسباني و تم تهديم القلعة بواسطة الأسرى المسيحيين ، ولم يبق منها سوى برجين قائمين ، أحدهما في الجهة الشرقية ، والآخر في الجهة الغربية . وقد استعمل خير الدين حجارة القلعة في بناء الميناء وتشييد الرصيف بربط مجموعة الجزر الصغرى بالجزيرة الكبرى(53) ، من أجل ربط المدينة بالسفن بتشييد ميناء الجزائر . ومنذ ذلك الوقت أصبحت مدينة الجزائر معقلا قويا للنشاط البحري في البحر المتوسط(54).

- فشلهم في احتلال شرشال 1531: تعد مدينة شرشال أقرب منطقة إسلامية من جزر الباليار ، إذ لا تفصلها عنها إلا بضع ساعات من الإبحار، ويفهم من كلام هايدو ، أن توجه دوريا نحو مدينة شرشال كان بغرض تحري ر المساجين المسيحيين فقد ذكر أنه : << قيل وأكد لي بعض مساجين هذه الأيام أن بعضهم قد كاتبوا الأمير [دوريا] يطلبون منه إنقاذهم وبينوا له سهولة المهمة لاستعادة حريتهم ، واحتلال المدينة ، وتهديم الرصيف >> (55). كما كانت هذه المدينة إحدى الثغور الجزائرية التي استقبلت العديد من مسلمي الأندلس ، حيث << قام بعضهم يعيد بناء القلعة والدور ...[و]صارت لهم الأراضي المزروعة الممتدة ، وأشجار كثيرة من الكروم والزيتون >>(56).

أراد خيرالدين أن يجعل من شرشال منذ افتكاكها من قارة حسن معقلا حصينا لبحريته، في الجهة الغربية التابعة لسلطته ، حتى تتمكن من مواجهة الخطر الأسباني الجاثم على مدينة وهران والمرسى الكبير . وكان سكان المدينة قد أعلنوا الولاء النهائي له سنة 1528(57) . وعزز التحصينات التي أقامها أخاه عروج ، فشيد فيها رصيفا آخر ، لأنها كانت تتمتع بميناء طبيعي ممتاز ، فعمل على توسيعه ليك ون أكثر أمنا . وجاء غزو الأسبان لمدينة شرشال حينما أسند الإمبراطور قيادة الحملة إلى أحد البحارة المسيحيين المشهورين ، وهو الج نوي

أندري دوريا (AndréDoria) [58] .وانطلق الأسطول الأسباني من جنوة في شهر جويلية ، المؤلف من ثمانية وثلاثون سفينة ، يحمل ألف وخمسمائة رجل[59] ، ومعدات حربية . غير أن أخبار تحرك الأسطول المسيحي قد وصلت إلى مدينة الجزائر ، فأعد خير الدين العدة لمواجهته ، فتحرك بأسطوله نحو شرشال .

ولما وصل دوريا إلى المدينة أنزل قواته بالقرب منها ، وأرسى سفنه هناك دون مقاومة تذكر. بينما اضطر أفراد الحامية للمدينة إلى الاحتماء وراء أسوار قلعة المدينة . واضطر السكان إلى إخلائها ، ريثما يحين الوقت المناسب لبدء الهجوم عند قدوم التعبئة العامة من داخل البلاد . وكان في شرشال حوالي ثمانمائة أسير مسيحي بعضهم كان يعمل في بناء الرصيف [60] ،التحق بعضهم بالقوات المسيحية بعد ما حطموا قيودهم ، أما البعض الآخر الذين أطلق سراحهم من قبل جنود دوريا فقد التحقوا بالشاطئ حيث كانت سفن دوريا . إثر ذلك انساق الجنود ومعهم بعض الأسرى ينهبون ممتلكات السكان [61]، ومنتجات حقولهم الزراعية. وكان رجال الحامية المعتصمين بالقلعة يراقبون تحركاتهم ، فلما أدركوا تفرق الغزاة في أرجاء المدينة وضواحيها خرجوا من القلعة وهاجموهم بمساندة المهاجرين الأندلسيين وسكان المناطق المجاورة . كما أطلقوا نيران مدفعيتهم في اتجاه سفن أسطول دوريا [62] . ولما أدرك قائد الحملة خطورة الموقف ، أسرع مع بعض جنوده إلى البحر للالتحاق بأسطوله وإبعاد قطعه من الشاطئ منسحبا بمن استطاع بلوغها من الأسرى . وتمكن المسلمون خلال تلك المواجهة من القضاء على أربعمائة جندي من النصارى ، وأسر منهم ستمائة جندي آخر [63]. وبينما كان دوريا ينسحب ، ظهرت في الناحية الشرقية سفن خير الدين ، البالغ عددها عشرين سفينة شراعية [64]، اضطر دوريا إلى الفرار ومن معه من الأسرى الذين تمكنوا من الالتحاق به ، وكان يتراوح عددهم ما بين سبعمائة إلى ثمانمائة ، متجها إلى جزيرة مايورقة ، فارا بنفسه وبمن معه ، خوفا من أن يلقى نفس مصير جنوده الذين تركهم وراءه في شرشال ، الذين تحولوا إلى أسرى بدلا من الذين تم تحريرهم . كما خلف دوريا وراءه سفينتي نقل محملتين بالأسلحة والمؤن[65]. ولما حل خير الدين بالمدينة ، استقبله أهلها وسلموه ستمائة أسيرا ، كان من بينهم أحد الضباط الكبار[66].

- **انسحاب الأسبان من هنين بعد تخريبها (1531-1534):** كانت مدينة هنين الساحلية تشكل مركزا تجاريا هاما بالنسبة لمملكة تلمسان . إذ كانت تحتل موقعا جغرافيا ممتازا بين الصخور ، تحمي السفن الراسية فيه من الرياح والأمواج ، القادمة من الناحية الغربية أو من الناحية الشرقية [67] . هذا ما شجع

الأسبان على احتلالها ، بالإضافة إلى طبيعة موقعها ، واستمرار الاضطرابات الداخلية في تلمسان بين أفراد العائلة الحاكمة على الحكم . وكانت بعض القبائل المتذمرة من ولاء حكام تلمسان للأسبان تتعرض للقوافل التجارية المسيحية القادمة من هنين . فقد كتب تقرير من وهران مؤرخ في 27 فيفري 1518 ، إلى لوبي أورتادو دي موندوزا (Lope Hurtado de Mondoza) ، وكان مما جاء فيها : << أن قافلة كانت قادمة من تلمسان نحو هنين في مهمة تجارية، تعرضت إلى اعتداءات العرب خلال عودتها ، قتل خلالها خمسة وأربعون شخصا >> [68].

وقد انزعج الأسبان في مدينة وهران ، من تنامي أمر القبائل العربية المناوئة للسلطة في تلمسان ، ولجوئها إلى مناصرة خير الدين . كما كانت هذه المدينة تعتبر بالنسبة للأسبان معقلا للبحارة المسلمين الذين كانوا كثيرا ما يلجئون إليها بعد عملياتهم الجهادية ضد المسيحيين ، حيث كانت تنطلق منها السفن الحربية لمطاردة السفن الأسبانية [69].

نتيجة لهذه الاعتبارات ، قرر الأسبان شن حملة على مدينة هنين ، ففي شهر أوت من سنة 1531 خرج قائد الأسطول الأسباني الدون ألفارو دي بازان (Don Alvaro de Bazane)، من مدينة مالقة على رأس ثلاثة عشر سفينة في طريقها إلى هنين ، تحمل تجهيزات ومعدات مختلفةً ، ومؤونة غذائية كافية لمدة شهرين [70] ، توقف في وهران ، حيث تزود بمائتين وخمسون جنديا من أفراد حاميتها. كانت هنين محرومة من قسم كبير من أفراد الحامية . ورغم ذلك فإن من كانوا بها دافعوا عنها بكل قوة ، حيث تمكنوا من القضاء على خمسة وأربعين جنديا أسبانيا وجرح مائة آخر . غير أن عنصر المفاجأة ، واختلال ميزان القوى رجح كفة الانتصار لصالح الأسبان ، الذين احتلوا إثر ذلك ميناء المدينة وقصبتها ، ثم تعرضت المدينة إلى النهب [71] . وأقام فيها ألفارو حامية أسبانية تتكون من سبعمائة رجل ، منهم أربعمائة مسلحين بالبنادق وعشرين قطعة مدفعية ، منها أربعة مدافع ذات عيار كبير ، صادروها من قصبة المدينة [72]. وهي قوات غير كافية حسب تقرير رئيس الأساقفة ، لذا طلب بنفسه من الملك إرسال سفينتين من القمح ومؤن أخرى وأموال للدفاع عن الموقع الجديد ، وتدعيم العدد الموجود بهنين ، بأربعمائة جندي و 120 رمح التي طالب بها ألفارو . وأرفق التقرير بمخطط لمدينة هنين أوضح فيه أهمية المدينة ، واقترح الاحتفاظ بها ، لأن احتلالها يسمح لهم بتأمين مدينة وهران ، واستمرار بقائها تحت نفوذهم [73] ، معلنا تخوفه من قيام تصالح بين ملك تلمسان وابنه ، عندما تصلهما الأخبار ،

فيؤدي ذلك إلى فقدان تلمسان ، وإلى إقدامهما بالتخطيط للتقدم نحو هنين أو وهران .

أما رد فعل سلطة بني زيان في تلمسان جاء متأخرا ، فبعد ثلاث سنوات من احتلال هنين ، قرر ملك تلمسان تحريرها ، فأعد خطة لمحاصرتها . وكانت القوات المكلفة بحراسة الأسوار وأبراج المدينة تتكون من أربعمائة رجل، وثمانين فارس [74] . وجاء في تقرير أسباني من مدينة هنين مؤرخ في 26 مارس 1534، أنه عندما وصلت الأخبار عن قرار ملك تلمسان ، أسرعت الحامية الأسبانية واتخذت إجراءات دفاعية . غير أن مخططهم أصيب بالفشل ، لأن سكان المناطق المجاورة فرضوا عليهم الحصار ، ومنعوهم من التوغل نحو المناطق الداخلية من البلاد ، مما أثر على وصول الإمدادات لهم ، ومنع تجار المناطق المجاورة للمدينة عن بيع السلع لهم ، وحتى التجار الأسبان قد منعوا من التنقل إلى هنين[75]. ولما اشتد الحصار ، اضطر الأسبان إلى إخلاء المدينة في نهاية عام 1534 ، لكنهم قبل أن يغادروها ، دمروا كل معالمها ، كالأبراج والأسوار والمساجد والميناء .

- فشل الأسبان في الاحتفاظ ب مدينة عنابة : ورد في تقرير تجسسي موجه إلى الإمبراطور ، مؤرخ في شهر جويلية 1535 ، يبين أهمية مدينة عنابة، قال فيه صاحبه : << أن المدينة مثل بنزرت ، لها وادي بإمكان المراكب الدخول فيه وقضاء فصل الشتاء، وأنها ذات موقع قوي يجب احتلالها>>[76]. لهذا حظيت عنابة باهتمام الإمبراطور، وأدرجها ضمن المناطق التي يلتزم السلطان الحفصي بالتنازل عنها لصالحه، ضمن المعاهدة المبرمة بين الطرفين .

وفي 16أوت 1535 ، كلف الإمبراطور الماركي دي مونديخار ، باحتلال عنابة وهو في طريقه إلى أسبانيا بأسطوله المتكون من خمسة وعشرون سفينة[77]. فتحرك دون ألفارو دي بازان (don Alvaro de Bazane) الذي سبق مونديخار ، ومعه خمسة عشر سفينة في طريقه إلى عنابة ، التي بلغها بعد خمسة أيام ، بسبب هبوب الرياح المعاكسة . وما كادت سفنه تصل إلى مشارف المدينة ، حتى بادرته بقية أفراد الحامية - التي مازالت متحصنة بقلعتها - بإطلاق نيران مدفعيتها [78] يدفعهم العزم على حماية المدينة[79]. لما وصل مونديخار ببقية الأسطول أنزل قواته ، ثم شرع في احتلال القلعة والمدينة ، التي كان قد غادرها بعض سكانها مع خير الدين نحو الجزائر [80]. وبعدما تمكنوا منها ، << عاثوا في تلك الجهات فسادا يغيرون على أهلها من العرب والبربر ، ويغنمون منهم عددا من المواشي والعبيد وغير ذلك>>[81]. استمرت تلك الأعمال ما بين سبعة

إلى ثمانية أيام [82]. وغادرها دي مونديخار بعد ما ترك فيها بناء على تعليمات الإمبراطور ثمانمائة جندي لحمايتها ، منهم مائتين بالقصر وستمائة بالمدينة [83]. ولم يتمكن الأسبان من احتلال سوى مدينة عنابة فقط ، ولم يستطيعوا احتلال أحوازها، حيث انتشر فيها العرب وأفراد الحامية التابعة لدولة الجزائر ، ونصبوا الكمائن عند أبواب المدينة[84]. ولتعزيز مكانتهم رفع الأسبان الإنفاق على تكاليف الجيش بها ، والزيادة في مناعة الحصن ضد أي هجوم يأتيهم من البحر أو البر، وزادوا في الوظائف المدنية والعسكرية [85].

ولم يمكث الجنود الأسبان بعنابة إلا خمسة أعوام فقط حيث تمكنت القوات الجزائرية من محاصرتهم ، وأجبرتهم على الانسحاب سنة 1540. وجاء رد الإمبراطور سريعا لضرب مدينة الجزائر في السنة الموالية .

. فشل حملة شارلكان على مدينة الجزائر 1541 : تعد هذه الحملة من أشهر الحملات الأسبانية التي تعرضت لها مدينة الجزائر ، ولعل ذلك يعود من دون شك إلى تزعمها من قبل الإمبراطور شارلكان . وقد حضيت بكثير من الكتابات خاصة من الجانب الإسلامي ، لعل من أهمها مخطوط المحكمة [86]. بينما أهمل مؤرخو شارلكان الحديث عن هذه الغارة الفاشلة ولم يتحدثوا عنها بشكل واسع ، بخلاف ما تناولوه في نجاح الإمبراطور في احتلال تونس سنة 1535[87]. فرغم قيادتها من طرف الإمبراطور المذكور ومشاركة العديد من الجهات الأوربية ، حيث كانت الاستجابة واسعة للنداء الذي وجهه الإمبراطور ، فقد << انجاشت إلى جيوشه أفواجا أفواجا وزخرت إليه أمواجا أمواجا>> [88] ، إلا أن الحملة باءت بالفشل الذريع ، وعاد الأمبراطور من حيث أتى. ولا شك أن هذه النكبة ظلت عالقة في ذهنه إلى آخر يوم في حياته . وتعود أسباب هذه الهزيمة إلى ثلاثة أسباب رئيسية هي:

1 ـ استصغار الإمبراطور بشأن الجزائر واعتقاده بتحقيق النصر نظرا لطبيعة القوة العسكرية التي جاء بها.

2 ـ حسن قيادة حسن آغا وشجاعته في العمل على رد العدوان ، فلم يترك السكان يستسلمون لليأس . وذكر أنه قد ركب حصانه وطاف في المدينة يشجعهم [89]. وقد استجابوا للأمر فصمدوا وتضامنوا أمام أعدائهم .

3 ـ فعل الزوبعة البحرية التي أتت على تحطيم 150 سفينة من أحجام مختلفة كانت راسية في البحر ، أو غرقت [90].

ـ فشل الأسبان في احتلال مستغانم (1543-1558): منذ أن تمكن خير الدين افتكاك مدينة مستغانم من النفوذ الأسباني سنة 1518 ، وأصبحت بذلك قاعدة أمامية رئيسية للدولة الجزائرية ، خاصة لقربها من وهران . وفي إطار وقف مد نفوذ هذه الدولة في النطاق الوهراني ، سعى حاكم وهران دالكوديت للاحتلالها ، فقد قام لهذا الغرض بثلاث حملات على مستغانم ، باءت كلها بالفشل.

وقعت الحملة الأولى في شهر مارس 1543، ولكن دالكوديت أجبر على الانسحاب لوصول تعزيزات كبيرة بعث بها حسن حسن آغا، وتعرضه لهجمات القبائل العربية من بينهم فرسان منطقة مديونة، إلى جانب تعرضه للقصف المدفعي من السفن الجزائرية من البحر[91]، تعرض دالكوديت خلال هذه المطاردة إلى جروح .

وخلال صائفة عام 1547 حاول دالكوديت من جديد احتلال مدينة مستغانم، فحاصرها، غير أن دعم حامية تلمسان لها أجبرت الكونت على رفع الحصار ، ومثلما حدث له خلال سنة 1543، تكرر هذه المرة ، حيث تعقبه المسلمون خلال انسحابه ، وتمكنوا من القضاء على العديد من رجاله[92] .

أما المحاولة الثالثة ، فوقعت خلال سنة 1558، حيث خرج إليها على رأس جيش قوامه اثنتا عشر ألف رجل [93] ، وفرض عليها الحصار . وقد استنجد السكان بحسن باشا، الذي استجاب للنداء ، فاتجه مسرعا إلى مستغانم ومعه 5000 رجل وألف فارس، كما أمر حكام تلمسان وزعماء القبائل المجاورة لها ولمدينة مستغانم بالتحرك نحو المدينة. ولما علم بوصول هذه الإمدادات اضطر إلى الانسحاب ، فتعقبه رجال الحامية إلى غاية بلدة مزغران ، حيث وقعت المعركة التي أصيب فيها الجيش الأسباني بالفوضى وقلة المؤونة . وقد لقي دالكوديت في هذه المعركة مصرعه إلى جانب قتل وأسر أفراد جيشه . وقد خلد هذه المعركة الشاعر الشعبي الأكحل بن خلوف في قصيدة عنوانها " قصة مزغران معلومة"[94].

ـ فشل خوان غاسكون احتلال مدينة الجزائر 1567: لقد ذكرت بعض الروايات التاريخية الأوربية أن الملك الأسباني رأى بإمكانه احتلال مدينة الجزائر باستعمال إمكانيات بسيطة دون التهويل والحشد العسكري ، بناء على خطة أعدها أحد البحارة من مدينة بلنسية يدعى غاسكون . الذي استطاع إقناع الملك بخطته[95]. ولما تحصل غاسكون على موافقة الملك ، خرج في أكتوبر 1567 . وبعد رحلة بحرية دامت أربعة أيام وصل إلى مدينة الجزائر ، ثم تسلل بسفنه إلى داخل الميناء ، وأمر رجاله بإشعال النار في السفن ، وتوجه غاسكون مع بقية

رجاله مقتحما باب البحر . غير أن رجال حرس المرسى كشفوا أمر الجماعة المكلفة بحرق السفن فهجموا عليهم وقضوا عليهم قبل تنفيذ مهمتهم [96] . ولما لاحظ مرافقو غاسكون تأخر صعود ألسنة اللهب في الميناء توقفوا عن تنفيذ خطتهم في تحرير الأسرى المسيحيين ولاذوا بالفرار على متن سفينتين ، فتعقبهم البحارة الجزائريون ، وأدركوا غاسكون ورجاله على بعد ثمانين ميلا من الجزائر[97] ، وتم أسرهم .

ب . بعد القرن السادس عشر :

لقد استمر الأسبان في سعيهم إلى النيل من الجزائر كلما سمحت لهم الفرصة، ولم يشهد القرن السابع أعمال عدوانية مثل التي حدثت في القرن السادس عشر نظرا لتعاظم شأن الجزائر ، والظروف التي شهدتها أسبانيا سواء الداخلية منها أو في خضم الأحداث التي عاشتها أوربا في هذا القرن . غير أنها في القرن الثامن عشر جددت حروبها العدوانية على مدينة الجزائر. فبعدما تمكن الجزائريون من تحرير وهران في سنة 1708، تمكنوا من إعادة احتلالها من جديد سنة 1732 . ولما فرضت عليهم القوات الجزائرية وكذلك القبائل الحصار، شنوا على مدينة الجزائر العديد من الغارات قصد والتخلص من الحصار المضروب على وهران ، وفيما عرض لهذه الأحداث .

1 - فشل مخطط لاحتلال مدينة الجزائر 1601: بعدما تولي فيليب الثالث الحكم في أسبانيا سنة 1598 وقعت في عهده محاولة لاحتلال مدينة الجزائر ، فقد استغل الأسبان انشغال القوات الجزائرية بجمع الضرائب في المناطق الداخلية ، بينما كان جزء آخر من قواتها البحرية تجوب البحر. فقد ورد في تقرير أعده أحد الإيطاليين يدعى جيرومينو كونيستاجيو(Geromino Conestaggio) من مدينة جنوة مؤرخا في 5 نوفمبر 1601[98]، خطة أعدها جاسوس فرنسي يدعى روكس(Roux) ، الذ ي لاحظ أن ميناء الجزائر تخف قوة حراسته خلال فصل الصيف[99]، ولم يبق به سوى ألفي جندي . وكان قد قدم هذا المشروع إلى خوان أندري دوريا[100]. وقام هذا الأخير بعرض المشروع على فيليب الثالث . ولما اقتنع الملك بالمشروع ، أعطى تعليماته لدوريا للشروع في إعداد الحملة . وكانت الاستعدادات في جزر الباليار ومملكة نابولي ، وصقلية وسردينيا ، وفي أسبانيا، واجتمعت القوات في الأخير في جزيرة مايورقة [101] .

وفي 28 أوت 1601 تحرك الأسطول في اتجاه مدينة الجزائر يتكون من سبعين سفينة ، على متنها أكثر من عشرة آلاف جندي [102]. وعين دوريا على

رأس القيادة العامة للأسطول مانويل دي بيغا (Manuel de Vega) . وفي 30 من الشهر اقترب الأسطول من السواحل الجزائرية ، ولما كان على بعد 30 كلم من مدينة الجزائر ، هبت ريح شديدة أجبرت دوريا على التخلي عن تنفيذ خطته، وفضل الانسحاب [103].

لقد ظلت أنظار الأسبان مشدوهة نحو السواحل الجزائرية، فراحوا يعملون على تحقيق ما كان يدور في أذهانهم باستعمال كل الوسائل . وكانت وجهتهم هذه المرة نحو سواحل منطقة القبائل ، حيث سعوا إلى إبرام اتفاق مع ابن القاضي ، ليسمح لهم بإنزال قواتهم في ضواحي أزفون ، أين يقوم بمساعدتهم للهجوم على مدينة الجزائر[104]. من أجل هذا الغرض أرسلت بعثة من الباليار في عام 1603 بهدف ربط علاقات مع زعماء المنطقة، لكنها فشلت في مسعاها، حينئذ أرسل الأسبان حملة صغيرة تتألف من أربعة سفن كانت تحت قيادة نائب الملك في مايورقة إلى ميناء الفحم قرب أزفون [105]وبينما كان القائد يقوم بإنزال رجاله، فوجئ بحصار ضربه عليهم أهالي المنطقة ، فقضوا عليه وعلى ثمانين من رجاله[106] .

2 ـ إعادة احتلال وهران 1732 : لم يتحمل الأسبان حدث طردهم من وهران سنة 1708 ، حيث ظلت آثار الهزيمة ماثلة في أذهانهم ، ولذا فإنهم ظلوا حريصين على إعادة احتلالها . ولتنفيذ هذا المخطط أصدر الملك فيليب الخامس منشورا مؤرخا في 6 جوان 1732 من إشبيلية يطلب فيه الدعم الداخلي ومن الدول المسيحية لاسترجاع المدينة، ومما جاء فيه :<< إن التخلي عن وهران وتركها في أيدي المتوحشين يعني الإقرار بالهزيمة والعزوف عن تنصير الكفار ، ونشر الديانة ، ولذا قررت استرجاع المدينة ...، ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف الكبير أمرت أن يجتمع الجيش في أليكانتي >> [107].

وتنفيذا لهذا المنشور أعد الأسبان في مدينة أليكانتي جيشا يتألف من 30 ألف رجل. وفي 15 جوان أقلع الأسطول نحو وهران تحت قيادة الدوق دي مونتيمار) (Duc de Montemar، التي وصلها في 29 من الشهر . وتم الإنزال في عين الترك ، حيث كان المكان شبه خاليا من القوات العسكرية الجزائرية . وتمكنت القوات الأسبانية من التقدم نحو المرسى الكبير ووهران ، وواجهتها القوات الجزائرية في عدة معارك . ونظرا لعدم تكافؤ القوتين وتأخر وصول الدعم من الجزائر، اضطر الباي بوشلاغم إلى إخلائهما من السكان والجنود الذين لم يأخذوا معهم سوى الأسلحة الخفيفة ، وحسب أحد التقارير أن الأسبان وجدوا بها 138 قطعة مدفع ، من بينها 87 قطعة من النحاس [108]، وذلك في شهر جويلية.

إن أهم ما ساعد على الاستقرار من جديد في وهران مدة أخرى امتدت إلى غاية عام 1791 ، هو استغلالهم للتحصينات التي كانت قائمة فيها قبل خروجهم الأول منها في سنة 1708 ، إذ لم يقم بوشلاغم بتهديمها . وقد تلا هذا الحدث الذي أصاب الجزائريين في فقدهم لهذه المدينة للمرة الثانية ، استمرار المعارك، وفرض الحصار عليها من طرف القوات الجزائرية استمر قرابة سنتين. ولهذا فإن الأسبان في وهران قد عززوا من تحصينات المدينة ، حيث أضافوا تشييد حصون أخرى وخطوط دفاعية متينة خاصة من الجـهة الشـرقية والجنوبية من مدينة وهران[109] .

ولما فشل الأسبان في الاحتفاظ بالمدن التي احتلوها ، وعدم استطاعتهم البقاء في المدن الساحلية الأخرى لفترة أطول ، واستمرار الحصار عليهم في وهران ، عزموا في وقت لاحق على غزو مدينة الجزائر . ففي أواخر القرن الثامن عشر شنوا عليها ثلاث حملات بصورة منفردة أو عن طريق التحالف مع دول أخرى ، لكن الحظ في كل مرة كان في غير صالحهم ، فكانوا يرجعون منهزمين . وتتمثل هذه الحملات المتأخرة في حملة أوريللي سنة 1775، وحملتي بارثيللو في سنتي 1783، 1784 على التوالي .

3 - حملة أوريللي 1775 : لقد استمر الأسبان في سعيهم الحثيث من أجل احتلال مدينة الجزائر رغم المحاولات السابقة التي وقعت في القرن السادس عشر. ففي سنة 1775 حاول شارل الثالث [110] تحقيق ما فشل فيه أسلافه. وكانت وهران تتعرض من حين لآخر للهجوم من طرف القوات الجزائرية، مما أنهك الجيش الأسباني بها . فرأت السلطة في مدريد أنه لا مناص لها من أحد الحلين ، إما الانسحاب من وهران أو إخضاع العاصمة . فاختارت الحل الثاني. فجهزت حملة كبيرة تتألف من 22600 مقاتل، على متن أسطول تعداده 400 سفينة [111] حربية ونقل ، وعتاد حربي ومؤن وذخيرة . وقد حظي الملك الأسباني بتأييد الكنيسة وبعض الدول الأوربية على رأسها المدن الإيطالية . عين الملك دون بيترو كاستخون قائدا للأسطول ، بينما تولى قيادة الجيش الأميرال الأيرلندي الأصل أوريلي.

انطلقت الحملة من قرطاجنة في 23 جوان ، ووصلت إلى عاصمة الجزائر في أول جويلية . لقد اندهش الأسبان عندما شاهدوا شواطئ العاصمة محصنة بالمدافع ، وهذا ما دفعهم إلى اختيار خطة الإنزال البري ثم الزحف على العاصمة. بدأ الإنزال في مصب وادي الحراش في 8 جويلية ، الذي كان بطيئا مما سهل على سلطات الجزائر استقدام التعزيزات العسكرية من البيالك ، حيث

استجاب << الأمراء[البايات] الثلاثة للقدوم إلى الجزائر >>[112] تنفيذا لدعوة الداي.هذا ما أرغم الأسبان على الانسحاب وبطريقة غير نظامية ، لما أصابهم من ارتباك أرغمهم على ترك عتادهم والتخلي عن أسلحتهم ، والالتحاق بسفنهم الراسية في الساحل ، تاركين نحو 100 مدفع ، وآلات حربية أخرى ، وحوالي 3000 قتيل ، و 466 جريح [113]. وذلك بعد معركة دامت عشرة أيام .

4 ـ حملتا بارثيلو سنة 1783 و1784: لم تهضم أسبانيا رفض الجزائر عرض الصلح ، لذا وجه الملك شارل الثالث مرة أخرى أسطولا في صيف 1783 ، يقوده الدون أونطونيو بارثيللو ، يتجاوز عدد سفنه الثمانين ، وفي أول أوت باشرت قصفها على مدينة الجزائر ، وفي يوم 4 أوت اضطر البحارة الجزائريون إلى الخروج لمقاومة الأسطول الأسباني ، وأجبروه على التراجع بعيدا ، بحيث لم تتمكن قذائف مدفعيتهم من إصابة هدفهم . وقد استمرت المعركة إلى غاية يوم 9 من الشهر. وقد أحدثت القذائف خسائر في المباني ، لكنها لم تمس الحصون البحرية إلا بأضرار خفيفة ، وبلغ عدد الموتى من المسلمين 46 شخصا[114]. وبعد انسحاب القوات الأسبانية شرعت السلطات الحاكمة في ترميم ما تهدم من جراء القصف ، اتقاء لأي هجوم آخر . ثم بنت حصنا أكثر مناعة .

وفي جويلية سنة 1784 أعاد الأسبان كرتهم ، فأرسلوا أسطولا آخر تحت قيادة بارثيلو مرة أخرى ، يضم 130 سفينة حربية من كل الأحجام . وقبيل انطلاقها بقليل ، بارك البابا الحملة فأصدر بلاغا منح فيه البركة والغفران لكل مسيحي يشارك فيها .

بدأت المعركة في 12 جويلية واستمرت إلى يوم 22 من نفس الشهر ، حيث أجبرت الأسطول الأسباني على الانسحاب ويعود ذلك لجملة من الأسباب منها :

1 ـ الاستعداد الجيد من قبل الجزائريين ، الذي قاموا بإنشاء عددا من الحصون والقلاع الجديدة ، وبناء السفن .

2 ـ القصف المدفعي الجزائري من الحصون أجبرت السفن الأسبانية على البقاء بعيدا عن المدينة .

3 ـ خروج سفن الأسطول الجزائري وهي تحمل المدافع الكبيرة ، فأرغمت الأسطول الأسباني على البقاء بعيدا عن المدينة ، مما جعل قذائفه تسقط في البحر ، ولا تصيب المدينة .

4 ـ مشاركة المتطوعين من الرجال في القتال ، فقد وصف الزهار ذلك الحماس بقوله << وقت الخروج لملاقاة العدو ، تجد الناس يزدحمون على الركوب معهم ، ولا يصل لذلك إلا الرجل الشجاع >> [115]. وهكذا لم تحقق الحملة هدفها .

هوامش الفصل الثاني

(1) Elie de la Primaudaie : Le commerce et la navigation de l’Algerie, Lahure , Paris, 1861, p.245.
(2) Ch.de Rotalier :Histoire d’Alger et la piraterie des turcs dans la Meditérraneé à datté du seizième siècle, 2t., Paulin, Paris, 1841, T.1,p.35.
(3)Grammont, Op.cit., p.8.
(4)A.Pestemaldjoglou: Mers-el-kebir historique et Description de la forteresse, R.A., 1940, N.84, pp.160-163.
(5) Esprit Flechier: Histoire du cardinal Ximenés, J.Anisson, Paris, 1693, t.1, pp.363-364.
(6)للاطلاع على الشخصيات التي شاركت في الحملة أنظر: Fey:Op.cit, p.68
(7) Primaudaie: Op.Cit., p.248.
(8) Rozet & Carette: Algerie, 2ème. Ed.,Bouslama,Tunis , 1980. p.47.
(9) L. Didier, Histoire d'Oran, periode (1501-1550), Jeanne d'Arc, Oran, 1927, pp.100-101.
(10) Blum: Op.cit., p.160.
(11) حسن الوزان : وصف إفريقيا ج.2، ، ترجمة محمد حجي، دار المغرب الإسلامي ط. 2، بيروت ، 1982، ص.50.
(12) نفسه : ص.50.
(13) Charles Feraud: Conquètte de Bougie par les espagnols, d’après un manuscrit arabe, R.A., 1868, T.12, pp.248-249.
(14)P.Wintzer:Bougie place forte espagnole, B.S.G.A.O., t.45, 1925,p.191.
(15)Rotalier, T.1, p.65.
(16) وحددها مارمول بخمسة عشر ألف جندي. ج.2، ص.271.
(17) يقع هذا الضريح في أحد الأحياء الواقعة شمال غرب بجاية بين رأس فالكون ورأس بواك.
(18) لخضر درياس : المدفعية الجزائرية في العهد العثماني ، رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1989-1990، ص.26.
(19) Feraud: Op.cit., p.253.

(20) وهم أبو احمد بن اسماعيل بن علي الكناني ، وأبو عيشى بن ابراههيم الحنتاتي، وأبو يوسف بن الحسين بن علي ، وأبو علي بن محمد.
(21) وذلك في كتابه " عنوان الأخبار فيما مر على بجاية"، الذي ذكره فيرو ، ص.254.
(22)J. Cazenave: Pièrre Navarro conquérant de velez ,Oran, Bougie, Tripolie ,B.S.G.A.O.,1925, t.45, p.149.
(23) الوزان : مصدر سابق ،ص.42.
(24) الوزان : مصدر سابق ، ص. 35 .
(25) مجهول : غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق ، نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية ، الجزائر ، 1934،صص.30-31 .
(26) Jean Monlau: Les Etas Barbaresques, 2ème ed., P.U.F., Paris, 1973, p.53.
(27) رابح بونار : مدينة الجزائر تاريخها وحياتها الثقافية ، الأصالة ، ماي-جوان 1972، العدد 8، صص.80-81 .
(28) L.Galibert: L' Algerie ancienne et moderne,Fume,Paris,1844 , p.167.
(29) كانت مشيخة الجزائر في عهده تمتد من دلس شرقا إلى شرشال غربا.
(30) Haedo Diego de: Topographie et histoire generale d'Alger,Traduit par A.Berbrugger et Dr. Monnereau, R.A., 1870, T.14, p.415.
(31) Corrine.Chevalier: Les premières années de l'état d'Alger 1510-1541, O.P.U., Alger, 1986, p.23.
(32)Berbrugger, Op.Cit., p.15 .
(33) Henrie Garrot :Histoire generale de l'Algerie , Crescenzo , Alger, 1910, p.349.
(34) G.Marçais : Architecture Musulmane d'Occident, Tunisie, Algerie, Maroc, Espagne et Sicile, A.M.G., Paris, 1954, p.447.
(35) الوزان : مصدر سابق ، ج.2 ، ص.50 .
(36)Atallah Dhina: Les Etats de l' occident musulman aux XIIIe, XIVe et XVe siècles, O.P.U., E.N.A.L., Alger, 1984, ,p.277.
(37) Elie de la. Primaudaie: Document inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique 1506-1574.., R.A., 1875,T.19,p.73-75.
(38)Braudel: Les espagnols.., Op.Cit., R.A.1928, p.224 .
(39) ويليم سبينسر : الجزائر في عهد رياس البحر ، تعريب وتقديم ، عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1980 ، ص.28.
(40)Berbrugger: Op.Cit.,p.92 .
(41)مجهول : غزوات ، ص.67.
(42)Alfred Imbert: L'Amirauté d'Alger , B.S.G.A., 1907, p.419.
(43) Berbrugger: Op.Cit., p.92.
(44) Diego de Haedo: Histoire des rois d'Alger, Traduit , par H.D. Grammont, , R.A., 1880, T.24,pp.124-125.

(45) مجهول : ص.67 .

(46) Haedo:Histoire des rois.., p.125.

(47) Berbrugger:Le Pegnon.., p.92.

(48) Albert Devoulx: La Marine de la Régence d'Alger, R.A. 1869, T.13, p.389.

(49) Commandant Rinn: Le Penon de Argel ,B.S.G.A., 1902, 215.

(50)Walsin Esterhazy: La domination turque dans la Régence d'Alger , Paris , 1840, p.130.

(51) Primaudaie, Document.., p.165.

(52)Garrot, p.369.

(53) A. Devoulx: Quelques tempetes a Alger, R.A., 1871, T.15, p.342.

(54) للمزيد أنظر: Lacoste: La marine algerienne sous les turcs (L'Amirauté d'Alger à tous l'histoire , S.E.G.M.C., Paris, 1931,pp.18-30.

(55) Haedo, Histoire des rois.., p.127.

(56) مارمول كاربخال : إفريقيا ، ترجمه عن الفرنسية ، محمد حجي وآخرون ، ج. 2، نشر دار المعرفة ، الرباط ،1989، ص. 356.

(57)Encycopedie de l'Islam , T.4, Article : Shershel, p.362.

(58)كان قد التحق تحت خدمته منذ سنة 1528، بعد أن كان في خدمة الملك الفرنسي فرانسوا منذ سنة 152 الذي شرع في إعداد الأسطول سنة 1530 .

(59)Haedo: Histoire des rois.., p.127.

(60) عزيز سامح ألتر : الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا ، ترجمة د. محمود علي عامر، ط.1، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1989 ، ص.223.

(61)مارمول: ج.2، ص.357.

(62) Haedo: Histoire des rois.., p.128.

(63) Haedo: Histoire des rois.., p.128.

(64) يبدو أن دافع تخلي دوريا عن جنوده ، راجع إلى عدم التزامهم بالتعليمات التي أوردها هايدو ، والمتمثلة في : 1 ـ جمع الأسرى المسيحيين 2 ـ ألا يتفرقوا تحت أية حجة من اجل سلب المنازل. 3 ـ أن يلتحقوا بسرعة إلى المراكب فور سماعهم الإنذار والمتمثل في طلقة مدفع . أنظر : Haedo: Histoire des rois, p. 128.

(65)Garrot: Op.cit., p372.

(66)مجهول : ص.72.

(67) الجيلالي صاري :أضواء على أحد موانئ دولة بني زيان (هنين) ، مجلة التاريخ ، المركز الوطني للدراسات التاريخية ، العدد : 12، الجزائر ، 1986، ص.18.

(68) Lettre d'Astonio Rico au très noble Seigneur Lope Hurtado de Mendoza , R.A., 1875, T.19, p.151.

(69) Georges Marçais: Recherches d'archéologique musulmane, Honaine, R.A., 1928, T.28, 432.
(70)Primaudaie: Document.., R.A., 1875, T.19, pp.187-188 .
(71) مارمول ، ج.2 ، صص.296-297. ، وذلك في 24 أوت 1531 .
(72)Primaudaie: Document.., R.A., 1875, T.19, p.188.
(73)Ibid.: p.189.
(74)Marçais: Recherches.., p.343 .
(75) Primaudaie: Documents.., R..A., 1875, T.19,p.277.
(76) Avis donné à Tunis a Sa Magesté sur ce qui serait possible de faire la flotte pour nuir les ennemies , juillet 1535, Primaudaie, Documents, R.A., 1876, T.20, p.232.
(77) Ibid., pp.232-233.
(78) H'sene Derdour: Annaba 25 siècles de vie quotidienne et de luttes, S.N.E.D., 2t.Alger, 1982, T.2, pp.21.
(79) Primaudaie:Documents…, R.A., 1876, T.20, p.235.
(80) مارمول : مصدر سابق، ج.3، ص.9.
(81) مارمول : مصدر سابق، ج.3، ص.9.
(82) Mercier: O.p.Cit., T.3, p.41.
(83)Primaudaie: Documents…, R.A., 1878, T.20, p.235.
(84) مارمول :ج.3، ص.9.
(85) ميكال دي إيبالزا : حول ثلاثة أحداث غير معروفة من العلاقات التاريخية بين عنابة وأسبانيا ، ترجمة د.عبد الحميد حاجيات ، الأصالة ، 1976، العدد : 34-35،ص.113.
(86) أنظر فصل الآثار الثقافية من هذه الأطروحة.
(87) أنظر: Morel-Fatio Alfred: Historiograghie de Charles-Quint, Honore Champion , Paris, 1913.
(88)R.Basset: Documents Musulmans sur le siège d'Alger en 1541, Paris, Oran, 1890, pp.13-14.
(89) Haedo: Histoire des rois, Op.cit., p.62.
(90) Sander & Denis: Op.cit., t.2, p.305.
(91)Ruff: Op.cit.,p.107.
(92) Ibid: pp.120-124.
(93) Haedo: Histoire des rois…, p.354.
(94) أنظر هذه القصيدة في : جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر 1500 – 1830 ، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الجزائر ، 1987، صص.47-49.
(95) وذلك بتسلله في جنح الظلام إلى مرسى المدينة، فيقوم قسم من رجاله بإشعال النار في السفن ، وبينما يكون أهل المدينة في حالة اضطراب نتيجة لاحتراق السفن، يدخل غاسكون إلى المدينة

ويطلق سراح الأسرى المسيحيين ويوزع عليهم الأسلحة ، ثم يقو بعدئذ باحتلال المدينة ، فيظل متحصنا بها إلى غاية وصول الأسطول الأسباني.

(96) Braudel :La Méditrannée, Op.cit., t.2, p.197.

(97)Grammont: Op.cit, p.101-102.

(98) أنظر التقرير في : H.de Grammont: Relation des préparatifs faits pour surprendre Alger, R.A., 1882, N°26, pp.290-308.

(96) Ibid., p.296.

(100) وهو حفيد أندري دوريا الجنوي ، الذي كان في خدمة شارلكان.في سنة1599.

(101)Grammont: Relation.., Op.cit,.p.296.

(102) أنظر تفاصيل القوات في :Ibid.p.303

(103) Salvatore Bono: Les corsaires en Méditérranée ed. La porte, Cahors, 1998, pp.32-33.

(104) Si-Amar Boulifa: Le Djurdjura a travers l'histoire de l'antiquité a la période coloniale , Berti éditions , Alger , Sans date . , p.144.

(105) -Mercier , (E.): Histoire de l'Afrique septentrional , T. 3 , Ernerst Leroux , Paris , 1888, p.174.

(106) Berbrugger: Epoque militaires de la Grande Kabylie ,Batiste , Alger, 1857, p.108.

(107)A.Berbrugger: Reprise d'Oran par les espagnoles en 1732 R.A., 1864, t.8,.p.20.

(108) Tapié: La conquête d'Oran par les espanoles en 1732 , Imprimerie Emile collet, Oran, 1923.p.10.

(109) أنظر خريطة الحصون الأسبانية بوهران في الملحق رقم :

(110) ولد بمدريد سنة 1716 ،ابن فيليب الخامس، دوق على بارما (1731-1735)،ملك على نابولي وصقلية(1734-1759). ملك أسبانيا، ما بين(1759 – 1788).

(111) أنظر أحمد الشريف الزهار: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهارنقيب أشراف الجزائر ، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط.2، الجزائر، ص.26.

(112)ابن رقية ، الزهرة النايرة ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، 1967، العدد3،ص.26.

(113)L'Amiral Mazarredo: Expedition d'O'Reilly contre Alger en 1775, R.A., 1864, T.8, p.264.

(114) مجهول : تاريخ مجيء الصبنيول ، مخطوط ، المكتبة الوطنية الجزائر ، رقم 2285.ورقة2.

(115) الزهار : مصدر سابق ، ص.33.

الفصل الثالث

أسباب إخفاق الإسبان في التوسع نحو الداخل

من الملاحظ أن الأسبان قد تركز احتلالهم في بعض المدن الساحلية دون أن يتمكنوا من التوغل إلى المناطق الداخلية للبلاد ، باستثناء قدرة وصول قواتهم العسكرية إلى تلمسان ، وإلى بعض ضواحي معسكر، وهي أبعد مكان من الساحل الغربي . وهذا يعود حسب تقديرنا إلى عوامل عديدة نذكر منها ما يلي :

1 . استماتة الجزائريين في الدفاع عن أراضيهم :

كثير من الكتاب الغربيين من تجاهلوا ، أو قزموا دور السكان المحليين في الدفاع عن أرضهم خلال معالجتهم لبعض الأحداث ، أو المواقف الصعبة التي مرت بها هذه البلاد عندما كانت تتصدى لغارات الأساطيل الأوربية . وفي هذا السياق تحدث التمقروتي عن شجاعة الجزائريين عندما توقف بمدينة الجزائر خلال رحلته إلي اسطنبول التي وقعت بين 1589-1591 . فذكر أن << رياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر يقهرون النصارى في بلادهم . فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير وأعظم هيئة وأكثر رعبا في قلوب العدو...>> [1] .

ولم يقتصر دور الأهالي في تدعيم السلطة الحاكمة على النشاط العسكري فقط ، بل كانوا مجندين في أعمال التعبئة العامة ، عندما تستدعي الظروف . فقد ورد في تقرير سري أسباني ذكر فيه حاكم بجاية فرانسيسكو بيريز دي إيديا كاييز الحالة التي كانت عليها مدينة الجزائر . أرسله إلى صاحبة الجلالة الملكة، مؤرخ في بجاية في 29 مارس 1536، جاء فيه << ...وأخبرنا الأسرى المذكورون أن الأمطار الغزيرة التي انهمرت في فصل الشتاء قد هدمت سور المدينة في ثلاث جهات وعلى مسافات شاسعة ، وقد أقدم السكان على ترميم ما تحطم بكل سرعة ، لكن العمل لم يتم إلى الآن نظرا لعدم وجود البنائين العارفين. ويقولون هنا أنهم سيستعينون بألف خمسمائة ممن العرب المحيطين بالجزائر من أجل إنجاز العمل >> [2].

وكان السكان في كثير من الأحيان يعملون دور الحاجز في منع توسع الأسبان نحو ضواحي المدن الساحلية التي وقعت تحت أيديهم ، إذ يصطدمون

بالمقاومة ، عندما كانوا يحاولون التغلغل إلى الداخل . وهذا ينطبق بشكل واضح على مدينة بجاية . فإلى جانب أنها كانت أكثر الموانئ تعرضا للمحنة ، فإنها شهدت مقاومة عنيفة من قبل السكان . فمنذ الأيام الأولى للاحتلال حاصر القبائل المدينة حصارا دائما ، ولم يخرج الأسبان من المدينة إلا نادرا ، بل أنهم تخلوا عن الخروج منها ، لأن تلك المحاولات كانت تكلفهم غاليا [3]. وفي بعض الأحيان كانت الحامية الأسبانية تتعرض إلى الهجوم ، يذكر أنه عندما هم بيدرو نافارو لاحتلال طرابلس ، ترك في بجاية أحد ضباطه لقيادتها. وفي تلك الأثناء تزعم أبو بكر الهجوم على الأسبان ، وتمكن من التغلغل إلى داخل المدينة ، واستطاع أن يفرض السيطرة على حي باب البنود خلال الليل ، لكنه سرعان ما تم طرده من الأسبان بعد معركة ضارية ، خلفت العديد من القتلى بين الطرفين [4].

ولم يكن دور السكان غائبا أثناء مقاومة الغارات التي كان يشنها الأسبان . فقد ساهموا بشكل فعال خلال مقاومة حملة أوريلي سنة 1775 ، حيث أكد صاحب كتاب الزهرة النايرة ذلك بقوله : << مكثه كان خيرا إلينا لأن قبائل العرب كانوا يجيئون من كل ناحية إلينا>>[5] . كما تحدث أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر،عن تدافع الناس لمقاومة الأسبان خلال حملة بارثيلو سنة 1784، فيقول : << عندما يأتي وقت الخروج لملاقاة العدو ، تجد الناس يزدحمون على الركوب معهم ، ولا يصل لذلك إلا الرجل الشجاع . وقد سمعت من أحد الحاضرين ، أنه وقت الخروج لملاقاة العدو ، يصلي الناس صلاة الجنازة على الخارجين للحرب ، ويضج الناس بالدعاء والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . يخرج المجاهدون تصحبهم آلات الطرب والجوق كأنهم خارجون للنزهة >> . [6]

2 . انفتاح الجزائر على العناصر الأجنبية :

إقرارا للحقيقة فإنه لا ينكر الدور الذي قام به العنصر البشري الوافد إلى الجزائر في ظل تلك الظروف ، حيث وجدوا التسامح والترحاب خاصة المسيحيين ذوي الأصول الأوربية الذين اعتنقوا الإسلام ، فلم يشعروا بأي تمييز يفرقهم عن بقية السكان ، وهذا ما أدى إلى ارتباطهم بهذه الأرض ، حيث تمكن الكثير منهم بلوغ مكانة مرموقة سواء في الجهاز الإداري أو العسكري .

إن توافد العنصر الأجنبي الإسلامي على الخصوص إلى الجزائر لا يعود فقط إلى بداية القرن السادس عشر، بل يرجع إلى عهود سابقة بكثير، ذكر جون وولف << قبل أن يضع خير الدين جماعة "القراصنة" تحت حماية الباب العالي، كان

المجندون الشرقيون والأندلسيون وسكان المغرب الذين تولوا الحروب البحرية هم الذين يشكلون حقا لعمود الفقري لقوة سفن القرصنة >>[7].

ففي عهد عروج كان الجيش يتشكل من المجاهدين الجزائريين والتونسيين والمغاربة والزنوج ، وكذلك من الأسرى المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام . أما عدد المحاربين الأتراك الذين كانوا يحاربون في صفوف عروج وأخيه خير الدين في سفنهم ، فإنهم قليلون جدا . وهم ينتمون إلى عدة جنسيات مختلفة من يونان وشركس وروملبين وألبانيين . وكثيرا ما كان النصارى الذين يقعون في الأسر يعتنقون الإسلام ، فقد جاء في أحد الدراسات أنه من مجموع 25 ألف أسير في مدينة الجزائر في القرن السادس ، غير عدد معتبر منهم دينه من أجل تحسين أوضاعهم[8].

وكان من جهتهم الرياس والبحارة في أوقات لاحقة يجندون من الأجانب المسيحيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي إما كجنود بحارة ، وإما في الجيش الانكشاري ، إلى جانب الجزائريين من مختلف القبائل وأهل الأندلس . وهناك من التحق منهم بهذا الجيش من أجل المشاركة في الغارات البحرية قصد الحصول على الغنائم . وكان يطلق عليهم نعت العلج ، بينما كان النصارى يدعونهم بالمرتدين (Renégats)[9].

إن أغلبهم كان من النابوليتانيين والكورسيكيين والردانيين والمايورقيين ومن بلاد الإغريق ، والقليل منهم كان من فرنسا وانكلترا وهولندا وأسبانيا . و منهم من ارتقى إلى المناصب السامية لرتبة الباي أو الداي أو الباشا ، وذلك للقوة التي أبدوها في عمليات الجهاد البحري ، أو الثروات الكبيرة التي حصلوا عليها نتيجة الجهاد البحري ، ومن بين هؤلاء حسن آغا الذي يرجع أصله إلى جزيرة سردينيا ، وتربي في دار الإمارة بالجزائر على يدي خير الدين ، وتمكن في غيابه من رد العدوان الذي شنه شارل الخامس على مدينة الجزائر سنة 1541. أما بالنسبة لليهود ، فكانوا يعتبرون أنفسهم أجانب عن البلاد ، ولا تربطهم بالحكام في الجزائر سوى مصالحهم الخاصة ، ومع هذا الموقف منهم فإن حكام الجزائر قد سمحوا لهم بتولي المهام الاقتصادية ، وتمثيل الإيالة في الخارج نظرا لحصولهم على ثروات طائلة ونجاحهم في عقد الصفقات[10] .

وكان المسيحيون الذين يعتنقون الإسلام يحضون بمكانة خاصة ، وفي هذا السياق ذكر الأب لوسيان هيرو (Lucien Herault) أن أحد المسيحيين حضر لدى المفتي ، ووقع عقدا عن تأسفه لكونه مسيحيا . وبعد هذا الإعلان ارتدى لباسا إسلاميا منحه إياه الباشا والأميرال . كما أنه وافق على الختان ، بعدها تم الطواف

به عبر كامل المدينة على ظهر حصان عليه أقمشة مزركشة تزينه وهو يمسك بين أصبعي الإبهام والسبابة سهما يبدو عليه الاهتزاز أو التمايل ، ليبين أنه راسخ في إيمانه الجديد . وبعد هذه النزهة يقوم أربعـة أتراك كل منهم بحمل صوان لجمع الإعانات المالية لصالح هذا المسلم الجديد .[11]

3 ـ التعاون مع الدولة العثمانية :

جاء في بعض الروايات التاريخية أن اتصال العثمانيين مع الجزائريين يعود إلى سنة 1514، عندما دخل عروج وخير الدين إلى مدينة جيجل ، وقد سارع الأخوان إلى إرسال بعض الهدايا للسلطان سليم الأول ، وكان رد السلطان على ذلك بإرسال إليهما 14 سفينة حربية مجهزة بالعتاد والجنود . وقد حضي الأخوان بدعم سكان المنطقة [12]. غير أن اتصال سكان مدينة الجزائر بالسلطان سليم جاء وفق رسالة مؤرخة في سنة 925 الموافق لـ 26 أكتوبر 1519[13] ، وقد حملها وفد باسم قضاة وخطباء وفقهاء وأئمة وتجار وأعيان جميع سكان مدينة الجزائر[14]. يعود هذا الأمر منذ أن ألح مجلس أعيان مدينة الجزائر على خير الدين بالبقاء بينهم حيث قالوا له : << أيها الأمير لا تطيب أنفسنا بفراقك ، ولا نسمح لك بذلك فإن الله تعالى قد نصرنا بك على العدو ...يتعين جلوسك في هذه المدينة >>[15]. فلما أصروا عليه أن يبقى بينهم ، بين لهم أن حماية المدينة من تهديدات الكفار يستدعي << أن نصل أيدينا بالقوة الإسلامية وهو السلطان سليم خان ، ونعتمد عليه في حماية هذه المدينة ، ولا يكون ذلك إلا ببيعته والدخول في طاعته ، بالدعاء له في الخطب على المنابر ، وضرب السكة باسمه لنتـفيأ ظل حمايته >>[16]. فاستحسن أهل المدينة رأيه ، ووجهوا الوفد المذكور إلى القسطنطينية.

وكان رد السلطان على البعثة والخطاب بالإيجاب ، إذ سارع إلى تسمية خير الدين بايلرباي ، واعتبر أن أي اعتداء خارجي على الجزائر يعد اعتداء على الدولة العثمانية ، وأرسل إلى الجزائر قطع من سلاح المدفعية ، وكميات من الذخيرة الحربية ، وألفين من جنود الإنكشارية ببنادقهم . كما رخص بانتقال المتطوعين إلى الجزائر ، وقرر منح الذين يذهبون إلى الجزائر الامتيازات المقررة للجيش الانكشاري تشجيعا لهم على الانضمام على كتائب المجاهدين . وقد استجاب لنداء السلطان أربعة آلاف متطوع التحقوا بالجزائر[17].

وهكذا أدى هذا الاتصال إلى اعتبار الجزائر أول إقليم في شمال إفريقيا والبحر المتوسط يدخل ضمن لواء الخلافة العثمانية استجابة لسكان مدينة الجزائر، وليس ناتجا عن غزو أو فتح عسكري . ولما حل خير الدين باسطنبول

في نوفمبر 1533 ، سطر له الخليفة سليمان القانوني برنامج عمله في المستقبل، وخطط جهاده ضد الأساطيل المسيحية المتحالفة . ولما غادر العاصمة العثمانية في 11 جوان 1534، وكله السلطان على 100 سفينة حربية عليها ثمانية آلاف من جنود البحرية ، وعشرة آلاف من المشاة وثمانمائة جندي انكشاري ، ومكنه من أربعمائة ألف دوقا[18].

وهكذا فإن الدعم العثماني بالجنود والسلاح ، ساعد الدولة الجزائرية الفتية التي اتخذت مدينة الجزائر عاصمة لها على الوقوف في وجه العدوان الأسباني وإفشال مخططاته . وأصبحت إثر ذلك إحدى إيالات الدولة العثمانية . وفي المقابل اعتمد العثمانيون كثيرا في حروبهم البحرية ضد النصارى في البحر المتوسط على البحرية الجزائرية خاصة في القرن السادس عشر [19] .

4 . صمود مدينة الجزائر :

إن صمود مدينة الجزائر قد ساعد بشكل كبير على فشل الأسبان في عدم التمكن من القطر الجزائري ، خاصة خلال الحملات الأولى التي وقعت خلال العقدين الأولين من القرن السادس عشر . هذا الصمود كان وراءه قوى أخرى كانت تحول مياه البحر إلى زوبعة تقذف وحدات الأسطول الأسباني ، وتحطمها في العديد من المرات ، وتمنع من وقوع هذه المدينة في أيدي الغزاة ، وهذا ما جعلها تنعت بالمحروسة [20].

لقد استطاع الأسبان أن يحتلوا صخرة ستوفلا وتشييدهم قلعة عليها ، وهددوا منها مدينة الجزائر وضيقوا عليها الخناق وفرضوا الرقابة ، وقاموا بتفتيش الصادرات والواردات . وقد عرقل تواجدهم في هذه القلعة نشاط البحرية الجزائرية ، لدرجة أنه كان يستحيل على السفن الجزائرية استعمال مرسى المدينة، فكانت تضطر أن ترسو مناطق ساحلية أخرى غائبة عن أنظار الأسبان في القلعة . فرغم وجودهم القريب منها إلا أنهم فشلوا في احتلالها وهم على أرض هذه الجزيرة خلال عدواني سنة 1516، 1519[21] .

لم يتمكن الأسبان أن ينجحوا في حملتهم التي قادها دييغو دي فييرا على مدينة الجزائر رغم حداثة السلطة الجديدة القائمة بها التي كان يتزعمها عروج . فقد كانت لهم اتصالات وعلاقات مع بعض الزعماء المحليين ، مثل يحي بن سالم التومي ، الذي تلقى خطابا من هيغو دي مونكادي بتاريخ 18سبتمبر 1516، يخبره فيه استعداداته للحملة[22]، وخطابا آخر إلى مولاي عبد الله حاكم تنس. كما أن دي ريفييرا كان على اتصال مع قائد قلعة الصخرة نيقولاس دي كوينت ،

الذي نصحه بترك قوات احتياطية في المؤخرة من أجل تأمين رجوعه بعد انتهائه من مهمته ، واحتلال إحدى الصخور الكبرى المواجهة لباب الوادي لكي تصل منه التعزيزات والتزود بالماء [23].

وخلال حملة هيغو دي مونكادا سنة 1519،حاول الأسبان استغلال نفوذهم على تلمسان ، فاتفقوا مع الملك أبي حمو الثالث ليتقدم بقواته برا على العاصمة، بينما يتولون الهجوم عليها من البحر. ولهذا الغرض عين شارل الخامس نائب ملك صقلية هيغو دي مونكادي المالطي(Hugo de Moncade) ليقود هذه الحملة، وأن يحول جزءا من القوات الأسبانية الموجودة بأرض الجزيرة .وصل الأسطول الأسباني خليج مدينة الجزائر في 17 أوت 1519 ، وتم الإنزال في غربي مصب وادي الحراش . حاول قائد الحملة إدخال الرعب في صفوف الجزائريين ، بتوجيه خطاب تهديدي إلى خير الدين يدعوه فيه إلى الاستسلام ، ويذكره بمصير أخويه إسحاق وعروج . لكن خطاب التهديد لم يجد . عندئذ انتشرت قوات مونكادا في الأرض ووصلت إلى تل كدية الصابون ، الذي يشرف على المدينة . وقد واجهتم قوات مدافعة لمدة يومين . لم يباشر الأسبان هجومهم على المدينة وإنما كانوا ينتظرون وصول قوات تلمسان[24].وبعد مرور ستة أيام، خرج إليهم خيرالدين وبدأت المعركة بشكل عنيف في البر والبحر . انتهت في الأخير بانهزام الجيش الغازي ، خاصة وأنه في تلك الأثناء ثارت زوبعة بحرية حطمت سفنهم وكأنها مصنوعة من الزجاج على حد تعبير أحد الكتاب الأوربيين[25].

ومنذ نجاح مدينة الجزائر في درء أعمال العدوان الأولى ، فإن الحملات اللاحقة قد لاقت نفس المصير ، وكانت كل مرة تزداد تحصنا وتعزيز نظام الدفاع انطلاقا من الثغرات التي كان يتم كشف أمرها خلال الغارات المسيحية التي ما فتئت تتعرض لها المدينة من حين لآخر. ولهذا كثرت بها الأبراج ، وزيد من تشديد أسوارها ، وتقوية جهزها الدفاعي ، حتى أصبحت قلعة تتهاوى أمامها كل الغارات المسيحية . وهذا ما جعل شالير يقول عنها << جميع منافذ مدينة الجزائر تحميها تحصينات منيعة مسلحة بالمدافع الثقيلة التي تجعل كل محاولة مباشرة للسفن الحربية للهجوم على المدينة محاولة ميئوسا منها ، متى كان المدافعون يتمتعون ببراعة عادية وبعزيمة معقولة >> [26] .

5 - وجود طبقة حاكمة قوية :

لقد تولى الحكم في الجزائر في بداية عهدها عددا من القادة الذين كانوا يتميزون بالكفاءة والقدرة على التسيير المحكم للبلاد سواء على الصعيد الداخلي،

أو على صعيد مواجهة التحديات العدوانية الخارجية. وفيما يلي ذكر لأهم الشخصيات التي حكمت البلاد خلال النصف الأول من القرن السادس عشر.

عروج : الذي نظم الإدارة ، وضرب النقود ، وأسس جيشا قويا ، واتخذ راية رسمية تحمل ألوانا متميزة هي الأخضر والأحمر والأصفر، وأنشأ ديوانا الذي تناقش فيه أمور البلاد .

خير الدين باشا : من دون شك ، أنه عندما يذكر اسم خير الدين يرتبط ببداية عهد الدولة الجزائرية الحديثة في بداية القران السادس عشر. الذي ارتبطت في عهده الجزائر بالدولة العثمانية ، وشهدت هذه الدولة الفتية تنظيم الحكم ، وترتيب الإدارة ، وتصفية الوجود الأسباني في البنيون سنة 1529 انتشر صيته في مختلف أنحاء البحر المتوسط .

حسن آغا : يذكر أن أصله من سردينيا ، جاء به خير الدين إلى الجزائر. ولما كان يتميز بالنباهة والاستقامة حضي لدى خير الدين بمكانة خاصة جعلته يسند إليه أموره الشخصية. بل أسند إليه حكم الجزائر أثناء غيابه في اسطمبول . وقد أثني عليه الكتاب المعاصرون ، فقد قال هايدو عنه : << أناس من الذين عرفوه لا زالوا يذكرونه بخير ويثنون عليه ويعترفون له بالعدل والإنصاف والعزم والشجاعة>> [27]. أما صاحب كتاب الغزوات فقال: << كان رجلا عاقلا حازما سديد الرأي جيد التدبير له حظ من العلم والصلاح ...أنشأ إحدى وثلاثين غلياطة، بعد انتقال خير الدين من الجزائر فاشتدت بذلك وطأة الأسبان >> [28].

وأهم حدث شهده حسن آغا وهو يحكم الجزائر تعرض العاصمة لحملة شارل الخامس سنة 1541[29] ، فأسرع إلى جمع العلماء والأعيان واستشارهم في الأمر، وشجع الناس على الدفاع ، وزودهم بالسلاح.قال هايدو: << لم يظهر أي ملك في أية حالة من الأحوال أكثر شجاعة وحنكة مثلما أظهر حسن آغا في تلك الظروف مع الحصار الذي ضربه عليه الإمبراطور شارل الخامس >> [30]. فكان لشجاعة حسن آغا وحسن قيادته لفصول هذه المعركة، دورها في إدخال الرعب في قلوب جنود الإمبراطور وتحقيق الانتصار .

صالح رايس : كان صالح رايس أحد رفقاء خير الدين وكان في ميسرة الأسطول العثماني في معركة بيرفيزا سنة 1538، وإليه يعود الفضل في هزم أسطول أندري دوريا [31]. تولى الحكم سنة 1552، خلفا حسن باشا . من أهم أعماله إضعاف شوكة السعديين الذين كانوا بدروهم يتربصون بتلمسان . فاستغل النزاع القائم في فاس على الحكم بين الملك محمد المهدي أبي حسون المريني ،

وساند صالح رايس الأخير ، فتحرك بجيشه إلى فاس واحتلها ونصبه أبا حسون ملكا عليها سنة 1553 . لكن الملك الجديد لم ينعم بالحكم إلا لمدة تسعة أشهر، حيث تمكن الشريف محمد المهدي من الانتصار عليه ودخول فاس في 23سبتمبر 1554 [32]، ثم ألحق تلمسان بسلطته .

وفي الجبهة الداخلية اشتهر صالح رايس بتوحيده للبلاد ، حيث واجه تمردا من زعماء تقرت وورقلة ، حين رفضوا دفع الضريبة إلى السلطة المركزية في الجزائر العاصمة . فشكل جيشا يتألف من ثمانية آلاف شخص وأرسله تحت قيادة عبد العزيز، واستولى على تقرت بعد حصار دام أربعة أيام ثم استولى على مدينة ورقلة دون مقاومة. ومنذ ذلك الحين اقتنع سكانها بدفع الضرائب والتزموا بالولاء التام[33].على أن أهم انجاز اشتهر به صالح رايس في صراعه مع الأسبان، هو تحرير بجاية سنة 1555 . بعد حصار فرضه عليهم دام أسبوعين .

6 . انشغال أسبانيا بمشاكلها الداخلية :

بعد ذهاب الملكين الكاثوليكيين بدأت أسبانيا تشهد المشاكل الداخلية منها تلك التي عاشتها ما بين سنة 1519-1521. فقد عرفت خلالها أوضاعا داخلية متردية نتيجة لاندلاع ثورات في بعض الأقاليم . انشغل شارل الخامس في إخمادها ، منها الثورة التي قامت في بلنسية سنة 1519 ، والثورة في قشتالة . وأشد الثورات عنفا ، تلك التي شهدتها مقاطعات طليطلة وسيغوفيا وسالمنكا التي وقعت ما بين 1520-1521 . وقد تمكن الجيش الملكي من هزم الثوار في معركة فيالار (Villalar)في شهر فيفري 1521. كما تم القبض على زعماء الثورة ، كان في مقدمتهم خوان دي باديا الذين تم إعدامهم . واستسلمت المدن الثائرة ماعدا طليطلة التي قاومت بعض الوقت[34].

وفي عهد فيليب الثاني انشغلت أسبانيا بثورات دينية وانفصالية في الأراضي المنخفضة[35] . أدت إلى حروب طاحنة ، ألحقت بها خسائر كبيرة في الأموال والأرواح. ومما زاد من تصعيد الموقف الخطير ، الإجراءات التي طبقها الملك على هذه البلاد ، كتعيين موظفين أسبانيين وإرسال تعزيزات عسكرية إلى البلاد المنخفضة ، ومطالبة أهل البلاد التابعة لها بالمساهمة بالمال والرجال عندما اتسعت دائرة الحروب التي خاضتها أسبانيا . إلى جانب ذلك اتسعت دائرة محاكم التفتيش ، التي كان والده أدخلها من قبل إلى الأراضي المنخفضة . وانتشرت في هذه الأثناء مبادئ إصلاحات كالفتن الدينية ، فواجهتها الحكومة بالقمع والاضطهاد . أدت كل هذه الظروف إلى اندلاع الثورة في سنة 1566 من الجماهير الكالفانيين

، يخربون الكنائس والأديرة وينهبون ما بها في عموم البلاد . ومن أجل إخماد الثورة أرسل فيليب الثاني جيشا يتألف من جنود أسبانيين وإيطاليين بقيادة الدوق ألبا(Alva) ، ومعه سلطات واسعة ، فقام بإعدام 18600 شخص، وفر من البلاد ثلاثة أمثال هذا العدد [36].

لكن عزيمة الثوار الصلبة واستمرارهم في المقاومة ، أفضت في الأخير إلى انتزاع جزء كبير من الأراضي المنخفضة ، وتأسيس بها حكومة مستقلة . ونجح زعيمهم وليم أورنغ في توحيد سبع ولايات في الشمال (إتحاد أوترخت 1579). وبفضل مساعدة انكلترا وفرنسا لخلفه ابنه موريس تمكن من الاحتفاظ باستقلال الولايات الشمالية ، التي أصبحت تدعي هولندا .

ومما ساعد ثوار الأراضي المنخفضة على تحقيق هذا النجاح هو أن أسبانيا رغم قوة جيشها ، كانت تعاني من أزمة اقتصادية شديدة نتج عنها عجزها عن الإنفاق على تلك القوات ، فكانت كثيرا ما تمر الشهور دون أن تدفع مرتبات الجنود. كما أنها كانت ترسل النجدات إلى الكاثوليك في فرنسا ، وانشغال حاكم الأراضي المنخفضة اسكندر بارما من حين لآخر بحملات يأمره بها فيليب الثاني للسير نحو فرنسا مما يضطره للغياب عن البلاد[37] .

وظلت الحروب مستمرة بين موريس أورنغ وبين الأسبان الذين كانوا يرزحون تحت أعباء الحروب في الميادين الأوربية العديدة ، ولهذا عرضوا على جمهورية هولندا سنة 1609 هدنة مدتها 12 سنة ، التي تعد اعترافا ضمنيا باستقلال هولندا . وإثر انقضاء هذه المدة اندلعت الحرب من جديد حتى تم توقيع معاهدة ويستفاليا 1648 [38].

وفي بداية القرن الثامن عشر شهدت أسبانيا حرب الوراثة على العرش امتدت ما بين 1701-1713 و تضمنت حرب الملكة آن في أمريكا الشمالية ، كانت حرب الوراثة الأسبانية صراعا أوربيا كبيرا بدأت بوادره بالظهور في عام 1701 بعد موت الملك الاسباني شارل الثاني وهو آخر ملوك سلالة هابسبرغ. وكان شارل قد أورث كامل مملكته لفيليب دوق أنجو، وهو حفيد الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، فأصبح ملك أسبانيا باسم فيليب الخامس. وقد بدأت الحرب عندما شرع رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة ليوبولد الأول يطالب بأنه الأحق بعرش أسبانيا. وكان لويس الرابع عشر يقوم بتوسيع أراضيه في أوربا بعنف ، مما دفع جيرانه وعلى الأخص انكلترا وهولندا للدخول في تحالف مع الامبراطورية الرومانية المقدسة لضبط التوسع الفرنسي . وانضمت دول أخرى لذلك النزاع وامتدت المعارك من أوربا إلى أمريكا الشمالية، وأصبحت تعرف بين

المستوطنين الإنكليز في العالم الجديد بحرب الملكة آن . استمرت الحرب أكثر من عقد من الزمن ، وانتهت بتوقيع معاهدة أوترخت (Utrecht)عام 1713 . وقعتها الأطراف الأوربية المتنازعة بين شهري آذار/مارس و نيسان/أبريل ، أبرمت بين ممثلي الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، وممثلي الملك فيليب الخامس ملك إسبانيا من جهة ، وبين ممثلي الملكة آن ملكة المملكة المتحدة ودوق سافوي من النمسا وممثلي هولندا من جهة أخرى. وقد نصت الاتفاقية على:

1 ـ تثبيت فيليب حفيد لويس الرابع عشرملكا على أسبانيا ، وأملاكها الأمريكية.

2 ـ فازت النمسا بمعظم إقطاعيات أسبانيا في إيطاليا (نابولي، سردينيا، وميلانو) كما استولت على الأراضي المنخفضة الأسبانية (بلجيكا)[39].

7 ـ انشغال الأسبان بالحروب داخل أوربا وخارجها :

كانت إيطاليا منذ نهاية القرن الخامس عشر مسرحا للتنافس بين الكثير من الدول الأوربية من بينها أسبانيا . فقد دفعها طموحها إلى خوض سلسلة من الحروب مع فرنسا انطلقت في أواخر القرن الخامس عشر ، واستمرت إلى غاية سنة 1559 التي أبرمت فيها معاهدة كاتو كامبيرسيس (Cateau-Cambérsis) ، التي انتهت بموجبها هذه الحرب .

يعود انشغال أسبانيا بالمسألة الإيطالية إلى سنة 1495 عندما وقع الملكان الكاثوليكيان مع الإمبراطور مكسميليان والبابا حلفا مقدسا لمدة خمسة وعشرين عاما للدفاع عن الدول المسيحية ضد العثمانيين . لكن سرعان ما دخل هذا التحالف في حرب مع الفرنسيين الذين كانوا يحتلون نابولي وانتصر عليهم . وقد دفع فيرديناند هذا النجاح في إيطاليا إلى تطويق فرنسا وتجريدها من مقاطعة بروتانيا (Bretagne) . وفي سنة 1500 أبرم الملكان معاهدة غرناطة ، تقاسما بموجبها الطرفان نابولي ، يستولي لويس XII على المنطقة الشمالية ، وفرديناند على الجزء الجنوبي . لكن أمر التقسيم لم يسهل تحديده ، مما أدى إلى تجدد الحرب ، استمرت لمدة ثلاثة أشهر ، انتهت بتسليم الفرنسيين أمام غاييت (Gaete) سنة 1504 [40]. وبعد بضعة سنين ، عاد الفرنسيون إلى إيطاليا واحتلوا كل الأراضي الواقعة شمال نابولي ، فشعر البابا يوليوس الثاني (JulesII)[41] بالخوف وصمم على طردهم.ولما أحس لويس الثاني عشر بالمؤامرة دعا إلى عزل البابا، فقوبلت دعوته بالاستنكار من قبل الدول الأوربية.استغل البابا هذا الشعور وكون حلفا مقدسا سمي رابطة كامبري،(Ligue-Cambrai)في 5 أكتوبر 1511، ضم أسبانيا انكلترا البندقية

وسويسرا، وطرد الفرنسيين من الأراضي التي استولوا عليها في إيطاليا وذلك في سنة 1511 [42] .

تواصلت الحرب في عهد شارل الخامس ضد فرنسا حول المسألة الإيطالية، وذلك عندما غزاها فرانسوا الأول ، لكنه أسر من القوات الإمبراطورية سنة 1525، وأجبر على توقيع معاهدة مدريد سنة 1526 ، خسرت بمقتضاها فرنسا أجزاء كبيرة من حدودها، وتنازل الإمبراطور عن ادعاءاته في ميلانو ونابولي وجنوة مقابل إطلاق سراحه [43].

وفي السنة الموالية قامت القوات الأسبانية في إيطاليا بحركة عصيان بسبب تأخر في دفع رواتبهم تسببت في انتشار الفوضى واعتقال البابا كليمنت السابع [44] في أيدي المتمردين . استغلت فرنسا هذا الوضع وهاجمت مع بعض حلفائها الأراضي الواقعة في دوقية ميلان ، كما حاصرت نابولي ، لكن انتشار الأمراض بين الجنود الفرنسيين ، أجبرهم على الانسحاب . وعقد البابا مع الإمبراطور معاهدة برشلونة سنة 1529، استرجع بمقتضاها البابا جميع الولايات البابوبة ، مقابل تتويج البابا شارل الخامس إمبراطورا في 22 فيفري 1530[45] . وبعد تتويجه في إيطاليا ، ذهب شارل الخامس إلى ألمانيا للقضاء على حركة الإصلاح التي قام بها البروتستنت الخارجين عن الكاثوليك ، وتمكن هناك أن يهادنهم ويعقد معهم اتفاق نورنبرغ سنة 1532. وفي سنة 1547 تمكن الإمبراطور من إحكام قبضته على ألمانيا. لكن هنري الثامن استمر في الكيد لشارل الخامس بإثارة الأمراء البروتستانت ، فهاجمت قواته الحدود الألمانية سنة 1552، واستولت مع جيوش الأمراء الألمان على فردان وميتز[46].

وفي سنة 1555، تجددت الحرب بين البلدين في إيطاليا ، حيث استعان هذه المرة البابا بول الرابع مع الفرنسيين لأن شارل الخامس صالح البروتستنت ، انتهت لصالح فيليب الثاني . ولما شعر الجانبان بأن الحرب أنهكتهما وقعت بين البلدين اتصالات ثم مفاوضات في سنة 1558 توجت في الأخير إلى عقد معاهدة كاتو كامبيرسيس (Cateau Cambérsis)[47]. وأهم ما نصت عليه تنازل فرنسا عن ادعاءاتها في ميلانو ونابولي ، وعن دوقية ساقوري التي تضم سافوي وبيدمونت . واحتفظت فرنسا لنفسها متز ، تول وفردان[48].

إن طموح أسبانيا لم يتوقف عند إيطاليا ، بل استرعاها الاهتمام بجارتها الأيبيرية البرتغال ، فقد تمكنت من ضمها سنة 1580 ، عندما توفي ملكها دوم هنري ولم يترك بعد وريث للعرش . وهكذا أصبح فيليب الثاني ملك البرتغال . ففي إطار الصراع الديني الذي شهدته أوربا ، كان فيليب الثاني كاثوليكيا ، وقف

نفسه لخدمة الإيمان الكاثوليكي ، فإلى جانب إصراره على محاربة دعاة الإصلاح الديني في الأقاليم التابعة لنفوذه ، اجتهد في مناصرة وتدعيم أتباع المذهب الكاثوليكي في كل من انكلترا وفرنسا.

وفي انكلترا شهد الأسطول الأسباني ـ المعروف بالأرمادا التي لا تقهر ـ انتكاسة كبيرة في شواطئها ، عندما قرر الملك فيليب الثاني القيام بحملة لإبعاد الملكة اليزابيث الأولى [49] لينصب بدلها في لندن ملكة إيقوسيا ماريا ستيوارت الكاثوليكية . فتعرض الأسطول إلى التدمير في بحر الشمال بسبب سوء القيادة، وهبوب الرياح القوية ، إلى جانب مفعول القوات الانكليزية والهولندية ، ولم تسلم من الدمار سوى خمسين سفينة من مجموع مائة وثلاثون ، وذلك في سنة أوت1588[50] .

وفي فرنسا ظهرت جماعة من الكاثوليك تنعى الملك هنري الثالث[51] التساهل مع أتباع المذهب البروتستنتي ومنحهم أماكن لإقامة شعائرهم ، كما كانت هذه العصبة مشغولة بمسألة وراثة العرش ، لأن الوريث التالي هو هنري نافار من أسرة البوربون الذي يعد بروستنيا . ولكي يمنعوا وقوع هذا الأمر تحالفوا مع ملك أسبانيا فيليب الثاني ، بل أن بعضهم كان يفضل أن ينادى به ملكا على فرنسا كذلك . وقامت في وجه الملك ثورة في ماي 1588، وأدى التوتر في البلاد ، إلى أن أفلح أحد الكاثوليك في قتل الملك في أوت 1589. وقامت أسبانيا خلال هذه الاضطرابات بمد الحلف الكاثوليكي بالمساعدات العسكرية والمادية حيث تحركت القوات العسكرية من الأراضي المنخفضة ، متجهة إلى باريس لحمايتها ومنع هنري الرابع من دخولها كملك . وبعد صراع دام عامين أعلن الملك الجديد اعتناقه للكاثوليكية حتى يضمن العرش لنفسه ، ويقضي على أطماع الملك الأسباني فيليب الثاني . وهذا ما أدى هدوء المقاومة في باريس وفتحت له أبوابها سنة 1594 [52] .

وفي القرن السابع عشر وقعت أسبانيا في حرب مع فرنسا حول منطقة الأراضي المنخفضة ، حيث تمكنت قوات مازران [53] ، التي دفع بها إلى حرب الأسبان في هذه المنطقة . ولما انهزت القوات الأسبانية ، اضطرت أسبانيا إلى طلب الصلح ، وبدأت المفاوضات في عام 1643 ، ولم يتوصل الطرفان إلى اتفاق حتى سنة 1659 ، وقع الطرفان في 7 نوفمبر بتوقيع معاهدة البرانس. نصت على 124 مادة ، إلى جانب ثمانية مواد سرية [54] التي كانت تشير إلى انتهاء التفوق الأسباني في هذه الفترة وبداية التفوق الفرنسي.

وفي خضم هذه الحرب مع فرنسا ، قامت ثورة في البرتغال ـ التي كانت تابعة لأسبانيا منذ سنة 1581 ـ تزعمها الدوق براغانس (Bragance) في عام 1640،وتمكن من طرد الأسبان من بلاده ونصب نفسه ملكا باسم خوان الرابع[55].

وشهدت أسبانيا أزمة وراثة العرش ترتب عنها اندلاع حرب دخلت فيها العديد من الدول الأوربية دامت ما بين (1701-1714) انتهت بتوقيع الأطراف المتحاربة على اتفاقية أوترخت ، التي ثبتت فيليب الخامس ملكا على أسبانيا.

وشهد القرن الثامن عشر الميلادي دخول أسبانيا في نزاع مع بريطانيا عندما تنافستا من أجل السيطرة الاستعمارية في أمريكا. يضاف إلى ذلك أن أسبانيا أرادت استعادة جبل طارق ومينوركا من بريطانيا. ونتيجة لهذا النزاع تورطت أسبانيا إلى جانب دول أوروبية عديدة أخرى في حروب ضد بريطانيا . منها حرب الثورة الأمريكية (1775-1783م). فقد أصدرت أسبانيا في 16 جوان 1779، بيان تظلمات ضد بريطانيا ، ثم حشدت أسطولا يتكون من 28 سفينة تحت قيادة الكونت لويس دي كوردوبا. ثم غزت قواتها فلوريدا في عام 1779 التي سبق أن فقدتها لصالح بريطانيا سنة 1763م . وطبقًا لمعاهدة باريس التي انتهت بموجبها الحرب في عام 1783[56]،أعيدت فلوريدا إلى السيطرة الأسبانية. كذلك أقرت المعاهدة بسيادة أسبانيا على مينوركا، التي احتلتها القوات الأسبانية عام 1782م. واحتلت القوات البريطانية مينوركا مرة أخرى في عام 1798م، لكن بريطانيا أعادت الجزيرة إلى أسبانيا عام 1802م. وقد أدى الصراع مع بريطانيا إلى ضعف أسبانيا ، يكون من دون شك قد ساهم في إضعاف وجدودها في وهران والمرسى الكبير.

خاتمة الباب :

إن ما يمكن استخلاصه من هذا الباب أن العدوان الأسباني على الجزائر في بداية القرن السادس جاء نتيجة لتحولات شهدتها أسبانيا منذ توحيدها والقضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس سنة 1492 . وقد ترتب عن هذين الحدثين تطورات دفعت بالبلاد إلى تحقيق العديد من الأهداف السياسية والدينية والاقتصادية عن طريق غزو بلاد المغرب عموما والأوسط منها على الخصوص .

ومما ساعد على القيام بهذا المشروع هو الأوضاع المتردية في الضفة الجنوبية من البحر المتوسط . ولذلك فإنهم نجحوا في احتلال بعض المدن

الساحلية بالقوة العسكرية كالمرسى الكبير ووهران وبجاية ، وتمكنوا من وضع بعضها تحت سلطتهم بواسطة فرض المعاهدات ، لكنهم فشلوا في الاحتفاظ ببعض المدن الأخرى نظرا للمقاومة التي واجهوها . مثل شرشال وهنين وكذلك عنابة . على أن أهم مشروع ظل يراودهم هو احتلال مدينة الجزائر التي كرروا ضدها الحملات سواء في القرن السادس عشر أو في القرن الثامن عشر . وكان لاستعصاء هذه المدينة التي أصبحت عاصمة للبلاد قد عطلت من توسعهم في الأراضي الجزائرية ، إلى جانب عوامل عديدة ، تتعلق بتعاظم شأن الجزائر ، وانشغال أسبانيا في كثير من الأزمات الداخلية والحروب الأوربية وحتى في العالم الجديد ، مما جعل دورها يتقلص في الشمال الإفريقي ، وظلت المواقع المحتلة من قبلهم في الجزائر محاصرة إلى أن تم تحريرها نهائيا في سنة 1792.

هوامش الفصل الثالث:

(1) مولاي بلحميسي : الجزائر من خلال الرحـالة المــغاربة في العهد العثماني ، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، ط.2، الجزائر ، 1981 ، ص.57.

(2)Elie de la Primaudaie: Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506-1574) , Jourdan , Alger, 1875, p.214.

(3)مبارك الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث، م.ن.ج.، الجزائر، ج.3،1964،ص.29.

(4) Salvatore: Op.Cit., p.37.

(5) ابن رقية : مصدر سابق ، ص.27.

(6) الزهار: مصدر سابق، ص.33.

(7) جون وولف: الجزائر وأوربا : ترجمة أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1986، صص.106-107 .

(8)Pierre Boyer: Les Rénégats et la marine de la Régence d'Alger, R.O.M.M., 1er trimestre 1985,No39,p.94.

(9) Pierre Dan: Histoire de Barbarie et de ses corsaires, Rocolet ,2ème édition, Paris, 1646, p.333 et suivres.

(10) ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي : العهد العثماني ، سلسلة : الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984، ص.112.

(11)H.Klein: Feuilles d'El Djezair, 1913, T.6, p.55.

(12) محمد علي الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط.2، القاهرة ، 2004،ص.210.

(13)هي محفوظة في دار المحفوظات التاريخية باسطنبول ـ طوب قابي سيراي ـ تحت رقم 4656.

(14) تقول بعض الروايات أن أحمد بن القاضي هو الذي تولى زعامة الوفد . أنظر : عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج.2، ص.910 .

(15)ابن رقية : مصدر سابق ، ص.17.

(16) ابن أبي الضياف : أتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ج.1، 1976 ،ص.10 .

(17) Grammont :Histoire d Alger, Op.cit, p.30.

(18) ـ ابن أشنهو ، عبد الحميد : دخول الأتراك إلى الجزائر ، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 1972 ، ص.175.

(19) نذكر منها معركة بريفيزا سنة 1538، حصار مالطا سنة 1565، معركة ليبانت سنة 1571، معركة فالونا سنة 1639 .

(20) كما نعتت بألقاب أخرى ، منها البهجة ، المنصورة ، دار الجهاد . أنظر: M.Belhamissi : Alger la ville aux mille canons, ENAL, Alger, 1990, p.9.

(21) كان الأول تحت قيادة دي ريفييرا ، والثاني تحت قيادة هيغو دي مونكادي .

(22) Berbrugger: Op.Cit., p.28-29.

(23) Ibid.: p.35.

(24) تقول الروايات الغربية ، أنه ظهر خلاف بين مونكادا وبين أحد ضباطه وهو غونثالبو مارينو دي ريبيرا (Gonzalvo Marino de Ribera) حول طبيعة الهجوم ، فكان مونكادا يرى أن عدد قواته كافية لبدء لهجوم ، بينما كان غونزالفو يرى ألا يشرع في الهجوم إلى غاية وصول الدعم الذي وعد به ملك تلمسان ، أنظر : Rotalier: t.1, p.130

(25) Rotalier: Op.cit.,T.1, p.130.

(26)وليام شالر : مذكرات وليام شالرقنصل أمريكا في الجزائر ، تعريب إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1982 ، صص.72-73.

(27) Haedo: Histoire des rois.., R.A , 1880 , p.228.

(28)مجهول : الغزوات، ص.115.

(29) يذكر عن حسن آغا أنه أجاب عن تهديد شارل الخامس بالعبارات التالية: << أن أسبانيا غزت الجزائر مدة عروج باربروس الأول مرة وفي مدة خير الدين مرة ولم تتحصل على طائل بل انتهبت أموالها وفنيت عساكرها وهذه المرة الثالثة كذلك إن شاء الله. >>

(30)Haedo: Histoire des rois.., R.A., 1880, p.228.

(31) خليل الساحلي: تقليد صالح باشا ولاية جزائر الغرب سنة 1552، المجلة التاريخية المغربية ،، تونس، 1974، العدد الثاني ، ص.127.

(32) محمد مزين : الكتابات التاريخية المتعلقة برصد الخطاب المعتمد في علاقات المغرب بالعثمانيين الفترة السعدية، المجلة التاريخية المغربية ، جويلية 1983 ، العدد 29-30، ص.459.

(33) ألتر : مرجع سابق ، ص.185.

(34) Raphael Ballester: Histoire de L'Espagne , Payot, Paris, 1928, pp.163-165.

(35) كانت الأراضي الواطئة تشمل 17 مقاطعة ، أصبحت تابعة للتاج الأسباني إثر زواج الإمبراطور مكسمليان(1493-1519) مع ماري البورغوندية ، ثم ورثها عنه حفيده شارل الخامس ثم ابنه فيليب الثاني .

(36) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار : التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا ، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.، صص120-124.

(37) أنظر : Friedrich von Schiller: Histoire de la révolte qui détacha les Pays-Bas de la domination espagnole, traduction Française par: Adolhe Regnier, Hachette, Paris, 1883.

(38) كانت هذه المعاهدة خاتمة لحرب الثلاثين عاما ، كما أنهت عصر الإصلاح الديني ، وبقاء المذهبين الكاثوليكي والبروتستنتي متعايشان جنبا إلى جنب في أوربا التي تضمنت اعتراف أسبانيا باستقلال هولندا نهائيا.

(39) أنظر تفاصيل المعاهدة في : Sixte de Bourbon: Le Traité d'Utrecht et les los fondamentales du Royaume, Honnore , Paris, 1914.

(40)نور الدين حاطوم : تاريخ النهضة الأوربية ، دار الفكر، دمشق، 1968 ، ص.51.

(41) ولد في ألبيسولا سنة 1443، تولى البابوية سنة 1503حتى سنة 1513.

(42) Pierre Daru : Histoire de la Répubique de Venis, F.Didot, Paris, 1821, t.3, p.551.

(43) François Guichardin: Histoire des guerres d'Italie, traduite de l'italien par Favre et revue par Georgeon, Vaillant, , Londre, 1738, vol.3, pp.165-166.

(44) ولد في فلورونساسنة 1478، تولى منصب البابوية سنة 1523إلى سنة 1534.

(45) La Couronnation de l'Empereur Charles cinquième de ce nom, faicte à Boloingne la Grasse le mardy vingtdeuxième de fevrier: l'an de grasse mil cinq cent et trente, éditeurs, G.Dorrteman, avers, 1530.

(46) البطريق : مرجع سابق ،ص.81 .

(47) بلدة تقع بالقرب من الحدود الفرنسية البلجيكية .

(48) Ferdinand Bayard: Tableau analytique de la diplomatie française depuis la minorité de Louis XIII jusqu'à la paix d'Amiens , Prault, Paris, 1804, pp.47-48.

(49) ولدت في بلدة غرينويتش ، قرب لندن سنة   1533 ابنة هنري الثامن ، تولت الملك سنة 1558 إلى سنة 1603.

(50) Jurien de la Gravière: Les Marins du XV et XVIème siècle, Plon, Paris, 1879, t.1, p.140 et suivres.

(51)ابن هنري الثاني ، ولد سنة 1551 ، حكم فرنسا مابين 1574-1589.

(52) البطريق : مرجع سابق ، صص.156- 158.

(53)جول مازارين (Jules Mazarin) من أصل إيطالي ولد بيسينا (Pescina) جنوب إيطاليا سنة 1602. شهدت فرنسا في سنة 1642 وفاة الملك لويس الثالث عشر ووزره ريشيليو . تولى مازارين الوزارة خلفا لهذا الأخير في عهد الملك لويس الرابع الطفل ذي الخمس سنوات، وقد عينت والدته الملكة آن النمساوية الأصل وصية على العرش، واستطاعت أن تحافظ لابنها القاصر على ملكه بمساعدة الكاردين، توفي في سنة 1661 .

(54) للاطلاع على هذه المواد أنظر : Henri Vaste: Les Grands traités du règne de Louis 14, t.1, Alphose Picard, Paris , 1893, pp.93-175.

(55) Vertot: Histoire des révolutions du Portugal, Borrane, Paris, 1859, p.35et suivres.

(56) Roux de Rochelle: Etats-Unis d'Amérique,Firmin Didot, Paris, 1839, p.256.

ال‍ـ‍ب‍ـ‍ا ب ال‍ـ‍ث‍ـ‍ا ن‍ـ‍ي

الآثار السياسية

مقدمة الباب :

الفصل الأول : على الصعيد المحلي (الجزائر)

الفصل الثاني : على الصعيد الإقليمي (بلاد المغرب والأندلس)

الفصل الثالث : على الصعيد الدولي (البحر المتوسط والمحيط الأطلسي)

خاتمة الباب :

الباب الثاني

الآثــار السـياسـية

مقدمة الباب:

لقد أدى الغزو الأسباني لبلاد المغرب الأوسط ، الذي ترتب عنه احتلال مواقع عديدة من الشريط الساحلي ، الذي استمر مدة طويلة في وهران والمرسى الكبير ، إلى وجود آثار سياسية انعكست على تاريخ الجزائر الحديث ، فأصبحت البلاد منذ ذلك الوقت تعيش تغيرات سياسية أدت إلى أفول الكيانات السياسة القائمة وظهور أخرى . فقد زاد العدوان الأسباني في وهن الدولة الزيانية وتفكيك أوصالها ، من جراء احتلال منافذها البحرية وإجبار ملوكها على الولاء للأسبان ، وكانت من حين لآخر تتعرض للغزو العسكري الأسباني من أجل تنصيب ملك موال لهم . وتعرضت مملكة بجاية إلى الغزو مما أدى إلى نهايتها، وعانت إمارة الثعالبة في مدينة الجزائر إلى كثير من الضغوطات رغم أنها كانت موالية لهم . فعاشت المنطقة في فراغ سياسي ملأه زعماء القبائل لبعض الوقت إلى حين قيام سلطة جديدة في مدينة الجزائر في عام 1516 بقيادة عروج، التي تمكنت تدريجيا من ضبط الأمور وتوحيد البلاد ، والتصدي للخطر الأسباني . لكن تلك المواجهة كانت تحتاج إلى سند من دولة قوية مثل الدولة العثمانية الصاعدة . حيث أعلنت الجزائر الولاء لها ، وتمكنت بفضل ذلك الدعم من تعزيز مكانتها، أصبحت بموجبه مع مرور الوقت قوة بحرية تساند الدولة العثمانية في حروبها ضد الدول المسيحية التي كانت أسبانيا إحدى أطرافه الفاعلة . وقد استدعى الوضع بالجزائر إلى التجاوب مع وضع المجابهة مع الأسبان ، عن طريق ضرب المصالح الأسبانية في الأراضي التابعة لها في الجزر الأسبانية أو سواحلها البرية بهدف نصرة المسلمين الأندلسيين . ولما تطورت المواجهة في البحر المتوسط بين السفن المسيحية والسفن الإسلامية ، تمكنت البحرية الجزائرية من فرض وجودها في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، بل امتد نشاطها إلى المحيط الأطلسي ، مما دفع الدول الأوربية أن تدفع الضرائب للجزائر من أجل كسب ودها لتأمين حركة سفنها .

الفصل الأول

الآثار السياسية على الصعيد المحلي

أ ـ الإسهام في إسقاط القوى السياسية المحلية :

لقد سعى الأسبان منذ أن وجهوا عنايتهم ببلاد المغرب الأوسط إلى النيل من القوى السياسية القائمة فيه ، باستعمال وسائل متعددة ، مثل التجسس ، والتحالف مع بعض الأمراء ، والغزو ، والعمل على منع بعضها من تحالف مع القوى المعادية لهم في نفس المنطقة ، وخاصة مع السلطة في مدينة الجزائر بعد قيامها.

1 ـ الدولة الزيانية :

لقد عرفت الدولة الزيانية متاعب كثيرة ، منها التدخلات الأجنبية في شؤونها الداخلية ، من سلاطين الدول المجاورة ، المرينيين في المغرب الأقصى والحفصيين في تونس . كان آخرها التعرض إلى الخطر الأسباني ، الذي تطور إلى التلاعب بمصيرها من أجل السيطرة عليها . لقد وصلت مملكة بني زيان خلال النصف الأول من القرن السادس عشر إلى درجة قصوى من الضعف بسبب النزاع الداخلي بين أمرائها على كرسي الحكم . وقد شجع هذا الوضع الأسبان على تطبيق مخطط عملي للنيل من هذه الدولة ، منها الأعمال التجسسية والإسراع في احتلال أهم موانئها ، ثم الاتصال مع حكام تلمسان وترغيبهم في الوقوف إلى جانبهم. وكانوا من حين لآخر ينظمون هجوما على تلمسان لتأمين تلك التبعية .

تجسس الأسبان على تلمسان :

عقب سقوط مملكة غرناطة عينت الملكة إيزابيلا لورينثو دي باديا (Lorenzo de Padilla) ، حاكم مدينة القلعة في الأندلس في مهمة سرية تجسسية، تتمثل في استطلاع أحوال تلمسان وتوابعها التي لجأ إليها كثير من الأندلسيين . فذهب إلى هذه المملكة خلال سنة 1493[1] متلبسا في صورة تاجر من أهل البلد ، واستقر بها لمدة زمنية تجاوزت السنة ، تمكن خلالها أن يرصد أخبارا هامة عن المنطقة ، وتحصيل المعلومات الضرورية للقيام بأعمال الغزو الذي كان بصدد التحضير له .

أما الكاردينال خيمينيس ، فقد قرب إليه تاجرا من البندقية يدعى جيرومينو فيانيللي (Geromino vianelli) ، الذي كان عارفا بشؤون الرحلات إلى شمال إفريقيا ، وعلى اطلاع واسع بسواحلها ، حتى بعض المناطق الداخلية . فقد سبق له وأن تردد على تلك المناطق عدة مرات بصفته تاجرا . وخلال لقاءاته المتكررة مع الكاردينال ، كان يبلغه عن أخبار المنطقة الساحلية . فهو الذي وجه أنظار الأسبان نحو ميناء المرسى الكبير، الذي اعتبره موقعا ممتازا، ووكرا رئيسيا

للتجار المغاربة والأندلسيين الذي التحقوا به . كما أنه وجه عنايتهم إلى مدينة وهران ، التي اعتبرها المدينة الأجمل ، وأكثر المدن الساحلية غنى ويسرا [2].ولتوضيح المناطق الساحلية وتقريب معالمها أكثر إلى ذهنية الكاردينال خيمينيس ، قام الجاسوس المذكور برسم خريطة لكل الساحل ، إلى جانب ذلك شكل نموذجا مصغرا من الشمع يمثل بلدة المرسى الكبير وقلعتها [3].

وكانت عناية الأسبان قبل توجيهات فيانيللي منصبة نحو مناطق ساحلية أخرى، حيث كان تفكيرهم في البداية موجها نحو مدينة هنين الزيانية ، لأنها مدينة مشهورة بتجارتها . كما أنها كانت في بعض الأحيان هدفا لغارات القراصنة الأسبان ، الذين سبق لهم أن استولوا منها على كثير من الأسلاب والأسرى [4].

وفي سنة 1494 أرسل فرديناند جاسوسا آخر يدعى فيرناندو دي زافرا (Fernando de Zafra) الذي كان كاتبا للملكيتن الكاثوليكيين ، فقد سبق له أن كلف منذ سنة 1492 بمراقبة حركة الأندلسيين المهجرين إلى السواحل الإفريقية، كما سمحت له الظروف الاطلاع على أحوال القبائل الساحلية الخارجة عن طاعة مملكة تلمسان[5]. وفي نهاية مهمته أرسل هذا الجاسوس تقريرا إلى سيده يبلغه فيه عن حالة الفوضى السياسية والاضطراب التي كانت تتخبط فيه المملكة .

استغلت الملكة إيزابيلا تلك المعلومات وقررت تنفيذ مشروع الغزو لمملكة تلمسان ، فأعدت جيشا بلغ عدده 12000 جندي ، ترأسه دي تينديا DeTendilla الحاكم السابق لغرناطة . غير أن موتها في سنة 1504 ، عطل تنفيذ مخططها . غير أن رغبتها لم تذهب أدراج الرياح، بل ظلت موجودة ضمن وصيتها [6]، التي تكفل بتنفيذها زوجها الملك فيرديناند والكاردينال خيمينيس . وتمكن الأسبان إثر ذلك من احتلال المرسى الكبير ووهران وبجاية ، وفرض سيطرتهم على مدن أخرى بواسطة المعاهدات[7] .

وبعد احتلالهم لهنين سنة 1531 ، واصل الأسبان نشاطهم التجسسي ، وذلك باستخدام بعض الأفراد العرب الذين كانوا يكيدون لملك تلمسان أبي عبد الله محمد(1528-1540) [8]. إذ جاء في خطاب أرسله حاكم هنين "د.إنيغو دي بالليخو باتشيكو" (D.Inigo de Vallejo Pacheco) ، مؤرخ في 13 مارس 1534 ، إلى شارل الخامس يخبره فيه عن الأحوال الداخلية لتلمسان ، بناء على ثلاثة تقارير تجسسية تلقاها في أيام 9 و 10 و 11 من الشهر ذاته ، من العرب الجواسيس ذكر فيها << قد حذروني عادة عما يحدث في داخل المملكة ، وأن

المعلومات التي زودوني بها تعد صحيحة على الدوام ، ولي أن أثق فيما قالوه لي >>[9].

وكانت تقاريرهم أحيانا تحمل أخبارا كاذبة ، نذكر منها على سبيل المثال التقرير المؤرخ في 26 أفريل من سنة 1534 ، الذي أرسله حاكم هنين قبل تدميرها، الدون إينيغو دي بايي كو باتشيكو (don Inigo de Vallejo Pacheco)، إلى الإمبراطور تكلم فيه عن الأوضاع السائدة في تلمسان ، ثم جاء فيه أن ملك تلمسان مولاي محمد أعد جيشا يهدد به الأسبان ، وأضاف بأنه أعلم من طرف أحد الجواسيس بموت خير الدين ، مبرزا له تأثر ملك تلمسان بعد سماعه ذلك الخبر[10] ، لعلاقته الحميمة مع خير الدين[11]. وقد مكنت هذه الأعمال الاستطلاعية الأسبان الحصول على أخبار المملكة ، حتى جعلت قواتهم العسكرية تتغلغل ابتداء من سنة 1515 إلى السهول العليا الوهرانية عند المنحدرات الرملية لجبل عمور[12]، ثم استغلوا استنجاد بعض الأمراء الزيانيين بهم ، فكانوا يرسلون الغارات العسكرية ضد تلمسان.

الغارات الأسبانية على تلمسان :

لقد ظل الأسبان في وهران حريصين على إبقاء ملوك تلمسان موالين لهم بعد قبول ملك تلمسان محمد الخامس بن محمد الثابتي (1505-1516) ، الخضوع لسيادتهم في سنة 1512 [13]. فأيدوا كل أمير زياني تعاون معهم ضد منافسيه ، وكانوا يشنون الغارات على تلمسان من حين لآخر من أجل إزاحة الأمراء المعادين لهم وتنصيب المستجيرين بهم في سنوات: 1518، 1535، 1543 ، 1544، 1547.

- حملة 1518 على تلمسان : وفي عهد أبي حمو الثالث بن محمد الثابتي (1516-1528) الذي التزم بمبدأ مسالمة الأسبان متبعا سياسة أخيه ،تجدد الصراع العائلي على الحكم في تلمسان ، عندما تحزب ضده أنصار أخيه أبي زيان - الذي السجن - واستنجدوا بعروج ، فتوجه هذا الأخير إلى تلمسان وأطلق سراح الملك المسجون ، ونصب أبا زيان في الحكم ، وفر أبو حمو الثالث إلى وهران عن طريق فاس [14].

لم يكن أنصار أبي حمو مرتاحين للأوضاع الجديدة التي أصبحت تعيشها مدينتهم ، فكانوا ناقمين على عروج . وكانت سياسة هذا الزعيم ترمي إلى تكوين سلطة قوية في هذه المنطقة ، حتى تتمكن من مواجهة الأخطار المتربصة بها وخاصة الأسبان الذين ذهب أبوحمو يستجير بهم . فأدت سياسته هذه ، وسلوكات

البعض من جنوده تجاه السكان، التي أثارت غضبهم ، إلى وقوع الفتنة من جديد في تلمسان ، وجعلت عروج يقدم على قتل الملك أبي زيان ، إلى جانب سبعين شخصا من أفراد أسرته ، كما قضى جنوده على بعض سكان المدينة [15]. ثم اتخذ عروج من قلعة المشور مقاما له ، وقام بترميم أسوارها ، وأعاد تحصين المدينة تحسبا لمواقف أبي حمو والأسبان . كما راح يعمل على كسب ولاء سكان ضواحي تلمسان وأحوازها ، فأرسل إليها مفارز عسكرية يدعوها إلى إعلان الطاعة له[16]. فأعلنت قبائل بني عامر وبني سناسن ولاءها له ، والتزمت بدفع الضرائب حبوبا لتموين الجيش من أجل صد الحصار الأسباني المتوقع على تلمسان .

ومن فاس راسل أبو حمو الأسبان في وهران قبل التحاقه بها ، مستغلا سوء أحوال الأسبان فيها ، لأن عروج منع أهل قلعة بني راشد تزويدهم بالمحاصيل الزراعية التي كانت تنتجها المنطقة. ومما قاله لهم: << أنظروا ما حل بك حين انقطعت دولتنا عنكم وتمكنت منها الأتراك ، كيف قطعوا عنكم الميرة من القلعة وغيرها >> . كما ذكر لهم أن سبب ذلك يعود إلى عدم تقديم النصارى له العون لقتال عروج ورجاله [17] .

وكان أبوحمو قد توجه إلى وهران في سرية تامة مع أبنائه وأتباعه . ومن أجل النجاح في مهمته أرسل أحد إخوانه إلى الإمبراطور شارل الخامس ، الذي كان يتخذ من مدينة طليطلة مقرا لحكمه . وبعد استقبال الإمبراطور للأمير الزياني ، وعده بتقديم المساعدة التي طلبها [18] . وذكر بعض الكتاب الأوربيين أن أحد شيوخ ضواحي تلمسان يدعى بورقبة ، توجه هو الآخر إلى وهران يطلب من القائد الأسباني مساعدات عسكرية لمحاربة قوات عروج ، وأنه سلم له اثنين وثلاثين طفلا من أبناء الأعيان كرهائن ، بناء على طلب الأسبان مقابل تقديم المساعدات [19].

استغل القائد الأسباني غوماريس نداءات أبي حمو وبورقبة ، وأرسل تقريرا إلى الملك الأسباني يدعوه فيه إلى ضرورة ضم تلمسان إلى سلطتهم ، أو تشكيل حكومة موالية لهم فيها. كما طلب مساعدات عسكرية لتنفيذ ذلك المخطط ، فوافق الملك على تزويده بجيش يتألف من عشرة آلاف رجل [20].وقبل وصول تلك القوات من أسبانيا أرسل دي غوماريس نجدة عسكرية تتألف من ثلاثمائة جندي إلى قلعة بني راشد لاعتراض المساعدات التي طلبها عروج من أخيه خيرالدين في مدينة الجزائر، ثم أرسل القائد الأسباني قوات أخرى تتكون ن 600 جندي [21].

توجت هذه الإجراءات بخروج القائد مارتينيز دي أرغوت من وهران ومعه أبي حمو إلى تلمسان ، وفي طريقه إليها استولى على قلعة بني راشد وقضى على الحامية التابعة لحكومة الجزائر، التي كان على رأسها اسحاق أخ عروج . ولما وصل إلى تلمسان ضرب عليها حصارا استمر لمد ستة أشهر. ولشدة القصف المدفعي الأسباني اضطر عروج إلى ترك قلعة المشور، فتعقبته القوات الأسبانية وقتلته في معركة شديدة ، وذلك في شهر ماي 1518 [22] . بعدها دخل الجيش الأسباني تلمسان وعينوا أباحمو الثالث ملكا عليها ، وأملوا عليه معاهدة أخرى مؤرخة في 13 سبتمبر 1535 كانت تحتوي على قيود كثيرة تجعله واقعا تحت هيمنتهم [23]. لعل من أخطرها المادة التي تقول : << أن يكون الملك صديقا لمن يصادق جلالته ، وعدوا لمن يعاديه >>. كان ذلك الشرط موجها من دون شك إلى عدم تعاونه مع السلطة في الجزائر . وقد استغل الأسبان هذا التحالف مع تلمسان وخططوا لضرب مدينة الجزائر، واتفقوا مع أبي حمو أن يهاجم المدينة من البر ويتولون هم بمهاجمتها من جهة البحر . ولما جاء هيغو دي مونكادي مع جيوشه سنة 1519 ، تخلف أبو حمو عن الموعد[24]، وفشلت الحملة في تحقيق أهدافها .

ـ حملة "أونجيلو مارتينيز" 1535 : في عهد الملك أبي محمد عبد الله بن محمد الثابتي (1528-1540) تعرضت تلمسان إلى مكيدة أخرى أدت إلى غزوها مرة أخرى. لقد كان هذا الملك يميل إلى التحالف مع خير الدين لتعاظم شأن الدولة الجزائرية في عهده خاصة بعد تمكنه من تحرير الصخرة من الوجود الأسباني بها سنة 1529 . وكان عبد الرحمن بن رضوان أحد كبار شيوخ قبيلة بني عامر يود تنصيب حفيده الطفل[25] عبد الله الأخ الأصغر لمحمد بن عبد الله على ملك تلمسان. ولهذا الغرض اتصل بلأسبان في وهران ، الذين وافقوا على مساعدته. فلوسل حاكم وهران ميلغاريخو(Melgarejo) خطابا إلى الإمبراطور مؤرخا في 11 سبتمبر 1534 ، يخبره فيه عن رغبة ابن رضوان في السماح له بالالتحاق بمدينة وهران مع حفيده ، كما نصح الإمبراطور في نفس الرسالة على ضرورة استقباله من أجل كسر التحالف بين ملك تلمسان والسلطة في مدينة الجزائر[26] . وقد أدت تلك المساعي إلى انتقال ابن رضوان مع حفيده إلى مدينة وهران في 3 فيفري 1535 [27] . ووافق الكونت دالكوديت ـ الذي التحق بوهران خلال تلك السنة ـ على تزويده بقوة عسكرية تتألف من ستمائة رجل ، وأرسل معهم أربع قطع من المدفعية الصغيرة [28].

وقد أدت تلك التحركات إلى تعرض تلمسان من جديد إلى غزوة أخرى . ففي سنة 1535 وجه قائد وهران الكونت دالكوديت حملة أخرى على تلمسان قادها

ابن عمه ، ألونسو مارتينيز دي أونجيلو (Alonso Martinez de Angelo) مصطحبا معه ابن رضوان ومعه أربعمائة فارس . وسلم ملك تلمسان قيادة جيشه للمنصور بن بوغانم زعيم قبيلة بني راشد ، فخرج لمنع المعتدين من التقدم نحو تلمسان ، وبدأ القتال بين الطرفين ، استمر لمدة ثلاثة أيام [29]. اضطر خلالها مارتينيز إلى الاحتماء مع قواته بين خرائب الأسوار.

وفي 4 جويلية تغلغل مائة فارس من بني راشد إلى داخل المعسكر الأسباني ، وتمكنوا من تشتيت قواتهم . وأجبروهم على القتال في حالة تراجع حتى ينسحبوا بأقل الخسائر. وخوفا من الهلاك تظاهر مارتينيز بجنوحه إلى التفاوض مع قائد بني راشد، بينما ذكر مارمول أن المنصور << لما تحقق من ضعف مارتينيز جاء فورا إلى تبدة مع جميع الأعراب والبربر بدعوى التفاوض >>[30]. حيث أرسل مترجمه يطلب من ابن غانم السماح له ولقواته العودة بسلام إلى وهران. لكن المنصور أدرك نية عدوه في ربح الوقت ، ريثما يتمكن من طلب المساعدات من وهران ، ففوت عليه الفرصة . وتقدمت قواته إلى داخل التحصينات الأسبانية ، فألحقت بهم هزيمة نكراء ومن كان معهم من العرب ، وقضت على عدد كبير منهم [31] ، من بينهم أحد الضباط يدعى بالبوا (Balboa) ، أما عن عدد الأسرى فهناك من حددهم بسبعين رجلا [32]، كان من بينهم القائد مارتينيز ، الذي اقتيد مع الأسرى الآخرين إلى تلمسان ، وكان مصيره فيما بعد القتل. بينما تمكن الآخرون من الفرار والالتحاق بوهران في أيام متفرقة [33]. أما عن الخسائر البشرية التي ألحقت بأهل تلمسان ، فقد بلغت مائتي رجل [34].

- حملة 1543 على تلمسان : عندما توفي الملك أبي محمد عبد الله سنة 1540 خلفه في الحكم ابنه أبو عبد الله محمد [35]. وكان الملك مواليا للأسبان في وهران . فثار عليه أخوه أبوزيان أحمد في سنة 1542 بتأييد من قوات حسن باشا بن خير الدين ، وافتك منه الحكم . فهرب محمد السابع إلى وهران يستجير بالأسبان كالعادة ، ووضع نفسه تحت حمايتهم . ولهذا عزم الكونت دالكوديت على غزو تلمسان بنفسه. فشرع في تنظيم حملة كبيرة على تلمسان يقودها بنفسه .

وفي 27 جانفي 1543 ، خرج إلى تلمسان على رأس قوة عسكرية تتألف من أربعة عشر ألف جندي ، وخمسمائة فارس [36]. وقبل خروجه ببضعة أيام ، اتصل ابنه ألونسو ببعض القبائل مثل أولاد موسى وتسالة لا ستمالتهم إلى جانب الأسبان ، وتزويدهم بعدد من الجمال والماشية . غير أن هؤلاء رفضوا العرض الأسباني . وحسب بعض الروايات التاريخية الأوربية فإن أبا زيان حاول

التفاوض مع الأسبان ، ومنحهم مائتي ألف دوقا، مقابل تخليهم عن فكرة الزحف على المدينة ، فرفض الكونت ذلك العرض .

ولما فشلت تلك المساعي ، دعى قائد بني راشد المنصور بن بوغانم إلى الخروج بقواته[37] من تلمسان لمواجهة دالكوديت وقطع الطريق عنه . فقاتلهم عند وادي يسر، لكنه لم يتمكن من وقف زحفهم، فتواجع أمام القوات الأسبانية ، نتيجة للتسلح الجيد للأسبان ، وارتفاع عدد القتلى في صفوف رجاله . حيث أكد ذلك مارمول في قوله أن الأسبان : << قتلوا العديد منهم >>[38] وهكذا تمكن الأسبان بلوغ حصن تيبدة وعسكروا فيه .

ولما وصلت أنباء هزيمة جيش المنصور إلى تلمسان ، نقل الناس نساءهم وأطفالهم إلى الجبال المجاورة في ليلة 4 –5 فيفري ، ثم عادوا إلى المقاومة . وخرج من جهته الملك أبو زيان على رأس قواته [39]. بالإضافة إلى الأربعمائة جندي التي تركها لديه حسن آغا.

وفي يوم 5 فيفري واجه أبو زيان الكونت دالكوديت عند أسوار المدينة ، في معركة عنيفة استمرت من العاشرة صباحا إلى غاية المساء ، وفي الأخير أجبر أبا زيان على الانسحاب مع رجاله إلى منطقة أنغاد [40]. وقد ذكر بعضهم أن الخسائر البشرية كانت كبيرة من جانب ملك تلمسان ، دون تحديد عددها . وقتل من الجيش الأسباني ثمانمائة جندي ، وجرح ما بين ثمانية واثني عشر آخر [41] ، كان من بينهم ابن الكونت ؛ الدون مارتين دي كوردوبا (Don Martin de Cordova) .

وفي 6 فيفري دخلت القوات الأسبانية مدينة تلمسان ومعها أبي عبد الله محمد، وتعرضت المدينة إلى النهب والتدمير ، فقد << نهبوها من أقصاها إلى أقصاها، وهم يقتلون أو يأسرون كل من يصادفونه فيها >> [42]. وانتقموا خاصة من القبائل التي رفضت مساندتهم [43]. كما وضعوا في أيديهم كل ما وجدوه من مختلف أنواع المؤونة كالقمح والشعير والزبيب والأنعام . وبعد مرور خمسة وعشرين يوما من دخوله المدينة ؛ خرج دالكوديت من المدينة للسطو على قافلة كبيرة كانت تحمل القمح والشعير لسكان المدينة الفارين ، الذين كانوا يقيمون في أحوازها . فتمكن من الاستيلاء على ثلاثمائة وخمسين جملا ومائة وخمسين من الرماح ، وأسر ألف رجل وقتل ستين آخر[44] حتى المؤسسات الدينية لم تسلم من آذاهم فقد ربطوا دوابهم بالجامع الأعظم ، واستمرت أعمال العدوان لمدة ثلاثة عشر يوما[45]. أبدى فيها السكان مقاومة باسلة ، قضوا خلالها على أكثر من ألف جندي أسباني[46].

وبعدما نصب أبوعبد الله على عرش تلمسان ، أبرم مع دالكوديت معاهدة في يوم 26 فيفري أعلن فيها الولاء للإمبراطور [47]. وفي 11 مارس خرج دالكوديت من تلمسان في طريقه إلى وهران ، ومعه عددا من الأسرى وكثير من الأسلاب .

استغل الملك المخلوع أبو زيان المتعاون مع السلطة العثمانية في مدينة الجزائر انشغال الأسبان بحملتهم على مستغانم سنة 1543 ، وتقدم نحو تلمسان لاسترجاع عرشه وحاصرها . فخرج إليه أخوه أبو عبد الله محمد وقاتله خارج المدينة ، وانتصر عليه . لكنه عندما كان راجعا إلى تلمسان ، أغلق السكان أبوابها في وجهه ، لقبوله التحالف مع الأسبان ، فلستدعوا أبا زيان ليحكمهم ، واستقبلوه بحفاوة كبيرة [48] .

أسرع أبو عبد الله محمد إلى وهران لطلب النجدة مرة ثانية من الكونت دالكوديت . لم يتردد هذا الأخير في الإستجابة ، فخرج على رأس جيش يتألف من ألفي جندي من المشاة ، بالإضافة إلى عدد من قطع المدفعية. متوجها عبر وادي تليلات إلى معسكر حيث كانت قوات أبي زيان معسكرة هناك ، المؤلفة من ألفين وأربعمائة مقاتل [49]. وجرت معركة بين الفريقين ، كانت الغلبة فيها لصالح جيش أبي زيان ، مما أجبر دالكوديت على الانسحاب ، وعندما كان راجعا إلى مدينة وهران تعرض إلى هجوم آخر شنه عليه سكان منطقة مديوني ، أوشك دالكوديت خلاله على الهلاك [50]. وتمكن أتباع أبي زيان من القبض على أبي عبد الله ، فقتلوه وحملوا رأسه إلى أخيه في تلمسان[51] .

وأصبحت تلمسان إثر ذلك محل تنافس كبير بين حكومة الجزائر والأسبان خاصة في عهد حسن بن خير الدين، الذي كان وراء صد الأسبان في غاراتهم على مستغانم 1543 و 1547 ، كما أنه كان وراء تنصيب الملك حسن بعد وفاة أبو زيان أحمد سنة 1550. وشهدت تلمسان هذه السنة تدخل الأشراف السعديين، حينما حاول محمد الشيخ بسط نفوذه عليها ، لكن قوات حسن بن خير الدين تمكنت من طرده في السنة الموالية (1551) . ولما وصلت تلمسان إلى هذه الحالة قرر حسن بن خير الدين أن يضع عليها حاكما عثمانيا دون أشراك إلى جانبه أي أمير زياني ، وأن يترك فيها حامية من الجزائر، وبذلك وضع حد لحكم الأسرة الزيانية[52] .

2 ـ إمارة تنس :

بعد كارثة مسرغين التي لحقت بالأسبان سنة 1507 ، ذهب دون دييغو إلى البحث عن وسيلة للزيادة في تفريق بين أمراء تلمسان عن طريق تشجيع بعضهم

للخروج عن طاعة ملوكها والاستقلال بالمدن التي كانوا يحكمونها . وفي هذا الصدد كان يحيى الثابتي الذي سبق لعمه أبي حمو الإطاحة بعمه أبي زيان والاسيلاء على العرش ، وسعى دييغو لمساعدة يحيى الثابتي وتقديم العون له . أعلن هذا الأخير الثورة على عمه الذي سبق له وأن أخذ الحكم تحت حماية الأسبان ، وقد أدى ذلك إلى قيام أبي حمو بمحاولة استرجعها والقضاء على العصيان ، لكنه في الأخير اضطر إلى رفع الحصار على تنس ووقف القتال والرجوع إلى تلمسان ، تاركا تنس في أيدي يحيى الثابتي[53].

وكان حميدة العبد سلطان تنس يعد هجوما كبيرا على عروج للتخلص منه ، بالتنسيق مع عرب المناطق الغربية لمدينة الجزائر الذين لم ينسجموا مع الحكم الجديد ، الذي فرض سيطرته عليهم بالقوة ، وألزمهم بدفع الضرائب .وبعد استشهاد عروج سنة 1518 ، عاد حميدة العبد إلى تنس . وإثر هزيمة خير الدين في تونس 1535 ، وتردد أنباء حملة أخرى على الجزائر ، أبدى استعداده لمساعدة الأسبان في هذه الحملة المنتظرة بثلاثة آلاف رجل مسلحين بالرماح ، وتزويد القوات الأسبانية بالمؤونة بأسعار منخفضة، مقابل الفوز بصداقة الأسبان ودعمهم لسلطته[54].

وحين أغار شالركان على مدينة الجزائر سنة 1541، كان حميدة العبد قد وعد بالمشاركة فيها ، لكنه لم يفعل ذلك عمليا ، ولهذا أبقاه حسن آغا في مركزه وأظهر ولاءه له . وحين نظم حاكم وهران دالكوديت سنة مارس 1543 ، بهدف انتزاعها من أيدي السلطة في مدينة الجزائر ، ساهم حاكم تنس بقواته في الدفاع عنها إلى جانب إلى عرب المنطقة ، الذي تمكنوا من إفشال مخططه[55] .

3 - إمارة بجاية :

لقد ظلت بجاية والأقاليم التابعة لها تحت السلطة الحفصية منذ سنة 1230، إلى غاية سنة 1435 ، حين أعلن حاكمها أبو الحسن الحفصي استقلاله بها . وقد شهدت إثر ذلك العديد الصراعات بين الأمراء على الحكم استمر أكثر من نصف قرن ، الذي انتهى بتعرض بجاية إلى الغزو الأسباني في سنة 1510. وأهم الظروف التي كانت تعيشها بجاية قبيل تعرضها لهذا الغزو نذكرها فيما يلي:

فبعد عامين من استقلالها عن الدولة الحفصية استولى عليها أبو عمر الحفصي وعين عليها عمه عبد المؤمن بن العباس . وفي عام 1446 دخل أبو الحسن من جديد على بجاية ، لكنه لم يستقر بها سوى ثلاثة أسابيع فقط ، حيث خرج إليه أبو عثمان مرة أخرى وتمكن من السيطرة على المدينة ، وعين عليها

هذه المرة القائد محمد بن فرح[56].أعاد أبو الحسن الحصار على بجاية في سنة 1452 ، لكنه تعرض إلى مؤامرة من قبل بني سيلين فقتل ، وأرسل رأسه إلى السلطان، وبذلك انتهت ثورة أبو الحسن التي استمرت مدة طويلة وعين القائد منصور حاكما على بجاية ، بينما خلفه ابنه فرح على رأس قسنطينة . غير أن أهالي المدينة حاولوا التمرد على القائد الجديد ، وتطلعوا إلى مبايعة أبي بكر بن عبد المؤمن الحفصي ، فأمر السلطان بإلقاء القبض على هذا الأخير قرب مدينة ميلة ، بعدئذ عين على رأس بجاية أبا فارس عبد العزيز .

لقد ظلت المنطقة مسرحا للعديد من الاضطرابات سواء في بجاية أو قسنطينة أوفي توغرت ، وكذلك ورقلة ووادي ميزاب [57]. وكان الضعف الذي أصاب المملكة خلال السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ، جعل القبائل تلعب دورا في قيادة الأمور في الجهات التي كانت تابعة لها . ففي قسنطينة مثلا إذ كان ممثل السلطان هو المسؤول الرسمي ؛ فإنه كـان للذواودة وإلى جانبهم أولاد سلامة ، وعائلات أخرى مثل عبد المؤمن ، وبني باديس ، وابن الفقون، كلمة في تسيير شؤون المنطقة . وقد ساهمت تلك الاضطرابات الداخلية إلى تعرض عاصمة الإقليم إلى الاحتلال الأسباني.

وكانت السياسة العامة التي انتهجها الملوك الكاثوليك ؛ تتمثل في التركيز على احتلال الثغور الجزائرية التي كانوا يعتبرونها أوكارا للمسلمين الأندلسيين الفارين . وكانت بجاية تعد في نظرهم إحدى هذه الثغور . إلى جانب تميزها بال ثراء الكبير، لشهرتها بالنشاط التجاري الواسع مع الممالك والمدن الأوربية .

وكانت بجاية في تلك الأثناء تعيش أجواء من الفتن العائلية على الحكم بين الأمراء الحفصيين ، حيث شهد عهد السلطان عبد العزيز اضطرابات ، من أهمها تهديدات أخيه أبو بكر حاكم إقليم قسنطينة ، الذي حاصر بجاية عدة مرات ، منها الحصار الذي ضربه عليها سنة 1507 دام أربعين يوما . كما قام في السنة الموالية (1508) بحملة أخري على المدينة ، مما أوقع حربا بين الأخوين [58]. استغل الأسبان هذا الوضع ووجهوا إليها حملة عسكرية قادها بيدرو نافارو [59].

وفي شهر جوان من نفس السنة تولى الدون انطونيو دي رافانيدا الحكم في بجاية بينما غادرها بيدرو نافارو . ولكي يستتب الأمر إليهم في المدينة راح الأسبان يبحثون عن أمير أو ملك لعقد معاهدة هدنة معه ، وفي هذا الصدد أرسل الملك فيرديناند للوالي الجديد خطابا مؤرخا في 23 أكتوبر 1511 ، يدعوه فيه إلى التعاقد مع أحد الملكين ، عبد الله الذي كان مع الأسبان في بجاية ، بعد أن رد إليه بصره طبيب الأسطول الذي جاء به بيدرو نافارو، أو عبد الرحمن الذي كان

لا يزال رافعا سيف المقاومة . لكن القائد الأسباني فضل توقيع معاهدة الولاء لبلاده مع الملكين معا ، وليس مع طرف واحد، وبذلك يكسب حليفين ، مخافة من تحول أحدهما إذا استبعد من التحالف إلى خصم. تحتوي المعاهدة على سبعة بنود كلها في صالح الأسبان منها: أن يعترف عبد الرحمن بتبعية بجاية لأسبانيا وكذلك صخرة الجزائر وتادلس وكل المراسي التي على البحر وما يتبعها . ويتعهد العرب أن يزودوا بجاية الأسبانية بـ 3600 فينق من القمح، و 100فنيق من الشعير ، و50 فنيق من الفول، و 1000 رأس من الغنم ، و 50 بقرة سنويا. ومن أجل ضمان الأسبان التزام الملكين بتنفيذ المعاهدة ؛ ألزموا الملكين على تقديم ابنيهما رهائن إلى الأسبان[60].

ولما دخلوا المدينة واحتلوا مرساها تحصنوا في أبراجها . فر الأمير عبد الرحمن إلى الجبال المجاورة مع رجاله وتولى المقاومة . ولما صعبت عليه المهمة استنجد بعروج الذي كان متركزا في جيجل . فأجابه عروج وأتى إلى أبواب بجاية ومعه عدد من الجنود ، كما جندا نفرا من رجال القبائل المجاورة للمدينة ، وحاولوا أن يدمروا الأبراج القائمة ، لكنهم لقوا مقاومة شديدة . وذلك في العديد من المحولات تمت ما بين 1512 ، 1515 [61].

4 . مشيخة الثعالبة في مدينة الجزائر:

بعد خضوع مدينة الجزائر لإمارة بجاية ، استقل بها الثعالبة [62] حينا من الدهر بعد أن استولى الأسبان على مدينة بجاية في 5 جانفي 1510 ، وعين الثعالبة سالم التومي ملكا على المدينة وضواحيها ، امتد نطاقها من دلس شرقا إلى شرشال غربا.

وقد اتسمت هذه المشيخة بمختلف مقومات الدولة . فإثر تعيين سالم التومي ملكا على البلاد أصبحت بيده مصدر كل السلطة ، فعين شخصا من أهله في منصب ولي للعهد. كما عين نوابا وحاشية وكتابا وأصحاب أشغال وأصحاب البريد وأعمال ورجال الجيش. وكان جل فرسان المدينة من الثعالبة بيدهم السلطة والإدارة[63].وقد وصف حسن الوزان المدينة حين زارها على الراجح سنة 1515 حيث قال: << هي كبيرة جدا تضم نحو أربعة آلاف كانون ، أسوارها رائعة ومتينة جدا، مبنية بالحجر الضخم ، فيها دور جميلة وأسواق منسقة كما يجب ، لكل حرفة مكانها الخاص . وفيها كذلك عدد كثير من الفنادق والحمامات . ويشاهد من جملة بناءاتها جامع ممتاز في غاية الكبر على شاطئ البحر... ويحيط بالجزائر عدد من البساتين والأراضي المغروسة بأشجار الفواكه >>[64].

أما عن سكان مدينة الجزائر لوحدها فقد قدرهم حسن الوزان في مطلع القرن السادس عشر بـ4000 موقد ، وهو ما يعطينا في المتوسط 20 ألف نسمة ، إذا ما قدرنا معدل 5 أشخاص لكل موقد [65] ، ينقسمون إلى عرب من قبيلة الثعالبة وعددهم نحو 12000 نسمة يليهم الأهالي ، ثم المهاجرون من عرب الأندلس ، ثم المهاجرون اليهود الذي كانوا يتميزن بحمل العمائم الصفراء. ولا شك أن عدد السكان في كامل الإمارة يزيد عن ذلك . وقد قدر مارمول عدد الثعالبة الذي عمروا سهل متيجة بحوالي 44 ألف نسمة[66] .

وحضيت المشيخة بمقدورات اقتصادية هامة مثل الزراعة والتجارة الخارجية ، فقد وصف لنا الوزان الحالة الزراعية في قوله : << ويرى حول المدينة بساتين وأراضي مغروسة بأشجار الفواكه ، بالقرب من المدينة ، وفي جهاتها الشرقية ، يجري وادي أقيمت عليه مطاحين ، ويشرب منه السكان ، ويستعملون مياهه في حاجياتهم الأخرى [وادي الحراش] وسهول المنطقة جميلة جدا وبالخصوص ما يعرف منها بسهل متيجة الذي بلغ طوله 45 ميلا وعرضه 36 ميلا ، يزرع فيه القمح الجيد الوفير>> [67] .

ومما زاد من أهمية هذه المملكة هو امتلاكها لميناء في مدينة الجزائر الذي كان منفذا رئيسيا للتبادل التجاري مع موانئ الدول الأوربية ، وزاد في أهميته سقوط الموانئ الغربية للبلاد مثل المرسى الكبير وهران بيد الأسبان ، فضعفت لذلك المدن الساحلية الغربية ببلاد الجزائر على عكس المدن الساحلية الشرقية منها مدينة الجزائر. ولهذا عزز الثعالبة نشاطهم التجاري مع الخارج ، فوطدوا علاقاتتهم مع سفن الدول الأوربية ، وخاصة السفن الإيطالية من فلورانسا والبندقية ، وبرشلونة الأسبانية . وقد استفادت منها الطبقة الحاكمة التي أصبحت تمثل الطبقة البرجوازية، ولم تنفق هذه الثروة في مصلحة البلاد بل أنها أنفقت في شراء المناصب وإثارة الفتن الداخلية . مما زاد في ضعف اقتصاد المدينة ولم يشجع الحكام الثعالبة سكان مدينة الجزائر على الصناعة التي كانت بسيطة للغاية في عهدهم[68].

وما كادت الأمور تستقر للثعالبة حتى خضعوا للتهديد الأسباني في سنة 1510 عندما فرض عليهم الأسبان معاهدة ألزمت حكماها على دفع الضرائب ، وتسليمهم أكبر الجزر الواقعة أمام مدينة الجزائر . وبهذه الصورة أصبحت مملكة الثعالبة معرضة للخطر الأسباني يمكن أن نجمله في العناصر التالية :

1 ـ قيود المعاهدة التي ألزمتها بالاعتراف بالسيادة الأسبانية عليها ، ولهذا أصبحت سيادتها ناقصة . وهذا يتجلى على الخصوص في دفع الضرائب التي

تعبر عن التبعية [69]، كما ألزمت حكام المشيخة على إطلاق سراح الأسرى المسيحيين ، وقد ورد أن الشيخ سالم التومي عندما سافر إلى بورغوس لإعلان الولاء وأخذ معه 130 أسيرا الذين تم تحريرهم [70]. إلى جانب شروط أخرى أهمها الحد من النشاط البحري للسفن الجزائرية .
2 ـ ومن أجل مراقبة نشاط السفن في مرسى المدينة أنشأ الأسبان قلعة منيعة على الصخرة أنفقوا عليها أموال كبيرة ، أشرف عليها المهندس المعماري مارتينو دي رينتيرا. وبعد أقل من سنتين أصبح الميناء مراقبا من هذا الحصن الذي كان يتألف من قلعتين وأربعة معاقل يربط بينها سور تتخلله العديد من الفتحات للرمي، وقد أثر هذا الوجود على التجارة ، حيث كان الأسبان يعملون على تفتيش الصادرات والواردات. ولعل من أهم أهدافهم من إقامة هذه القلعة فرض الرقابة على المدينة وتقليص نشاطها البحري ، كما كانوا يعملون على منع البحارة المسلمين من استعمال مينائها كملجأ[71].
3 ـ ورغم الاتفاق الذي أبرم معهم ، ظلت المدينة تتعرض إلى التهديد بالاحتلال، وإلى القصف المدفعي، حيث وصف الوزان هذه الحالة بقوله أنه كانت تنطلق من القلعة << قذائف المدفعية تصل إلى اليابسة ، بل تمر فوقها ، من سور إلى سور>> [72] . كما ورد في كتاب غزوات عروج وخير الدين ما يلي: << كان من جملة ما اعتدوا به على فتحها حصنهم المجاور للمدينة من ناجية البحر ، فإنه كثيرا ما كانت تحصل منه الإذاية لأهل المدينة بحيث أن النصارى كانوا يرمون على أهل المدينة بالمدافع والمكاحل، فكان هذا شجى معترضا في صدور أهل الجزائر >>[73]. فكانت هذه القذائف كثيرا ما تحدث خسائر مادية وبشرية . وقد استمرت المشيخة على هذه الحالة لمدة خمس سنوات ونصف ، إلى أن دخلها عروج، وقضى على زعيمها سالم التومي في صيف 1516، ثم شرد عروج الثعالبة وأتباعهم الذي لجاوا إلى الجبال المجاورة[74].

5 ـ إمارة كوكو :

لقد تم تشكيل إمارة كوكو إثر احتلال بجاية من طرف الأسبان سنة 1510. ومن العلماء الذي خرجوا منها أحمد بن القاضي الغبريني وتوجهه مع بعض أتباعه إلى بلاد القبائل الكبرى ، وجعل مقره بقرية قرب أربعاء نايت إيراثن بقبيلة آيت يحيى أورير ، التي تشرف على وادي سباو، ومنها انتقل إلى قرية كوكو التي اتخذها عاصمة لإمارته وذلك في سنة 1511 ، الواقعة على بعد 8 كيلومترات عن عين الحمام بقبيلة آيت يحيى . وعندما ظهر عروج على مسرح الأحداث في

المنطقة صاحبه في الحصار على بجاية ، وفي حروبه ضد حسن قارة المرابط في شرشال ، وكذلك حارب معه صاحب تنس حميدة العبد . كما شهد حصار تلمسان 1518 الذي اشتهد فيه عروج ، ونجا بنفسه وعاد إلى الجزائر . ولما تولى خير الدين الحكم في مدينة الجزائر أسند إليه ولاية القسم الشرقي من البلاد الذي كان يمتد من مدينة الجزائر إلى حدود مملكة بني حفص [75]، غير أن موقف سلاطين هذه الإمارة لم يبق على حاله مساندا للسلطة القائمة في مدينة الجزائر، فتارة يعادونها ويشنون عليها الحروب[76] وتارة أخرى يخضعون لها بالقوة.

فلما انهزم خير الدين في تونس كلف شارلكان حاكم بجاية بإشعار أحمد بن القاضي أن يعمل هذا الأخيرعلى قطع الطريق البري إلى الجزائر عليه[77]. ولكن خير الدين عاد عن طريق البحر، فلم يمكنه من فعل أي شيئ . وحين شن شاركان غارته على الجزائر 1541 سار ابن القاضي على رأس قواته للمشاركة فيها ، ولكن الكارثة حلت بشارلكان قبل أن يصل بقواته إلى مدينة الجزائر، فعاد أدراجه إلى الجبل ، وحسب هايدو فإن ابن القاضي زود شارلكان بالأغذية ، ولعل ذلك كان في بجاية عندما كان هذا الأخير في أمس الحاجة إليها [78] ، وظل بعد فشل الحملة المذكورة على الجزائر على صلة بشارلكان والأسبان في بجاية يلح في رسالته وعن طريق رسله على القيام بحملة أخرى ضد الحكام في الجزائر ، ويعد بمشاركته الفعالة فيها[79] ، ولكنه لم يجد التجاوب المرغوب [80]. **وفي** ربيع سنة 1542 شن حسن آغا عليهم الحرب ، وأضعف من شأنه، دون أن يهب شارلكان لنجدتهم رغم النداءات المتكررة له والأسبان في بجاية.

ولم تنقطع الاتصالات بين الأسبان وإمارة كوكو حيث جرت عدة اتصالات عبر الرسائل ابتداء من سنة 1594 واستمرت إلى غاية 1598. وقد شهدت هذه السنة بعث عدة رسائل إلى الملك الأسباني بعضها من ملك كوكو ، وبعضها الآخر من شخصيات معتبرة من المملكة المذكورة. فقد ورد في إحدى رسائل عمار بن عمار ، مؤرخة في 16 جوان 1598[81] ، أن الأتراك ليس لديهم أي حقوق في مملكته، وليس لديه سند من أية قبيلة ، وأنه مصمم على محاربتهم ، ولا يتم ذلك إلا بمساعدة الأسبان . كما عرض عليه أنه يكون لأسبانيا عوائد تجارية بالسماح للتجار المسيحيين إنزال سلعهم في المنطقة للاتجارة فيها، وبين له أن تحت سلطته ما يقرب من 150 موقع . وقد أثمرت هذه الاتصالات بوصول عدد من السفن[82] . وهناك من ذكر أنها كانت تعمل على إنزال حمولتها من الرجال والعتاد لمساعدة إمارة كوكو للقيام بهجوم على مدينة الجزائر [83] . جاءت من جزر الباليار خلال سنة 1603 من أجل إبرام علاقات مع زعماء المنطقة ، لكنها

فشلت في مسعاها ، بعدها أرسلوا حملة صغيرة تتالف من أربع سفن كانت بقيادة نائب الملك في مايورقة إلى ميناء الفحم قرب أزفون [84]. وبينما كان القائد ينزل رجاله ، فوجئ بحصار ضربه عليه أهل المنطقة ، فقضوا عليه وعلى 80 شخصا آخر نزلوا معه [85] ، وفر الباقون الذين كانوا على ظهر السفن . ورغم هذا الحادث استمر عمار في اتصالاته مع الأسبان ، ففي مارس من سنة 1604 نفذت عملية أخرى من قبل عدد من فرقاطات التموين جاءت من مايورقة ، لكنها فشلت هي الأخرى حيث أبطل جنود الدولة الجزائرية هذه العملية ، وفي سنة 1607 نجح الأسبان في تقديم بعض سلع التموين، حيث أكدت ذلك رسالة شكر من قبل ملك كوكو(86) .

6 . سلطنة بني عباس :

يذكر أن هذه الإمارة تأسست في سنة 1500 ، من قبل الشيخ أحمد أمقران، الذي تمكن من بسط سيادته على مجانة وبني عباس . وكان المجال الجغرافي الذي قامت فيه هذه الإمارة يقع وادي سيباو حيث كان يتجمع السكان [87]. وكانت في خصام مستمر مع إمارة كوكو. ومن حكامها المشهورين عبد العزيز، الذي رافق صالح رايس في حملته إلى الجنوب الجزائري سنة 1552، التي وصلت إلى ورقلة وتوقرت . وإثر عودتهما نشب الخلاف بينهما بسبب الغنيمة التي قدرها مارمول بخمسة عشر جملا محملا بالذهب[88]. وأدى هذا النزاع إلى وقوع القتال بين الطرفين، واضطر صالح رايس إلى التحالف مع أمير كوكو الذي شارك إلى جانبه في الحملة ضد المغرب في سنة 1554.

وكان لتغير المواقف وفي العلاقات بين الأطراف السياسية الفاعلة خلال هذه الفترة لا تخرج عن معادلتي التحالف التالية :

السلطة في مدينة الجزئر + إمارة كوكو ضد الأسبان + إمارة بني عباس

السلطة في مدينة الجزئر + بني عباس ضد الأسبان + إمارو كوكو

إن ما يظهر في هذين المعادلتين هو العداء الدائم بين الدولة في مدينة الجزائر الأسبان . وأن موقف إمارة كوكو وسلطنة بني العباس متغيرة تارة لصالح الجزائر وتارة أخرى لصالح الأسبان . أما الوجه الثاني فإن إمارتي كوكو وبني عباس كانتا في غالب الأحيان متعاديتين إلا في بعض الحالات . وهذا يمكن إرجاعه إلى عوامل مختلفة يمكن أن نوجزها فيما يلي :

1 ـ رغبة السلطة في مدينة الجزائر على توحيد البلاد تحت سلطة واحدة ، والوقوف في وجه الأطماع الأسبانية في الجزائرية .

2 ـ رغبة إمارتي كوكو وبين عباس في الحفاظ على استقلالهما وخاصة في وجه سلطة الدولة الجزائرية التي كانت تعمل على الحد من نظام الإمارات ، مما يؤدي إلى تشتت القوى أمام الأطماع الأجنبية وخاصة الأسبانية.
3 ـ كان الأسبان يرغبون الاستمرار في سياستهم التي بدأوها منذ بداية القرن السادس عشر وهو استمالة القوى السياسية المحلية إلى جانبهم من أجل استمرار بقائهم في المناطق التي لا زالوا يحتلونها ، والوقوف على وجه الخصوص ضد الدولة الجزائرية ، بل كانوا يخططون مع الأمراء من أجل إسقاطها.

ب ـ قيام سلطة جديدة في مدينة الجزائر:

لقد أدت الظروف بالمغرب الأوسط التي تميزت بانهيار الوضع السياسي القائم، وخضوع بعض مدنه الساحلية للاحتلال الأسباني ، إلى قيام سلطة سياسية جديدة في مدينة الجزائر، سرعان ما اتسع نطاقها شرقا وغربا وجنوبا ووقفت ندا في وجه الأطماع الأسبانية في الجزائر ، وأبطلت كل الغارات التي شنوها على العاصمة في سنوات 1519،1516، 1541.

1 ـ ظروف قيامها :

منذ أن أبرم أعيان مدينة الجزائر معاهدة الهدنة مع الأسبان في سنة 1510، التي كانت تحمل في طياتها نوع من الهيمنة الأسبانية على المدينة . استغل هؤلاء الوضع السيء الذي كانت تعيشه المدينة ، وتمادوا في تسليط مختلف أعمال التضييق والضرر من خلال تواجدهم في الحصن الذي شيدوه في الصخرة المقابلة للمدينة . ومن أجل التصدي لهذا النفوذ المسلط عليهم ، استنجد شيخ المدينة سالم التومي بالأخوين عروج وخير الدين .
وكانت أسبانيا قد شهدت في بداية السنة (جانفي 1516) وفاة الملك فيرديناند الكاثوليكي، استغل أهل المدينة هذا الحدث للتحرر من ذلك الضغط ، فبعث شيخ المدينة وفدا إلى مدينة جيجل لطلب المساعدة من الأخوين عروج وخير الدين، ومما جاء في نص ذلك الاستنجاد << سمعنا بكم أناس تحبون الجهاد وأخذتم بجاية وجيجل من أيدي النصارى ونصرتم الدين هنيئا لكم أيها المجاهدون ، لا بد أن تقدموا إلينا وتخلصونا من أيدي الملاعن الكفرة لأننا نحن في محنة عظيمة ، وذلة شديدة ...>> [89]،ووعدوا عروج بالعيش بينهم في مدينة الجزائر بكل اطمئنان.

قبل عروج العرض ، حيث كانت رغبته كبيرة في الانتقال إلى مـدينة الجزائر ذات المـوقع المتميز ، والمناسب لمواصلة الجهاد البحري ضد المسيحيين ، فجمع قواته وشحن ستة عشر سفينة بالمدافع والذخيرة ثم توجه إلى مدينة الجزائر ومعه بثمانمائة جندي ، بالإضافة إلى نحو خمسة آلاف من سكان المنطقة الممتدة من جيجل إلى الجزائر الذين توجهوا إليها برا [90]. والتحق به فيما بعد إخوته خير الدين وإسحاق ومعهم قوات إضافية أخرى [91].

وما أن وصل عروج إلى مدينـة الجزائر ، حتى توجه على التو إلى مدينة شرشال، التي كـان قد أقام بها أحد مرافقيه المدعو قارة حسـن حكما مستقلا . وكان سكانها ـ البالغ عددهم نحو خمسمائة نسمة [92] ـ قد قبـلوا أن يكون سيدا عليهم، وكان أغلبهم من الأندلسيين جاءوا من غرناطة وبلنسية وأراغون . لقد أراد قارة حسن أن يضاهي عروج في شهرته . غير أن عروج تمكن من القضاء على حركته، وأصبحت مدينة شرشال أول منطقة وضع عليها يده بعد حلوله بمدينة الجزائر ، التي عاد إليها بعد أن ترك فيها حامية لحراستها.

ولما حل عروج بمدينة الجزائر استقبل من قبل أهاليها ، يتقدمهم أعيان ها ووجهائها، على رأسهم شيخها سالم التومي ، ووعده الجميع بأنهم سيقفون جميعا إلى جانبه ، وأعد له سالم التومي مكانا لائقا بمقامه داخل قصره، كما حظي كل مرافقيه بما فيهم جنوده بنفس المعاملة .

وكانت أول الأعمال التي قام بها هو توجيه أنظاره إلى قلعة الصخرة ، فقد ذكرت بعض المصادر الغربية أنه نصب عددا من المدافع في القلعة . وقبل البدء بقصفها ، أرسل إنذارا إلى قائدها يدعوه إلى التسليم والعودة إلى بلاده . ولما رفض القائد الأسباني ، أعطى عروج الأمر بقصفها بالمدافع [93]. وتضيف نفس المصادر أن عروج اضطر إلى وقف القصف ، وتأجيل أمر تحريرها إلى وقت لاحق ريثما تتوفر الفرصة المناسبة لذلك، لأن أمر تنظيم الأمور الداخلية، يتطلب جهدا خاصا. ولعل من أهم تلك القضايا الداخلية التي وقعت في مدينة الجزائر آنذاك ، هو طبيعة العلاقات التي كانت بين أهل المدينة والمستقرين الجدد بها ، والتي أدت إلى القضاء على سالم التومي . تعد هذه القضية من الأحداث التاريخية التي لا زال الغموض يكتنفها ، رغم محاولات بعض الكتاب الغربيين التطرق إليها ، لكنها تتصفف في عمومها بقلة مصداقيتها ، وتحاملها على السلطة الجديدة القائمة في الجزائر . بينما أحجمت بعض المصادر الإسلامية على قلتها ، التطرق إلى هذا الموضوع . فأوردت الكتابات الأوربية أنه لما تلقى عروج المساعدات العسكرية والمادية من أخيه خير الدين [94] ، أحس بقوة مركزه . وكان يرغب

في تمكين نفسه ليكون السيد الأول على المدينة، فمهد لذلك بتمكين المقربين إليه والموالين له من أهل المدينة في الحصول على الوظائف الكبرى . وتمكن من التأثير على السكان حتى أصبح له من الدعم الشعبي ما مكنه من تجاوز ذلك التذمر الذي تسبب فيه بعض المرافقين له من رجاله .

ومن أبرز الأحداث التي وقعت خلال هذه الفترة ، والتي أثير حولها الكثير من الجدل هو حادث مقتل سالم التومي ، فقد اختلفت الروايات التاريخية حول تلك النهاية . ولكن مهما اختلفت الروايات فإن الذي حدث هو نهاية الشيخ سالم التومي ، وانتهت معه مشيخة الجزائر ، ليبدأ فيها منذ أواخر سنة 1516 عهدا جديدا تحت قيادة عروج ، الذي بدأ في وضع معالم الدولة الجديدة . من أهمها رفع الرايات ذات اللون الأخضر والأصفر والأحمر فوق أسوارها وقلاعها ، وبتنظيم الهياكل الدفاعية للمدينة ، وتشييد عدد من القلاع ، وإنشائه نواة لإدارة جديدة[95].

2 ـ إلحاقها بالدولة العثمانية :

لم يكن لدى الجزائريين حتى أواخر العقد الثاني من القرن 16 النية في الاستنجاد بقوة إسلامية كبيرة كالدولة العثمانية .غير أن الظروف الحرجة التي أصبحوا يعيشونها من جراء الحملات الأسبانية على المدن الساحلية و إعجابهم بمهارة خير الدين القيادية الذي استطاع في صد العدوان الأسباني عن مدينتهم سنة 1519 ، جعلت أعيان المدينة وعلمائها يلحون عليه بالبقاء بينهم ، والأخذ برأيه في طلب النجدة العثمانية وإعلان الولاء لها [96]. فقد عزم خير الدين رد السلطة لأهلها عندما اطمأن على الوضعية القتالية للمدينة حيث أصبحت آنذاك أحسن من أي وقت مضى ، سواء من حيث العدد أو العدة ، فقد ورد في كتب "الزهرة النيرة " أنه قال لسكانها << أمنت على بلادكم من العدو بما تركت فيكم من العدة والمجاهدين ومن وصل إليكم من أهل الأندلس ...لأني تركت فيكم من العدة أكثر من أربع مائة مدفع، ولم يكن في بلادكم ولو مدفع واحد >>[97].

فعلى ما يبدو، أنه اختار ذلك الموقف تجنبا للصراعات الهامشية والخلافات التي كانت بين أبناء الدين الواحد ، بدل اجتماعهم كرجل واحد لمواجهة الخطر المسيحي الأوربي المتربص بهم . فقد أبدى بعضهم نية الاستغناء عنه ومن معه، بل أن هناك من استنصر الأسبان ، حيث راح ضحية ذلك التشتت أخويه إسحاق وعروج ، فقد ذكرت بعض المصادر أنه قال لهم: << وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بني زيان واستعانته علينا بغير أهل ملتنا ، حتى كفانا الله أمره

، وصاحب تونس الحفصي لا رأي له في نصرنا وإعانتنا>> [98].غير أن مجلس الأعيان طالبوه بالبقاء بينهم حين قالوا له : << يا أيها الأمير لا تطيب أنفسنا بفراقك، ولا نسمح لك بذلك ...يتعين جلوسك في هذه المدينة لأجل حراستها ، والدفاع عن ضعفاء أهلها ، ولا رخصة لك في الذهاب عنهم وتركهم عرضة للعدو>> [99].

فلما ألحوا عليه بالبقاء بينهم ، بيّن لهم أن حماية المدينة من تهديدات الكفار؛ يستدعي طلب العون من القوة الإسلامية الكبرى ، وهي الدولة العثمانية ، وأن ذلك يتطلب إعلان الولاء لسلطانها ليقدم لنا يد المساعدة << فيمدنا بالمال والرجال وجميع ما نحتاج إليه من آلات الجهاد >>. مضيفا أن قبول السلطان لطلبنا يكون مرهونا بإعلان البيعة له ، << والدخول في طاعته بالدعاء له في الخطب على المنابر ، وضرب السكة باسمه >> [100]. فلم يرى أهل المدينة رأيا أصوب منه فاقتنعوا برأيه ، وأعدوا خطابا يحتوي على تفاصيل الأوضاع في الجزائر ، والمبررات التي دفعتهم لإعلان الولاء للسلطان. ووجه خير الدين وفدا من الأعيان وعلى رأسه أحد رجاله الثقاة ، وهو الحاج حسين ، إلى العاصمة العثمانية لطلب حماية السلطان سليم الأول .

ولما وصلت البعثة إلى اسطنبول ، استقبلت بحفاوة كبيرة من قبل السلطان، فقبل هديتهم ، واطلع على خطابهم وطلبهم المتعلق بطلب الحماية . أدرك سليم الأول الأهمية الإستراتيجية ، التي تحتلها بلادهم وسائر السواحل المغربية المطلة على البحر المتوسط ، بالنسبة لتوسيع نشاط البحرية الإسلامية في هذه المنطقة ، والذود عن حمى المسلمين . وبناء على تلك الاعتبارات وافق السلطان على طلبهم ، وأثناء عودتهم ؛ أرسل معهم راية وخطابا إلى أهل مدينة الجزائر يعلمهم فيه أنهم أصبحوا ممن تشملهم عنايته، كما أرسل معهم قطع من المدفعية وكميات من الذخيرة الحربية وألفي جندي ، ورخص بانتقال المتطوعين إلى الجزائر . استجاب لنداء السلطان أربعة آلاف متطوع التحقوا بالجزائر [101] . ومنح السلطان خير الدين لقب "بايلرباي" أي أمير الأمراء [102]. وبهذه الصفة أصبح خير الدين حاكما لعموم أقطار المغرب الإسلامي [103].

وبعد هذا الاتصال أصدر السلطان فرمانا ينص على حمايته للجزائر بطلب من الجزائريين أنفسهم ، وذلك في سنة 1519 ، أي بعد حملة مونكادي ضد الجزائر. إلا أن هناك جمهور من المؤرخين وخاصة الأوربيين منهم يعتبرون أن إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية كان خلال سنة 1518 ، أي قبل غزوة مونكادي ، وحجتهم في ذلك أن الإمدادات التي وصلت إلى الجزائر من الدولة العثمانية ، قد

ساهمت في رد العدوان المذكور . وهو ما يخالف المصادر الإسلامية ، التي توحي بأن عزم خير الدين على مغادرة الجزائر ؛ كان بعد نهاية العدوان، عندما قال لأهل مدينة الجزائر وهو يهم بم غادرتها<<عندكم من السلاح والعدة ما تقومون به بأمر الجهاد،وعدوكم الكافر قد خيبه الله تعالى،ورده على عقبيه مذموما مدحورا >>[104]. وبهذه الصورة أصبحت الجزائر تعيش عهدا جديدا ، في كنف مساندة القوة العثمانية . ولما تعزز جانبها بهذا السند ، توجه حكامها إلى الجبهة الداخلية فعملوا على توحيد الأقاليم التي كانت مشتتة تحت سلطة واحدة.

3 - جهودها في توحيد البلاد :

لقد أولى عروج اهتمامه بتوحيد الأقاليم المجاورة لمدينة الجزائر، فمنذ تمكنه من رد حملة دي ريفييرا ، سعى إلى كسب ولائها ، وكانت البداية من مدينة تنس. ففي شهر جوان سنة 1517 خرج عروج إليها برا على رأس جيش صغير يتكون من ألف وخمسمائة رجل[105] . وقد صاحبه في هذه المهمة بعض أعيان المدينة وكبرائها . وترك وراءه في مدينة الجزائر أخاه خير الدين . وفي طريقه إليها عرج على مدينة المدية ، التي كانت تابعة لأمير تنس [106] ،فضمها إلى سلطته ، وكذلك فعل مع مدينة مليانة ، التي كانت هي الأخرى مستقلة عن سلطة بني زيان . وبعد مسيرة يومين التقى عروج بخصمه في وادي جر قرب مدينة البليدة ، وكان مع أمير تنس - الذي تسميه بعض المصادر بحميد ة العبد[107] - جيشا قدره هايدو بعشرة آلاف رجل فوقع القتال بين الطرفين . ورغم التفوق العددي الذي كان لصالح أمير تنس ؛ فإن قوات عروج كانت أكثر تنظيما وأحسن تسليحا . فقد أحدثت أسلحتهم النارية الموت في صفوف الكثير من خصومه ، وأجبر صاحب تنس إلى الانسحاب من المعركة في طريقه إلى تنس . فلاحقه عروج حتى دخل المدينة ، لكن الأمير سرعان ما غادرها واعتصم بالجبال خوفا من وقوعه تحت الحصار. كما فرت من تنس القوات الأسبانية - التي كان قد استقدمها الأمير لحماية نفسه - المتألفة من خمسمائة رجل، على متن السفن الأربعة التي كانت لديهم. ودخل عروج المدينة دون صعوبة ، وأعلن سكانها ولاءهم إلى السلطة في مدينة الجزائر.

وفي السنة التالية (1518) ، تمكن عروج من وضع مدينة شرشال تحت سلطته، ثم أقام فيها قلعة . وفي عهد خير الدين نصب على حكمها قائدا يساعده مجلس يتكون من عشرة أعيان [108].

وكانت تلمسان تعيش في تلك الأثناء اضطرابات داخلية ، ونزاعات بين أفراد العائلة المالكة على الحكم . وعرفت أوضاعا اقتصادية متدهورة ، فنقص الإنتاج وقل الدخل ، خاصة بعد فقدانها للمناطق الساحلية ، التي كانت تدر عائدات جمركية معتبرة . دفعت بالملك أبي عبد الله محمد الخامس (1505 – 1516) إلى فرض إتاوات ورسوم على السكان في سنة 1510 ، مما زاد من تعقيد الأمور ، حيث سعت كل فئة مسها هذا القرار إلى النيل من المملكة ، ولما خشي الملك على عرشه ؛ راح يبحث عن مؤيدين من القبائل ، بل اتجه إلى التحالف مع الأسبان . وعندما توفي سنة 1516 ، استولى على العرش أخ اه أبو حمو الثالث من الوريث الشرعي للحكم ابن أخيه أبي زيان ، ثم وضعه في السجن . لقد أثار ذلك الفعل سخط الناس عليه . حيث أبرم اتفاقية ولاء جديدة للأسبان ، يكون بموجبها ملزما بدفع ضريبة سنوية قدرها اثنتا عشر ألف دوقا [109]. وفي المقابل يتولى أسبان وهران حمايته . اتفق أعيان تلمسان مع أبي زيان السجين على تشكيل وفد يقوده الشيخان مولاي يوسف وسيدي أبو يحي أرسلوه إلى عروج الموجود في تنس لطلب المساعدة .

لم يتأخر عروج في تلبية الطلب ، إذ كتب إلى خير الدين بالجزائر يطلب منه أن يرسل إلى ميناء تنس عشرة مدافع خفيفة ، وكميات من البارود والذخائر. ثم توجه إلى تلمسان في شهر سبتمبر 1517 ، على رأس قوات تراوحت ما بين 1500 ، 1600 رجل [110] . وفي طريقه إلى تلمسان انضم إليه العديد من المتطوعين من رجال القبائل الناقمة على أبي حمو . واستولى على قلعة بني راشد لتأمين الطريق ، وقبل وصوله إلى تلمسان واجهه أبو حمو بقواته المتكونة من ستة آلاف فارس وثلاثة آلاف من المشاة [111]، وفي طريقه إلى تلمسان اصطدم بعروج وبعد معركة بين الطرفين ، تمكن عروج من الانتصار على خصمه ، والدخول إلى تلمسان . فكان دخول عروج إلى تلمسان في سنة 1518 أول اتصال للسلطة القائمة في مدينة الجزائر بمدينة تلمسان ، وذلك في إطار سياستها الرامية لكسب ولاء حكامها وتوحيد الجهود ضد مخططات الأسبان . غير أن الأخيرين كانوا ساعين من طرفهم أن تبقى مملكة تلمسان تحت نفوذهم، وقد دفع عروج حياته نتيجة لهذه السياسة . واستمر ذلك التنافس بين الطرفين على كسب تلمسان إلى غاية ضمها نهائيا في منتصف القرن السادس عشر لصالح السلطة الجزائرية .

بعد استشهاد عروج ، اتفق أهل مدينة الجزائر على أن يتولى خيرالدين شؤون السلطة خلفا لأخيه. وقد واجه خير الدين جملة من الصعوبات ، خلال تلك

الفترة ـ لعل من أخطرها ، خشيته من قيام الأسبان بهجوم سريع على مدينة الجزائر قصد احتلالها. وكان موقف الحفصيين من السلطة القائمة في مدينة الجزائر لم يستقر بعد ، حيث لم يعترفوا بسلطة خير الدين في الجزائر(112) .

لقد كان خير الدين أكثر تجربة من أخيه عروج ، فقد تمكن من استغلال ثمرات خبراته وجهوده السياسية في التغلب على تلك التحديات . فعندما اطمأن على تأخر العدوان المتوقع ،علم أن دي كوماريس قد أعاد قواته التي شاركت في العدوان على تلمسان قد عادت إلى أسبانيا ،بعد التحاقها بوهران. كما أنه عرف كيف يقرب بين أوجه الاختلاف في المحيط الذي أصبح يعيش فيه ، حيث رأى أن السبيل الوحيد لتجنب تلك الفتن ، هو مسايرة بعض الأحداث ، ويتضح ذلك في الموقف الذي سلكه تجاه ملك تلمسان ،حيث أرسل أوامره لأنصاره في الغرب الجزائري يوصيهم فيها بتجنب الوقوع في مجابهة مع ملك تلمسان ، كما أمرهم أن يظهروا له الولاء والطاعة (113) قائلا لهم :<< إن قدم إليكم سلطان تلمسان فأظهروا له وصانعوه بالهدايا لئلا يلحقكم منه ضرر>>(114) . كما تمكن خير الدين أن يحيط نفسه بطاقم كفء ، لتنظيم شؤون الحكم سواء منها الإدارية أو العسكرية (115). وقام بتنظيم التحصينات ، وتعزيز القوات العسكرية حول المدينة ، تمكن بفضلها رد عدوان دي مونكادي سنة 1519.

ولما تولى صالح رايس الحكم سنة 1552، تهيأت له الظروف لتوسيع نطاق نفوذه في الجنوب ، منها أبرامه لصلح مع السعديين لكنه لم يدم طويلا ، كما أنه كان على ود مع بعض الإمارات المحلية مثل إمارة بني عباس. استغل صالح رايس هذه الظروف وخرج في حملة نحو تقرت وورقلة لإخضاع أمرائها تحت سلطته ، وقد اصطحب معه عبد العزيز سلطان بين عباس . وقد نجح في مهمته ، وفرض على أعيان هذه المناطق أداء الولاء له ، ودفع الضرائب(116) .

هوامش الفصل الأول:

(1) Sandoval : Op.cit., p.178.

(2) Primaudaie : Le Commerce...., Op.cit., p.245.
(3) Ibid.: p.245.
(4) Mercier: Op.cit. , T.2 , p.419.
(5) Braudel: Les espagnols en Afrique…, Op.cit., R.A1928, . N°69, p.217.
(6) قالت فيها عند إقامتها بمدينة كيل كامبو في 24 نوفمبر سنة 1504، قبل موتها :<< أطلب من ابنتي الأميرة والأمير زوجي أن يهتما بأمور الإيمان المقدس ، وأن يشتغلا بدون انقطاه بغزو افرقيا وبمحاربة الكفار في سبيل الدين>>. ابن أشنهو : ص.14.

(7) أنظر : الفصل التمهيدي من هذه الرسالة صص.22 وما بعدها.

(8) l'abbé Bargès: Complément de l'histoire des Bani – Ziane rois des Tlemcen , Ernest Laroux , Paris , 1887 ,p.403.
(9) Primaudaie: Documents... , Op.cit., R.A., 1875, N°.19, pp.272-273.
(10) Ibid. ,pp.275-276 .
(11) للاطلاع عن تفاصيل أعمال التجسس الأسبانية على المغرب الأوسط ، أنظر : عبد القادر فكاير : الصراع الجزائري الأسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر ، 2001 ، صص.35-38 .
(12) Castries: Op.cit., p.27.

(13) Bargès: Op .cit., p.418.

(14) Haedo: Histoire des rois , Op.cit., pp.65-66.
(15) Bargès: Op.cit, p.434.
(16) Esterhazy: Op.Cit., p.128 .
(17) مجهول : غزوات... ، ص.32.
(18) وهناك من ذكر أن أبا حمو توجه بنفسه لمقابلة الإمبراطور.أنظر: Rotalier: Op.cit, T.1, p.119;Fey : Op.cit, p.80.

(19) Fey: Op.cit. , p.80 .

(20) Mercier: Op.Cit., T.3, p.21.
(21) Fey: op.cit., p.80-81.
(22)للمزيد عن هذه المعركة أنظر: Berbrugger :La mort du fondateur de la Régence d'Alger, R.A. 1859-1860, t.4,p.27.
(23) أنظر النص الكامل للمعاهدة في: Primaudaie :Documents..,Op.cit., pp.388-393.

(24) مارمول : ج.2 ، ص.311.
(25) بينما ذكر مارمول أن الإبن الأصغر هو الذي نصب ملكا ، وأن الإبن الأكبر هو الذي استنجد بالأسبان ضد أخيه من الوصول إلى العرش ، أنظر مارمول ، ج.2، ص.312.

(26)Primaudaie:Documents..,lettre du licencié Melgarejo..,R.A.,1875, p.238.
(27)Chantal de la Veronne,Oran et Tlemcen dans la premièremoitié de 16ème siècle , Geuthner Paris, 1983, pp.98-99.
(28) G.Jacqueton: l'expedition d'A. Martinez de Angelo contre Tlemcen (juin-juillet1535),R.A., 1892, N°36,pp.149-165.
(29) Ruff: Op.Cit., p.45.

(30) مارمول : مصدر سابق ، ج.2، ص.313.

(31) وهناك من ذكر أنهم قتلوا عن آخرهم. أنظرمارمول: ج.2،ص. 313 .

(32) Ruff: Op.cit., p.49.
(33) Primaudaie:Documents…, Lettre du 12juillet 1535,R.A 1875,p.48.
(34) Ruff: Op.cit., p.49.

(35) عرف بمحمد السابع ، استمر في الحكم إلى غاية سنة 1550.

(36) Bargès: Op.cit., p.450.

(37) قدرها بعضهم اعتمادا على المؤرخين الأسبان بعشرين ألف فارس.أنظر : Mercier: Op.cit., t.3, p.50.

(38) مارمول : مصدر سابق ، ج.2، ص.314.

(39)لقد اختلفت تقديراتها فقد ذكر دي غرامون أنها كانت 80 ألف ، أما دي لاكويبا Cueva ، فقد ذهب إلى 15000رجل ، أنظر: Ruff, p.92.

(40) وهو عبارة عن سهل واسع يقع وراء الجبال المحيطة بتلمسان من الجنوب والغرب.

(41)Ruff: op.cit., 92.

(42) مارمول : مصدر سابق، ج.2 ، ص.314.

(43) Grammont: Op. Cit., p.70 .
(44) Ruff: Op.Cit. pp.93-94.

(45)الأغا بن عودة المزاري : طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وأسبانيا وفرنسا في أواخر القرن التاسع عشر ، جزءان، تحقيق ودراسة د.يحيى بوعزيز ط. 1 دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990، ، ج.2 ، ص.217 .

(46)مارمول:ج2 ، ص.315.

(47) Francisco de la Cueva: Guerre de Tlemcen , Traductoion de M. Camille Brunel, BSGAO, 1891, t.10,p.379.
(48) Barges : Op. cit. ,p.52 .
(49) Ruff: Op.Cit., p.110.
(50) Mercier: Op. cit. , T.3, p.60.

(51) Bargès , p.453.

(52)عمار بن خروف : العلاقات الساسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، الأمل ، الجزائر 2006، ج.1،صص.35-36.

(53) أحمد بلبوري : وهران وضواحيها اجتماعيا ، سياسيا ـ اقتصاديا لابان الاحتلال الإسباني 1505-1792م ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، قسم التاريخ ، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس ، السنة الجامعية: 2006-2007، ص.170 .

(54) ابن خروف : مرجع سابق، ص.32.

(55) أنظر: Ruff: Op.cit.,p.105

(56) محمد العروسي المطوي: السلطنة الحفصية ، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص.216.

(57) فقد شهدت قسنطينة اضطابات بين عامي 1465و1465، أدت بالسلطان أبي عمر إلى السعي لكسب قبائل المنطقة مثل الحنانشة والنمامشة والدواودة.

(58) Feraud: Op.cit., pp.248-249.

(59) للاطلاع على أعمال الحملة ، والقضاء على السلطة التي كانت قائمة في بجاية أنظر : الفصل الثاني من الباب الأول من هذا الكتاب .

(60) أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ، 1492 – 1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1962 ، ص.134-135.

(61) للاطلاع على تلك المحاولات أنظر: مجهول : غزوات ص.17 وما بعدها .

(62) الثعالبة بطن من بطون قبيلة المعقل التي هاجرت ضمن الهجرات العربية إلى شمال إفريقيا ومنها الجزائر ، التي شملت قبائل أخرى مثل بني هلال وبني سليم.

(63) عبد القادر حليمي : مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل سنة 1830، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي ، الجزائر ،1972 ، ص.217.

(64) الوزان: ج.2، ص.37 .

(65) نفسه : ص.37.

(66) Marmol (C.) : L'Afrique de Marmol , traduit en français par M.Perrot d'Ablaucourt, Paris, 1667, p.86.

(67) Jean Leon l'Africain: Description de l'Afrique , traduit de l'Italien par A.Epaulard, Paris , 1956, T.2 , p.348.

(68) حليمي : مرجع سابق ، ص.21.

(69) أنظر مقدارها في .Haedo: Topographie.., Op.cit.,p.415

(70)Albert Devoulx: Alger étude archéologique et topographique sur cette ville aux époques romaine , arabe et turque, R.A., 1876, t.20,p.66.

(71)Mercier: Op. cit., t.2, p.426.

(72) الوزان: مصدر سابق ، ج.2 ، ص. 38.

(73) مجهول : مصدر سابق ، ص. 29.
(74) Laugier de Tassy: Histoire du royaume d'Alger, Chez Henri du Sauzet, Amstterdam , 1724, pp.12-13.
(75) مجهول :غزوات: مصدر سابق، ص.69.
(76) ففي سنة 1521 حين اضطر خير الدين الخروج منها والاستقرار في جيجل ، وظل يحكمها إلى غاية سنة 1525 أو 1527 ، فقد اختلفت الروايات حول فترة غياب خير الدين عن مدينة الجزائر ، قدرها بعضهم بستة سنوات ، وكثير منهم من ذكر أنها خمس سنوات ، أما صاحب كتاب الغزوات فحددها بثلاث سنوات .
(77)Primaudaie: Documents: Op.cit., p.124.
(78) Haedo: topographie, R.A., N°83, 1770, p.65.
(79) أنظر صورا لرسائل محمد بن القاضي إلى الأسبان في : المدني ، صص 303-307.
(80) أنظر رسالة محمد بن القاضي إلى شارلكان في المدني : ص.303.
(81) P.Boyer: Espagne et Kouko, Les négociations de 1598 et 1610, ROMM,1970/2, pp.25-40.
(82) Ibid.: p.30.
(83) Boulifa: Op.Cit., p.144.
(84)Mercier : Op.cit., t.3, p.174.
(85) André Berbrugger : L’Epoque militaire … , Op.cit. p.108.
(86) Boyer: Op.cit, p.37.
(87)أنظر: C.Feraud: Les Mokrani..BSGA, 1871-1872, p.196.
(88)Marmol: Op.cit., t.2, p425-426.
(89) ابن رقية : مصدر سابق ، ، ص.3.
(90)Grammont : Op.Cit., p.22.
(91) ابن رقية : ص.3.
(92) Haedo: Histoire des rois …, Op.cit., R.A., 1880, p.54.
(93) Edouard Cat: Petit histoire de l’Algerie , T.1, Jourdan , Alger, 1889, p.240.
(94) Berbrugger: Le Pegnon, Op.Cit., p.20.
(95) Mahfoud Kaddache: L’Algerie durant la periode Ottoman, O.P.U., Alger, 1998 , p.8.
(96) مجهول : مصدر سابق ، ص.41 ؛ ابن رقية : ص.17 .
(97) ابن رقية : ص.17؛ مجهول : 41 .
(98) ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان ، ج.2، عن جمال قنان ، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1609-1830 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1987، ص.26.
(99) ابن رقية : مصدر سابق ، ص.17.

(100) مجهول : ص.42.

(101) Grammont: Op.cit.,p.30.

(102) هناك من يشك في أن خير الدين قد تلقب بهذا اللقب خلال هذه المرة ، لأنه ـ حسب رأيهم ـ لقب غير عادي ، إذ لم يكن يحمله سوى ثمانية أشخاص في كامل أرجاء الإمبراطورية. أنظر :
Jean Manlau, Op.cit.,p.57.

(103) قنان : معاهدات ، مرجع سابق ، ص.26.

(104) مجهول : ص.41 .

(105) وهناك من ذكر أنها بلغت 2500 رجل . أنظر : Esterhazy: Op.cit. p.126.

(106) الوزان : مصدر سابق ، ج.2، ص.41.

(107) عن حياته أنظر: Moulay Belhamissi: Histoire de Mostaganem des origines à nos jours, S.N.E.D.,Alger,1982,pp. 67-71.

(108)Benseddik et autres: Cherchel , Direction des Musées, de l'Archéologie et des Monuments et Cites Historiques, Alger 1983, 14.

(109)مولاي بلحميسي: نهاية دولة بني زيان ، الأصالة، العدد: 1975، 26، صص.32-33.

(110) Rang & Denis: Op.cit.,p.174.

(111)Haedo: Histoire des rois…, Op.cit.,p.65.

(112)Albert Prieux: Les Barbaresques corsaires et roi, Arc- en-ciel, Paris, 1861, p.82 .

(113) قنان : مرجع سابق ، ص. 24.

(114) ابن رقية : مصدر سابق ، ص.10.

(115) Haedo:Histoire des rois..,R.A., p.118.

(116)Charles Feraud: les Beni Djelleb Sultans de Touggourt, R.A., 1879, N°23, p.269-270.

الفصل الثاني

الآثار السياسية على الصعيد الإقليمي (بلاد المغرب والأندلس)

لقد كان للهجمة الأسبانية على السواحل المغربية تداعيات سياسية على المنطقة، فقد أفرزت هذه الحركة إلى وقوع عدة أحداث مما دفع بالسلطة في

الجزائر أن تتفاعل معها. فقد كان لسياسة الأسبان مع المسلمين الأندلسيين الاستئصالية ردة فعل في قيام ثورات ، استجابت السلطة في الجزائر إلى نداءاتهم ومساندة ثوراتهم . كما ترتب عن السياسة الأسبانية في منطقة بلاد المغرب إلى التفريق بين القوى السياسية في المنطقة ، وهذا ما حال دون التحالف بين الجزائر والمغرب رغم الجهود التي بذلت بين الطرفين . وعلى حدودها الشرقية سعت الدولة الجزائرية بكل جهدها إلى مناصرة التونسيين ضد الخطر الاحتلال الأسباني لها الذي استمر من سنة 1535إلى غاية 1574.

1 ـ نصرة الجزائر للمسلمين الأندلسيين:

أدرك الجزائريون طبيعة المعاناة التي كان يعيشها الأندلسيون بعد سقوط غرناطة، ولهذا لم يتأخروا عن تقديم الدعم المادي والمعنوي لهم . وذلك يتمثل في دعمهم خلال ثوراتهم ضد الأسبان ، وإيوائهم حين تعرضوا للطرد .

لقد ثار الأندلسيون عدة مرات منها ثورة جبال البشرات (Las Alpujarras) التي وقعت مابين (1499-1502) أدت بالسلطات الأسبانية إلى إصدار قانون في 12 فيفري 1502 يخير المسلمين بين التنصير أو الهجرة، وكان هؤلاء الثوار يتلقون الدعم من إخوانهم في بلاد المغرب[1]. وكانت ثورة 1568 أشد ثورات الأندلسيين تجلت فيها المساعدات الجزائرية بشكل كبير.

صدرت في عهد فيليب الثاني قوانين تعسفية ضد المسلمين الأندلسيين. منها قانون عام 1563 الذي يحرم عليهم حمل السلاح دون ترخيص . وقانون عام 1567 الذي حرم عليهم استعمال اللغة العربية وارتداء الثوب العربي . وصفه أحد المؤرخين الغربيين << أقسى من أن يتحملها شعب ما ، فكيف بأحفاد المنصور،وعبد الرحمن ، وبني سراج >>[2]. ونهبت أراضيهم بموجب قرار مراجعة الأراضي والوثائق العقارية [3]. إلى جانب الإجراءات التي أصدرتها في حقهم محاكم التفتيش [4].

ونمت في أسبانيا طبقة بورجوازية من المسيحيين ومن المسلمين ، فتولد لدى الفئة الأولى الشعور بالكره ضد الفئة الثانية من المسلمين المزارعين والرعاة [5].كما شهدت البلاد نموا ديمغرافيا لدى المسلمين أكثر من المسيحيين ، وهذا ما تخوف منه الأسبان أن ترجح كفة المسلمين على حسابهم .

طلب الأندلسيون المساعدات من السلطان سليم الثاني (1566-1574) في سنة 1567 . لكن الظروف التي كانت تعيشها بلاده في حروبها على ضفاف البحر الأسود ، وعلى الحدود الإيرانية لم تسمح له بنجدتهم . وعندما تولى علج

علي الحكم في الجزائر، في هذه السنة(1568)، أعطى للمسلمين الأندلسيين دفعا لبدء ثورتهم[6]. فقد أطلعوه عن مشروع ثورتهم، وطلبوا منه المساعدات الضرورية التي كانوا يحتاجونها [7] . لقد أبدى علج علي استعداده لمساعدتهم. ولهذا الغرض اجتمع عدد من سكان مدينة الجزائر في أحد المساجد، وتمكنوا من جمع الأسلحة وتجنيد الرجال الراغبين في المشاركة في الثورة، بلغ عددهم أربعة آلاف رجل .

كان من المقرر أن تبدأ الثورة في يوم 15 أفريل المقدس لدى المسيحيين، لانشغالهم باحتفالاتهم وصلواتهم. غير أن السلطات الأسبانية اكتشفت المخطط، مما أدى إلى تأجيل الثورة إلى موعد آخر[8].

أرسل علج علي إلى السواحل الواقعة في منطقة ألمرية أربعين سفينة، غير أن السلطات الأسبانية اكتشفت أمر الثورة ،فعثرت على مخازن السلاح، وألقت القبض على بعض الثوار، فلم يستطيع الأسطول الجزائري إنزال حمولته، وبذلك تأخر موعد الثورة[9].

وفي ديسمبر 1568 اندلعت الثورة في قرية بيذنار في وادي لكون، بزعامة محمد بن أمية الذي استطاع أن يجمع حوله مائة وخمسون ألف رجل، من بينهم خمسة أربعون ألف في سن حمل السلاح[10].

سارع علج علي إلى إرسال ستة سفن محملة بالمدافع والذخيرة، تم إنزالها قرب ألمرية وذلك في جانفي 1569. ثم أرسل مرة أخرى أسطولا يتألف من اثنين وثلاثين سفينة معبئة بالجنود، لكنهم لم يتمكنوا من النزول بسبب حدوث عاصفة بحرية . وفي أكتوبر 1569 نجحت الجزائر من تقديم أربعة آلاف بندقية، وكميات من الذخائر، فضلا عن بضع مئات من الجنود النظاميين ذوي الخبرة العسكرية، ليقودوا للثوار المسلمين هناك [11] . وتذكر بعض الروايات أن علج علي أراد الذهاب إلى بلاد الأندلس ليتولى قيادة القتال بنفسه ، لكنه حارب الأسبان في تونس، حيث خرج إليها في أكتوبر 1569 فحررها من سلطة حاكمها العميل للأسبان ثم عاد إلى الجزائر.وبذلك نجح علج علي في تشتيت القوات الأسبانية بين تونس والأندلس.

ومن أجل القضاء على الثورة عين فيليب الثاني في أفريل 1569على رأس القيادة العامة أخاه غير الشرعي دون خوان [12]. وانتقل الملك بنفسه في إلى قرطبة ليكون على مقربة من مكان الثورة، ومنع انتشارها إلى أقاليم أخرى، والتفاوض مع قائد الثوار الحبقي. فقد توصل الطرفان إلى العفو التام عن الثائرين مقابل وضعهم لأسلحتهم. وفي 15 جوان 1570 وضع ثلاثون ألف ثائر أسلحتهم

[13]. وهيئت بعض المراكب لعودة المتطوعين الجزائريين أو الذين جاءوا من المناطق المغربية الأخرى إلى بلادهم . لكن سرعان ما عادت الثورة للاشتعال من جديد ، وهو ما جعل الأسبان يلجئون إلى أسلوب آخر للتخلص من المسلمين ، فصدر قرار النفي في 28 أكتوبر 1570 [14]. كإجراء نهائي لإنهاء الثورة ، وعزل الذين ظلوا معتصمين في الجبال. وهكذا تم تهجير أكثر من مائة وخمسون ألف شخص [15].

لقد رحل أغلب المهجرين إلى شمال إفريقيا ، سواء كانت هجرتهم طوعية أم قسرية. فإلى جانب تونس والمغرب ، استقبلت الجزائر أعدادا كبيرة من الأندلسيين وخاصة من البلنسيين ، الذين صدر في حقهم قرار الطرد في يوم 22 سبتمبر 1609 ، وقد أدى ذلك إلى طرد ثمانية وعشرون ألف من ميناء دانية ، وخمسة عشر ألف من ميناء بلنسية نقل الكثير منهم نحو مدينة وهران[16]. وهناك من الأندلسيين من انتقل إلى الأراضي الجزائرية عبر فرنسا ، بعد صدور قرار ملكي في أفريل 1610 يدعو فيه مدن الجنوب الفرنسي بأن يوجهوا المهاجرين إلى أقرب ميناء لترحيلهم [17].

وكان مما شجع الأندلسيين على التوجه إلى الجزائر هو مراسلة من كان بها إلى إخوانهم الذين انتقلوا إلى بلاد مسيحية أخرى ، عندما سمعوا بسوء المعاملة التي كانوا يتلقونها ، فعلى سبيل المثال أرسل رجل من الجزائر يدعى مولينا إلى رجل آخر من تروخيغو ، وصف له المعاملة السيئة التي تلقاها ومن معه في مرسيليا ، ثم أضاف قائلا: << كنا هناك ، ويزيد عددنا على ألف ، قرر بعضنا الرحيل من تلك المملكة إلى مكان آخر أكثر راحة . أما نحن فقد ذهبنا إلى ليفورنا وقد حدث لنا مثل ما حدث في مرسيليا. ونظرا لأن السادة هناك يريدوننا من أجل استغلالنا في الزراعة وغيرها من المهن الدنيئة التي لا يريدها عامة الناس هناك ، حيث أن أغلبهم من التجار والحرفيين اتفقنا أن نذهب إلى المكان الذي يقرره الملك ، وهكذا أتينا إلى الجزائر >> [18].

لقد استقبلت مختلف المناطق الساحلية الجزائرية من القالة شرقا إلى رأس فالكون غربا هذا النزوح الأندلسي الجماعي ، نذكر منها عنابة ، بجاية ، الجزائر العاصمة ، مستغانم والسواحل الوهرانية ، ومنهم توجه إلى تلمسان .

2 . الحيلولة دون التعاون مع المغرب :

إن المتأمل للصلات بين الجزائر مع المغرب الأقصى يلاحظ أنها لم تستقر على نمط واحد بعد تعرض البلدين إلى الغزو الأسباني والبرتغالي . إذ لم يحصل

بينهما التعاون المطلوب من أجل مواجهة ذلك الخطر ، خاصة بعدما تمكن العثمانيون من الوصول إلى الجزائر ، رغم سعي عروج وخير الدين وغيرهما من حكام الجزائر لربط جسر التعاون في وجه العدو المشترك . ويعود ذلك بصورة كبيرة إلى الأسبان والبرتغاليين الذي غذوا هذه النعرة لمنع النفوذ العثماني في المغرب والاستفراد به عن طريق ربط المعاهدات .

فبعد قيام سلطة جديدة في مدينة الجزائر سعى عروج بعد دخوله إلى تلمسان سنة 1517 إلى التعاون مع الوطاسيين ، حيث أرسل إلى سلطان فاس محمد الوطاسي يعرض عليه التحالف معه ضد النصارى ، ويدعمه ضد سلطان مراكش . وحسب هايدو فإن الوطاسي رحب بالفكرة ، لكن ذلك لم يتم . إذ لم يكن السلطان الوطاسي يرغب في توريط نفسه في حرب خارج حدود مملكته . ونتيجة لعدم التعاون بينهما تمكن الأسبان من القضاء على عروج [19] .

وسعى خير الدين بعد قضائه على الحصن الأسباني قبالة مدينة الجزائر سنة 1529 إلى تحرير وهران ، فأرسل إلى السلطان الوطاسي وإلى غيره من القوى المغربية الأخرى في تونس وتلمسان المساهمة في العملية[20]. لكن هذا المشروع لم ينفذ لعدم وصول المساعدات المطلوبة . وكان الأسبان يخشون من قيام تحالف بين الوطاسيين في المغرب وخيرالدين في الجزائر ، لكن ذلك لم يتم بسبب إقدام الأسبان على تحريض الملك الزياني عبد الله الثابتي على الثورة ضد خير الدين وإقدام شارلكان على تعزيز وهران والإسراع في احتلال تونس . كل هذه الأحداث وغيرها عطلت أي تعاون بين الوطاسيين وخيرالدين ،وكذلك في عهد حسن آغا.

أما علاقات الجزائر مع الدولة السعدية فكانت في البداية سلمية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ، ثم تحولت بعد ذلك إلى علاقات عداء ويعود ذلك إلى رغبة الأتراك العثمانيين فرض تبعيتهم إلى الخلافة . وكان لامتناع محمد الشيخ السعدي قد دفع به إلى مهاجمة الجزائر [21]. وكان الأسبان وإلى جانبهم البرتغاليين حريصين على منع امتداد النفوذ التركي إلى المغرب وذلك عن طريق تغذية مخاوف الحكام السعديين من نوايا الأتراك في ضم المغرب إلى سلطتهم ، وتوقيع معاهدات مع الوطاسيين والسعديين حتى يبعدوا الجزائر من التدخل في المغرب[22]. وهذا ما أبعد التقارب بين الجزائر والمغرب، استفاد منه الأسبان في استمرار وجودهم في المناطق التي احتلوها في البلدين. بل أدى ذلك التوتر بالبلدين إلى اجتياح جيشيهما البلد الآخر . ومنها هذين النموذجين .

فبعد ما قضى السعديون على الوطاسيين واحتلوا فاس ، أراد الشريف محمد المهدي مؤسس هذه الدولة أن يضيف مجدا آخر في احتلال مدينة تلمسان [23] . وكانت تلمسان في هذه الأثناء تحت حكم السلطان أحمد الذي كان منذ سنة 1547 يعترف بتبعيته للأسبان في وهران . فأعد السلطان السعدي جيشا [24]،الذي تحرك تحت قيادة ابنيه محمد الحران ومولاي عبد القادر في شهر جوان 1550 من فاس نحو مدينة تلمسان ، وتمكن من دخولها في نفس الشهر من نفس السنة [25]. ودام احتلالهم لها لمدة 9 أشهر. واختلفت الآراء حول مصير الملك الزياني مولاي حسن، فقد أورد بعضهم أنه ترك مدينة تلمسان والتجأ إلى مدينة الجزائر [26]، وذكر بعضهم أنه فر إلى مدينة وهران [27].وهناك من قال أنه حينما : << كانت هذه الحوادث تجري والحسن بن عبد الله الزياني متفرجا داخل قصره >> [28] ، وهو ما يرجح الرأي القائل باستمرار بقاء العائلة الحاكمة في تلمسان إلى غاية سنة 1554 .

وذكر بعضهم أنه كان بين الشريف السعدي وحسن باشا اتفاقا ينص على أن يوجه الجيش المغربي إلى وهران ، حيث يلتقى الجيشان في عين تيموشنت ، ليعملا معا على طرد الأسبان من هناك [29]. غير أن طموح الملك في احتلال تلمسان جعله يخرق الاتفاق ، فوجه جيشه نحو تلمسان بدلا من وهران . ولما أصبح السعديون أسيادا على تلمسان ، لم يفكروا في تهديد الأسبان في وهران ، فعلى ما يبدو أنهم كانوا في اتجاه الوفاق معهم ، يهدفون إلى تصدر الخلافة الإسلامية على اعتبار أنهم حفدة الرسول (ص) [30]، حيث لم يعترض الأسبان طريقهم عندما سلك الجيش السعدي طريقه قرب وهران ، وهو في طريقه لاحتلال مدينة مستغانم . ولما علم سكان ضواحي المدينة بذلك التواطؤ ، انسحبوا إلى ما وراء أسوار المدينة من أجل تنظيم صفوفهم لمواجهة العدوان [31] ومنها تحركت قوات السلطان السعدي نحو الجزائر العاصمة.

ولما علم حسن باشا بتقدم الجيش السعدي ، جهز جيشا يتكون من خمسة آلاف جندي من المشاة ، وألف رجل من الصبايحية ، وثمانية آلاف رجل من منطقة القبائل، كانوا تحت زعامة عبد العزيز سلطان بني عباس [32]. تحت قيادة حسن قورصو . فبدل من توجيه تلك القوات إلى وهران حسب الاتفاق المشار إليه سابقا تحولت مهمتها إلى محاربة السعديين ، وتمكنت من التغلب عليهم في معركة في حوض الشلف. وفي الأخير أجبر الجيش السعدي على الانسحاب على داخل الأراضية المغربية . وتقدمت القوات الجزائرية نحو تلمسان ، حيث شنت هجوما على الحامية المغربية التي كانت تحت قيادة محمد الحران ، وقد شارك فيها أهل

المدينة [33] . وبعد معركة غير متوازنة انهزم الجيش السعدي ، أسفرت عن هلاك أحد أبناء السلطان السعدي وهو مولاي عبد القادر . ودخلت القوات الجزائرية إلى تلمسان، فعزل حسن باشا أبازيان أحمد ونصب على عرشها عبد الله الزياني ، ولكنه كان تحت سلطة أحد رجاله القائد السفاح ، الذي احتفظ معه بألف وخمسمائة جندي ، بعد ذلك عاد حسن بن خير الدين إلى الجزائر العاصمة[34].

ولما استولى السعديون على فاس استنجد به أبو حسون الوطاسي ، استجاب صالح رايس للنداء ، وتوجه نحو فاس التي بلغها في جانفي 1554 ، وقاتل محمد المهدي وأجبره على الانسحاب ، فدخلها صالح رايس وولى أباحسنون ملكا عليها ، لكنه لم ينعم بالملك إلا لمدة تسعة أشهر فقط حيث اغتنم محمد المهدي انسحاب القوات الجزائرية مع صالح رايس ، وهاجم أبا حسون فانتصر عليه ودخل فاس في 23 سبتمبر 1554[35]، وتمكن من دخول فاس في سنة 1554. وتوجه إثر ذلك إلى إعلان الوفاق مع الأسبان [36]. وقد أرسل الكونت دالكوديت من وهران وفدا إلى فاس يطلب من محمد المهدي التفاوض حول تهييئ حملة فورية على الجزائر ، كما أسند إليه فيليب الثاني عقد الهدنة مع الشريف في رسالة مؤرخة في أفريل 1556 [37] .

ورغم مضي أكثر من عامين من المفاوضات لم يتوصل الطرفان إلى توقيع اتفاق، كما لم يتمكنا من تمويل حملة مشتركة ضد الجزائر ، وذلك يعود من دون الشك إلى انعدام الثقة بين الطرفين ، ورفض الأسبان في وهران تزويد محمد الشيخ بالمدافع عندما حاصر المشور بتلمسان ، الذي تحصنت فيه حامية المدينة في جوان 1557 ، فاضطر إلى فكه والانسحاب إلى المغرب عندما علم بزحف حسن بن خير الدين من الجزائر نحو تلمسان. وقد أدت سياسة السلطان السعدي إلى قتله في أكتوبر 1557 على يد أتراك الجزائر بعثهم حاكم الجزائر خصيصا لذلك [38]. وظلت العلاقات بين البلدين فيما بعد متأرجحة بين العداء والسلم ، أفادت في استمرار الوجود الأسباني في المناطق التي كان يحتلها .

3 . مساندة تونس ضد الخطر الأسباني (1534–1574):

لقد كان اهتمام الجزائر بشؤون تونس منذ عهد خير الدين ،عندما شهدت اضطرابات داخلية وخلافات بين أمرائها على الحكم في عهد مولاي حسن الحفصي، الذي لم يكن محبوبا لدى رعيته ، لقيامه بقتل إخوته والانفراد بالحكم، باستثناء الأمير رشيد ، الذي استطاع النجاة والفرار إلى الجزائر يستنجد بخير الدين [39].وبناء على هذه الاستغاثة دخل خير الدين مدينة تونس في 18

أوت1534 ، ومعه أربعة آلاف رجل [40]، بعدما فر السلطان الحفصي يستنجدا بالأسبان .

استجاب شارلكان لاستغاثة مولاي حسن فأعد أسطولا ضخما يتألف من أربعمائة واثنتا عشر قطعة بحرية [41]. على متنه ثلاثين ألف رجل ، الذي انطلق من مدينة كاغلياري (Cagliari) في 14 جوان 1535 في طريقه إلى تونس. ولمواجهة الحملة نظم خير الدين دفاعاته ، وتمكن من إجبار سفن شارل الخامس على التراجع [42] ، رغم التفوق العددي للأسطول الأسباني . وفي 16 جوان أنزل الأسبان قواتهم في البر، واستطاعوا أن يسقطوا في أيديهم حلق الوادي في 14 جويلية ، بعد قصف مدفعي لمدة شهر.

وفي 17 من نفس الشهر تحرك شارلكان إلى مدينة تونس . ولمواجهة هذا الزحف عسكر خير الدين في مكان يدعى "خربة الكلخ" [43]، وفيها وقعت المعركة الفاصلة بين القوتين . ويذكر أن الذي غير من مجرى المعركة لصالح شارلكان ، انضمام الأسرى المسيحيين الذين انفلتوا من الأسر إلى صفوف الغزاة ، كان عددهم إحدى عشر ألف. فاضطر خير الدين إلى الانسحاب بجيشه إلى مدينة عنابة ومنها إلى مدينة الجزائر. ودخل شارلكان مدينة تونس في 21 جويلية 1535. وفي 6 أوت وقع مولاي حسن معاهدة مع شارلكان،تضمنت بنودها مختلف مظاهر التبعية [44] .

ظلت تونس تحت نفوذ الأسبان حتى سنة 1568 حين تولى علج علي الحكم في الجزائر، حيث راسله أعيان تونس وكبرائها طالبين منه إنقاذهم من شدة مولاي أحمد. لكن علج علي كان منشغلا بتدعيم ثورة الأندلسيين في غرناطة[45].

وفي بداية سنة 1569 راسلوه مرة أخرى . فاستجاب لهم هذه المرة عندما تيقن بأن ثورة البشرات مآلها الفشل . فتوجه إلي تونس في أكتوبر من نفس السنة على رأس خمسة آلاف رجل ، وفي الطريق انضم إليه متطوع ون من منطقة القبائل وقسنطينة وعنابة بلغ عدده م ستة آلاف رجل ، كما أخذ معه عشرة مدافع [46].

خرج الملك الحفصي من مدينة تونس ومعه ثلاثون ألف رجل لمواجهة علج علي ، واشتبك الطرفان في باجة ، و بمجرد بداية المعركة تخلى قادة الجيش الحفصي مع جنودهم عن ملكهم والتحق مع ظمهم إلى ص فوف القوات الجزائرية[47]. ففر مولاي أحمد إلى تونس ، لكنه وجد أبوابها قد أغلقت في وجهه فالتجأ إلى الأسبان في حلق الوادي[48] ، ودخل علج علي إلى تونس في15 جانفي 1570 دون مقاومة ، وأعلن سكانها والمناطق المجاورة لها الولاء له . وقبل

عودته إلى الجزائرعين علج علي القائد رمضان حاكما عليها ، ومعه خمسة آلاف جندي .

وفي أكتوبر 1573 تعرضت تونس إلى حملة أخرى ، قادها الدون خوان النمساوي (Juan d'Autriche) ، الذي خرج من جزيرة صقلية على رأس أسطول يتألف من مائة وثمانية وثلاثون سفينة تحمل خمسة وعشرون مقاتل . وعند وصوله إلى حلق الوادي تعززبتسعة وتسعون سفينة أسبانية[49]. ثم تقدم نحو مدينة تونس ، فهاجمها واستولى عليها دون عناء ، بعدما انسحب رمضان باشا إلى الحمامات ومنها إلى القيروان [50].وفي الطريق لاحقتهم القوات الأسبانية فوقع القتال بين الطرفين ، وتمكن المسلمون من الانتصار على أعدائهم . وفي طريق عودتهم إلى تونس ، حاصروا سكان الحمامات وقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال ، كما نهبوا الأموال بعدما احتلوا المدينة [51].

ولما ظفر خوان دوتريش بتونس ، نصب مولاي أحمد ملكا عليها ، وعندما حاول القائد الأسباني فرض شروطه عليه ، تنازل عن العرش لأخيه محمد الحسن، الذي قبل أن يشاركه في السلطة حاكم أسباني يدعى غابريال سيربييوني (Gabriel Serbelloni). وسرعان ما عزل "خوان دوتريش" [52]. فغادر تونس بعد ما ترك فيها أربعة آلاف جندي إيطالي ومثل ذلك العدد من الأسبانيين [53] .

وإثرسقوط تونس في يد الأسبان من جديد ، راسل السلطان سليم الثاني الأقاليم العثمانية في شمال إفريقيا ، دعا قادتها إلى تجنيد المتطوعين وإلحاقهم بالقائد سنان باشا لنقلهم إلى حلق الوادي ، وطلب من أحمد أعراب باشا الالتحاق بالأسطول العثماني. وفي 7 أفريل 1574 وجه رسالة أخرى إلى بايلرباي الجزائر الجديد رمضان باشا ، وطلب منه الانضمام بقواته إلى الأسطول المكلف بتحرير تونس.

وفي منتصف ماي أقلع من اسطنبول سنان باشا على رأس أسطول يتكون من مائتين وتسعين سفينة وأربعين ألف جندي[54]. وفي نهاية ماي تحرك أحمد عراب باشا من الجزائر ومعه سبعة سفن بعدما ترك على رأس سلطتها رمضان باشا . وفي أواخر جوان بدأ الحصار ، بعد وصول مصطفى باشا من طرابلس ومعه أربعة آلاف رجل ، وشيوخ جزيرة جربة والقيروان ومعهم ستة آلاف فارس، وألفي رجل من عنابة وقسنطينة ، وعسكر الجميع حول مدينة تونس [55].

أرسل الأسبان قوات عسكرية جديدة إلى حلق الوادي ، وسارع سيبريوني إلى إخلاء بنزرت ، ونقل أفراد حاميتها إلى حلق الوادي [56]. ولما وصل الأسطول العثماني إلى تونس في يوم 12 جويلية ، بدأ الهجوم وأجبروا المفرزة

الأسبانية التي كانت تحتل برج مارابو وبرج رايس إلى إخلائه والتحصن بالباستيون . ولما تمكن المسلمون من الدخول إلى تونس توجهوا إلى محاصرة الباستيون [57].

تولى الهجوم على حلق الوادي كل من أحمد عراب ، وعلج علي . وقد أبدى أحمد عراب فعالية قتالية جعلت صاحب كتاب "البشائر" يثني عليه بقوله: << أنه توجه إليها وبنى المتاريس فيها ، وجاهد في الله حق جهاده وأقدم على قتال الكفار ، وألقى إلى الحرب مقاليد قتاله >> [58] . وأدى القصف المدفعي الإسلامي إلى هدم أجزاء كبيرة من أسوار القلعة إلى أن سقطت في ليلة 22-23 أوت ، وتم القضاء على من كان فيها من النصارى ،لم يبق منهم على قيد الحياة سوى ثلاثمائة رجل [59] احتفظ بهم كأسرى . وإثر سقوط حلق الوادي عزز بايلرباي الجزائر رمضان باشا الحصار الذي كان مضروبا على قلعة الباستيون بمدينة تونس من قبل القوات العثمانية منذ يوم 17 جويلية. وفي 13 سبتمبر اقتحموا البستيون ، وقضوا على الكثير ممن كانوا فيه ، واستولوا على الأسلحة ومعدات أخرى . وألقوا القبض على القائد سيربيبوني مع عدد آخر من رجاله . وسقطت من جهة أخرى قلعة شيكلي ، وأسر قائدها ج.دي زامو غ ويرّا [60].وبسقوط هذه القلعة ، قضي على الوجود الأسباني بتونس بصفة نهائية ، ووضع حد للدولة الحفصية . وعين سنان باشا حيدر حاكما عليها[61] وأصبحت ملحقة بالجزائر إلى غاية سنة 1587 ، عندما أصبحت تابعة مباشرة للباب العالي .

هوامش الفصل الثاني :

(1) مجهول :غزوات ، صص.82-84.

(2) Stanley Lane Pool: The Moriscos of Spain, Beirut, s.d., p.237.

(3) هورتز: مرجع سابق ، صص. 37-38.

(4) أنظر لويس كاردياك : الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون ، منشورات المجلة المغربية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، تونس ، 1983، صص.90-120.

(5) ليلى صباغ : ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ(أواخر عام 1568)، والدولة العثمانية ، الأصالة ، العدد، 27، ص.147.

(6) M.Belhamissi : Marine et marins d’Alger (1518-1830), Bibliotheque National d’Algerie, Alger, 1996, t.2, p.87.

(7)عبد الجليل التميمي: الدوله العثمانية وقضية الموريسكيين ، مجلة التاريخ المغربية ، نوفمبر، 1981 ، العدد، 23-24، ص.196.

(8) محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، مطبعة مصر ، ط. 1، القاهرة، 1949 ، ص.256.

(9)ألتر : مرجع سابق ، ص.226.

(10)Paul Auphin : Histoire de Méditerranée, Paris, 1967, p.181.

(11)Haedo : Histoire des rois, Op.cit.,p.404.

(12) Alfred Motel Fatio : L’Espagne au 16 et 17 siècles , Heininger, Paris-Madrid, 1978, p.3.

(13)Braudel : La Méditérannée ,Op.cit., T.2, p.367.

(14)عنان : مرجع سابق، ص. 274 .

(15) Henri Lapeyre: Geographie de L’Espagne morisque, S.E.V.P.E.N., Paris, 1959, p.122.

(16)Pierre Heinrich : L’Alliance Franco- Algerienne au 16ème siècle , Mougin Russad , Lyon , 1898, p.220.

(17) كاردياك : مرجع سابق ، ص.140 .

(18) هورتز : مرجع سابق ، ص.75.

(19)ابن خروف : مرجع سابق ، ج.1، ص.83.

(20)Primaudaie : Documents : Op.cit., pp.34-35.

(21) ابن خروف : مرجع سابق ، ج.1، ص.91.

(22) نفسه : ص.92.

(23) ذكر هايدو أن سكان تلمسان هم الذين استنجدوا بالسلطان السعدي لتخليصهم من ملكهم الخاضع لنفوذ الأسبان. Haedo: Histoire des rois, p.263.

(24) حدده هايدو بـ 12 ألف فارس ، 10 آلاف من المشاة. Haedo : Histoire des rois, p.263.

(25) حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي ، المجلد الثاني ، العصر الحديث للنشر والتوزيع ، بيروت ، 1992، ص.174.

(26) ألتر : مرجع سابق ،ص.178.

(27) وهو ما ذهب إليه "بول روف" الذي ذكر أنه توفي هناك بعد سنوات قليلة بالطاعون ، وبذلك كانت نهاية دولة بني زيان خلال سنة 1551 ، أما بارجيس فقد ذكر أن ذهاب السلطان الزياني إلى وهران ، كان بعد مجيئ قوات حسن باشا ، لطرد الجيش السعدي . أنظر: Bargès: op.cit., pp.263-264.

(28) بلحميسي : نهاية دولة بني زيان، مقال سابق ، ص . 36 .

(29)Grammont : R.A., N°24, p.264.

(30) مزين : مقال سابق ، ص459.

(31)Haedo: Histoire des rois, p.264.

(32) Youssef Benoudjit : La Kalaa des Ben-Abbès au 16è siècles , Dahlab , Alger , 1997, p.230.

(33) محمد بن عمر الطمار : تلمسان عبر العور ودورها في سياسة وحضارة الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص.234.

(34) للتوسع في هذا الموضوع أنظر: ابن خروف : العلاقات السايسية بين الجزائر والمغرب ، ج.1 ، صص.147-154.

(35)للاطلاع الواسع عن الصدام الجزائري السعدي أنظر Auguste Cour : L’etablissement des dynasties des Cherifs au Maroc , leur rivalité avec les turcs de la régence d’Alger 1509-1830 , Ernest –Leroux , Paris , 1904, pp.105-118

(36) Ibid.: p.116-118.

(37) مزين : مقال سابق ، ص. 8.

(38) أنظر : ابن خروف : ج.1 ، صص.163-168.

(39) محمد بن القاسم الزغبي القيرواني (ابن أبي دينار) : المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس ، تحقيق: محمد شمام ، المكتبة العريقة ، ط.2 ، تونس ، 1967، صص.160-163.

(40)Primaudaie : Documents…, R.A.,T.19, 1875, p.348.

(41) Ortestes Ferrara : Le 16eme siècle , Vu par les ambassadeurs vinitiens ed. Albin Michel , Paris , 1954, p.353.

(42) Primaudaie : Documents, Op.cit., R.A.,T.19, 1875, p.356.

(43) تبعد عن مدينة تونس بستة كيلومترات.

(44) أنظر تفاصيلها في : Primaudaie, Documents…,Traité de paix entre l’Empereur Charles-Quintet le rois de Tunis, 6 aout 1535, R.A.T.20, 1876, pp.134-135.

(45)عبد الجليل التميمي : رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية في القرن السادس عشر، المجلة التاريخية المغربية ، العدد، 29-30 ، جويلية ، 1983، ص.94.

(46) Haedo : Histoire des rois, Op.cit., p.406.

(47) Grammont : Histoire d'Alger ,Op.cit., p.107.
(48) Braudel : La Méditérannée , Op.cit., p.365 .
(49) Poinssot L. & Lantier R. , Les gouverneurs de la Goulette durant l'ocupation espagnol 1535 –1574 , Ext. De la Revue Tunisienne , 3ème trimèstre , 1930 , Ste. Anonyme de l'investissements , Tunis , 1930 , p.25 .
(50) Garrigou-Grandchamp.(P.) : Documents relatifs à la fin l'occupation espagnole en Tunisie, 1569-1574 , Revue Tunisienne., 1914, T.21, p.4.
(51) محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تقديم وتحقيق ، محمد الهيلة،المجلد الثاني،دار المغرب الإسلامي، ط.1، بيروت ، 1985، ص.215.
(52) تذهب بعض الروايات إلى أن خوان دوتريش كان يخطط لإنشاء مملكة خاصة به في تلك المنطقة . وكان ذلك الأمر يخالف رغبة الملك فيليب الثاني.
(53) Paul Sebac : Une relation inédite sur la prise de Tunis en 1574, Publications de l'université de Tunis, 1971, p.147.
(54) Braudel : Les Espagnols, Op.cit., p.425.
(55) Primaudaie : Documents…, Op.cit., p.297.
(56) Alphonse Rousseau : Annales Tunisiennes, Batisde, Alger,1864,pp.30.
(57) Ibid. : p.31.
(58) حسين خوجة : بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ، المكتبة الوطنية الجزائرية ، رقم: 2912 ، ورقة 131 .
(59) Primaudaie : Documents, Op.cit., p.367.
(60) Poinssot&Lautier : Op.cit., p.29.
(61)Robert Mautran : L'evolution des relations entre la Tunisie et l'Empire Ottomane du 16è au 19è siècle ,le cahier de Tunisie , t.7, p.321.

الفصل الثالث
الآثار السياسية على الصعيد العالمي
(البحر المتوسط والمحيط الأطلسي)

لم يقتصر انشغال الجزائر بالأحداث الجارية حولها في المغرب وتونس وبقضية الأندلسيين المطرودين المتعلقة بالسياسة الأسبانية نحوهم ، بل امتد إلى نطاقه إلى أوسع من ذلك . فأصبح البحر المتوسط ميدانا لنشاط البحرية الجزائرية التي كانت تقوم برد الفعل باستهداف المصالح الأسبانية ، وقد امتد هذا النشاط إلى المحيط الأطلسي ، ثم تطورت هذه الحركة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى فرض الجزائر لوجودها في الحوض الغربي للمتوسط ، جعلت الدول الأوربية تدفع لها الضرائب لحماية سفنها من أعمال القرصنة التي كانت سائدة في البحر آنذاك. وبحكم موالاتها للدولة العثمانية ؛ كانت الجزائر تساهم في المعارك البحرية التي كانت تخوضها الدولة العثمانية ضد القوى المسيحية في البحر المتوسط كانت أسبانيا أحد الأطراف الفاعلة فيه . وكان للعداء الذي كان قائما بين شارلكان وفرانسوا الأول قد أدى إلى حدوث التقارب العثماني الفرنسي وبالتالي وقوع التقارب بين هذه الأخيرة وبين الجزائر .

1 . ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية:

لقد ساهم الأسطول الجزائري في العديد من المعارك البحرية التي كانت تخوضها الخلافة العثمانية ضد التحالفات الأوربية التي كانت في الغالب تشرف عليها البابوية في روما . ومن أهم هذه المعارك ما يلي :

معركة بريفيزا(Prevesa) 1538 :

جاءت معركة بريفيزا [1]إثر تشكيل حلف مسيحي في روما في شهر فيفري من سنة 1538.جمع كلا من البابوية التي كان على رأسها البابا بولس الثالث [2]. والإمبراطور شارل الخامس والبندقية. جمع هذا التحالف قوات عسكرية كبيرة، تشكلت من أسطول بابوي متألف من ستة وثلاثين سفينة ، وثمانين قطعة بحرية أسبانية ، وشاركت البندقية بنفس العدد ، وجنوة بستين سفينة ، والبرتغال بخمسين ، ومالطا بعشرة سفن ، وجاءت عمارات من منطقة الفلاندر ، إلى جانب القراصنة المسيحيين . كانت تحمل في مجملها ألفين وستمائة مدفع، وستين ألف رجل[3]. وكان الأسطول تحت قيادة فرديناند غونغازي، بمساعدة كل من أندري دوريا قائدا للقوات الأسبانية ، وبطريق أكيليا قائد القوات البابوية، ودومينغو كابيللو (Domingo Capello)قائد القوات البندقية .

وفي المقابل كان الأسطول الإسلامي ، الذي كان تحت قيادة خير الدين ، يتشكل من مائة وثلاثين سفينة متجانسة. على متنها قوات يتراوح عددها بين العشرين والثلاثين ألف رجل [4]، يقودهم بحارة مشهورون مثل درغوث وسنان

باشا وصالح رايس وغيرهم . وقعت المعركة بين الأسطولين عند مدينة بريفيزا .
وقد أسفرت هذه المعركة على انسحاب الأسطول المسيحي ، وخلال شهر مارس من سنة 1539، تمكن خيرالدين من تحرير حصن كاستلنويفو (Castelnuevo) الذي احتله أندري دوريا أندري دوريا[5] ، بعدما قضى على حاميتها المتكونة من أربعة آلاف جندي ،على رأسهم قائدهم فرانسيسكو سارميينتو . كانت خسائر التحالف المسيحي تتمثل في 36 سفينة ، و 3000 أسير ، أما عن الخسائر الإسلامية، فقدرت بـ.400 قتيل و 800 جريح[6].

لقد دفعت الانتصارات الإسلامية بالبنادقة إلى التفكير في مصالحهم التجارية في المنطقة ، فانسحبوا من التحالف المسيحي ، وشرعوا في سلسلة من الفاوضات استمرت لمدة ثلاثة أشهر[7]، توجت بإبرام صلح منفرد مع العثمانيين في 2 أكتوبر 1540 . تكون البندقية بموجبه سيدة على المواقع التي كانت تابعة لها ، والاعتراف العثماني بنشاطهم التجاري في شرق البحر المتوسط ، ومنحهم موقعين في حدودهم مع مقدونيا وحصنين من دالماسيا [8] .

حصار مالطة 1565:

وساهمت الجزائر إلى جانب الأسطول العثماني في الحصار الشهير الذي ضربته على مالطا [9]، التي كانت بحكم موقعا في وسط البحر المتوسط ، تعد مركزا هاما بالنسبة للمسيحيين بصفة عامة ، وللأسبان بصفة خاصة ، باعتبارها مركزا عسكريا مسيحيا يحد من نشاط المسلمين في البحر المتوسط . ولهذا الغرض وطّن شارل الخامس في 24 مارس 1530 فرسان القديس يوحنا بأرض الجزيرة ، بعدما طردهم السلطان سليمان القانوني من جزيرة رودس، وسيّدهم على ساحل مدينة طرابلس [10]، وفي المقابل يقدم هؤلاء هدية سنوية لحاكم صقلية عربونا لتبعيتهم للإمبراطور ، وأصبح يطلق عليهم منذ ذلك الحين اسم " فرسان مالطا " .

ولما استقر الفرسان بالجزيرة أخذوا في مهاجمة السفن التجارية الإسلام ﻲ، ويسوقونها إلى مالطا . كما كانوا يتعرضون إلى الحجاج المسلمين وهم في طريقهم عبر البحر إلى مكة [11] . وكانوا كثيرا ما يشاركون ضمن الأسطول المسيحي الذي كانت تشكله أسبانيا في اعتداءاتها على السواحل المغربية من بينها الجزائر ، حيث ساهموا ضمن أسطول شار لكان في غزوه لتونس سنة 1535 بسبعمائة فارس[12] . كما شاركوا في الحملة على مدينة الجزائر سنة 1541 بستة

سفن وسبعمائة وخمسون جندي [13]. وكانت جزيرة مالطا مقرا لانطلاق الحملة الصليبية التي وجهت ضد جزيرة جربة سنة 1560 [14] .
ولما أدرك السلطان العثماني خطرهم على حركة سفنه ؛ قرر ضرب الحصار على الجزيرة بالاعتماد على المقاتلين المغاربة . فراسل حسن باشا حاكم الجزائر في شهر سبتمبر 1564 ، وأعلمه عن عزمه بتوجيه قوه عسكرية كبيرة ضد جزيرة ماطا خلال الربيع المقبل، كما طلب منه المساهمة بقواته البحرية المتمرسة في الحصار. وفي 20 مارس 1565[15] أقلع الأسطول العثماني بقيادة بيالي باشا ، على أن تلتحق به في الطريق سفن الأقاليم العثمانية الأخرى ، أصبح يضم عند بداية الحصار في يوم 18 ماي، نحو مائتي سفينة[16].
ولما علم قائد فرسان مالطا يوحنا دي لافاليت باريسو(Jean de la Valette Parisot) بالأمر سارع إلى استدعاء فرسانه المنتشرين في مختلف المراكز الأوربية ، كما استأجر جنود مرتزقة من إيطاليا ، و نظم الحصون ووفر المؤونة ، وراسل كل من البابا بيوس الرابع وفيليب الثاني ملك أسبانيا يطلب منهما إرسال قوات عسكرية [17].
وصلت القوات العثمانية إلى مالطا في يوم 18 ماي 1565 ، التحق به ا علج علي من الأسكندرية في يوم 24 ماي بستة سفن تحمل تسعمائة رجل وعدد من المدافع وأسلحة أخرى. كما التحق القائد درغوث من طرابلس في يوم 2 جوان على رأس خمس عشرة سفينة ، على متنها ألف وثلاثمائة رجل [18] . ووصل حسن باشا من الجزائر في يوم 28 جوان ، على رأس أسطول يتألف من ثمانية وعشرون سفينة ، على متنها ألفي وخمسمائة رجل [19].
وفور وصول الأسطول العثماني بدأ الإنزال في ميناء سيروكو (Scirocco) في الجنوب الغربي من الجزيرة بأمر من القائد مصطفى باشا ، أصبحت معظم الجزيرة تحت سلطة المسلمين باستثناء حصون سان إيلمو ((S$^{t.}$ Elmo وسان أونجيلو (S$^{t.}$ Angelo) وسان ميشال(S$^{t.}$ Michel [20] ، التي كان يتحصن بها المقاتلين المالطيين . استمر الحصار نحو أربعة أشهر. وفي يوم 17 أوت أصيب القائد درغوث بقذيفة أدت إلى وفاته. فكانت وفاته خسارة كبيرة للقوات الإسلامية.
وهاجمت القوات الجزائرية بقيادة حسن باشا حصن سان ميشال . لكن القلعة صمدت حيث كانت المدفعية المالطية ترسل قذائفها نحو السفن المحاصرة مما أدى إلى إغراق عدد كبير منها . ورغم تلك الخسائر تمكن كاندليسا من التقدم نحو الساحل والنزول به ، و تمكن المقاتلون الجزائريون من القضاء على عدد كبير من الفرسان الذين حاولوا منعهم من التقدم نحو الحصن المذكور[21]. ونصبوا

عليه سبعة ألوية ، لكن ذلك كان مقابل خسائر بشرية كبيرة ، إذ لم يبق لدى نائب ملك الجزائر سوى قوات تراوح عددها بين خمسمائة إلى ستمائة رجل من الأربعة آلاف رجل.

وفي 7 سبتمبر جاءت من صقلية تعزيزات مسيحية جديدة تتألف من 28 سفينة وعلى متنها اثنتا عشر ألف مقاتل [22] . ولما قرب فصل الشتاء ، اضطر بيالي باشا إلى رفع الحصار نظرا لارتفاع عدد الخسائر البشرية التي لحقت به ، وفضل إنقاذ ما بقى له من القوات وذلك في 12 سبتمبر من نفس السنة [23]. وكانت الخسائر العثمانية كبيرة إذ كلف الحصار نحو عشرين ألف رجل ، أما حسن باشا فإنه هو الآخر قد اضطر إلى الرجوع إلى الجزائر مع سفنه الثمانية والعشرين ، بعدما فقد نصف قواته ، وكان قد أثبت شجاعة قتالية فريدة ، لدرجة أنه كان ينوي البقاء في الجزيرة لمواصلة القتال لصالحه الخاص[24].

معركة ليبانت 1571 :

كان العثمانيون يركزون اهتمامهم على فتح جزيرة قبرص التي كانت عقبة كبيرة في طريق التجارة بين مصر وإسطنبول والتي يسيطر عليها البنادقة ويمارسون من خلالها بعض أعمال القرصنة البحرية . ولما شعر سليم الثاني بالقلق تجاه الغارات التي كانت تقوم بها السفن القبرصية ضد مصالح بلاده.أنذرها عدة مرات ، ثم طلب من حاكمها تسليم الجزيرة على شرط إبقاء السلم بين البلدين، لكن مجلسها رفض ذلك التهديد. عندئذ عزم على فتحها [25]. فجهز قوة بحرية بلغت مائة ألف جندي بقيادة بيالي باشا . وفي 9 سبتمبر 1870 هاجم القائد العثماني اسكندر مدينة نيقوسيا فاحتلها ، ثم تبعتها مدن الجزيرة الأخرى.

وكانت قبرص تمثل أهمية خاصة للعالم المسيحي في صراعه مع الدولة العثمانية، لذا تحرك البابا بيوس الخامس (PieV) (1566-1572) ودعا إلى تشكيل حلف مقدس ضد الدولة العثمانية. أسرعت الأمم المسيحية لتلبية نداء البندقية خوفا من امتداد الزحف الإسلامي نحو إيطاليا ، وتم التوقيع عليه في 25 مايو 1571م مع ملك أسبانيا والبندقية وبعض الدويلات المسيحية . وعين دون خوان النمساوي قائدا عاما للتحالف. بلغ عدد مراكب أسطول التحالف ثلاثمائة وسبعة عشر سفينة تنتمي إلى كل من أسبانيا ، والبندقية وإلى البابوية ، ورهبنة مالطا[26].

غادر الأسطول المسيحي مضيق ميسينا في 16 سبتمبر 1571 ، ووصل إلى رأس كولون في جنوب إيطاليا يوم 20 سبتمبر ، وبعد ستة أيام وصل إلى جزيرة كورفو ثم تقدم نحو خليج باتراس عند مدخل خليج ليبانت وكان عدد السفن الإسلامية
المتجمعة في الخليج المذكور نحو ثلاثمائة وحدة على متنها خمسة وعشرون ألف رجل ، جاءوا من الجزائر واسطنبول ورودس وسوريا وطرابلس والأسكندرية [27]. فكان علي باشا يحتل القلب، محمد شولوك باي الأسكندرية يقود الميمنة،أما علج علي فكان يقود الميسرة.

ولما كانت الجزائر تحظى بمكانة خاصة في مساندة القوات العثمانية ضد الأخطار المسيحية ، أرسل السلطان خطابا إلى بايلر باي الجزائر مؤرخا في 2 ذو القعدة 978ه ـ/أفريل 1571م ، يطلب منه الانضمام إلى الأسطول العثماني، جاء فيه :<< لقد تقرر في هذه السنة الأخيرة غزو الكفار من البر والبحر وإلحاق الخسارة بجزره المعادية ـ هزمه الله ـ وكذلك بقصد دفع ورفع مضرته وفساده ، ونظرا لاعتمادي الهمايوني على حسن فراستك وكياستك ووفور شجاعتك وشهامتك، فإنني آمرك ومن معك من السفن والقاليتات بكامل أسلحتها بالتوجه عاجلا لملاقاة المشار إليه الزير يرتو باشا >>[28]. وبعد مرور أربعين يوما من الخطاب السابق أرسل السلطان خطابا لعلج علي يحثه فيه على عدم التأخر في الالتحاق به ، دون إهمال البلاد التي كان على رأسها، على أن يخلف على رأسها الرجال الأكفاء .

وتلبية لذلك النداء خرج علج علي من الجزائر في ربيع سنة 1571[29] على رأس حوالي خمسين سفينة ، للالتحاق بالأسطول العثماني . وفي طريقه هاجم علج علي عدة مواقع مسيحية من جزر ومناطق ساحلية [30]. وبدأت المعركة بين الطرفين في 7 أكتوبر 1571 في الخليج الواقع بين باتراس وليبانت. وبعد ثلاث ساعات من بداية المعركة انهزم جيش الميمنة من الأسطول العثماني وكذلك وسطه، حيث قضي على كل من محمد شولو ك قائد الميمنة ، وعلي باشا القائد العام للأسطول الذي كان يقود القلب، وتحولت المعركة إلى مجابهة سفينة ضد سفينة [31].

أما علج علي الذي كان يقود جبهة الميسرة فقد استغل فرصة ابتعاد دوريا عن بقية الأسطول المسيحي وانقض على السفن المالطية واستولى على سفينة القيادة التي كان يقلها غيستياني(Guistiani). ولما حاول خوان دي كوردونا (Jean de Cordona) استرجاع تلك السفينة ، تصدى له علج علي وقضى على معظم

القوات التي كان معه وعددها خمسمائة رجل من بينهم ثمانية ضباط ينتمون إلى عائلات نبيلة في أسبانيا ، ولم ينج منها سوى خمسين رجلا فقط . بعد ذلك تحرك علج علي نحو قلب المعركة إثر علمه بوفاة محمد علي باشا تولى بنفسه قيادة الأسطول [32]. ولما حسمت المعركة على جبهتي الميمنة والوسطى لصالح المسيحيين ، جمع هؤلاء صفوفهم وتوجهوا نحوه بهدف محاصرته ، فأسرع علج علي إلى الانسحاب يقود جناحه إلى خارج نطاق المعركة ، وتوجه على عجل إلى جزيرة سانتا مورا (Santa Maura) ، ومعه أربعين سفينة ومنها إلى اسطنبول[33] .

لقد كانت الخسائر العثمانية عظيمة حددها محمد فريد على النحو التالي: << أخذت مائة وثلاثون سفينة عثمانية ، وأحرقت وأغرقت أربع وتسعون ، وغنمت ثلاثمائة مدفعا ، وثلاثين ألف أسير >>[34] . أما من جانب التحالف المسيحي، فقد قتل 7650 ، وجرح 7784 ، كان من بينهم الأديب الأسباني ميغال سيرفانتيس Miguel Cervantès، الذي جرح خلال المعركة في ذراعه. وهناك من ذكر أن عدد الجرحى بلغ 21000 جريح، كما فقد المسيحيون عشرة سفن[35].

ورغم نتيجة المعركة ، فقد استطاع علج علي قائد القوات الجزائرية إنقاذ شرف تلك الهزيمة ، فتمكن من إنقاذ عدة سفن لمهارته القتالية . ولهذا رأى السلطان فيه الرجل الذي باستطاعته إعادة بناء الأسطول العثماني من جديد ، فعينه في 7 نوفمبر 1571 في منصب القائد العلم للقوات البحرية العثمانية ، إلى جانب احتفاظه بلقبه السابق بايلرباي إفريقيا . وتولى حكم الجزائر خليفته أحمد عراب .

2 . تقارب الجزائر مع فرنسا :

لا شك أن العداء القائم بين فرنسا وأسبانيا الذي تعود جذوره إلى عام 1519، قد أدى إلى حصول التقارب الفرنسي العثماني . فقد توفي في هذه السنة الامبراطور مكسمليان النمساوي ، مما أدى إلى شغور عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكانت رغبة الإمبراطور المتوفى أن يحصر التاج في عائلته بتتويج حفيده شارل ملك أسبانيا ذي التسعة عشر سنة ، غير أن ملك فرنسا فرانسوا الأول وقف منافسا له . ولما فاز الملك الأسباني بالتاج الإمبراطوري في الانتخابات التي جرت في 28 جوان 1519، أصبح يحكم النمسا والألزاس وقسم من جنوب ألمانيا ومنطقة فرونش كونتي والأراضي الواطئة . فأحست فرنسا بأنها محاصرة ، وكانت تخشى من فقدان مقاطعة بورغونيا الواقعة ضمن حدودها ،

ومن ضياع وجودها في إيطاليا حين تشكل خلال سنة 1521 حلف في إيطاليا معاد لفرنسا جمع البابا ليو ، وشارل الخامس وملك انكلترا هنري الثامن[36] .

فكانت خشية فرانسوا الأول على مصير بلاده من شارل الخامس قد دفعته إلى البحث للتحالف مع أعداء الإمبراطور ، مثل البروستانت الألمان ، بل ذهب إلى التحالف مع الدولة العثمانية التي هي الأخرى عدوة لآل الهابسبورغ والأسبان الذين كانوا يهددون الشمال الإفريقي من بينها الجزائر. هذا التحالف الذي أثمر في فوز فرنسا بالامتيازات في الأراضي العثمانية ومنها الجزائر ، التي شملت جوانب سياسية واقتصادية ، من بينها الاتفاقية المبرمة مع توماس لانش (Thomas Lenche) في عام 1520 ، سمحت له بإقامة مصرف في مدينة القالة لتسيير الخدمات التجارية الفرنسية مع هذه المنطقة[37]. وقد لعب السفير الفرنسي رينكون (Rinco) لدى المجر دورا كبيرا في السلطنة العثمانية مع بلاده مما أدى إلى إبرام معاهدة تجارية بين البلدين في سنة 1528 ، وتم بعد ذلك إبرام معاهدة سنة 1535 التي أرست قواعد الحماية السياسية الاقتصادية والدينية لفرنسا لدى أملاك الدولة العثمانية[38] .

وأصبح الوفاق العثماني مع فرنسا يميل نحو التحسن منذ غارة شارلكان على الجزائر سنة 1541، عندما فضل فرانسوا الأول البقاء على الحياد ، ولم يتوانى رجاله في إخبار خير الدين عن انطلاق الحملة المذكورة وعن وجهتها [39]. وإثر ذلك طلبت فرنسا من السلطان العثماني عبر سفيرها بولان (Polin) في القسطنطينية أن يرسل إليه أسطولا ، وبعد تردد وافق السلطان على طلب الملك الفرنسي ، حيث أرسل خطابا في أفريل من سنة 1543 يخبره فيه موافقته على تسليمه أسطولا مجهزا بكل ما هو ضروري ، محذرا إياه من الوقوع في مكايد عدوه شارلكان [40] . وفي 28 ماي 1543 غادر خير الدين الدردنيل على رأس الأسطول ، وقد صاحب معه السفير الفرنسي بولان [41] في 5 جويلية فوصل إلى مدينة نيس ، ثم إلى مدينة مرسيليا ، حيث استقبل بحفاوة كبيرة بناء على تعليمات الملك نفسه [42]. وقد تعاون خير الدين مع الأسطول الفرنسي في استرجاع مدينة نيس في 22 أوت ، التي كانت تحت حكم دوق سافوا (Savoie) أمير مقاطعة بيدمونت الإيطالية، والذي كان حليفا لشارلكان. بعد ذلك قضى خير الدين فصل الشتاء مرابطا في ميناء طولون ، وقد ضمن له الملك الفرنسي التموين الكافي لجيشه، وسلمه 800 ألف ريال لإنفاقها على جنوده [43]. كما سلمه 400 أسير جزائري وعثماني كانوا مقيدين في السفن الحربية الفرنسية ، وقدر بعضهم كمية

المؤونة التي قدمها الفرنسيون لجنود خير الدين ، البالغ عددهم 30 ألف جندي خلال الفترة من أكتوبر 1543 إلى أفريل 1544بـ 105960 قنطار[44].

ولم يبق طموح خير الدين رهين موقف الملك الفرنسي ، بل نظم انطلاقا من السواحل الفرنسية هجوما على السواحل الأسبانية ، ففي أواخر صيف 1543 أرسل صالح رايس على رأس أسطول إلى منطقة قطالونيا وهاجم ميناء (Palamos) وروساس (Rosas). وفي 26 ماي 1544 غادر خير الدين الأراضي الفرنسية[45].

وفي سنة 1558 استنجدت فرنسا من العثمانيين والجزائريين ضد الأسبان الذين كانوا مسيطرين على جزر الباليار وكورسيكا وسردينية ومملكة نابولي ، وهذا كان يقف في وجه الملاحة للسفن الفرنسية . اتجه أسطول عثماني يتكون من 120 سفينة إلى المياه الإيطالية وغزا خليج سالرنو ، وأسر أربعة آلاف رجل . ثم غزا نابولي ، وكورسيكا ، ثم اتجه إلى مرسيليا حيث التقى بالأسطول الفرنسي ، واشترك معه في مهاجمة جزيرة مينورقة[46] .

وقد نتج عن التقارب العثماني الفرنسي ، تقارب آخر بين الجزائر وفرنسا، باعتبار أن حاكم الجزائر كان يعين من القسطنطينية ، فأصبح منفذا لتمرير تعليماتها. وهكذا كانت السياسة الخارجية العثمانية المتعلقة بالعلاقات مع فرنسا تعتمد على اعتبارات سياسية تنطلق من الجزائر. وهكذا أدت هذه السياسة إبرام فرنسا المعاهدات مباشرة مع الجزائر. ثم فتح المجال لتجار فرنسيين آخرين زاحموا من سبقهم إلى المنطقة من التجار الجنويين ، وتمكنوا من إقامة أول قنصل لهم بالجزائر سنة 1564، فقد قام السفير الفرنسي في اسطنبول بيتريمول دي نيرفوا (Pétremol de Nervoie)بتسمية القنصل بارتول (Bartholle) الذي حظي بمباركة المارسيليين ، وقد استمر في وظيفته في الجزائر إلى غاية سنة 1578[47] .

ومع بداية القرن السابع عشر أبرمت أول معاهدة بين الجزائر وأسبانيا في سنة 21 مارس 1619 ، كانت حول السلم والتجارة. ثم أتبعت بالعديد من المعاهدات الأخرى خلال القرنين المواليين الثامن وعشر والتاسع عشر كان آخرها معاهدة احتلال مدينة الجزائر 1830[48].

3 ـ المواجهة مع الأسبان في الحوض الغربي للبحر المتوسط :

من ردود فعل الجزائريين على الأعمال العدوانية الأسبانية على المدن الساحلية الجزائرية ، منذ أن تمكنوا من تحرير الصخرة في سنة 1529 وتهديم

القلعة التي كان قد أقامها الأسبان عليها ، والتحاق المزيد من البحارة المسلمين وخاصة من الأندلس بمدينة الجزائر. لقد شرعت الجزائر منذ عهد خير الدين إلى نقل العمليات الحربية إلى داخل الأراضي الأسبانية . فقد خرج أسطول يتكون من أربعة عشر سفينة من نوع (Galiote)إلى الشواطئ الأسبانية ، تحت قيادة إيدين رايس، وكان يرافقه كل من صالح رايس وشعبان رايس و بحارة آخرون ونزلوا في السواحل الأسبانية ، ثم تغلغلوا إلى داخل أراضيها بحوالي 12 كيلومتر [49]،فجمعوا نحو مائتين عائلة ، في ميناء أوليبا (Oliva) [50]. وفي طريق العودة وقعوا في معركة في سواحل فورمونتيرا (Formentera) إحدى جزر الباليار بالقائد الأسباني رودريغو دي بورتوندو (Rodrigo de Portuondo) الذي تعقبهم بامر من شارلكان [51] . انتهت المعركة لصالح الأسطول الجزائري ، قتل فيها القائد بوتوندو. وذلك في 25 أكتوبر 1529. وفقد الجزائريون خلال هذه المعركة عشرون رجلا فقط [52] .

و من أجل الدفاع عن السواحل الأسبانية ، وجه رئيس أساقفة سرقسطة إلى الإمبراطورة رسالة مؤرخة في 9 نوفمبر من نفس السنة ، يدعوها فيها إلى توجيه عنايتها في الحال إلى سواحل غرناطة ، وتزويدها بالحراسة الضرورية ، لمواجهة تلك الهجمات [53] .

وفي سنة 1535 نظم خير الدين هجوما على جزيرة مينورقة (Menorca) بعد انسحابه من تونس عقب غزو شارلكان لها . رافعا الألوان الأسبانية على سفنه لمخادعة أهل الجزيرة . وتمكن بهذه الطريقة من إنزال قواته إلى البر ، ومحاصرة حصن مدينة ماهون (Mahon) لمدة أربعة أيام ، ثم تمكن دخوله واحتلال المدينة ، وأسر عددا كبيرا منهم يتراوح ما بين (6000 – 8000) شخص [54]. كما استولى على بعض الغنائم ، وعاد إلى مدينة الجزائر.

وفي إحدى الرحلات البحرية للسفن الجزائرية في المتوسط ، اشتبكت مع بعض السفن الأسبانية وأسرت الأديب الأسباني المشهور ميغال سيرفانتيس، الذي كان مقاتلا في صفوف الجيش الأسباني . وكان سيرفانتيس قد غادر إيطاليا في 20 سبتمبر 1575 رفقة أخيه رودريغو على متن السفينة المسماة (شمس) ، ترافقها سفينتان أخريان . وذلك في نواحي تروا ماري (Trois-Maries) بالسواحل الفرنسية[55] .

وفي سنة 1578 خرج حسن الملقب بـ(الفنسيانو) من الجزائر ومعه اثنتين وعشرين سفينة في اتجاه جزيرة مايورقة وأسر منها ثلاثين شخصا ، ثم انتقل إلى

جزيرة إبيزا ، ومنها إلى أليكونت حيث استولى بالقرب منها على سفينة كانت قادمة من جنوة ، وأسر تسعين شخصا كانوا على متنها ، كما غنم بضائع هامة[56].

ورغم توصل الأسبان إلى إبرام معاهدة السلم مع العثمانيين سنة 1581[57]، إلا أن الجزائريين لم يكونوا معنيين بها ، نظرا لبقاء الأسبان يحتلون المرسى الكبير ووهران. ولهذا استمرت الحرب معهم . لقد لجأ الجزائريون إلى أسلوب الغارات السريعة على السواحل الأسبانية أو في المناطق التابعة لها ، في شكل حرب استنزاف ، تهدف إلى الإضرار بمصالح أعدائهم . وقد امتد نطاق عملهم ابتداء من السواحل الإيطالية شرقا إلى غاية جزر الكناري غرب ، لدرجة أن البحرية الجزائرية قد جعلت الطريق البحري الرابط بين أسبانيا وإيطاليا يصعب الإبحار فيه ، مما عرقل الاتصال بين المنطقتين[58].

وفي سنة 1584 توجه حسن فينيزيانو مرة أخرى على رأس أسطول يتكون من اثنتين وعشرين سفينة إلى السواحل الجنوبية لأوربا ، حيث امتد مجال عملياته ما بين جنوة شرقا ومدينة أليكونت غربا. فتوقف بجزيرة سان بيارتو (St. Pierto) التابعة لمماكة سيردينيا ، ثم نزل بساحل أوريستان (Oristan) بسردينيا . ثم تقدم نحو مدينة بوليدونيا ، ومنها إلى جزيرة مونتييو (Montiello) . ثم توجه إلى جنوة وهاجم بلدة سوري (Sori) . بعدها رحل إلى الغرب عبر السواحل الفرنسية في مقاطعة لابروفانس ، واستقر بمدينة مرسيليا لمدة ثمانية أيام [59]، ومنها توجه إلى السواحل الأسبانية ، حيث أنزل بعض رجاله في إحدى ضواحي مدينة برشلونة ، تم توجه غربا إلى مدينة سان فيليكس دي ريخوليس(St. Felix de Rijoles) ، وهاجم بعض السفن التي كانت بسواحلها ، بعدها توجه إلى مصب نهر ألثيا (Althea) بضواحي أليكونت حيث أنزل قواته هناك والتقى ببعض الأندلسيين الذين طلبوا منه يد العون ، وتمكن من نقل ألفي رجل وامرأة من ضواحي تلك المدينة [60].

وخرج دالي أحمد فيما بين (1587-1589) من الجزائر على رأس عمارة تتألف من إحدى عشر سفينة ، وبعد مروره بالسواحل الإيطالية والفرنسية دخل إلى السواحل الأسبانية لكنه لم يقم بأي عمل ضدها ، لأن سكانها كانوا قد علموا بتحركه تجاههم ، ففضل دالي أحمد الرجوع إلى الجزائر التي وصلها في نهاية شهر أوت بعد أن قضى في رحلته هذه مدة شهرين [61].

وعرفت أسبانيا أوضاعا صعبة في السنوات الأخيرة لحكم لفيليب الثاني ، إثر تحطيم أسطولها عندما كان يهم بغزو انكلترا الذي أطلق عليه اسم (الأرمادا

التي لا تقهر) ، وذلك في سنة 1587 [62]. وظلت مساعي الجزائريين تعمل على تصفية الأسبان من بلادهم ، في وهران والمرسى الكبير . ولما تولى مصطفى باشا حكم الجزائر بعد محمد كوسة سنة 1606، استنجد به المسلمون المقيمون حول وهران ضد الأسبان ، التي كانت تحت قيادة الدون خوان راميريز دي غوزمان (don Juan Ramirez de Guzman) ، فأجابهم وسار إليهم . وكان الأسبان أثناء الهجوم منشغلين بجمع الضرائب من القبائل المجاورة للمدينة، غير أن قائد الجزائر لم يوفق في تحريرها ، ولم يتمكن من اختراق أسوارها ، فرجع إلى مدينة الجزائر بعد أن فقد بعض رجاله[63] .

4 . توسع النشاط البحري الجزائري إلى المحيط الأطلسي :

من دون شك أن امتداد النشاط البحري للسفن الجزائري إلى المحيط الأطلسي كان نتيجة للصراع الأسباني الذي كان نطاقه بشكل كبير في الحوض الغربي للبحر المتوسط. وقد استدعت هذه المواجهة إلى بلوغ البحارة الجزائريين مضيق جبل طارق . وأشهر عملية عسكرية شنها البحارة على هذا الموقع الذي يعد بوابة للدخول إلى المحيط ، حملة عام 1539 التي قادها كل من الشاب قارة مامي والبحار المسن علي أحمد على **رأس أسطول** يتألف من ستة عشر سفينة حربية ، وعلى متنه ألف وثلاثمائة جندي . فتمكن الأسطول الجزائري من إنزال جزءا من قواته وتحصل على غنائم متنوعة ، وأسر وا عددا من الناس [64]. تعبقبهم قائد البحرية الأسبانية بيرنارمين دوزا (Bernard Mendosa) ولحق بهم في أعالي جزيرة ألبوران (Alboran)[65] ، حيث انتقل قارة مامي وجنوده إليها.وهنا وقعت المعركة بين القوتين ، وتمكن الأسبان من اقتحام سفينة القيادة الجزائرية و قتلوا قائدها قارة مامي، وأسروا علي أحمد ، وقتل من الجنود الجزائريين سبعمائة رجل ، وأسر خمسمائة رجل آخر [66]. بالإضافة إلى ذلك أطلقوا سراح سبعمائة أسير مسيحي. فقد الجزائريون عشرة سفن ، والتحق الباقون بمدينة الجزائر. أما عن الخسائر الأسبانية فقدرها مارمول بمائتي جندي [67]. وأصيب قائدهم موندوزا بجروح .

وكان امتداد نشاط البحارة الجزائريين إلى المحيط عبر المضيق المذكور ضمن خط بحري يمر بمحطات ساحلية أسبانية ، كما كان يتم الانتشار بعد ذلك في ربوع المحيط . فقد أوضحت وثيقة كتبت في أواخر عام 1681 هذا الخط نصها: ((الطريق الثاني الذي تتبعه عند الخروج من الجزائر هو القيام بالاستطلاع في أعالي برشلونة ، فلانس وأليكنت ومالقا ومنها تجتاز المضيق

للتتوجه إلى أعالي قادش وطنجة. وتتوجه لهذه الغزوة ما بين ست وثماني سفن التي تتوزع إلى قسمين فالقسم الأول يقوم بالتجول على طول السواحل الأسبانية والبرتغالية من رأس فانسان إلى رأس فينستير . والقسم الثاني يبقى مبحرا إلى المياه العالية لمطاردة السفن التي يصادفونها . وفي وقت مضى ، كانوا يقومون بالنزول بواسطة القوراب على ساحل غليسيا ويؤسرون عددا من الناس الذين يسترقونهم))[68].

وقد اشتهر في هذه العمليات رياس وبحارة كثيرون ، نذكر منهم قارة مامي ، علي أحمد ، مراد رايس ، دالي رايس ، سليمان رايس ، مصطفى رايس .
وكانت مدينة قادش البرتغالية كثيرا ما يتردد عليها البحارة الجزائريين ، فخلال شهر أوت من سنة 1566 تمكنوا من وضع أيديهم على 28 سفينة أسبانية وعلى مدافع وأسلحة كثيرة [69].

وكان مراد رايس من أوائل البحارة الجزائريين الذي ولجوا إلى داخل المحيط والوقوف عند بعض جزره . بل ذكر عنه أنه كان أول جزائري دخل المحيط الأطلسي [70]. ففي بداية العقد الثامن من القرن السادس عشر (1581) اتجه من مضيق جبل طارق إلى مدينة لاغوس البرتغالية ، وهناك اصطدم بسفينيتن مسحيتين، وتمكن من إغراق إحداهما ، واستسلمت الثانية[71].
وفي السنة الموالية خلال شهر ماي 1582 خرج إلى جزر الكناري التي كانت تحتلها أسبانيا ، على رأس ثلاثة سفن وعلى متنها مائتين وخمسين جندي ، ولما بلغ جزيرة لانثاروتي Lanzarote[72] ، أنزل بها قواته ليلا حتى لا يكشف أمره ، وتمكن من أسر ثلاثمائة شخص من بينهم والدة وزوجة حاكمها الكونت ألفارو (Alvaro) ، الذي لم يبد أية مقاومة ، ثم توجه بعد ذلك إلى الساحل المغربي واستقر بمدينة العرايش لمدة حوالي شهر ، ومنها رجع إلى الجزائر في شهر سبتمبر[73]. وذكر أحد الكتاب من المنطقة أن مراد رايس تمكن في سنة 1586 من إنزال قواته في هذه الجزيرة التي كانت على متن سبعة سفن من نوع (غالير) والبالغ عددها أربع مائة من جنود الأتراك وثمانمائة من البربر. فتقدت نحو قلعة غوانباي Guanapay التي تحمي بلدة تيغويس Teguise عاصمة الجزيرة في عهد الحاكمة دييغو كابريرا ليميس(Diego Cabrera Lemes) [74].

وفي سنة 1613 دخل سليمان رايس جزيرة سانت ماري (l'Ile Ste-Marie) الواقعة في بحر المحيط والقريبة من المضيق (جبل طارق) على رأس خمسة سفن، وتمكن من أسر 120 شخصا . أما جزيرة بورتو سانتو (Porto-Santo)القريبة من جزر الكناري ، فدخلها سليمان رايس ومصطفى رايس ومعهم

تسعة سفن ، واستولوا على 700 أسير ، وغنائم أخرى . وهوجمت جزيرة بيغني(Piegne) القريبة من جزيرة تيراسيروس (Terraseros) بغاليسا مرتين من طرف هؤلاء البحارة الذين غنموا وأسروا نحو تسعمائة شخص[75] .

وابتداء من سنة 1616 امتد نشاط بعض البحارة إلى النواحي الشمالية للمحيط الأطلسي حيث بلغوا السواحل الغربية لجزيرة أيسلندا [76]. وفي عام 1627 قاد إلياس مراد رايس غارة كبيرة نحو أيسلندا حيث توجه نحو ريكيافيك بواسطة 3 مراكب وتمكن من أسر 400 أسير . وقد عايش الأسير داراندا d'Aranda بعضا منهم في مدينة الجزائر في سجن علي بتشين [77].

ووصل البحارة الجزائريون إلى السواحل الجنوبية الغربية لإنكلترا ، فقد أعلم حاكم بلدة بلايموث (Plymouth) في سنة 1625 بأن القراصنة خلال هذه السنة قد استولوا على ألف بحار من المنطقة الغربية . وفي سنة 1647 وقع الإنزال في الشواطئ Cournouailles[78]. وفي سنوات 1650، 1654 ، استولوا على عمارات بالقرب من بليموث [79] . وفي أواخر القرن السابع عشر امتدت حركة إبحارهم إلى السواحل الهولندية حتى بلغوا بالتيمور Baltimore وإلى الأراضي الجديدة وإلى داخل جزيرة تيكسيل (le Texel)[80].

وكانت بعض المناطق الساحلية البرتغالية مكانا يتردد عليهاالبحارة الجزائريين. ففي عام 1709 اسطدمت سفينتان جزائريتان بسفينتين جنويتين في رأس فانسون (Cap Saint Vincent)[81] .

وقد أصبحت المواجهات شديدة في القرن الـ 18 ، فكانت السواحل الأطلسية الفرنسية ميدانا لكثير من المواجهات مع السفن المسيحية وخاصة الهولندية منها. فقد تحدثت وثيقة تعود إلى سنة 1720 ، أن التجار الهولنديين قد تعرضوا إلى خسائر خسائر كبيرة كانت بسبب البحارة وخاصة من الجزائر . فقد تم احتلال السفينة الهولندية المسماة (Le Jean) من طرف سفينة من نوع كارافيل من الجزائر على بعد 9 مراحل من شواطئ جزيرة أويسانت (Ouessant) قرب بريست . وفي ذات السنة تم حجز سفينة "الآنسة آن ماري" الهولندية على بعد 5 أو6 مراحل من بر مقاطعة بروتاني (Bretagne) الفرنسية [82]. أما السفينة الفرنسية المسماة Maréchal d'Estrées التي كانت متجهة من هافر إلى السنغال في ديسمبر 1720، تم احتجازها من قبل سفينتين من نوع غالير التابعة للإيالة على بعد 90 مرحلة شمالماديرا[83] .

وفي ختام هذا العرض نذكر أن هذا التميز في وجود البحرية الجزائرية في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي خلال هذه الفترة قد صاحبه تنامي الدول

الأوربية التي شهدت تطورا اقتصاديا وديمغرافيا ونهضة علمية ملحوظة .
وتوجهت هذه الدول وخاصة الجنوبية منها تعمل لفرض سيادتها على البحر المتوسط . غير أنها اصطدمت مع قوى السفن المغربية بما فيها الجزائرية ، مما جعلها تدفع إتاوات مالية لكي يسمح لسفنها المرور بحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، ومنح تجارها امتيازات خاصة. فكانت هذه الضرائب هي مفتاح العلاقات الجزائرية الأوربية.فهي بمثابة حماية فردية تلجأ إليها كل دولة على حدة ، وكانت أيضا امتيازا للقوى الأوربية الصغيرة التي تعتمد في حياتها على التجارة السلمية . وفي مقابل هذا كان الجزائريون يمتنعون عن مهاجمة سفن أو موانئ الأمم التي تدفع الجزية . بالرغم من أنهم كانوا يضاعفون قيمة الضرائب المفروضة من سنة إلى سنة على البلدان منفردة أو أنهم يطلبون هدايا من القناصل الأوربيين المقيمين ، تقدم إلى الداي والضباط وكبار رجال الدول ، فقد حددت إحدى الوثائق قيمة الهدايا التي كان يقدمها القنصل الأسباني عند تنصيبه في الجزائر بـ 58831 بياستر (piastre)[84].

فكانت الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية ترتبط بمعاهدات رسمية مع دايات الجزائر، وترسل إليهم كل عام الهدايا الثمينة ، لتطلب ودهم ومصادقتهم حتى تضمن عدم تعرض بواخرها للضرر . وقد رأى بعض الأوربيين أن الخلاص من تقديم الضرائب إلى الجزائر يتم عن طريق إبرام معاهدات معها . فقد جاء في تقرير تحدث فيه صاحبه عن تداعيات إبرام الأسبان معاهدة السلم مع أسبانيا سنة 1786 ، فذكر أنه على بروسا وسردينيا والسويد والولايات المتحدة الأمريكية وجمهورية جنوة ، أن يحذون حذو أسبانيا . وبهذه الطريقة ستنجح في إجبار القوات المغربية لكي تكون في حالة سلم مع القوات البحرية المسيحية ، ولا تبقى أية دولة منهم تدفع لهم الضرائب، وزيادة على ذلك فإنهم يتقبلون عدم التعرض لممتلكات الأمراء المسيحيين الذين لا تربطهم معهم معاهدات سلم[85] .

خاتمة الباب :

إن أهم ما يمكن استخلاصه من خلال عرضنا لهذا لفصل ، هو أنه قد ترتب عن الهجمة الأسبانية في بداية القرن السادس عشر على السواحل الجزائرية عدة انعكاسات سياسية على بلاد المغرب الأوسط ، حيث استغل الأسبان الوضع المتردي في البلاد ، وراحوا يعملون تحت طائلة التهديد ـ بعد تمكنهم احتلال المرسى الكبير ووهران ـ للنيل من الممالك القائمة آنذاك مثل تلمسان ، ومشيخة

الجزائر ، وغيرها من المدن التي انفصلت عن الدولة الزيانية، وساهموا في القضاء بالقوة العسكرية على مملكة بجاية .

وقد أدى ذلك التهديد والضغط إلى استنجاد أعيان مشيخة الثعالبة بعروج ، وهو ما أدى قيام سلطة جديدة في مدينة الجزائر التي أخذ شأنها يتعاظم والوقوف في وجه العدوان الأسباني ، فقد توسعت حدودها ، ودخلت في صراع مع الأسبان حول حصول النفوذ في دولة بني زيان . وتطلب من هذه الدولة الفتية لدرء الخطر الأسباني أن ترتبط بالخلافة العثمانية ، وهذا ما جعلها تحظى باهتمام الخلافة ، وزودتها بالعتاد الحربي والجنود ما مكنها من رد العديد من الحملات التي تعرضت لها مدينة الجزائر . ومن جانب آخر أصبحت الجزائر قوة دعم أساسية للبحرية العثمانية في حروبها التي خاضتها ضد التحالفات المسيحية .

وكان من تداعيات العدوان الأسباني ردة فعل من قبل الجزائريين ، حيث كان البحارة ينظمون هجمات انتقامية على جزر الباليار وسواحل أسبانيا ، والعمل على نصرة المسلمين الأندلسيين الذين طاله م الطرد . فكانوا يدعمون ثوراتهم ، ونقل الآلاف منهم إلى السواحل الجزائرية . وقد امتد نشاط البحارة الجزائريين إلى مياه المحيط الأطلسي ، حيث كانوا يترددون على جزره مثل جزر الكناري وأيسلندا ، أو السواحل الغربية للقارة الأوربية ابتداء من السواحل البرتغالية إلى سواحل بريطانيا وهولندا.

هوامش الفصل الثالث:

(1) مدينة تقع على الساحل الشرقي للبحر الأيوني الشمال من خليج دارتا، وهي اليوم تابعة لليونان .

(2) اسمه الأصلي أليساندرو فارنيز Alessandro Farnèse ولد في مدينة كانينو. Canino سنة 1468. تولي البابوية في سنة 1534 ، وظل إلى سنة 1549

(3) Pièrre Hubac: Les Barbarèsques , Berger-Levant , Paris, 1949, p.142 .

(4) M.Belhamissi:Histoire de la marine algerienne (1516-1830, Enal, Alger, 1986, p.142 .

(5) Heinrich: Op. cit, p.41.

(6) نعيمة بوحمشوش : مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن السادس عشر، رسالة ماجستير ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1998-1999، ص.95.

(7) كلو: مرجع سابق ، ص.186.

(8) مارمول : مصدر سابق ، ج.2، ص.504.

(9) تتكون مالطا من أربعة جزر، تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي على النحو التالي: جزيرة غوزو (Gozo)، جزيرة كومينوتو (Cominotto)، وجزيرة مالطا وهي الأكبر ، أما جزيرة فيلفولا (Filfola) وهي الأصغر فتقع إلى الجنوب من جزيرة مالطا C.E.Engel: Le grand siège de Malte1556,S.H.O.M.,Paris,1965, p.12et suivres.

(10) وولف : مرجع سابق ، ض.78.

(11) كلو : مرجع سابق ، صص.263-264.

(12) Ferrara: Op.cit., p.354.

(13) أنظر : Rang &Denis:Op.cit., T.2,pp.256-257.

(14) Gravière: Les Corsaires , Op.cit. ,pp.203-204.

(15)Braudel (F.) : La Mediterranée , Op.cit, t.2,p.322.

(16) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق : إحسان حقي ، دار النفائس ، ط. 2، بريوت ، 1983ص.249.

(17) Mercier, Op.cit. , T.3, p.103.

(18)Deffontin Maxange: Alger avant la conquètte, euldj Ali corsaire barbarèsque, Berler-Bey d’Afrique et grand amiral, pedone, Paris, 1930, p.90-91.

(19) J.de Hammer: Histoire de l'empire ottoman depuis l'origine jusqu'à nos jours, traduit de l'Allemand par J.J.Hellert, Bellizard, t.6, Paris, 1837, p.202.

(20) كلو : مرجع سابق ، ص.265.

(21) L' Abbé Vertot:Histoire des chevaliers de Malte,Mane,Tour, 1841, pp.266-267.

(22) Ibid.: p.275.

(23)Braudel: La Mediterannée, Op.cit., T.2, p.324.

(24) Mercier: Op cit., T.3, p.104.

(25) أنظر: Mas de Latrie: Histoire de l'Ile de Chypre, Imprimerie Impérial, Paris, 1855, p.559 et suivres.

(26)Maxange: Op.cit,p.134.

(27) ibid.: p.143.

(28) محمد سي يوسف : قليج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية ، رسالة ماجستير، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1988 ، صص.115-116.

(29) Rotalier: Op.Cit.,T.2, p.257.

(30) كان منها جزيرتي كاندي (Candie) وسيريغو (Cerigo) التابعتين للبندقية ، بالإضافة إلى مواقع مسيحية أخرى في كل من بحر الأدرياتيك والجزر الأيونية .كما قام علج علي بترصد أخبار تحركات الأسطول المسيحي ، وإبلاغ قيادة الأسطول العثماني بذلك.

(31) Paul Chac: Deux batailles navales,Lepante-Trafalgar, Les éditions de France, Paris, 1935, pp.121-122.

(32) Grammont: Histoire d'Alger, Op.cit.,p.108.

(33) E.Charrière: Négociations de la France dans le Levant , Imprimerie Impériale, Paris , 1853, t.3, pp.160-161.

(34) فريد بك : مصدر سابق ، ص.257.

(35) Chac: p.151 ;Maxange:p.151 ; Braudel:LaMéditerannée…,T.2,p.396.

(36) Charrière:Op.cit., t.1 p.82.

(37) Paul Masson: Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique Barbarèsques 1560-1793, Hachette, Paris, 1903,p.3.

(38) Hammer: Op.Cit., p.226.

(39)J.Ursu: La politique orientale de Francois 1er 1515-1547, Honore , Paris, 1908 , p.137.

(40) أنظر نص السالة في : Ursu: p.141.

(41) محمد فريد : ص.237.

(42)Ursu: p.143.

(43) محمد فريد : ص.238.

(44) Ursu: p.147.

(45) Ursu. Op cit.,p.152.

(46)Garrot: Op.cit., pp.414-415.

(47) Eugène Plantet: Correspondance des deys d’Alger avec la cour de France 1579–1833 , éditions Bouslama , Tunis , 1981, T.1, p.XXXIII (33).

(48) أنظرهذه المعاهدات في : قنان: معاهدات الجزائر مع فرنسا 1609 – 1830 ، مرجع سابق وكذلك :

E.Rouard de Card: Traités de France avec les pays de l'Afrique du nord, : A.Pédone éditeur, Paris, pp.1-89.

(49)A.B.J.Bercazu: Argel , Noticia topografia é historica del reino y de la cuidad , Gorchs, Barcelona, 1830, p.72.

(50) Jean Luis Belhachemi: Nous les frères Barberousses corsaires et rois d’Alger, Fayard , Paris, 1984, p.215.

(51) Haedo: Histoire des Rois,p.103.

(52) Rotalier: Op. cit., p.165.

(53) أنظر نص الرسالة في : Cat : Mission bibliographique , Op.cit, pp.40-41.

(54)ذكر هايدو أنه أسر أكثر من 6000 شخص، وذكر وولف 8000 شخص.

(55) Americo Castro: Cervantès et l'ambition de la contre réforme , le captive à Alger, in Deuxième Congrès National des Sciences Historiques , Alger 14-16 avril 1830, publié par la Société Historique Algérienne , alger, 1932, pp.101-102.
(56) Belhamissi : Alger… Op.cit., p.27.
(57) في 5 فيفري 1581 أبرم الطرفان معاهدة سلم لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد تستمر إلى غاية ديسمبر 1583 ، وقعها من الجانب الأسباني سفير فيليب الثاني في اسطنبول خوان مارغلياني(Juan Marglian).
(58) Braudel(F.): Les Espagnols ..,Op.cit. p.251.
(59) Charrière , E.: Négociations de la France dans le lavant , Brurt Franklin New-York , S.D. ,t.4, p.300.
(60)Belhamissi: Marine et marins , Op.cit., t.2, p.88.
(61) Haedo,Histoire des rois …, R.A., t.25 ; p.102.
(62)Ballester: Op.cit., pp.190-192.
(63)J.Cazenave: Les gouverneurs d'Oran pendant l'occupation espagnole de cette ville (1505-1792), R.A., 1930, p.292.
(64) Rotalier: Op.cit.,T.1, p.500.
(65) جزيرة أسبانية تقع إلى الشمال من مدينة مليلة المغربية المحتلة.
(66) مارمول : ج.1، صص.509-510.
(67) نفسه : ج.1، ص..510.
(68) قنان ، نصوص ووثائق ، صص.86-87.
(69)Belhamissi: Marin et marins, t.2, p.133.
(70) أبو القاسم سعد الله : مدينة الجزائر في كتاب انجليزي قديم ، الأصالة ،العدد : 8، ص.32.
(71) Haedo, R.A., T.25, p.25.
(72) إحدى جزر الكناري تبلغ مساحتها 862 كلم2.
(73) Syndycat National des Intituteurs : La Régence d'Alger et le monde turc, l'Ecole républicain, 4è numero spécial, 1953-1954, p.34.
(74)Jimenes Sanchez Sebastian: Presencia de Berberes en Canaries y de canarios en Berberia, Tipografia Alzola, Las Palmas, 1948, p.11.
(75)Grammont: Relations entre la France et la Régence d'alger aux XVII siècle R.A.,1879, p.138.
(76) Dan: Op.cit., p.312.
(77)Belhamissi : Marine, t.2 p.133.
(78) منطقة ساحلية تقع إلى الغرب مدينة سان أوستيل (St.Austell).
(79)Belhamissi : Marine, t.2 p.133.
(80) Tassy : Op. cit., p.264.
(81) يقع إلى الغرب من مدينة لاغوس البرتغالية المطلة على المحيط الأطلسي .

(82)Belhamissi : Marine, t.2 p.134 .

(83) إن السبب الرئيسي لهذه المواجهات هو عدم توافق جوازات المرور المقدمة مع النموذج المعهود لدى الجزائريين .

(84)A.H.N., Estado, leg. 3612.

(85) A.G.S., Estado, leg.3589.

الـبـاب الـثـالـث

الآثار الإقتصـادية

مقدمة الباب :

الفصل الأول : تراجع الموانئ التجارية الجزائرية

الفصل الثاني : تضرر اقتصاديات بني زيان

الفصل الثالث : العلاقات الاقتصادية لبعض القبائل مع الأسبان

الفصل الرابع : تداول العملة الأسبانية بالجزائر

خاتمة الباب :

الباب الثالث
الآثار الاقتصادية

مقدمة الباب:

إن البحث في الآثار التي خلفها الاحتلال الأسباني على الجوانب الاقتصادية للجزائر نلمسها في أمور كثيرة . نعمل في هذا الباب للوقوف عند أهمها وتوضيحها بالقدر الذي تمكننا منها الوثائق والمصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها. ومن هذه الأمور تراجع الدور الاقتصادي الذي كانت تنعم به الكثير من الموانئ في تعاملها مع الممالك الأوربية ابتداء من القالة شرقا إلى هنين غربا . انعكس ذلك بالسلب على الحالة الاقتصادية للبلاد ، وأدى إلى تعطيل مكانتها التجارية ، والتقليص من مداخيل العائد التجاري مع الخارج . ولعل أشهر مثال عن هذه الهجمة تعرض ميناء هنين للاحتلال ثم إلى التدمير. وكذلك ميناء بجاية وغيرهما من الموانئ باستثناء ميناء الجزائر الذي عرف نشاطا ملحوظا منذ أن حرره العثمانيون واتخذوا من هذه المدينة حاضرة لهم .

وعرفت الدولة الزيانية تدهورا اقتصاديا بالغا ، خاصة بعد احتلال ميناء هنين وتدميره من قبل الأسبان ، كما شددوا الخناق عليها وإجبار ملوكها وأمرائها ومشايخها الذي خضعوا لهم أو تحالفوا معهم على دفع مقادير مالية وحيوانية وزراعية حسب المعاهدات المبرمة بين الطرفين .

وسعى الأسبان إلى كسب ود السكان الذين كانوا يقطنون حول المرسى الكبير ووهران أو حتى القبائل التي كانت معادية للدولة الزيانية ، لضمان التزود بالمحاصيل الزراعية والحيوانية بصورة لا تخلو من الابتزاز الاقتصادي ، خاصة وأنه كانت سلطة الدولة الجزائرية في مدينة الجزائر تمثل خطرا يهدد وجودهم في هذه المنطقة من الغرب الجزائري ، فكانت هذه الأعراب ـ كما سماها بعض الكتاب المسلمين ـ كثيرا ما تحمل السلاح إلى جانب الأسبان .

إن الجانب الاقتصادي يستدعي دائما وجود نظام مالي وعملات ونقود تنظم تبادل السلع ، فإلى جانب العملات المحلية ؛ كانت هناك عملات أجنبية متداولة في الجزائر ، أهمها العملات الأسبانية التي دخلت إلى الجزائر بطرق مختلفة ، وكانت لها آثار على العملات المحلية ، فقد اشتقت بعض العملات المحلية أسماءها من أسماء عملات إسبانية. كما أنها تعرضت لصعوبات بفعل مزاحمة النقود الأجنبية وخاصة الإسبانية .

الفصل الأول

تراجع الموانئ التجارية الجزائرية

لقد كان الأثر الإسباني واضحا على الشواطئ الجزائرية ، وما جاورها من المناطق الداخلية ، ولا سيما بعض المدن الساحلية والداخلية ، حيث تدهور شأن بعضها كبجاية ، وتعرض بعض منها إلى التخريب والدمار كهنين ، مما كان له أسوأ الأثر على الحياة الاقتصادية في الجزائر عموما وفي المدن والمناطق المحتلة .

ورغم وجود تلك الانعكاسات السلبية ، فإن التاريخ الرسمي ـ كما أشار أحد الكتاب الغربيين ـ يتجاهل << عمليات التخريب للمدن البحرية التي دمرتها المدافع والهجمات الأسبانية وما انجر عنها من تدهور وانحلال بسبب طول الاحتلال لبعض المدن الأخرى . فالتهديد الإسباني كان حقيقة ملموسة ...بالإضافة إلى التخريب والتقتيل ، وهو ما يظهر حرص الأسبان على التغلب والاستئصال وبالأخص مع الكاردينال خيمينيس >> [1]. وفيما يلي عرض لأهم المدن الساحلية التي تأثرت سلبا نتيجة لأعمال الغزو الأسباني .

1 ـ وهران والمرسى الكبير:

ظلت مدينة وهران والمرسى الكبير تحت الحكم الزياني منذ منتصف القرن 13م، باستثناء بعض الفترات القصيرة التي خضعت فيها وهران لنفوذ المرينيين

والحفصيين [2]، خلال نشاطهم التوسعي ضد الدولة الزيانية . ونظرا لموقعهما البحري الممتاز حظيتا بعناية كبيرة من لدن ملوك تلمسان ، حيث جعلوهما محطتين بحريتين لاستقبال السفن الأجنبية ، على غرار ميناء هنين قبل تعرضه للغزو الأسباني 1531 ، ثم إلى التدمير سنة 1534م .

ولأهمية موقع المرسى الكبير واتساع خليجه أقيم فيه حصن دفاعي يعود إلى القرن 13 م/7 هـ. وهذا ما شجع السفن التجارية الأوربية على اعتباره محطة رئيسية في البحر المتوسط . ومنذ بداية القرن 14م/9هـ أصبح المرسى الكبير مركزا رئيسيا للتبادل التجاري بين المدن المتوسطية الأوربية كالبندقية وجنوة وبين بلاد المغرب الأوسط . وقد حافظ التجار البنادقة والقطالونيون منذ القرن الرابع عشر حتى أواسط القرن السادس عشر على نشاطهم التجاري مع المدن الساحلية لبلاد المغرب ، من بينها المرسى الكبير، التي كانوا يبيعون فيها منتجاتهم مثل الأقمشة والأدوات الزجاجية والبهارات والعطور وغيرها من البضائع الأخرى التي يفتقر إليها هذه المنطقة . في حين كانوا ينقلون معهم منتجات المملكة الزيانية والمتمثلة في الجلود والأصواف والأغطية والبرانس والقطن والزرابي الشمع وزيت الفواكه وغيرها من السلع الأخرى[3] .

أما بالنسبة لوهران، فإنها ظلت تحتفظ بمركزها الاقتصادي وكذلك الثقافي رغم الاضطراب السياسي الذي عرفته مملكة بني زيان. لقد شهدت خلال القرن الخامس عشر نشاطا اقتصاديا ملحوظا ، وتوسعا عمرانيا يستجيب لمتطلبات ذلك الإنعاش ، فأنشئت فيها الفنادق والوكالات التجارية ، وبنيت فيها الحمامات ، وكثرت فيها المدارس ، وازدهرت فيها الحركة التجارية . ففي الميدان التجاري كانت تفد إليها من الجنوب قوافل الصحراء تحمل معها بضائع المنطقة ، في حين كانت ترسو في مينائها السفن التجارية القادمة من مدن أوربا مثل البندقية وجنوة ومرسيليا وألميريه وبرشلونة وغيرها [4]. حيث كان تجارهم يقيمون فيها بعض الوقت ، فعلى سبيل المثال كان التجار البنادقة يبقون لمدة عشرة أيام ، وذلك خلال الرحلة الموسمية التي كانت تنطلق من جزيرة ليدو[5] . خلال شهر جويلية من كل سنة [6]. وبذلك كانت المدينة بمثابة المحطة التجارية التي تحط فيها بضائع الصحراء والبضائع الآتية من البحر. وقد ساهم هذا التواصل في ازدهار بعض الصناعات ، مثل صناعة الصوف والسيوف والخناجر والأدوات الطينية والخشبية. وقد لخص لنا حسن الوزان الذي زار المدينة ، الحياة الاقتصادية بقوله :<< فيها ستة آلاف كانون ... وبها من البنايات والمؤسسات ما تتميز به كل مدينة متحضرة ، من مساجد ومدارس وملاجئ وحمامات وفنادق ... وكان معظم

سكانها من الصناع والحاكة ... أهلها ظرفاء كرماء يحبون الغرباء . كانت وهران مهبط التجار القطالونيين والجنويين ، ومازالت بها الآن دار تسمى دار الجنويين لأنهم كانوا يقيمون بها>> [7] .

إن التجارة الفلورانسيين ، الذين حلوا محل البيزانيين في القرن الخامس عشر لم تستمر طويلا ، فقد تحدد منذ سنة 1458 خط سير الأسطول التجاري ، الذي عليه أن يسلك طريقا بحريا يبدأ من تونس وينتهي بقادش الأسبانية ، ذهابا وإيابا ، فكان يتوقف لمدة ستة أيام بمدينة وهران، وثلاثة أيام في مدينة الجزائر وهنين [8].

وكان لدى التجار البنادقة نشاطا واسعا ، استمر إلى منتصف القرن السادس عشر . إذ كان لديهم منذ القرن الخامس عشر فنادق في تلمسان وفي وهران، وكذلك بالنسبة للجنويين. فإن سفنهم من نوع غالياس (Galéasse) ذات أربعة أشرعة ، والتي يتألف طاقمها من 200 رجل ، كانت تتردد على المرسى الكبير، انطلاقا من مرفأ ليدو في النصف الثاني من شهر جويلية ، حيث تقوم بجولة في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، فتتوقف في ميناء وهران لمدة لا تقل عن عشرة أيام ، بينما لا تخصص سوى أربعة أيام لإقامتها في بجاية ، وكذلك في مدينة الجزائر[9]

كانت مواد تجارتهم لا تختلف عن المواد التي كان يتاجر بها الجنويون والقطالونيون. فكان الجنويون يشترون في العادة الجلود المدبوغة ، والفواكه الجافة، وخاصة الزيت من أجل مصانع الصابون ، وكانت تلمسان مركزا لمناطق واسعة بأشجار الزيتون .

وكان البنادقة يصدرون أنواعا من الأقمشة والأواني الزجاجية والتوابل ، العطور والصمغ والمسك والجواهر والأحجار الكريمة و وغيرها من السلع ذات الأثمان المرتفعة. مقابل استيراد الصوف والجلود والقطن الذي كان يزرع في مليتة، وكذلك الحنابل والبرانس والزرابي التي كانت تشتهر بها مدينة تلمسان والحبال ، كما كانوا يشترون العبيد السود لصالحهم ، أو لبيعهم في تونس وطرابلس ومصر[10] .

وكانت وهران تعد الميناء الرئيسي لتلمسان ؛ حيث كانت مستودعا لتجارة السودان. كما أنها شهدت ازدهارا في عهد الزيانيين ؛ حيث كانت تتشكل في كل عام قافلة من التجار الأوربيين وتتوجه إلى سجلماسة وتافيلالت عن طريق وجدة وفاس وتادلة وأغمات وولاتة وتكرور في النيجر وفي مملكة مالي . حيث تنقل المصنوعات التلمسانية والسلع الأوربية ، وتجلب من هناك العاج وتبر الذهب وريش النعام والعبيد [11].

وفي نطاق هذا النشاط التجاري الذي كان يقوم به التجار الأوربيون ، كانت تنسج خيوط المؤامرة على مينائي المرسى الكبير ووهران . فقد كان بعض التجار يقوم بالتجسس لصالح البلاط الأسباني ، وفي مقدمتهم التاجر البندقي جيرومينو فيانيللي(Geromino Vianelli)، الذي كان على اتصال بالكاردينال خيمينيس ، وذكر له أن المرسى الكبير هو باب إفريقيا ، وأن مدينة وهران تعد أغنى المدن وأجملها بالساحل الإفريقي[12] .

ونظرا لأهمية المرسى الكبير ـ وقبل وقوعها في يد الاحتلال الأسباني في بداية القرن السادس عشر ـ تعرض خلال القرن الخامس عشر إلى الاحتلال البرتغالي بعض الوقت لفترتين منفصلتين ، فكانت الأولى ما بين سنة 1415 و 1437 ، أما الثانية فامتدت من عام 1471 إلى 1477 [13].

وبعد عشرين سنة من نهاية الوجود البرتغالي في المرسى الكبير ، هاجم جيش أسباني بقيادة دوق مدينة سيدونيا (duc de Medina-Sidonia) مدينة وهران ، لكنه فشل في احتلالها ، عندئذ وجه حملته إلى مدينة مليلية فاحـتلها في 1497 [14] .

وبعد احتلالهم للمرسى الكبير ووهران ؛ تعرضت المناطق المجاورة لهما لأبشع أعمال التخريب رغبتهم في الانتشار في المناطق المجاورة . وعرفت مدينة بجاية نفس المصير ، حيث تم إخلاءها من السكان ، وهو ما يصفه الكاتب الهـولندي دابير(Dapper) قائلا : << صارت المدينة منذ الحين إلى الانحدار>> [15]. وقد ذكر مارمول أن خيمنيس قد قتل سنة 1509 وأسر من السكان 4000 رجل ، وذكر الكاتب نفسه عن تخريب كرشتل ، حيث استعمل الكونت دالكوديت في تخريبه المدينة الحديد والنار ، وكان يصحبه قائد يدعى" قيدزا " ، وهذه الأعمال الفوضوية جعلت هذه المنطقة خرابا ، ونفس العمل تكرر في كناستيل . فبعد ثورة السكان ، عمد نفس الكونت إلى تخريب المدينة بعد رفع الحصار عنها وغنم الكثير من العبيد . فالضرر الذي لحق بهذه الموانئ كان كبيرا جدا [16] . فقد حول الأسبان هنين إلى خراب ، وهو الميناء القديم لمملكة تلمسان ، الذي كان منفذا بحريا رئيسيا للتجارة الخارجية مع مختلف الأمم الأوربية .

2 - هنـين :

وهي من المدن الجزائرية التي كانت زاهرة وأفل نجمها بعد تعرضها للتدمير من قبل الأسبان. فكانت مدينة هنين الساحلية تحتل موقعا جغرافيا ممتازا بين الصخور ، التي تحمي السفن الراسية فيه من الرياح والأمواج ، سواء تلك القادمة من الناحية الغربية أو من الناحية الشرقية[17]. وكان لها سور ضخم سميك

يحيط بها وميناء صغير. وكانت بها مساجد حسنة البناء، كثيرة المنازل يسكنها التجار والصناع . وكانت هنين آهلة بالسكان تباع فيها الأقمشة المتنوعة والقطن ، إلى جانب ذلك كانت تحتوي على أراض زراعية خصبة تزرع فيها أشجار الزيتون والبساتين والفواكه في الأراضي الموجودة في أحواز المدينة أو على طول نهر بجانبها [18].كما أنها احتوت على مياه وغابات ، مما ساعد على قيام بعض الصناعات بها مثل الأشرعة والمدافع[19].

ونظرا لأهمية موقعها ، لعبت هنين دورا تجاريا هاما بالنسبة لمملكة تلمسان ، مع الدول الأوربية مثل المدن الإيطالية وفرنسا ، وكذلك أسبانيا خلال العصور الوسطى[20]. فكانت تستورد المنسوجات والجوت والثمار الجافة من بلاد الأندلس خلال فترات الجفاف، أما صادراتها فتمثلت أساسا في ال صوف والجلود . وقد وصف "مارمول" وضع المدينة ونشاطها في العبارات التالية :<< كانت فيها المساجد حسنة البناء ، والدور آهلة بالتجار والصناع ، إذ كانت سفن البندقية تنحدر إليها كل سنة ، عند ذهابها إلى تلمسان ، خاصة منذ أن احتل الكاردينال خيمينيس وهران والمرسى الكبير، فكان تجار تلمسان يذهبون إليها ليتعاملوا مع تجار البندقية، فكانت آهلة بالسكان ، تصنع فيها أقمشة جميلة ، وأنسجة أخرى من القطن >>[21].

ونتيجة لنشاط هنين الاقتصادي ، بفعل موقعها الجغرافي ، فقد تطلب إنجاز منشآت تستجيب لطبيعة العمل التجاري الذي اختصت به المدينة . فقد أصبحت تحتوي على إدارات للجمارك ، وأسواق ، وحمامات . كما شهدت ازدهارا عمرانيا، وهندسة راقية في بناء المنازل ومساجد حسنة البناء.

وعند احتلال الأسبان للمرسى الكبير وهران ، بدأت المدينة تفتقر إلى السكان وحاول ملك تلمسان حمايتها بإرساله لواءا عسكريا للمحافظة على الأمن التجاري . وبذلك زادت أهمية هذه المدينة الساحلية ، فأصبحت المنفذ البحري الرئيسي للدولة الزيانية والأقرب إلى عاصمة المملكة ، إذ لا تفصل بينها وبين مدينة تلمسان إلا مسافة قصيرة لا تجاوز 60 كلم. فكانت المتنفس الاقتصادي الرئيسي لهذه الدولة مع الموانئ الأوربية ، وتصدر منها منتوجات الماشية كالصوف والجلود ، وسلع تلمسان الصناعية، من منتوجات جلدية ونسيجية . وتستورد منتوجات المدن الإيطالية [22]. وقد استمر التجار الجنويون يرسلون سلعهم مع وسطائهم إلى تلمسان انطلاقا من هنين ، باعتبار التكلفة القليلة .

وقد كان سكان هنين يسمحون للبحارة المسلمين بالرسو في مينائهم وكذلك الحال بالنسبة للمعادين للأسبان. وتستند الكثير من الكتابات الأوربية إلى هذا

السلوك لتجعل منه مبررا لأعمال الغزو الأسباني ، إلا أن البعض قد أسند تخريب القائد "دون ألفارو بسان"(Don Olivar Basson) لهنين إلى العامل الإقتصادي ، تنفيذا لأوامر الإمبراطور شارلكان وتجنبا للمصاريف [23] .

تعرضت هنين للاحتلال الأسباني، وأفل معه نشاطها التجاري [24] . فتمكنوا من احتلال ميناء المدينة وقصبتها في 24 أوت 1531 . كما تعرضت المدينة إلى النهب[25]. وترك فيها ألفارو حامية أسبانية تتكون من سبعمائة رجل[26] . ثم طلب من الملك إرسال سفينتين من القمح ومؤن أخرى وأموال للدفاع عن الموقع الجديد ، وتدعيم العدد الموجود بهنين بأربعمائة جندي . وأرفق التقرير بمخطط لمدينة هنين أوضح فيه أهمية المدينة ، واقترح بالاحتفاظ بها ، لكون احتلالها يسمح بتأمين مدينة وهران ، واستمرار بقائها تحت احتلالهم[27].ونتيجة لأعمال الأسبان العدوانية عرفت هنين نقصا سكانيا ، فقد غادرها الكثير منهم نحو الجهات الداخلية[28].

وبعد ثلاث سنوات من احتلال هنين ، سعى الأمير محمد لتحريرها ، فدع ا إلى فرض الحصار عليها ، ومنع سكان المناطق المجاور ة الأسبان من التوغل في المناطق الداخلية ، مما أثر في وصول الإمدادات إليهم ، ومنع تجار المناطق المجاورة للمدينة بيع السلع لهم ، وحتى التجار الأسبان قد منعوا من التنقل إلى هنين[29] .

ولما اشتد عليهم الحصار ، اضطر الأسبان إلى إخلاء المدينة في نهاية عام 1534 ، لكنهم قبل أن يغادروها ، قاموا بتدمير كل معالمها ، كالأبراج والأسوار والمساجد والميناء . وذلك انتقاما من سكانها ودولة بني زيان وحرمانهم من أي متنفس اقتصادي عبر هذا الميناء . وقد زارها أحد الرحالة المغاربة في أواخر القرن السادس عشر وذكر بشأنها << ثم أرسينا على هنين وهي بليدة مسورة وهي اليوم خربة لم يبق فيها إلا سورها ومسجدها>>[30] .

3 ـ مستغانم :

إن أكثر ما تتميز به هو الميناء الذي يعود استعماله إلى عهد الفينيقيين، حيث أصبح فيما مقصدا لكثير من السفن التجارية الأوربية[31]. وفي وقت لاحق خلال القرن السادس عشر وصفها مارمول بقوله: ((لها مرسى جيد)) [32]. وكانت المدينة محصنة بأسوار منيعة شأنها في ذلك كشأن المدن الحضرية الأخرى . لها نسيج عمراني لا يختلف عن الطابع العمراني الذي تميزت به المدن الساحلية الجزائرية الأخرى خلال تلك الفترة وصفها حسن الوزان بقوله : ((فيها مسجد في غاية الحسن وصناع كثيرون ينسجون الأقمشة ن ودورها جميلة وسقايتها

عديدة ، يخترقها جدول ماء يحرك الطاحونات))[33]. وكانت تمتد وراءها مساحات من الأراضي الزراعية ذات الخصوبة الجيدة . وبعد ضعف الدولة الزيانية وتراجع قدرتها على فرض سلطتها على الأقاليم التابعة لها، شجعت بعض القبائل المنتشرة حول المدينة على إعلان العصيان ، وأخذت تسيطر على الكثير من المناطق وهذا ما أشار إليه الوزان بقوله : ((كان لها في القديم حضارة كبيرة وسكان كثيرون لكن الأعراب يكثرون من مضايقتها منذ أن بدأت سلطة ملوك تلمسان تضعف ، حتى أنها فقدت ثلثي أهلها في وقتنا الحاضر)) [34]. ورغم هذه الحالة فإنها استقبلت الكثير من المسلمين الأندلسيين إثر سقوط غرناطة ، فقد ذكر أنه كان لدى أهل مستغانم سنة 1505 أسطول يتألف من 12 سفينة كان يستعملها مهاجرو الأندلس ، وقد قاموا بهجمات انتقامية على مدينة بلنسية وأليكانت[35] .

ونظرا لموقعها القريب من مدينة وهران التي خضعت للاحتلال الأسباني ، فإنها حظيت باهتمامهم . وقد أدت تلك الأوضاع المتردية التي تعيشها المدينة إلى تعرضها للتهديد الأسباني ، مما أجبر شيوخ المدينة وأعيانها إلى توقيع معاهدة استسلام مع حاكم وهران الأسباني ، وذلك 26 ماي 1511 يلتزم بموجبها شيوخ وسكان مدينة مستغانم وكذلك مزغران بعدة شروط منها: أن يكونوا في خدمة الملك والملكة[36] بكل وفاء . أن يدفعوا الضرائب والرسوم التي كانوا يدفعونها لتلمسان في أول جوان من كل عام لأمين مخزن مدينة وهران وإطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين . وأن يلتزم أهل مستغانم ومزغران بتموين مدينتي وهران والمرسى الكبير بالمواد الغذائية والسلع الأخرى بأسعارها العادية . ولا يسمحون أبدا بشحن أو تفريغ أي سفينة بمرسى مستغانم إلا بإذن من الملكين الكاثوليكيين [37].

ومما يلاحظ على هذه الشروط تركيز الأسبان على تحصيل مختلف أنواع المحاصيل الضريبية المالية ومختلف المحاصيل الزراعية والبضائع الأخرى . والقضاء على النشاط التجاري للميناء الذي كان ينعم به في السابق .

ولما تشكلت سلطة جديدة في مدينة الجزائر في عهد عروج سعى إلى تطهير الوجود الأسباني في المناطق الساحلية التي خضعت لهم . فكانت مدينة مستغانم وضواحيها أحد أهداف سياسته ، لكن أحداث تلمسان سنة 1518 التي أدت إلى مقتله قد عطلت تحقيق هذا المشروع . وسرعان ما واصل خيرالدين خطة أخيه في القضاء على النفوذ الأسباني في مستغانم ، حيث حاصرها بقوات من جهة البحر والبر وتمكن من وضع حامية عسكرية بها[38] .

ونظرا لهذه المكانة التي كانت تحظى بها مدينة مستغانم لدى الدولة الجزائرية ؛ كانت هدفا للعمليات العسكرية الأسبانية في العديد من المرات. فقد اشتدت تكررت الحملات العسكرية عليها خاصة في عهد حاكم وهران الكونت دالكوديت الذي شن ضدها ثلاث غارات في سنة 1543، وفي سنة 1547 ، أما الثالثة فتم وقفها في مزغران سنة 1558، والتي أدت إلى نهايته[39] .

ونظرا لموقعها المتقدم كقاعدة أمامية للسلطة في مدينة الجزائر في مواجهة الأسبان المحتلين لوهران والمرسى الكبير؛ كانت تنطلق منها القوات العسكرية الجزائرية بهدف تحرير وهران والمرسى الكبير من الوجود الأسباني ، وذلك في سنوات : 1556 ، 1563، 1567[40].

وإثر سقوط مدينة وهران في يد الاحتلال الأسباني للمرة الثانية سنة 1732، انسحب الباي مصطفى بوشلاغم المصراتي إلى مستغانم ، واتخذها مقرا لحكمه[41]. ولم يلتحق بمعسكر مقر البايلك الذي انطلق منه سنة 1708 لأجل تحرير وهران[42]. وتواصلت منها الهجمات على وهران .

وهكذا يمكن القول بأن قرب مدينة مستغانم من الأسبان في وهران والمرسى الكبير جعل منها مدينة تحت حالة من الاستنفار الدائم ، وذلك على حساب انشغال أهلها بالجانب الإقتصادي .

4 - تنس :

تعد تنس من المدن الساحلية التي كانت تتمتع بنشاط اقتصادي وسياسي ملحوظ. وقد وردت أوصاف لأحوالها السياسية الاقتصادية خلال فترة القرن السادس عشر من طرف بعض الرحالة من أشهرهم حسن الوزان ، الذي ذكر وصفا يتعلق بالأزمة السياسية التي عاشتها حيث قال : ((كانت دائما خاضعة لملك تلمسان ، لكن الملك محمدا [43]. ...خلف ثلاثة أبناء ، أكبرهم عبد الله ، وثانيهم أبو زيان ، وثالثهم يحيى. فآل الحكم إلى الأول بعد وفاة أبيه ، وتآمر الآخران مع بعض الشخصيات من تلمسان على اغتياله ، ولكن المؤامرة افتضحت فألقي القبض على أبي زيان وزج به في السجن، إلا أنه أطلق سراحه بعدما طرد أبو حمو ، استرجع ملكه إلى أن قتله بربروس ...))[44] .

كما وصف مارمول أحوالها السياسية والاقتصادية بقوله : ((هي عاصمة هذه المنطقة منذ القديم . تحصنها أسوار وقلعة ، كان بها قصر الأمير ، وبه يقيم اليوم حاكم مبعوث من مدينة الجزائر ومعه حامية مهمة .... وسكان هذه المدينة يتميزون بالغلظة والفظاظة ، مع أن لهم تجارة واسعة مع الأجانب الذين يجلون من هذه الناحية القمح والشعير وغيرها من السلع الأخرى فيحملونها إلى الجزائر

وإلى غيرها من الآفاق ، ذلك لأن هذه البلاد كثيرة الزروع والخصب والمرعى والعسل والشمع . وتوجد قبالة المدينة جزيرة صغيرة تحتمي عندها السفن إبان هبوب العواصف إذا تعذر عليها البقاء في المرسى))[45].

ولما ظهر الأسبان على مسرح الأحداث في نطاق حملاتهم على السواحل الجزائرية، كانت هذه المدينة أول المدن التي أعلنت ولاءها للأسبان . فبعد احتلالهم للمرسى الكبير، واستعدادهم لاحتلال مدينة وهران ؛ وقعت أزمة داخلية بين أمراء العائلة الحاكمة في تلمسان إثر وفاة الملك محمد السابع (المعروف بالثابتي) منذ سنة 1503 ، آل الحكم لابنه الأكبر عبد الله[46]. وكان له شقيقان، وهما :أبو زيان ، ويحي اللذان تآمرا على أخيهما الملك الثابتي، مع بعض الشخصيات على اغتياله، لكن اكتشاف المؤامرة؛ أدى إلى إلقاء القبض على أبي زيان، وسجنه ، وتمكن أخوه يحي من الفرار مستنجدا بالأسبان [47]. وقد وجد هؤلاء في هذا النداء ؛ فرصة لهم في توسيع نفوذهم ، فساعدوه على تنصيب نفسه حاكما على تنس ، على أن يكون تحت نفوذهم ملتزما بدفع الضرائب لهم . ولما مكنوه من السيطرة على المدينة ؛ زودوه بقوات عسكرية تساعده على تأمين موقعه ضد أخيه عبد الله ملك تلمسان ، تتألف من أربعة سفن وخمسمائة جندي وكان ذلك خلال سنة 1508[48] .

5 - بجاية :

لقد حظيت مدينة بجاية بنشاط اقتصادي كبير قبل تعرضها للاحتلال الأسباني، إذ كانت تربطها علاقات تجارية هامة مع مختلف بلدان البحر المتوسط . فقد ورد من مدينة تور (Tours) أنه في سنة 1482 أراد ملك بجاية في تنمية العلاقات التجارية ، وذلك بتزويد بجاية من أوربا المعادن والأسلحة والحلي والصباغة والتوابل والعطور ومواد طبية ومختلف أنواع الكتان . على أن تصدر بجاية لأوربا الجلود والشمع والزيت والحبوب والزبيب والصوف والقطن والأواني الفخارية[49].

وبعد احتلال الأسبان لمدينة بجاية ، قاموا بشحن كل الممتلكات التي استولوا عليها من قصور السلطان ، ومن مساجد المدينة على ثلاثين سفينة . كما شحنوا كل المواد الثمينة مثل الأعمدة ، والزخارف ، ومواد الأثاث المصنوعة من الخشب المنقوش على عمارتين ، لنقلها إلى أسبانيا ، لكنها تعرضت بعد خروجها من ميناء بجاية إلى زوبعة بحرية ، تسببت في غرق أغلب المواد في البحر. كما استولوا على الممتلكات الثمينة من المنازل ، ومن مختلف المرافق العمرانية

الأخرى. ولم يكتف جنود "نافارو" بأعمال النهب ، بل راحوا يدمرون مئذنة قصر الجوهر وقصر النجمة[50].

لم يكتف الأسبان باحتلال المدينة، بل تعقبوا السلطان عبد الرحمن ومن معه، فأحرقوا مخيماته ، ثم وضعوا أيديهم على رؤوس الحيوانات، واستولوا على تسعمائة جمل ، ونفس العدد من الأبقار، والعديد من الأحصنة والبغال والماشية. وغنموا كميات كبيرة من ثروة الملك ، من ذهب وفضة وقماش وحلي وبضائع أخرى[51].

وظلت بجاية تعاني التدهور العمراني الذي لحق بها حتى بعد خروج الأسبان منها ، فقد نزل التمقروتي بها خلال رحلته إلى القسطنطينية سنة 1589 فقال:<< أن بجاية إلى الآن خراب هدمها النصارى ـ دمرهم الله ـ لم يبق منها إلا ديار قلائل على طرف البحر وقلعـة صغـيرة تسمى باللؤلؤة ، ينزل بها متولي تلك الناحية من الترك يمنع المرسى من العدو>> [52]. وفيها قابل أحد علمائها وهو الشيخ العالم المحدث أبو عبد الله محمد بن جعفر، حيث طلب الرحالة من الشيخ استحضار ماضي المدينة المجيد ، وما آلت إليه من دمار ، حيث قال : << وجلبته بتمامه ليعلم منه ما سلف لهذه المدينة من الحضارة والعمارة ودرج فيها من العلماء والصالحين ، إذ لا يظن بها ذلك شاهدها على حالتها اليوم من الخراب >>[53].

وعن تراجعها الاقتصادي ذكر الكاتب (Salvator) أنه << بعد احتلال بجاية من قبل الأسبان ، منحت الحكومة بصورة غير مجدية أكبر الامتيازات للتجار القطالونيين الذين كانوا يترددون على الميناء . فلم يأت منهم أحد ، لأنهم لم يجدوا زبائن >> [54]. وبرر الكاتب ذلك التراجع بأن اكتشاف أمريكا ، ورأس الرجاء الصالح أضر ببجاية . ثم أكد أن الكل حلم بالعالم الجديد ، وأن القوافل التي كانت قديما تتجه إليها ، قد سلكت طرقا أخرى ، دون أن يلمح إلى التخريب الذي لحق بها من قبل الأسبان [55].

وهناك شهادة أخرى ذكرها الرحالة الألماني هانريش فون مالتسان عن المصير الذي آلت إليه بجاية بعد الاحتلال الأسباني لها ، وهذا نصها : <<. فبقدر ما كانت فرحة المسيحيين الكاثوليكيين كبيرة بغزوها ،إلا أن أهالي جنوة والبندقية لم يفرحوا باحتلال بجاية من طرف أكثر الأمم المسيحية تعصبا، ذلك أن هذا الاحتلال قضى على الحركة التجارية دفعة واحدة . فقد طرد الأسبان المسلمين كلهم تقريبا ، وعينوا أسقفا في المدينة لم يعد يسكنها غير الجنود تقريبا، وأرسلوا عددا من الرهبان ومفتشا لتنصير اليهود ومطاردة الملحدين>>[56] .

6 - **مدينة الجزائر :**

في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد استطاع الثعالبة بعدما استقلوا بمدينة الجزائر أن يجعلوا منها مركزا تجاريا متوسطيا هاما، ووطدوا علاقاتهم مع الدول الأوربية الواقعة على شواطئ البحر المتوسط ، فأصبحت السفن الأوربية تقصدها من برشلونة ، وكوليور (Collioure) ، كانت (Canet) ، بورت فاندريس (Port-vendres) [57]، على متنها مختلف أنواع الملبوسات والأقمشة، وفي المقابل كانت تحمل معها سلع محلية مثل الزيوت والأصواف والشمع . وكانت السفن الفلورانسية تتنقل بين مدن ساحل الشمال الإفريقي بداية من تونس ، وتتوقف في مدن عنابة والقالة وبجاية لتمكث في مدينة الجزائر ثلاثة أيام ، ثم تستأنف طريقها نحو مدينة وهران، وتعود إلى إيطاليا بعد مرورها بمدينة برشلونة . أما سفن البندقية فكانت تقصد مدينة الجزائر في فصل الصيف فتمكث فيها مدة أربعة أيام. وكانت هذه التجارة تدر على البلاد خيرات كثيرة ،استفادت منها الطبقة الحاكمة حتى أصبحت من الطبقة الثرية[58].

وبعدما احتل الأسبان الصخرة المقابلة لمدينة الجزائر ، امتعض سكانها ليس فقط لذلك الفعل ، ولكن أيضا من التدخل الأسباني في تجارتهم ، إذ بعدما تمكنوا من تشييد القلعة الحصينة على الصخرة ، أصدر الملك الكاثوليكي فيرديناند مرسوما في سنة 1511، فرض بموجبه ضريبة إضافية قدرها خمسون بالمائة على وارداته من الصوف ، وذلك من أجل أن يجبرهم على دفع تكاليف حروبه التوسعية في السواحل المغربية[59] .

وقد ظلت مدينة الجزائر تتعرض للحملات المتكررة من قبل الأسبان ، ابتداء من حملة "دييغو دي فييرا" سنة 1516، حتى حملة "بارثيلو" (Barcelo) سنة 1784 . حيث ألقيت خلالها القنابل المدمرة التي أصابت في كثير من الأحيان المباني والسفن الراسية في الميناء ، فعلى سبيل المثال ، نذكر أنه سقط على المدينة خلال سنة 1783 ، 3750 قنبلة و3833 من الكور . وقد وصف القنصل الفرنسي دو كيرسي [60] بالجزائر في ذلك العهد ، هذا الهجوم في مذكرة وجهها إلى حكومته جاء فيها <<...وقد سقطت عدة قنابل على قصر الداي والجهات القريبة منه ، بحيث وجد أنه من الأليق له اللجوء على قصر القصبة ...أما عن الخسائر التي ألحقها بالعاصمة ، وصفها القنصل الفرنسي في نفس المذكرة قائلا:<< أصيب أكثر من أربعمائة ما بين منزل ومتجر ومسجد وقبة وبنايات أخرى بأضرار متفاوتة . ومن بين المنازل الإثنى عشر التي تحتلها فرنسا أصيب

ثمانية ، وقد اشتعلت النار في منزل قنصل السويد لكن الذي يبعث على اعتزاز الحكومة الجزائرية هو أن الحصون البحرية لم تمس إلا بأضرار تافهة>> [61].

7 ـ عنابة :

تعود الغارات الأوربية على مدينة عنابة إلى القرن الحادي عشر، شنها الجنويون وحلفاؤهم من مدينة بيزة في سنة 1034 م ، أدت إلى تخريب المدينة ونهبها. وفي منتصف القرن الثاني عشر (1153م) ، تعرضت المدينة إلى غارة أخرى، شنها ملك صقلية روجر الثاني (RogerII) [62].غير أنها ازدادت حدة خلال القرن السادس عشر ، في إطار الحملات الأسبانية على السواحل الجزائرية ، حيث تعرضت إلى الهجوم سنة 1535 ، عندما كان الأسطول الأسباني راجعا من تونس بعد غزوها . ولكي يضمن بقاءها تحت سيطرته نصب الإمبراطور شارل الخامس القائد الدون أفارو زغال (Don Alvaro Gomez de Horosco El Zagal)حاكما عليها ومعه ألفي جندي من المشاة الجنويين ، مجهزين بأسحلة وذخيرة ، لحماتها من غارات السكان المنتشرين في المناطق المجاورة ، أو توجيه غارات ضدهم . وفي إحدى الغارات التي شنوها على نواحي المدينة ، قتل قائد الحامية ، مما أجبر بقية رجال الحامية على الانسحاب من عنابة ، ولكن بعد تدمير حصونها . وقد تذرع هؤلاء المخربون أن الإمبراطور لم يقم بتنصيب قائد جديد عليهم [63].

لقد أثرت هذه الغارات سلبا على حياة المدينة ، وكانت عائقا في وجه ازدهارها الاقتصادي ، وفي توسعها العمراني ، وتسببت في كثير من الأحيان في تعطيل التبادل التجاري بين عنابة والمناطق المتعاملة معها . وقد وصف لنا الرحالة العبدري [64] حالة عنابة بقوله : << صادفنا وقت المرور بها زويرقا للنصارى لا تبلغ عمارته عشرين شخصا وقد حصروا البلد حتى قطعوا عنه الدخول والخروج ، وأسروا من بالبر أشخاصا فأمسكوهم للفداء بمرسى البلد وتركناهم ناضرين في فدائهم >> [65].

لم يستقر الأسبان في عنابة مدة طويلة ، حيث غادروها سنة 1540 ، بعدما طردهم منها خير الدين سنة 1540 ، ولكن قبل جلائهم ؛ نهبوا كل شيء حتى الرخام والزليج من الجدران والتحف من مختلف الأنواع، والأثاث والرياش والأقمشة وكل رخيص وغال، فكان النهب عظيما عند دخولهم إلى المدينة وكذلك عند خروجهم منها. وكاد الجنود الأسبان يدخلون في الإسلام فرارا من الجوع والعطش لولا إسراع ضباطهم في نقلهم إلى السفن. أما قائد الحملة دون ألفار مات مختنقا لهول الكارثة التي أصابته. ولما اشتد الخناق على الحامية الأسبانية ، أمر

شارلكان جنوده بالجلاء ،بعد أن دمروا أبراج المدينة وقصبتها، وسارع جنود الدولة الجزائرية بالاستيلاء على المدينة وإعادة تحصينها وتنصيب حامية عليها[66].

أما عن الحالة التي أصبحت تعيشها في ظل الحكم الجديد يقول الدكتور ناصر الدين سعيدوني: << إن المدينة لم تشهد ازدهارا ملحوظا بعد أن حطمت تلك الأحداث والحروب المقومات الأساسية لاقتصادها رغم المجهودات الصادقة للحكام الأتراك لتحسين حالة عنابة والنهوض بها>> [67].

هوامش الفصل الاول:

(1) أندري برنيان وآخرون : الجزائر بين الماضي والحاضر ، ترجمة اسطنبولي رابح ومنصف عاشور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984.

(2) فقد احتلها أبو زكريا يحي الحفصي سنة 1248 ، إلى غاية 1269، حيث حررها يغمراسن. وهاجمها السلطان المريني أبو يوسف يعقوب سنة 1300 ، وتعرضت مرة أخرى للغزو المريني سنة 1335، في عهد أبي الحسن المريني ، ثم في سنة 1347.

(3) Mas Latrie: Aperçue des relations commercials de l'Italie septentrionale avec l'Algerie au moyen age, Imp.Royale, Paris 1845,p.31.

(4) يحي بوعزيز : وهران ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، رغاية ، 1985 . ص.58.

(5) جزيرة تمتد أمام البندقية تحمي ميناء ليدو

(6) Marçais : Recherches.., op.cit., R.A.1928, p.342.

(7) الوزان : مصدر سابق ، ج.2 ، ص.30 .

(8)Latrie : Les relations des chrétiens.., op.cit., p.333.

(9) Latrie : Les Relations…, Op.cit., p. 330.

(10) Ibid.:p.331.

(11) René Lespes : Oran ville et port avant l’ occupation française , 1934, pp.292-293.

(12) Primaudaie: Le commerce et la navigation, Op.cit., p.246 .

(13)Fey: Op.cit., p.53.

(14) Ibid.:p.56.

(15) D'O, Dapper: Description de l'Afrique, Wolfgang, amsterdam, 1686, p.167.

(16) برنيان وآخرون : مرجع سابق ، ص .125 .

(17) صاري : مقال سابق ، ص.18.

(18) مارمول : مصدر سابق ، ج.2، ص.296 .

(19) Marçais : Recherches…,op.cit., p.342.

(20) Ibid., pp.341-342.

(21)مارمول : مصدر سابق ج.2، ص.296.

(22) أنظر : رحلة الجنوي Antonio Malfante 1447, publié par de la Roncière, B. S. G. P., 1918, t.33, p.3.

(23) بريان وآخرون : مرجع سابق ، الهامش رقم 1، ص.124.

(24) خرج الدون ألفارو دي بازان(Don Alvaro de Bazane) ، قائد الأسطول الأسباني ؛ في شهر أوت من سنة 1531 من مدينة مالقة على رأس ثلاثة عشر سفينة ، تحمل تجهيزات ومعدات مختلفة ، ومؤونة غذائية كافية لمدة شهرين وفي طريقه إليها توقف في وهران ، حيث تزود بمائتين وخمسون جنديا من أفراد حاميتها. Primaudaie, Documents.., R.A., T.19, 1875, pp.187-188.

(25) مارمول : مصدر سابق ، ج.2، صص.286-287 .

(26) Primaudaie : Documents.., R.A., 1875, p.188.

(27) Lettre de l'Archevèque de Tolède à Sa Magesté, Avilla : 8 sep.1531, Elie de la Primaudaie : Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506-1574) , Jourdan , Alger, 1875, , p.59.

(28) بشاري لطيفة : التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجري، (13-16) ، رسالة ماجستير ، معهد التاريخ، جامعة الجزائر ، السنة الجامعية 1986-1987، ص.102.

(29) Primaudaie : Documents.., Op.cit.,R.A.T.19, p.277.

(30) أبو الحسن التمقروتي : النفحة المسكية في السفارة التركية ، طبعة حجرية ، دون تاريخ ، ص.13.

(31) الوزان : مصدر سابق ، ج.2، ص. 32.

(32) مارمول : مصدر سابق ، ج.2، ص.350.

(33) الوزان : ج.2، ص. 32.

(34) نفسه: ج.2، ص. 32.

(35) المدني : مرجع سابق ، ص.151.

(36) المقصود بالملكة هي خوانا ملكة قشتالة والدة شارل الخامس.

(37). Primaudaie, Document inédits_, Op.cit., R.A.,T.19,1875, p.73-75.

(38) Belhamissi : Histoire de Mostaganem , Op.cit., 1982, p.69.

(39) للاطلاع على هذه الغارات أنظر: Ruff,Paul:La domination espagnole à Oran sous le gouvernement du Comte d'Alcaudete (1543-1558), Leroux , Paris, 1900 .

(40)أنظر : Fey:Op.cit., pps.92-109

(41) المزاري : مصدر سابق ، ج.1، ص.276

(42) ظل مقر البايلك خرج مدينة معسكر تارة في مستغانم ، وفي بعض الأحيان مدينة تلمسان إلى أن جاء الباي الأكحل بن عثمان الكبير الذي اتخذ معسكر مقرا للبايلك .

(43) يقصد محمد السابع المعروف بالثابتي الذي حكم ما بين (1496-1503).

(44)الوزان: مصدر سابق ، ج.2، ص.36.

(45)مارمول : مصدر سابق ، ج.2، ص.354.

(46)الوزان: ص.35.

(47)مجهول : غزوات عروج وخير الدين، مصدرسابق ، صص.30-31.

(48) Monlau : Op.cit., p.53.

(49) Salvator: Op. cit., p.54.

(50) Ibid., p.37.

(51) Ibid., p.36. (52) التمقروتي : مصدر سابق ، ص.16.

(53) نفسه : ص. 17.

(54) Salvator:op.cit., p.54.

(55) Ibid. :op.cit., p.54.

(56)هانريش فون مالتسان : ثلاث سنوات في شمال إفريقيا ، ترجمة الدكتور أبو العيد دودو، الجزء الثاني ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1979، ص.113-114 .

(57) الموانئ الثلاثة الأخيرة هي الآن فرنسية تقع حول مدينة بربينيون(Perpignan) .

(58) حليمي : مرجع سابق ، 218 .

(59) سبنسر : مرجع سابق ، ص.28 .

(60) وهو Jean-Batiste-Michel de Kercy كان قنصلا لبلاده في الجزائرما بين 1782-1791.

(61) الميلي : مرجع سابق ، صص.234-235.

(62) ابن روجر الأول، خلف والده على حكم صقلية 1130، وظل في الحكم حتى سنة 1154.

(63) Lettre de D. Alvar Gomez de Horosco El Zagal à sa Magesté, Bone , 13 septembre 1535, Primaudaie: Documents…, Op.cit., p.135.

(64) اسمه الكامل محمد العبدري البلنسي، له كتاب عنوانه "بما سما إليه الناظر في خبر الرحلة إلى المشرق".

(65) ناصر الدين سعيدوني : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، صص.206-207 .

(66) عثمان العكاك : عنابة قبل الإسلام ، الأصالة ، 1976، العدد 34/35 ، السنة الخامسة ، جمادي الثانية – رجب1393هـ/يونيو-يوليو، صص.52-53 .

(67) سعيدوني : دراسات وأبحاث... مرجع سابق ، ص208.

الفصل الثاني

تضرر اقتصاديات دولة بني زيان

تعرضت الدولة الزيانية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر إلى هزات اقتصادية عنيفة بفعل احتلال الأسبان لموانئها الرئيسية التي كانت تدر عليها مداخيل مالية هامة . وكان لهشاشة السلطة المركزية في تلمسان والانقسامات الداخلية، والضعف الذي كانت تعاني منه كامل أرجاء المملكة ، قد سمحت لتغلغل النفوذ الأسباني وفرض السيادة عليها من خلال توقيع بعض الملوك معاهدات الولاء ودفع الضرائب المالية والعينية ، مقابل بقاء هذا الملك أو ذاك في الحكم .

1 ـ انتعاش النشاط الاقتصادي للملكة قبل القرن الـ 16:

وقبل هذه المحنة كانت تلمسان المدينة الرئيسية في ميدان التجارة في هذا الجزء من إفريقيا تعتبر منذ زمن طويل مخزنا لمختلف السلع التي كانت تصل من مختلف سواحل البحر المتوسط ، يتم نقلها بعد ذلك بواسطة القوافل إلى غاية السودان ، ونحو غينيا [1].

كانت التجارة بتلمسان رائجة لأهمية موقعها الجغرافي ، وتربطها علاقات تجارية قوية مع المغرب والبلاد الاستوائية والأندلس ، تستورد وتصدر السلع والبضائع المختلفة. و التجار يرسلون سلعهم من تلمسان ووهران إلى ما وراء الصحراء عن طريق سجلماسة ، حيث كانت قوافلها تلتقي بقوافل المغرب

الأقصى ، ثم تنتقل جميعا إلى تومبوكتو وغانا. وتخرج قوافل أخرى من الصويرة ووادي نون وتؤم موريتانيا والسنغال والمالي وغانا وغينيا[2].

وتكونت شركة صحراوية هي شركة المقريين [3]، فقد استوطن جدهم عبد الرحمن بن أبي بكر صاحب أبي مدين مدينة تلمسان. وقد نقل لسان الدين بن الخطيب في كتابه " الإحاطة " عن شيخه أبي عبد الله المقري أنه كان لجده أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن أربعة إخوة اشتركوا في التجارة ، ومهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار ، واتخذوا طبلا للرحيل وراية تقدم عن المسير. وكان أبو بكر ومحمد بتلمسان ، وعبد الرحمن بسجلماسة ، وعبد الواحد وعلي بإيوالاين[4]. فكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي ما يحتاج إليه من السلع من الجلود والعاج والجوز والتبر . والسجلماسي بينهما كلسان الميزان يعرفهما بقدر الرجحان والخسران ويكاتبهما بأحوال التجار والبلدان. فاتسعت أموالهم وعظم شأنهم. ولم تقتصر حركة التجار على جهة الصحراء فوجوههم كانت موالية أيضا إلى شطر الأسواق الأوربية ، فالسفن المشحونة بالسلع كانت تخرج من هنين ووهران وتنس قاصدة الأندلس ومرسيليا وموانئ إيطاليا[5].

ومع بداية تعرض موانئ المملكة للعدوان الأسباني شعر قادتها بالخطر الاقتصادي الذي قد يصيب البلاد . فبعد احتلال المرسى الكبير أدرك الملك مولاي عبد الله بن زيان بن مولاي أحمد خطورة الوضع ، وما أحدث ذلك الحدث من شرخ جسيم على العائدات السنوية التي كان يحصل عليها من الحقوق الجمركية من هذا الميناء . ولهذا أمر القائد العام لوهران بتركيز تحصيل كل الجباية في وهران واتخاذ المزيد من الحذر تجاه الأسبان . كما أرسل إليه أمرا بتسجيل جباية قيمتها 10 دوبلة زياني في الشهر وتسديدها، وإعداد ألفي فارس من العرب مجهزين بألبسة عسكرية ورماح ، باعتبارهم الحراسة الدائمة لوهران وإنشاء حامية حدودية ضد المسيحيين في المرسى الكبير. وأن رواتب الألفين فارس تِؤخذ من الإيرادات الملكية والمتمثلة في حقوق الدخول والخروج التي يتم تحصيلها من وهران [6]. كانت المملكة الزيانية تحقق مردودا يبلغ ثلاثمائة ألف ، وحتى أربعمائة ألف دينار طوال العديد من السنين عندما كانت وهران تابعة لها[7]

.

2 ـ نقص المداخيل بحرا وبرا:

ولما تعرضت للاحتلال الأسباني انقطع التجار البنادقة عن الذهاب إلى هذه المدينة التي أصبحت مشحونة بالجنود الأسبان ، فعرض عليهم التجار التلمسانيون المجيء إلى هنين[8].

لقد كان الملوك سابقا يجدون في تحصيل الحقوق الجمركية من وهران مصدرا هاما للدخل ، وفيما بعد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى فرض المزيد من الضرائب على رعاياهم داخل المملكة ، مما سبب التذمر لدى أوساط السكان . وقد زاد هذا الوضع من حدوث المزيد من الانقسام في أوساط المملكة . وهكذا تعرض غنى تلمسان وقوتها إلى ضرر كبير[9] .

لقد زاد ذلك الإجراء من تعقيد الأمور ، حيث سعت كل فئة مسها هذا القرار إلى النيل من المملكة ، ولما خشي الملك أبو عبد الله (1505-1516)على عرشه راح يبحث عن تأييد القبائل الموالية له ، بل اتجه إلى التحالف مع الأسبان [10] ، فأصبح خاضعا لنفوذهم ، يدفع لهم ضرائب سنوية تتمثل في 10 آلاف قطعة ذهبية ، و 10 آلاف رأس من الغنم وألف كيلة من القمح ، وتأمين تزويد الجنود الأسبان في وهران والمرسى الكبير بالمؤونة.

وهكذا أدت تلك الظروف بالملك الزياني إلى قبول التحالف مع الأسبان لأول مرة في شهر جوان من سنة 1511 ، فتشكلت سفارة لملك تلمسان مثلها أبو عبد الله محمد ، الذي ذهب إلى وهران لإبرام اتفاق بين الزيانيين وممثلي الملك فرديناند . تكونت هذه السفارة على ما يبدو من الشيخ سيدي أبو يحيى القبني ، ومن يهوديين إسحاق كانسينو (Cansino)، وأبراهام ثاميرو (Zamirrou). وكان الثلاثة ينعتون بالسفراء ، ورافقهم عدد آخر من الأعضاء وهم عزوز ، عمور ، خادم المزور، الشيخ ديدون (Daydon) ، الحسن ، الفشتالي ، عبد الرحمن ، واليهودي أبراهام أوزيل (Oziel) . وقد تم توقيع السلم في 14 جوان ، وتم تبليغه إلى تلمسان في أكتوبر من طرف مارتين دي أرغوت وفراي خورخي (Fray Jorge)[11].

وعندما توفي الملك في سنة 1516، استولى على العرش أخوه أبو حمو الثالث من الوريث الشرعي ابن أخيه أبي زيان ، ثم وضعه في السجن . لقد أثار ذلك الفعل سخط الناس عليه ، خاصة بعد قبوله التحالف مع الأسبان ، حيث أبرم اتفاقية ولاء جديدة يكون ملزما بموجبها دفع ضريبة سنوي قدرها 12ألف دوكا(Ducats) ، وفي المقابل يكون الملك محميا من طرف الأسبان [12]. وهكذا أصيبت مملكة تلمسان بشلل في الحركة التجارية ، ومما زاد سوء الوضع تعرض القوافل للغارات من قبل الأسبان وكذلك من القبائل الموالية لهم [13].

ومع مرور السنوات زادت الأحوال سوءا في أوصال المملكة ، خاصة في عهد الملك أبي محمد بن عبد الله (1528-1540) ، الذي لم يبق لديه من المال ما ينفقه على متطلبات حاجياته ، وما يجعله يقوم بواجباته المالية نحو الأسبان ،

فأرسل رسالة إلى ملك أسبانيا شارلكان مؤرخة في 15 جانفي 1530. ما يعبر عن الانحطاط المادي والمعنوي لهذه الدولة ، يتودد له فيها أن يعيد إليه جمرك تلمسان، التي كان يتقاضاها جنوي يهودي لحساب ا لإمبراطور [14]. وتعهد مقابل ذلك أن يبقى في خدمته وصداقته ، وأن يبقى حريصا على إقامة السلم ، وألا تقوم سفنه بضرب وهران [15] . استغل الأسبان الهوان الذي أصاب هذه الدولة ، فأقدموا على تجريدها من هنين منفذها البحري الذي بقي لها ، والذي كانت تنشط منه تجارتها الخارجية ، وذلك في سنة 1531 . فكانت تلك الأوضاع المتردية محل متابعة من طرف أسبان مدينة وهران ، الذين كانوا حيث يرسلون تقاريرهم إلى العائلة المالكة في أسبانيا، أو إلى كبار رجال الدين . فعلى سبيل المثال ، أرسل بيدرو دي غودوي (Pedro de Godoy) ،حاكم وهران رسالة إلى رئيس أساقفة سونتياغو (Santiago) [16]. يصف له فيها الأوضاع في تلمسان ، بأنها تعيش حربا بين الملك مولاي عبد الله ، وبين ابنه الأمير محمد ، مقترحا عليه << أنه من صالحنا مناصرة الأمير محمد ، ليكون حليفنا ، وذلك ، باعتراف صاحب الجلالة به ملكا ، لأننا بواسطته سنكسب العرب إلى جانبنا>>[17] .

وهكذا تقلصت موارد المملكة ونقصت أراضيها ، فكانت تمتد عبر مساحة حول تلمسان اسميا ، نادرا ما تصل حدودها غربا إلى ملوية ، وكانت جنوبا تمتد إلى الصحراء . وفي حقيقة الأمر كانت المناطق القريبة من العاصمة هي الموالية بالفعل إلى السلطة . ولم تكن القبائل وفية لملكها إلا في حالة مكافأته إياهم مقابل خدماتهم، وإغداق زعمائهم بالهدايا . فقد كانت حوالي نصف مداخيل المملكة << تنفق على الأعراب وحراس المملكة والباقي لأجور الجند والقادة وكبار موظفي الحاشية>> [18]. إلى جانب تجريد تلمسان من موانئها والقضاء على تجارتها الخارجية ، ضغط الأسبان على حكامها ، وأملوا على الملوك الذين قبلوا التحالف معهم معاهدات فيها شروط استنزاف للثروات مالية وزراعية وحيوانية .

3 ـ إلزام المملكة على دفع الضرائب للأسبان :

فبعد توقيع أول اتفاق رسمي بين حكام تلمسان والأسبان في وهران ، أصبح تموين هذه المدينة يتم بصورة نظامية من قبل القبائل العربية ، فقد سلموا لوهران خلال الشهور الثلاثة الأخيرة لسنة 1511 ، 501 رأس من الغنم ، و 16 تيس ، و21 بقرة و3 أحمرة.

وقبل 10 أفريل من سنة 1512 وفد إلى بلاط أسبانيا في بورغس Burgos مبعوثو ملك تلمسان . ويذكر أن الحكومة الأسبانية في وهران ضغطت على ملك تلمسان بالذهاب بنفسه إلى أسبانيا والتفاهم مع الملك من أجل الحصول على

حمايته ونسج بنود اتفاقية تحالف . عندئذ انتقل أبو عبد الله إلى بورغس حيث كان يوجد الملك فرديناند ، ومعه هدايا ثمينة . وقد تم التوصل إلى اتفاق التحالف والحماية دون صعوبات ، فقد اعترف ملك تلمسان بإعلان الولاء للملك، على أن يدفع له ضريبة سنوية ، وتزويد الحامية الأسبانية في وهران والمرسى الكبير ببعض المؤن والمحاصيل الزراعية[19] .

لقد استمر حكم أبي عبد الله محمد بضع سنوات في ظروف غير مستقرة ، حيث أصبحت أغلبية الرعية ناقمة عليه لكونها تعيش في ظروف معيشية متردية، بعدما أثقل الملك كاهلها بضرائب جديدة لضمان السيولة المالية الكافية لدفع الضريبة لحلفائه الأسبان، فقد ذكر حسن الوزان في هذا الصدد : ((منذ أن احتل المسيحيون وهران ارتأى الملك أن يفرض ضرائب ورسوما تجارية على تلمسان ، وكانت معفاة منها أيام الملوك السابقين ، الشيء الذي أثار كراهة السكان له ولما اضطر ابنه الذي خلفه على الإبقاء على هذه الضرائب طردوه من تلمسان. وكانت هذه المملكة تحقق مردودا يبلغ ثلاثمائة ألف وحتى أربعمائة ألف دينار طوال العديد من السنين عندما كانت وهران تابعة لها)) [20].

وفي سنة 1515 وفد إلى وهران مبعوث آخر من تلمسان وهو العبيدي الفقيه ، من أجل الاتفاق من جديد على تحديد الضريبة ، وقد تم تمديد الاتفاق بينهما لمدة عشر سنوات . وفيما يتعلق بأمر الضريبة البالغة قيمتها 10000 دوبلا المتبقية التي كان على ملك تلمسان مولاي عبد الله دفعها لملك أسبانيا خلال السنوات الماضية ، سيتم دفعها خلال السنة (1515) [21].

وفي ما يلي عرض للمقادير المالية للجزية التي دفعتها تلمسان للأسبان في أواخر سنة 1514 ، والنصف الأول من سنة 1515.

ففي أول نوفمبر 1514 سلم مبعوث تلمسان إلى مارتين دي أرغوت (Martin de (Argote 2500 دوبلا [22] المتعلقة بالجزية.

في 5 فيفري 1515 دفع 2833528 مرافيدي.

في 13 مارس 1515 دفع 200000 مرافيدي .

في 20 أفريل 1515 دفع 225878 مرافيدي .

في 19 ماي 1515 دفع 50000 مرافيدي .

المجموع بلغ . 4023294 مرافيدي [23].

وخلال السنوات اللاحقة تم رفع الضريبة السنوية إلى 12000 دوبلا ، ولضمان تنفيذ بنود الاتفاقية ، يتم تسليم الضريبة إلى المزور أو إلى القائد العبيدي

، أو إلى قاضي القضاة أبو يحيى القبني ، الذي قام بتسليمها إلى مارتين دي أرغوت .

إن تواريخ تسليم هذه الأرصدة من الأموال الضريبية لم تكن ثابتة. ففي 10 أفريل 1512 على سبيل المثال تلقى كريستوبال ريخون Cristobal Rejon 150.000 مرافيدي ، وفي 25 جوان من نفس السنة دفع القائد العبيدي إلى ريسغول Risgol 2.944 دوبلا و3 quartas mosicas أي ما يعادل 935.820 مرافيدي . كما دفع 25 قنطار ونصف من الشمع بلغت قيمتها 145185 مرافيدي . وفي 23 نوفمبر 1513 سلم الملك الزياني إلى وهران 28.000 مرافيدي ، وفي 4 جوان 1514سلم 268310 مرافيدي . وفي 14 سبتمبر 1516 سلم 159.705 . وكان المجموع الذي تم دفعه ما بين 10 أفريل 1512 و11 فيفري 1517 بلغ 8.512.306 دوكا [24] .

وفي بداية سنة 1517 أصبح على عرش تلمسان أبو حمو الثالث ، وتولى التوقيع على اتفاقيات جديدة مع شارل الأول . وقد تولى من الجانب الأسباني"لوبي هورتادو دي ميندوثا" (Lope Hurtado de mendoza) مهمة وضع شروط جديدة تحصيل الضريبة السنوية من ملك تلمسان ، بلغت قيمتها 5.000 دوبلا. وعندما أعاد الأسبان تنصيب أبي حمو الثالث [25].على ملك تلمسان في سنة 1518، ظل وفيا للاتفاقية التي أجبر بموجبها أن يدفع سنويا على الحاكم العام بوهران 12000 دوقة ذهبية [26] . وزيادة على الضريبة، كان على الملك الزياني أن يدفع للأسبان بعض السلع. وعندما توفي هذا الملك سنة 1528 بدأت المتاعب والانقسامات تزداد سوءا في أرجاء المملكة. فقد استولى أخوه أبو محمد عبد الله على العرش ، واستمر في خضوعه لحكام وهران[27].

وكان الأسبان يلزمون ملوك تلمسان بدفع رواتب الجنود الأسبان المكلفون بحمايتهم ، إذ حملوا في غالب الأحيان الملوك الموالين لهم والمتحالفين معهم دفع تكاليف ورواتب الجنود الأسبان الذين يرسلون لحماية العرش في تلمسان ، فكان هذا التعامل يثقل كاهل المملكة المتهاوية . وكان بعض الملوك غير مبالين بذلك الوضع، بل كان حرصهم الأكبر هو ضمان البقاء في كرسي الحكم ، وفي هذا الصدد طلب مولاي عبد الله من الإمبراطورة في خطاب وجهه لها سنة 1530 أن تبعث له 30 جندي وليس 200 [28].

وجاء في نفس الخطاب المذكور أعلاه أن مولاي عبد الله مستعد لعقد السلم إذا وافق صاحب الجلالة على الشروط التالية :

1 - أن يدفع الملك ضريبة قدرها 2000 دوبلا.

2 ـ أن يرجع إليه الأسبان الأسرى العرب الذين قبض عليهم في منطقة تبكريت (Tabekrit) والخمسمائة دوبلا ، التي دفعها لهم ملك تلمسان .
3 ـ أن يعيدوا إليه قطعة النسيج من الحرير والهدايا الأخرى التي تقدر بـ 500 دوبلا.
4 ـ ومن جهته يسلم ملك تلمسان في الحال 5000 أو6000 فنيق(fanègues)[29] من القمح ، ويتم نقلهم إلى رشقون عند مصب النهر.
5 ـ من أجل الحفاظ على السلم يلتزم تجار وهران بدفع 1000 دوبلا بدلا من 3000 آلاف دوبلا التي فرضها عليهم الملك[30] .

وكان على ملك تلمسان في بعض المرات ، إذا أراد أن يحظى بمساعدة الملك الأسباني من أجل الحفاظ على ملكه ، أن يدفع تكاليف الحملة الأسبانية على تلمسان، وتنفيذ شروط أخرى . فبعدما تعرضت العاصمة الزيانية لحملة سنة 1535 ، وضع الأسبان شروطا على الملك مولاي عبد الله ، جاءت في مذكرة سنة 1536 :

1 ـ أن يدفع في أجل أقصاه عشرة أيام تكاليف الحملة ، والمتمثلة في غرامة قدرها 10 آلاف دوبلا التي وافق عليها ، وعليه أن يتعهد بالدفع كل مرة سنة مسبقا .
2 ـ أن يدفع كمية من القمح ومن الشعير وعدد من رؤوس الأبقار التي طالب بها الملك الأسباني ، وإن تعذر ذلك عليه بتسديد الضريبة نقدا .
3 ـ على القائد ابن رضوان أن يضم الثلاثة آلاف فارس التي معه إلى الجيش المسيحي في حالة عزم الأسبان على غزو مدينة الجزائر . وكمساهمة منه لدعم هذه الحملة على الملك عبد الله أن يسلم لوهران 15 ألف فنيق من القمح وخمسة آلاف فنيق من الشعير وألف وخمسمائة بقرة .
4 ـ وأخير على الملك أن يسلم إلى القائد العام في وهران 50 رهينة من أبرز شيوخ القبائل ومن أفراد عائلته وأصدقائه .
5 ـ في حالة ما إذا قرر صاحب الجلالة بناء قصر في ميناء أرزيو ، وآخر في رشقون، على الملك عبد الله تقديم المواد اللازمة لبناء القلعتين . وعند الانتهاء الأشغال بهما لا يعارض على قرار الملك القاضي بوضع حامية وأسلحة المدفعية اللازمة لمنع أي دخول للميناء سواء السفن التركية أو أية أمة أخرى في حالة عداء مع صاحب الجلالة.
6 ـ ومن أجل ضمان كبير لتنفيذ الملك الزياني لهذا الاتفاق طلب صاحب الجلالة أن يكون حصن المشور الكبير بتلمسان تحت احتلال القوات الأسبانية ، بأن يسمح

مولاي عبد الله للقائد العام بوهران وضع العدد الذي يراه مناسبا من العساكر من أجل الدفاع عن الحصن . وألا يسمح لأي شخص من العرب مصاحب للملك الدخول إلى الحصن إلا بترخيص من القائد العام لوهران . وعلى مولاي عبد الله وابن
رضوان تزويد الحامية الأسبانية الموجودة في القلعة ، بالفرينة والقمح والشعير خلال كل الأوقات التي يطالب بها صاحب الجلالة[30] .

وكان الأسبان في وهران يفرضون على التجار التلمسانيين عند باب تلمسان حقوق جمركية على كل السلع والمحاصيل الزراعية التي تباع أو تشترى من قبل رعايا مملكة تلمسان ، فكان أصحابها ملزمين بتسديد بعض الحقوق المالية عند دخول سلعهم إلى وهران أو خروجها . وقد طالب ملك تلمسان من ملك أسبانيا في رسالة مؤرخة في 5 سبتمبر 1535 أن تقتطع تلك الحقوق لصالحه . وكان قد اعترف في نفس الرسالة عن التزامه بدفع الغرامة المالية والمقدرة بأربعة آلاف دوبلا(Doblas) سنويا [32].

إن المطلع على هذه البنود يدرك لا محالة درجة تسلط الأسبان على هذه المملكة، إذ كانوا في كل مرة يرفعون من درجة جشعهم واستنزاف ثرواتها ، وهذا ما أدى من دون شك إلى ردة فعل من حكامها . فقام ملك تلمسان بعد سنوات بوقف دخول كل أنواع الحبوب إلى وهران ، كما أنه أمر قائد قبيلة بني راشد المكلف بتزويد الأسبان بالقمح والشعير بوقف كل المحاصيل . وبناء على هذا الموقف تعرض الأسبان في وهران إلى نقص في التزود بالحبوب الذي استمر طوال الفترة ما بين 1540-1543 . وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار هذه الأزمة السبب الرئيسي في غزو تلمسان مرة أخرى في سنة 1543. فقد تعرضت المدينة خلال تلك الحملة إلى النهب والتدمير، فذكر مارمول أن الأسبان << نهبوها من أقصاها إلى أقصاها ، وهم يقتلون أو يأسرون كل من يصادفونه فيها >> [33]. وانتقموا خاصة من القبائل التي رفضت مساندتهم[34] . ووضعوا في أيدهم كل ما وجدوه من مختلف أنواع المؤونة كالقمح والشعير والزبيب والأنعام [35]. وبعد مرور 25 يوما من دخوله المدينة خرج دالكوديت منها للسطو على قافلة كبيرة كانت تحمل القمح والشعير لسكان المدينة الفارين الذي كانوا يقيمون في أحوازها ، فتمكن خلال هذه العملية من الاستيلاء على 350 جملا بغرض استعمالها في التنقل و150 رمح. وأسر منها ألف رجل وقتل 60 آخر[36] ، ولم تسلم المؤسسات الدينية، حيث ربطوا دوابهم بالجامع الأعظم ، واستمرت أعمال العدوان هذه لمدة عشرين يوما[37].

وفي 26 فيفري تم توقيع اتفاقية باسم الإمبراطور الكونت دالكوديت مع الملك الجديد لتلمسان مولاي عبد الله ، الذي اعترف بالتبعية ودفع الغرامة للإمبراطور . فقد تعهد أن يدفع له سنويا أربعة آلاف دوبلا Doublas [38]، التي كانت قد فرضت على سلفه مولاي محمد ، وعليه أن يعطي للأسبان عددا من الأحصنة بسروجها وكثيرا من الصقور[39] .

هوامش الفصل الثاني :

(1) أنظر : Coudray : Le commerce de Tlemcen au moyen-age , B.S.G.A., 1897, pp.229-255, 422-431 .

(2) محمد الطمار : الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ، ش.و.ن.ت.، الجزائر ، 1983، ص.236.

(3) تنتمي إلى عائلة المقري بتلمسان ،وضعت عنايتها بالطرق التجارية بين المدن الرئيسية .

(4) تقع إلى الشمال الغربي لمدينة تومبوكتو على بعد أربعمائة ميل .

(5) الطمار : مرجع سابق ،ص.237 .

(6) Montanes : Op.cit., pp.352-353.

(7) الوزان : مصدر سابق ، ص.23.

(8)Djilali Sari : La renaissance d’un ancien débouché de l’or transaharien , Honaine, Office des Publications Universitaires, Alger, 1991, p.63.

(9)Ruff : Op.cit., pp.12-13.

(10)Gaid : Op.cit.,p.40.

(11)Veronne : Op.cit., p.19 .

(12)Mercier : Op.cit., T.3, p.19.

(13) حساني : مصدر سابق ، ص.18.

(14) بلحميسي : نهاية بني زيان، مقال سابق ص.35 .

(15) أنظر النص الكامل للرسالة في : Primaudaie : Documents.., R.A., T.19, 1875, pp.169-173.

(16) مدينة أسبانية تقع في شمالها الغربي على الحدود مع البرتغال .

(17) أنظر النص الكامل للرسالة في : Primaidaie : Documents..,R.A., T.19, pp.185-188.

(18) الوزان : مصدر سابق ، ص.23.

(19)Bargès : Op.cit. pp.418- 419.

(20) الوزان : مصدر سابق ، ص.23.

(21)Veronne : Op.cit., p.20 .

(22) تساوي 758888 مرافيدي .

(23)Veronne : p.21.

(24) veronne: Op.cit., p.22 .

(25) خلعه عروج وعوضه بابن أخيه أبي زيان ، فاستنجد أبو حمو بالأسبان ، نظم حملة مشتركة مع الأسبان وأخرج عروج وأتباعه من تلمسان ، وأعيد إلى عرش مكبلا بالمعاهدة المذكورة.

(26)Bargès : Op.cit., p.427.

(27)Veronne : p.24.

(28) Primaudaie : Documents.., R.A., t.19, 1875, p.171.

(29) الفنيق وحدة كيل قديمة يستوعب حجمها 4,762 لتر.

(30) Primaudaie: Documents…, Op.cit., pp.172-173.

(31) Primaudaie : Documents.., pp.226-227.

(32) Ibid.:, p.242 .

(33) مارمول : مصدر سابق ، ج.2 ، ص. 314.

(34)Grammont: Op.cit., p.70 .

(35)Ruff: Op.cit., p.93.

(36) Ibid. : p.94 .

(37) المزاري : مصدر سابق ، ج.1، ص.217 .

(38) يلاحظ أن شروط هذه المعاهدة أقل قيمة من تلك التي تم عقدها سنة 1536. غير أنه يمكن اعتبار أعمال النهب التي لحقت بتلمسان بمثابة تعويض عن تكاليف الحملة ، حيث تحصل الكونت على خمس الغنيمة.

(39) Cueva : Op.cit., p.379.

الفصل الثالث

العلاقات الاقتصادية للسكان مع الأسبان

لقد ترتب عن الاحتلال الأسباني لوهران والمرسى الكبير مدة طويلة ، وجود علاقات تجارية بينهم وبين السكان المحليين . وكان السكان الموالون للأسبان ، أو العرب المسالمة كما كان يدعوها الأسبان ؛ مجبرة على دفع أنواعا من الضرائب ، لكن هذه العلاقات الاقتصادية ، كانت في كثير من الأحيان ما تلحق الضرر بالسكان المحليين مثل الغزو والفقر، وإلى إثارة نار الفتنة ما بين القبائل الموالية لهم والقبائل المعادية.

1- التبادل التجاري بين السكان والأسبان في وهران والمرسى الكبير:

سعى الأسبان خلال السنوات الأولى لتواجدهم في مركزي وهران والمرسى الكبير إلى البحث عن حلفاء لهم من سكان المنطقة الغربية لوهران. فبعدما تمكن الأسبان من احتلال المرسى الكبير سنة 1505 سارعوا إلى فتح سوق تجاري بجوار المدينة المحتلة ، وذلك بهدف الاستفادة من المحاصيل الزراعية والحيوانية التي كانت بيد الأهالي ، مقابل ما كان لدى الأسبان من ذهب وفضة[1] .

وبعدما احتلوا وهران سعوا إلى إجراء مفاوضات مع حكام تلمسان ، وذلك من أجل إثبات وجودهم أمام الحكومة المحلية . وخاصة ضمان تأمين التزود بالمواد الغذائية الضرورية . و من جهة أخرى راحوا يتصلون بالقبائل والتجمعات السكانية التي كانت تحيط بالموقع المحتل . فتمكنوا من ربط علاقات مع بعض القبائل ، ولكن هذه الاتصالات كانت تعتمد بصورة رئيسية على أعمال التجسس . ولهذا الغرض فإنهم شكلوا وبصورة سريعة شبكة من الجواسيس

العرب أو اليهود ، الذين كانوا ينقلون إليهم أخبار كل التحركات التي يقوم بها السكان ، مقابل مكافآت مالية عن المعلومات التي يتلقونها . وكانت أعمال التجسس هذه تتم بتوجيه أشخاص يتظاهرون بأنهم مكلفون بمهام. فقد ركزوا اهتمامهم في البداية على سكان الكناستيل ومستغانم ، وامتد حتى إلى الجهة الشرقية منها . كما أرسلوا مبعوثيهم إلى تلمسان وتنس وإلى القبائل المجاورة لهما، وكانوا من جهة أخرى يحصلون على الأخبار من الأشخاص القادمين من هذه المواقع . إن الهدف الرئيسي من هذه العملية كان التعرف على الشخصيات الهامة التي لها نفوذ على السكان القاطنين في المناطق المجاورة لمدينتي وهران والمرسى الكبير[2].

ومن بين الأشخاص الذين عرفت أسماؤهم في هذه العلاقة من الكناستيل ، وأصبحوا موالين للأسبان ، أحمد بن علي ، وحدو باحمد ، وأحمد بن بواري، وعصار. ومن مستغانم امحمد ، ومحمد بن حسون . وهناك شخصيات أخرى وهم لعراب عبد الله ، وعيسى ، وابراهيم بن إهين ، وابن عقبة ، وحتى من اليهود مثل أبراهام بن زميرو ، وصمويل ستورا [3].

وفي بعض الأحيان كان الحكام الأسبان في وهران يجدون صعوبة في التوصل إلى إبرام اتفاقيات مع زعماء القرى ، إذ لم يتوصلوا إلى إبرام علاقات تجارية مع المناطق الريفية إلا في بعض المناسبات النادرة جدا . ومن أجل الحصول على مكاسب مادية سعى العرب إلى إدخال مختلف المحاصيل الزراعية والمواشي إلى وهران. أما بالنسبة للرعايا الأسبان القاطنين بالمدنيين ، فإن حكامها قد فتحوا لهم الأبواب على مصراعيها ، وتم تشجيعهم للحصول على امتيازات وبأسعار معتبرة ، ولكن المسلمين في العموم منعوا من هذه العملية [4]. وفي بعض الأوقات عندما كانت السلطة القائمة في مدينة الجزائر منشغلة بأمر داخلي ، أو بشأن خارجي ، وخاصة في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، كان بعض السكان من الأهالي القاطنين في أحواز وهران ، مثل رجال بني عامر وأفراد من بلدة كريشتل[5] يتاجرون مع المدينة [6].

إثر توقيع الاتفاق الرسمي الأول بين حكام تلمسان والأسبان في وهران ، أخذ تزويد الموقع المحتل من طرف بعض الفئات من السكان المحليين يأخذ طابعا نظاميا. ففي خلال الثلاثة الشهور الأخيرة من سنة 1511 م ؛ نقل هؤلاء إلى وهران 501 خروفا . وكان هؤلاء السكان القاطنين في أحواز وهران والمرسى الكبير يزودون الموقعين منذ بداية الاحتلال . فكانوا يقدمون للأسبان إلى جانب الأغنام حيوانات أخرى مثل المعز والأبقار والأحصنة والحمير ، حيث كان

الأسبان في حاجة ماسة إلى هذه الأنواع، وكذلك التمور والشمع والجلد والأغطية والفحم[7].
وفي المقابل كانوا يشترون من الأسبان القطن والورق والبندق(Noix de galle) ، الرز والسجاد (Toiles des bordats)[8]، والطاقيات المصنوعة من الفراء. وتذكر بعض التقديرات أن السكان قدموا للأسبان خلال الأربعة الشهور الأولى من سنة 1512 عددا كبيرا من رؤوس الغنم بلغ 881 رأسا ، وسبع بقرات[9].
وقبل 10 أفريل 1512 حضر سفراء ملك تلمسان إلى بلاط أسبانيا ، وتقرر في بورغوس أنه سيتم تجديد إبرام الاتفاق السابق لمدة عشر سنوات ، مع الإبقاء على ما نص عليه الاتفاق السابق وبنفس الشروط .
وأهم التجار الذين تعاملوا مع الأسبان:
ـ الشيخ سليمان الذي أحضر 119 خروف و 12 بقرة وذلك في 24 ماي 1511. و62 خروف ومعز و12 بقرة في 21 جوان 1511.
ـ أما الشيخ أحمد الذي ذكرته المصادر الأسبانية بـ (Durrahamet)، فسلم 70 خروفا .
ـ الشيخ موسى الذي أحضر في 27 جوان 44 خروفا و4 أبقار .
ـ عبد الهادي ، عبد الرحمن ، أحمد بن سلام [10].
وفي سنة 1516 كانت مدينة وهران المحتلة ، يضمن تزويدها بالمؤن شخصيتان عربيتان وهما أبو هاني وأحمد أبو القاسم ، إلى جانب أشخاص آخرين نذكر منهم عمار، وأبو عالية ، وأحمد ، وإبراهيم القاصة ، وأحمد السايس ، ومحمد ، وأبويحيى ، وإبراهيم بن مونقاس ، والشيخ سليمان . وهناك أفراد من قبيلة من بني عقبة ، على رأسهم شيخهم مع ابنه أحمد ، واثنين من رجاله أحد رجاله أحدهما يدعى أحمد ، والآخر يدعى أبو سلام . وبعد هذه السنة (1516) تندر الوثائق التي تحتوي على أسماء من السكان المحليين لهم علاقة مباشرة مع الأسبان في وهران[11].
وكانت القبائل التي يحق لها الدخول إلى وهران لتزويد الأسبان بكل أنواع المنتوجات الفلاحية ، تلك التي تبيع لهم بأسعار منخفضة ، حيث يؤكد "باليخو" (Vallejo) في تقريره بقوله : << كانت المدينة دائما تتزود بكل أنواع المواد الغذائية من النوع الجيد وبأسعار عادية ، وذلك في حالة حصولنا عليها بطرق غير ملتوية...ونتعامل حتى مع العرب الذين يأتون بالمواشي لبيعها ، فكثيرا ما يتم هذا التعامل بوفرة ودون انقطاع>>[12].

2 ـ فرض الأسبان الضرائب على السكان :

إلى جانب التعامل التجاري مع السكان المحليين ، كان الأسبان يفرضون على العرب المتعاملين معهم ، والموالين لهم ، دفع العديد من أنواع الضرائب . فكانت الضرائب التي كان شيوخ القبائل وسكان أحواز وهران يدفعونها من قبل إلى مملكة تلمسان قد حولها الأسبان لصالحهم . هذا ما تم فعله مع شيوخ مستغانم ومزغران بعد توقيعهم وثيقة الاستسلام التي أبرموها مع الأسبان في 26 ماي 1511 ، فقد ألزمت الشيوخ بتسليم الأسبان في غرة شهر جوان من كل سنة ، محصول الضرائب التي كانوا يدفعونها عادة على ملك تلمسان . وعلى سكان المدينتين أن يساهموا في تزويد وهران والمرسى الكبير بالمواد الغذائية والمؤونة ، وذلك مقابل حصولهم على الحماية الأسبانية. وأن الامتيازات التي كان يحضى بها سكان مستغانم ومزغران من طرف ملك تلمسان يتم تمديدها لمدة خمسة سنوات، ويمكن أن يكون أكثر [13].

وفرض الأسبان على القبائل الموالية لهم أو المتحالفة معهم ، الذين أطلقوا عليهم اسم (Moros de paz) أو(Moros de paces) أي عرب السلام ، أو العرب المسالمة ؛ إلى جانب ذلك دفع أنواع أخرى من الضرائب ، كانت على شكل حبوب وأنعام ومنتجات زراعية أخرى .

إن تسمية بعض القبائل الوهرانية بهذا المصطلح بدأ استعماله مع بداية جباية أحد أنواع الضرائب وهي ضريبة السيغورو (Seguro)[14] . إلى جانب هذه الضريبة ، وردت ضرائب أخرى في وثائق ذلك العصر هي ضريبة الثمن، والأمان ، والرومية ، والترجمانية [15].

كان دفع هذه الضرائب يسمح للقبائل الموالية أن تتحرك ، واستغلال أراضيها للاستفادة منها ، وذلك بحرثها وبذرها ، وجني المحاصيل الزراعية ، ورعي قطعان الماشية ، بالتنقل بها من مكان لآخر ، دون التعرض لأية مضايقات أو أي اعتداءات من قبل الجنود الأسبان . وفيما يلي توضيح لأهمها :

ـ ضريبة "السيغورو":

كان مصطلح الثمن المتداول لدى العرب ، هو نفسه تعبير السيغورو لدى الأسبان . فكلاهما مرادفين لعبارات التأمين أو الأمان ، إذ كان العرب الذين قبلوا أن يكونوا موالين للأسبان ، يدفعون ضريبة السيغورو ، وكان يطلق عليها أيضا اسم الثمن . ولهذا الغرض أعدت الإدارة الأسبانية في وهران وثائق رسمية تسلم إلى زعماء القبائل . وتعد هذه الوثائق بمثابة بيان عن قبولهم لشروط ضريبة

السيغورو، ما أن يتم التوقيع عليها ، تعد القبيلة معترفة بالسيادة الأسبانية عليها ، والتالي فإنها تكون ملزمة بدفع الضرائب[16].

وكان دييغو سواريس خلال السنوات الأخيرة من إقامته في وهران ، مكلفا بتحرير هذه الوثائق ، وكذلك الاتفاقيات السلمية مع السكان مقابل دفع الضرائب. وقد سمحت له هذه المهمة الإدارية بتفحص السجلات الخاصة بضريبة السيغورو وتوضيح هذا النظام المالي. وهذا ما مكن الاطلاع بطريقة غير مباشرة على هذه الضريبة التي تعد بمثابة أكبر مصدر مالي للأسبان في مدينة وهران [17] .

وقد حددت الإدارة العسكرية الأسبانية في وهران شروط تطبيق ضريبة السيغورو. التي كان يجب على القبائل القاطنة حول وهران والمرسى الكبير تنفيذها بالحرف الواحد، وأن أي خلل في تنفيذها يعد صاحبها عاصيا وبالتالي عدوا للأسبان وهران ، وهي كما يلي :

1 ـ على شيوخ أو زعماء الدواوير التصريح ، وتسجيل عدد المحاريث التي يملكها كل شخص ، وطبيعة ممتلكاته ، وهذا من أجل تحديد كمية القمح والشعير المخصصة لضريبة السيغورو. كما أن هذه الطريقة تعد وسيلة لمعرفة العدد الصحيح للسكان في كل دوار .

2 ـ يمنع منعا باتا على العرب المسالمة الموافقة على ضيافة ، أو استقبال أحدا من العرب المعادية في مقر إقامتهم ، وهذا ينطبق على أي شخص ينتمي إلى القبائل المعادية للأسبان ولو لليلة واحدة .

3 ـ يمنع على العرب المسالمة إبرام أية علاقة ، أو إجراء أي اتصال مع العرب المعادية ، أو الانضمام إليهم .

4 ـ ممنوع على العرب المسالمة أن يزودوا العرب المعادية بأية معلومات أو أخبار تتعلق بالأسبان ، أو كل ما يتعلق بوهران .

5 ـ إن التطبيق الصارم للتعليمات والأوامر المفروضة من طرف السلطات العسكرية الأسبانية لها علاقة بتنقلات عرب السلام ، وهي بمثابة وسيلة لمراقبة تحركاتهم من أبراج المراقبة وأعالي الأسوار ، حتى لا يتم اختلاطهم بالعرب المعادية . وعلى العرب المسالمة أن يلتزموا عند وصولهم إلى وهران بالتعليمات التالية :

ـ السير فقط في الطرق المحددة وليس عبر الحقول.

ـ لا يعبرون الحقول ، ولا يطلقوا صيحات الحرب ، أو إثارة الجنود واستفزازهم كما تفعل العرب المعادية . وإلى جانب هذه الشروط ذكر دييغو سواريز، أن هناك شروطا أخرى موجودة في وثائق الضريبة المذكورة [18].

إن شروط دفع هذه الضريبة التي حددها حكام وهران ، قد قلصت من حرية تحرك القبائل الموالية ، وذلك بوضعهم تحت الرقابة باستمرار ، وهذا ما جعلهم يكونون عرضة للاستغلال من قبل الإدارة العسكرية الأسبانية [19]. وهذا ما جعل القبائل الوهرانية الملزمة بدفع هذه الضريبة لا تطبق تلك التعليمات إلا نادرا ، مما جعلها عرضة في كثير من الأحيان إلى الغارات العنيفة، والتجاوزات التي يقوم بها الجنود الأسبان .

وكان الأسبان يودون من تحصيل هذه الضريبة تحقيق غايتين :

ـ **الأولى سياسية :** وذلك بكسب سكان منطقة الغرب الجزائري والإبقاء عليهم تحت السلطة الأسبانية ، حتى يتسنى لهم الاستقرار في موقعهم دون خطر.

ـ **الثانية اقتصادية** : وذلك بكسب العديد من القبائل لصالح الأسبان واستمالة الكثير منهم، بدل إعلان ولائهم للسلطة القائمة في الجزائر ، التي كانت تفرض على القبائل ضريبة الغرامة . إذ كان نفوذها يمتد إلى غاية أبواب وهران .

وبهذه الصورة يمكن أن نقول أن القبائل الحليفة أو المجبرة على التحالف مع الأسبان بالقوة قد ساهمت في إرساء النظام المالي والاقتصادي لوهران ، لدرجة أنهم كانوا يزودون هذه القاعدة بعدد من البضائع مثل الحبوب واللحم والخشب ومنتجات أخرى كانت الحامية الأسبانية في حاجة إليها . فقد كان كبار القادة يحصلون على أكبر قدر من حاجاتهم الضرورية من العرب المعادية ، أو المحاربة . عن طريق الغزوات وتحويل من يقع تحت أيديهم من السكان إلى عبيد . فخلال كل صيف ، بعد الانتهاء من حملة الحصاد، كانت القبائل الموالية تذهب إلى وهران تحمل إلى الأسبان ضريبة السيغورو وذلك في شهر أوت من كل سنة[20] .

ـ ضريبة الرومية :

إلى جانب الضريبة السابقة كان العرب القاطنون حوالي وهران الخاضعون للأسبان يدفعونها إلى السلطة الأسبانية في وهران كل سنة ضريبة يدعونها الرومية، والمقصود بها الضريبة التي تدفع للرومي ، أي إلى المسيحي غير المسلم . فكان كل دوار يدفع ضريبة من القمح تبلغ قيمتها 2 دوبلا عن الخيمة الواحدة ، وذلك حتى يكونوا في مأمن لدى القائد الحاكم العام لوهران . وكانت ضريبة الرومية التي دفعها العرب قبل تحرير وهران الأول في سنة 1708 ، تساوي واحد دوبلا لكل 28 برشالا (Berchalas) [21]. أي ما يعادل 112 مدا عربيا ، ما يمثل 13 فنقا قشتاليا . أو 8 هكتولتر بالتقريب للخيمة الواحدة. وما يجدر ملاحظته أن كمية الضريبة لم تكن ثابتة، بل كانت مرتبطة بنتيجة

المحصول ، فعندما لم تتحقق الكمية المحددة بالمد ، فإن قيمتها تحدد من قبل الحاكم العام. كما يختلف حجم الدوبلا حسب أهمية الدوار ، فعدد الأمداد التي تشملها هذه الدوبلا ، يحدد بواسطة اتفاقات خاصة بين رجال السلطة ورجال الدوار [22] .

ومن أجل إعداد هذه الضريبة (الرومية) ، كان يتم في وهران في شهر جوان من كل سنة تنظيم تجمع في قصر الحاكم العام ، يجمع كل الشيوخ ورؤساء العشائر وكثير من الفرسان والفلاحين ، وذلك من أجل تحديد مجموع قيمة ضريبة الرومية بعملة الدوبلا الخاصة بالسنة الموالية. وكان يقدم لهم في هذا الجمع مأدبة إفطار تحتوي على السمك والفواكه الجافة وغيرها [23]. وكان هؤلاء الشيوخ يقدمون في هذا الاجتماع مقدار الضريبة لأمين الخزينة الملكي ، وفي مقابل هذه الخدمة كان الشيوخ يتحصلون على المكافأة ، ثمانية ريالات ، لكل دوبلا من القمح المدفوع من طرف الدواوير [24]. وجاء في تقارير أخرى أنهم كانوا يتحصلون على سندات من قبل صاحب الجلالة تبين الحصص التي استفادوها مثل 100 ، 80 ، أو 60 دورو.

أما بالنسبة للعرب المعادية، والذين كان الأسبان يدعونهم بمصطلح (Moros de guerra) ، ويعدون الأعداء الرئيسيين للأسبان . ولهذا فإنهم رفضوا الرضوخ لشروط الأسبان وقبول التحالف معهم ، وبالتالي عدم الالتزام بدفع ضريبة السيغورو، أو أية ضريبة أخرى ، تعني الاعتراف بالسيادة الأسبانية [25]. ولذا فإنها تكون معرضة للغزو، ويكون أفرادها عرضة لخطر الاختطاف والاستعباد والسطو على ممتلكاتهم وماشيتهم . لذا تعرضت عدة مناطق حول وهران إلى الغزو، وصل مداها في بعض الأحيان إلى أكثر من 100 كلم عن مدينة وهران [26].

ففي الفترة ما بين (1568- 1571) شن الأسبان إحدى عشر غارة ، وذلك حسب دييغو سواريز. وقد اضطرت بعض القبائل التي كانت تمتهن الزراعة وتربية المواشي ، إلى دفع الضريبة للأسبان ، بدل ترك أراضيهم [27] . وقد استولى الجنود الأسبان خلال هذه الغزوات المذكورة فقط ، على 5000 بقرة ، و 10000 رأس غنم، و 3500 من المعز ، و 1135 حصان ، و 700 جمل [28] . واستحوذ الجنود الأسبان ـ إلى جانب ذلك ـ على كميات النقود الذهبية والفضية ، والألبسة والأسلحة وغيرها من الأمتعة[29].

لقد تمكن الأسبان من تحصيل كميات كبيرة من الحبوب ، حسبما تدل عليه إجراءاتهم في التعامل مع تلك الكميات من أجل تخزينها ، أو توجيه نصيب منها

إلى البلد الأم أسبانيا . فمن أجل تخزين وحفظ كميات الكبيرة من الحبوب التي تجمعت لديهم من جراء تحصيل هذه الضرائب ، قام الأسبان بتشييد مخازن كبيرة ؛ فبين نهاية شهر أوت ونهاية شهر سبتمبر من كل سنة ، كانت المدينة تتلقى عشرات القوافل المحملة بالقمح . ذكر سواريز بأن الحاكم Maestre de Montesa قد أمر بتشييد مخازن خاصة للقمح ، إثنان منهما في وهران ، وثالث لم يحدد مكانه .

وقام الأسبان في وهران إلى جانب التخزين ؛ بتوجيه المنتوج الزائد إلى بلادهم فبعدما مكنت الضرائب المتحصل عليها من الحبوب ، تغطية حاجات منطقة وهران والمرسى الكبير ، وتلبية متطلبات القوات العسكرية والشعبية للمدينة . كان يوجه الباقي نحو ميناء مالقة وقرطاجنة وغيرها ، حيث كانت أسبانيا في حاجة إلى القمح بعد ما تم طرد المسلمين الأندلسيين ، حتى أصبحت تفتقر إلى اليد العاملة في القطاع الزراعي . وهذا ما جعل حكام المستعمرات الأسبانية في الخارج يطلقون عليها اسم "بريزيديوس"(Presidios) يقومون بتحصيل أكبر قدر ممكن من الموارد ، وإرسال الفائض منها نحو وطنهم الذي كان يعيش في ظروف صعبة [30].

3 ـ عواقب تعامل السكان مع الأسبان :

تعرض السكان الموالية من جراء هذا التعامل إلى كثير من الأخطار والمضايقات نذكر منها أعمال الغزو . فإن الحال ليس دائما على منوال الوئام مع الأسبان ، إذ كان هؤلاء في كثير من الأحيان ما يخترقون قوانينهم الخاصة والتزاماتهم تجاه القبائل الحليفة لهم ، فيشنون عليهم الغارات ويغزون المواقع التي كانوا يقيمون فيها ، ويستولون على الكثير من أفرادها ويحولونهم إلى عبيد[31] .

كما تعرضت القبائل للفقر من جراء دفعهم للضرائب ،فكانت تحط بوهران أغلب محاصيل القمح والشعير الذي كان ينتج في المنطقة . وكثيرا ما تجد القبائل نفسها بعد الحصاد مفلسة تماما من جراء الالتزام بالشروط . فخلال كل فترة الاحتلال الأسباني لوهران والمرسى الكبير ، فإن سكان المنطقة كانوا تحت طائلة هذا النظام من الاستغلال والنهب . وهكذا فإن تفقير السكان خلال الفترة يبين مدى أشكال الاستغلال وطرق النهب التي فرضتها الإدارة العسكرية الأسبانية ، التي تجاوزت الاستغلال الاقتصادي ، إلى إخضاع بعضهم عن طريق الأسر ، وفرض الأعمال الشاقة ، والتحويل إلى عبيد دون تمييز في السن أو الجنس . ومضاعفة الضرائب ، والقيام بعمليات الغزو [32].

وحرصا على إبقاء القبائل العربية مشتتة ، عمل الأسبان على إثارة نار الفتنة بين الكثير من القبائل ، فلم يكتفوا بالسلوك المضر للقبائل الموالية ، بل أنهم كانوا يعملون على تأجيج سبل الخلاف وإثارة الفتن والإيقاع بين المجموعتين من القبائل الموالية لهم والمعادية ، ويلعبون هم دور المتفرج . كما أنهم سعوا إلى دفع القبائل في المنطقة الغربية من البلاد ، إلى معارضة السلطة الجزائرية التي تلزمهم بدفع ضريبة الغرامة .

وكان الشيوخ المكلفين بجمع الضرائب ، وإيصالها إلى الأسبان مقابل تأمين أنفسهم ولقراهم من أذى الأسبان ، عليهم أن يقدموا لهم الرهائن المتفق عليها ، وهي تشمل عادة بعض أولاد الشيخ أو من ذوي قرابته ، حيث يستقرون بمدينة وهران على حساب الخزينة الأسبانية .

ولم يسلم حتى التجار العرب الذين كانوا يقومون بنقل الحبوب إلى وهران من الإهانة من قبل الأسبان . فكان هؤلاء السكان يـأتون بالزرع الذي يطلبه قائد وهران والمرسى الكبير ، وعندما يصلون إلى وهران يعاملون معاملة سيئة للغاية ، فيدعون أن القمح غير جيد ، ويطلبون منهم إرجاعه لأنه غير صاف ، مما يؤدي بهم إلى المكوث مدة بالمدينة وتقديم الرشاوي للقادة أو الموظفين المقربين لقائد وهران ، لكي يقبل منهم القمح ، وألا يعودوا به ، وإن عادوا بدون تقديم ما يطلب منهم ، تقوم القوات الأسبانية بالإغارة عليهم ، فيأسرون الأطفال والنساء ويحرقون المزارع وينهبون مخازن الحبوب ويأخذون قطع الماشية [33].

هوامش الفصل الثالث :

(1)Veronne : Oran et Tlemcen… , Op.cit., p.11.
(2) Ibid.,p.11.

(3)Veronne: Op.cit., p.17.
(4) Cazenave :Organisation militaire d'Oran pendant l'occupation espagnole (1509-1791) , L' armée d' Afrique, 1928, N° 41,p.327.
(5) بلدة تقع على الساحل على بعد 20 كلم شرق مدينة وهران.
(6) Camille Kehl : Oran et l'Oranie avant l'occupation Française , extrait de B.S.G.O., Oran ,1942, t.63, p.32.
(7)Veronne : Oran et Tlemcen… ,p.16.
(8)وهو عبارة عن نسيج من القطن مصنوع في مصر خاصة.
(9) Ibid., p.20.
(10)Veronne : Oran et Tlemcen… ,p.17.
(11) Ibid.: p.17.
(12)Vallejo:Contribution à l'histoire du vieil Oran, B.S.G.O., 1926, p.231 .
(13) Primaudaie : Documents …, R.A 1875, N.19, pp.73-75.
(14) وهي عبارة تعني في اللغة الأسبانية المؤمن (بفتح الواو وفتح الميم مع الشدة) ، ومنها عبارة (seguridad)و ومعناها أمن .
(15)Malki Noredine : Razzia, butin et esclavage dans l'Oranie du XVI ème siècle , D'après le manuscrit de Diego Suarez, Edition Dar el ghaeb, Oran, 2003, p.153.
(16) Ibid., p.154.
(17) Malki: Op.cit., p.155.
(18) Ibid.: pp.158-159.
(19) Ibid.:p.156.
(20) Malki: op.cit., p.156.
(21) واحد برشالا يساوي أربعة أمداد .
(22) A.Berbrugger : Reprise d'Oran , Op.cit., p.18.
(23)Berbrugger : Reprise d'Oran.., Op.cit.,p.19.
(24) Fey : Op.cit., p.225-226.
(25) Malki: Op.cit., p.154.
(26) وهذا يتعلق بالحملة على منطقة الطرارة(Traras) ، الواقعة غرب وهران قرب مصب وادي رشقون.
(27) Malki : Op.cit., p.179-180.
(28) Ibid., p.192.
(29) Ibid.: p.195.
(30) Malki : Op.cit., p.157.
(31) N.Malki:Le soldat espagnol et les razzias effectuées en Oranie durant la domination espagnole, B.S.G. A. O., 1977-1978.p.113.

(32) في الفصل الموالي تفاصيل أعمال الأسر والعبيد من الجزائريين الذين كانوا لدى الأسبان.
(33) حساني : مصدر سابق ، صص.17-18.

الفصل الرابع

تداول العملة الأسبانية في الجزائر

في نهاية هذا الفصل نتطرق إلى أهم وسيلة اقتصادية وهي العملة التي كانت متداولة في الجزائر . فقد استدعى النظام الاقتصادي الذي كان سائدا في الجزائر خلال الفترة المدروسة وجود عملات أجنبية مختلفة وخاصة الأسبانية ، إلى جانب العملات المحلية . وكانت هذه العملات قد دخلت إلى البلاد عبر طرق مختلفة . إلى جانب ذلك فإن الأسبان قد تولوا ضرب بعضها في وهران بناء على ظروف معينة مروا بها في المنطقة سنوضحها في حينها . وفي آخر هذا المحور سنتطرق إلى أثر العملات الأسبانية على العملات المحلية سواء من حيث التسمية أو من حيث القيمة .

لقد ذكر "هايدو" أن هناك عملات مختلفة من المناطق الأوربية والإسلامية كانت متداولة في الجزائر وذلك في قوله : ((توجد بالجزائر عملات مثلما توجد لغات البلدان المسيحية .فالأوقة الإيطالية والأوقة الأسبانية على الخصوص ، لها كلها رواج في الجزائر مثل مثقال فاس ، وسلطاني تركيا . إن العملة الأجنبية التي يستقبلها الجزائريون بشغف ، ويحصلون منها على فائدة كبيرة هي عملة أسبانيا ذات الأربع أو ثماني ريالات، فإن مالكها متأكد من جنيه للربح . إن الحديث الذي المتداول في بلاد البربرعن سلعة ثمينة ذات قيمة كبيرة هي الريالات الأسبانية))[1] .

وكان لا يضر أن تجمع وثيقة واحدة في التعامل المالي بين عدة أنواع من العملات المحلية والإسلامية والأجنبية منها الأسبانية ، فقد ورد في بيان حسابات عدة عملات وهي سكة طرابلس ، ومصر ، وإسلامبول ، ودورو أسبانيا ، وريال الجزائر[2].

ومن ذلك ندرك أن الجزائر عرفت تنوعا في مصادر العملات ، سواء الأوربية منها أو الإسلامية ، ويذهب الدكتور ناصر الدين سعيدوني في دراسته للنظام المالي في الجزائر خلال العهد العثماني ، متحدثا عن العملات الأجنبية في الجزائر بقوله : ((الملاحظ أن هذه العملات الأجنبية قد امتازت بتنوع أصنافها وتعدد مصادرها حتى يبدو للباحث أن كل العملات المعروفة آنذاك كانت مستعملة في الجزائر))[3] .

ويمكننا أن نضيف أن من أهم العملات الأجنبية وخاصة الأوربية ، التي حظيت بمكانة خاصة وتداول واسع في الأسواق الجزائرية النقود الأسبانية . ولم يكن انتشار العملة الأسبانية مقتصرا في الجزائر أو في بلاد المغرب الأخرى ، بل توسع تداولها في مناطق أخرى من العالم ، بسبب استفادة شبه الجزيرة الأيبيرية من معادن قارة أمريكا الثمينة ، والتي تدفقت خلال قرنين ونصف ،

ابتداء من مطلع القرن السادس عشر. ففي سنة 1594 قدرت صادرات المستعمرات الأسبانية في أمريكا إلى أسبانيا من الذهب والفضة بنحو 95.62% من مجموع الصادرات ، بينما كانت الصادرات الأخرى من المنتجات الزراعية والحيوانية لا تصل إلى 5% [4] . وهذا ما أدى إلى صك النقود من المعدنين النفيسين ، وكان الإقبال شديدا في الجزائر.

1 - أهم العملات الأسبانية المتداولة في الجزائر :

أهم العملات الأسبانية التي كانت تستعمل في الجزائر خلال هذه الفترة هي :

1 - الضبلون ، (Doublon) وهو عبارة عن دينار مصنوع من الذهب .

2 - الدوكة(Ducat) ، وهي عملة مصنوعة من الذهب، تعادل قيمتها الدينار الذهبي .

3 - الكرونة (Corona) وهي عملة مصنوعة من الفضة الخالصة ، كان لها رواج واسع في كافة بلدان البحر المتوسط ، فقد ورد ذكرها في كثير من العقود والرسوم في أوائل القترة العثمانية .

4 - الدورو الأسباني (Douro) وهي عملة مصنوعة من الفضة أصبحت قيمتها أقل من المحبوب الذهبي.

5 - الدرهم الريال الأسباني (Rial) و هي عملة انتشر استعمالها منذ بداية القرن السادس عشر ، وكان يتم سكها في عدة مدن أوربية ، مثل جنوة ومرسيليا وبيزة ومنبيليي ، وقد اشتهر اليهود بنقلها وبيعها في مدن الضفة الجنوبية للبحر المتوسط كبجاية ووهران وتونس [5].

6 - القرش المكسيكي ، الذي كان محبوبا لدى الناس، يطلقون عليه قرش بومدفع . ظل يمثل القرش المفضل إلى أن غيرت أسبانيا صك قروشها في مطلع القرن 18، حينئذ واجهت الصعوبات قرش بومدفع في قبوله لدى سكان الجزائر. وقد حاولت الشركات الأوربية استرجاع ثقة السكان في قبول تلك العملة الأسبانية الجديدة مدة من الزمن ، وهي فترة زاد فيها شك الناس في قيمة النقود الأجنبية وكثرت فيها النقود المزيفة في القيمة والوزن ، والذين كانوا يقومون بتزوير النقود يوجدون في الداخل والخارج . فالمزورون الأجانب كانوا في أسبانيا وإيطاليا وفرنسا. أما في الجزائر فأهم منطقة اشتهرت بتزوير النقود في العهد العثماني هي منطقة جبال جرجرة ، كانت بها قبيلتان اشتهرتا بصناعة النقود المزيفة هي قبيلة آيت الاربعاء وقبيلة علي خروبة [6] .

7 - الدولار : ذكر بنانتي (Pananti) خلال إقامته في مدينة الجزائر، أن الدولار الأسباني يعد أكثر العملات تداولا في مدينة الجزائر ، لما كان لها من

قيمة عالية. وأضاف أنه قابل العديد من الصرافين في كل أنحاء المدينة ، وكانوا يأخذون الدولار لا غير[7] .

8 - وهناك عملات أخرى ، مثل الأسبر(Aspre)، والبستول، والكاتربيل.

9 - إلى جانب العملات الذكورة سابقا ، فقد ضرب الأسبان في وهران عملة ، وذلك ابتداء من سنة 1568 . عندما تعرضت هذه المستعمرة الأسبانية إلى أزمة مالية خانقة من العجز الذي شهدته الخزينة ، والتي لم تتمكن من تغطية دفع نفقات حاجاتها من المؤن ومختلف البضائع التي تحتاجها . وخلال هذه الفترة العصيبة لم تقدر أسبانيا على تقديم العون ، وتسديد التكاليف المترتبة عن صيانة مركزي وهران والمرسى الكبير، كما أنها عجزت عن دفع رواتب الجنود الأسبان . وقد نجم عن هذا النقص المالي في وهران قيام ثورة الأندلسيين في الجنوب الأسباني ، حيث زعزعت هذه الحركة كل أسبانيا في نهاية سنة 1568 . وقد تطلب القضاء عليها نفقات مالية كبيرة ، أصبحت الخزينة الملكية غير قادرة على إرسال الأموال إلى وهران[8] .

ومن أجل تجاوز هذه الضائقة المالية لجأ الحاكم العام لوهران إلى ضرب ثلاث قطع نقدية لعملة الريال مصنوعة من رقائق معدنية خفيفة ، تعادل قيمتها(Real sencillo, Realde a dos, Real a cuatro) . وقد تم طرح هذه القطع غير الحقيقية للتداول في وهران قبل نهاية السنة المذكورة ، من أجل مواجهة النقص الحاصل في مختلف المستحقات ، وخاصة دفع أجور الجنود المتأخرة ، الذين أصبحوا مثقلين بالديون ومعرضين للمجاعة .

لقد رفض سكان وهران في بداية الأمر هذه القطع التي ليست لها أية قيمة نقدية. ومن أجل أن تكون هذه العملة مقبولة لدى الناس ، فإن الحاكم العام فرض تداولها بواسطة إصداره لقرارات صارمة ، حيث فرض على السكان والتجار والجنود الاعتراف بها . وذلك بواسطة نزول رجاله عبر الشوارع وهم ينادون على أنغام البوق والطبول ، ويدعون السكان إلى احترام هذه العملة ، واستعمالها تحت طائلة التهديد وبتسليط العقوبات القاسية[9] .

لقد سمحت هذه العملة المزورة للأسبان في وهران بعض الوقت ، من مواصلة نشاطهم التجاري وتسديد ديونهم وتلقي رواتبهم بطريقة ما . وعند نزوله بوهران سنة 1577، ذكر "سواريز" ، بأنه شاهد عند المخلص (Pagador) كميات كبيرة من هذه العملة الوهرانية ، كانت محفوظة في صناديق ، لكنها من غير أية قيمة رسمية [10]. وعثر على العديد من القطع النقدية [11] المتداولة في القرنين 16، 17، في بلدة بوسفر من طرف م. فويوم (M.Vuillaume ، كما

عثر أشخاص آخرون على نفس العملة في عين الترك وذكر التقرير أنها ضربت في وهران سنة 1691، في عهد الملك شارل الثاني[12] .

وفي سنة 1691 ضرب الأسبان أيضا في وهران نوعين من العملات من معدن النحاس ، في عهد حاكم وهران "الدوق دي كانثانو"(Duc de Canzano) إحداهما مرسوم على قفاها أسلحة قشتالة وليون ، يعلوها التاج الملكي ، ومكتوب عليها اسم وهران ، أما العملة الثانية فينقصها فقط رسم التاج الملكي [13] ، باستثناء النقود المضروبة في وهران [14].

قد يتساءل المرء عن كيفية دخول العملات السابقة إلى الجزائر، وفيما يلي توضيح لذلك .

2 . طرق دخول العملات الأسبانية إلى الجزائر:

دخلت العملات الأسبانية عبر طرق مختلفة من أهمها :

1 ـ تعامل الجزائر مع الشركات التجارية الأوربية ، وعلى رأسها الشركة الملكية الإفريقية التي أدخلت أنواعا مختلفة من النقود خاصة القرش المكسيكي (Piastre) ، والتجار الأوربيين في إطار العلاقات التجارية الخارجية ، مما فتح لهم الحصول على امتيازات . وقام "سانسون نابولو" (Sanson Napollon)عند وصوله إلى مدينة الجزائر بإدخال عشرات الآلاف من قطع الثمانية ريالات على أصحاب المقام [15] .

إلى جانب هذه الشركة ، كانت هناك المؤسسات تجارية أجنبية أخرى تدفع الإتاوات من العملات الأسبانية . وكذلك من جراء العمليات التجارية التي يقوم بها وكلاء الإيالة داخل البلاد أو خارجها [16] .

2 ـ نظام الإتاوات والهدايا التي كانت تفرضها الجزائر على الدول المسيحية ، مقابل السماح لسفنها الإبحار في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، والتجارة مع الجزائر وحماية سفنها من أي عدوان قد تتعرض له في البحر. فكانت تلك الضرائب في كثير من الأحيان من العملات الأسبانية . وفيما يخص أسبانيا ، فإنها كانت تدفع ما قيمته 180000 فرنك بعد إبرامها الهدنة مع الجزائر سنة 1785 وانسحابها من وهران . وكلما حاولت إحدى الدول أن تتمرد، قام الرياس بتأديبها . ولا يبرم الصلح بعد ذلك ، إلا عندما تدفع غرامة تحددها لها الإيالة ، مثل ما وقع للبرتغال سنة 1810 حيث قدمت 698337 دولار أسباني .

وفي سنة 1812 أبرمت البرتغال صلحا آخر مع الجزائر بعد تدخل السيد كور الوزير البريطاني في الجزائر ، مقابل نصف مليون من الدولارات ، وضريبة سنوية قدرها 24 ألف دولار أسباني بقطع النظر عن الهدايا [17].

وقبل ذلك بسنوات وقع صدام الجزائر حتى مع الولايات المتحدة ، ففي سنة 1793 دخل الأسطول الجزائري إلى المحيط الأطلسي ، وألقى القبض على أحد عشر مركبا أمريكيا ، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الأثناء عاجزة عن شن حرب ضد الإيالة فكلفت العقيد هامفري Humphrey وزيرها في لشبونة بالتفاوض مع الجزائر . وقد تم ذلك سنة 1795 عندما تعهدت أمريكا بدفع 721 ألف دولار أسباني مقابل أن يساعدها داي الجزائر على إبرام الصلح مع الإيالات العثمانية[18] . كما أنها وافقت على دفع أتاوة سنوية قدرها 22 ألف دولار تضاعف قيمتها كلما اتسع نشاط التجارة الأمريكية [19] . زيادة على الضريبة السنوية ، كانت الجزائر تفرض على كل قنصل جديد إتاوة قدرها سبعة عشر ألف دولار أسباني . وبما أن الدول الأوربية لا تغير قناصلها إلا نادرا ، اشترط الدايات أن يكون ذلك في شكل هدية تقدم كل سنتين سواء جدد القنصل أم لم يجدد [20].

3 ـ عوائد الفدية التي كان يدفعها مبعوثو وقناصل الدول الأوربية وبعثات الهيئات الدينية المسيحية ، مقابل إطلاق سراح الأسرى ، الذين كانوا يقعون في الأسر خلال النشاط البحري الذي كان يقوم به البحارة الجزائريون . فقد ذكر أن عددهم قدر طيلة القرن السابع عشر واحد مليون ومائة ألف أسير. وخلال الصلح المبرم بين البلدين سنة 1785، دفع الأسبان مقابل كل أسير ألف دورو [21]. ويضيف أحمد الشريف الزهار في مذكراته ((...أن عدد الأسرى كان مهولا ، وكان السماسرة ينادون على الأسارى ، وقيمة كل أسير مايتا دورو ، فكان الناس يملكونهم مدة ما أقاموا أسارى ، فإذا أتى الفداء يفتدونهم بألف دورو لكل رأس))[22] .

وفي سنة 1818 بعثت بريطانيا وفدا دبلوماسيا إلى الجزائر ، وتمكنت تلك البعثة من شراء حرية امرأتين انكليزيتين كانتا محتجزتين في الجزائر مقابل عشرة آلاف دولار أسباني [23] . كما دفعت ثلاثين ألف دولار عن أحد المراكب الانكليزية التي احتجزها الجزائريون في العام نفسه [24] .

4 ـ طرد الأندلسيين المسلمين واليهود من أسبانيا ، ولجوئهم للاستقرار في المدن الساحلية الجزائرية ، ثم انتشارهم في بعض المدن الداخلية . وهم يحملون معهم نقودهم ، مما ساهم في تزايد حجم العملة الأسبانية في الجزائر .

5 ـ علاقة أسبانيا مع الجزائر منذ بداية العصور الحديثة ، التي تميزت باحتلالها لكثير من المدن الساحلية الجزائرية ، واستمرار وجودها في مديني وهران والمرسى الكبير حتى سنة 1792، فمن خلال هذين المركزين الأخيرين على الخصوص ، كانت العملات الأسبانية تنقل إلى السكان عبر بعض العلاقات التجارية التي تتم معهم . وكانت اتفاقية 1785 التي أبرمت بين البلدين ، قد زادت في رواج النقود الأسبانية في الأسواق الجزائرية ، فقد ذكر الزهار : << سمعت ممن حضر ساعة نزول المال قال: رأيت بمرسى الفلايك ساعة نزول صناديق المال ، كانوا يضعون الواحد منها فوق الأخر على مسافة كبيرة حتى امتلأت الرحبة التي هناك ، وصارت الصناديق فوق بعضها بعضا متساوية مع سطوح المخازن على مرتين أو ثلاث مرات . وأهل القيروان نحو أربعمائة أسير خلاف البساكرة الحمالين كانوا يحملون ذلك مدة ثلاثة أيام من الصبح إلى الليل . وقد تعمرت بذلك المال الخزانة الأولى والثانية ، ووضعوا منه في الثالثة ...وتكاتبوا على الصلح ...ووضعت الحرب أوزارها >> (25).

وخلال تعرض مدينة وهران للحصار من قبل الجزائريين سنة 1708 ، تلقى "الدون خوان مانويل كواترالبو" (Don Juan Manuel Quatralbo) أمرا من سلطات بلاده الإقلاع من قرطاجنة على رأس سفينتين (Galère) من أجل إمداد وهران بـ 40 ألف دورو ، وأسلحة ومؤن (26).

وكانت العملات الأسبانية إلى جانب ذلك تدخل إلى الجزائر عن طريق الرسوم الجمركية ، وكان قدرها على الواردات 5 % (27) .

3 . أثر العملات الأسبانية على العملات المحلية :

لقد أدى تداول العملة الأجنبية في الجزائر والأسبانية منها على الخصوص، إلى حدوث علاقات بينها وبين العملات المحلية ، وبعبارة اقتصادية أدق وجود أثر للعملات الأسبانية على العملات المحلية من حيث الاسم أو من حيث القيمة ، وهذا نتيجة لأي اتصال يقع بين الشعوب والدول ، وخاصة إذا كانت قريبة من بعضها البعض . وهكذا يمكن تحديد أثر العملة الأسبانية على العملات المحلية في أمرين أساسين هما: أن بعض العملات التي ضربت في الجزائر قد اشتقت اسمها من أسماء بعض العمل الأجنبية وخاصة الأسبانية منها، أما الأثر الثاني ويتمثل في قيم العملات المحلية وعلاقتها بالعملات الأجنبية وخاصة الأسبانية .

ـ تسمية بعض العملات المحلية بأسماء عملات أسبانية :

لقد حملت بعض العملات المحلية أسماء لها مشتقة من أسماء بعض العملات الأسبانية نذكر منها :

البياستر Piastre

الريال بوجو Riyal

الريال مجبور Riyal

قرش الجزائر Piastre

قرش صغير Piastre

أسبرشيك Aspre

دورو الجزائر، الذي يعرف كذلك بزوج بوجو. Dorru

وجاء في تقارير بعض الأوربيين الذين زاروا الجزائر آنذاك ذكر لبعض العملات المحلية التي تحمل أسماء عملات أسبانية . نذكر منهم كوندامين الذي زار الجزائر في سنة 1731 ، وذكر أن ((العملات الذهبية المتداولة في البلاد هي Sequins أو السلطاني، ومن هذه العملات القروش وأنصاف القروش الإشبيلية (Piastres et demi-piasres). وهناك نوع من القرش يدعى القرش الصغير أو القرش ، من أجل تمييزه عن القرش الإشبيلي . ينقسم القرش الصغير إلى ثلاث بدقة (Pataque) . القرش الصغير يساوي ثلاث بدقات)) [28]. كما ورد في تقرير القنصل الفرنسي في الجزائر ديبوا تانفيل (Dubois-Thainville)[29] ، الذي كتبه سنة 1809 ، ذكر أن الناس في الجزائر يحسبون بالريال وهي عملة نموذجية وقيمتها أكثر قليلا من الفرنك . وأضاف أن كل النقود الذهبية والفضية الأسبانية مطلوبة جدا في الجزائر ، كما قال أنه لا تسك أية عملة نحاسية في الجزائر[30] .

وفي الأصل أن عملة الريال هو الإسم الذي أعطي للقرش الإشبيلي Piastre المعروف بقرش الثمانية ريالات أصبحت هي العملة الأساسية المتداولة ليس في أسبانيا فحسب بل عالمية في نهاية القرن السادس عشر وخلال القرن 17. إن هذه القطعة النقدية ذات الثمانية ريالات (Real de a ocho) أصبحت هي العملة الرئيسة المتداولة في الجزائر طوال أكثر من قرن ، واستمرت بعد ذلك تلعب دورا أساسيا فيما بعد [31] .

. قيمة العملات المحلية مقابل العملات الأسبانية :

لقد تعرضت العملات المحلية لصعوبات جمة بفعل مزاحمة النقود الأجنبية التي كان الحكام يسمحون بالتعامل بها مثل النقود الأسبانية التي شاع استعمالها

إثر هجرة الأندلسيين واليهود إلى الجزائر ، وبفعل الوجود الأسباني بوهران والمرسى الكبير . وفيما يتعلق بقيمة العملات المحلية ، فيلاحظ أنها كانت متغيرة ومضطربة في الوزن وفي القيمة ، كما أنها كانت ضعيفة القيمة نسبيا. وذلك حسب الظروف الاقتصادية التي شهدتها البلاد ، وهذا ما كان يدفع بالحكام إلى الرفع من قيمتها أو خفضها. فمن أوائل التقارير المالية للجزائر تلك التي ذكرها هايدو ، فقد تحدث على أن عملة الزياني شهدت استقرارا بالمقارنة مع القرش الأسباني ، وذلك من دون شك وفرة الذهب بالمقارنة مع الفضة . وابتداء من سنة 1580 وحتى سنة 1620 ، شهدت العملة المحلية اضطرابات ، مما سمح بسيطرة عملة القرش الأسباني ، وهذا ما يوضحه الجدول التالي[32] .

الفترة	العملة	مقابل الدوبلا
ديسمبر 1595	واحد زياني	3.65 دوبلا
أكتوبر 1597	واحد زياني	5.00 //
فيفيري 1600	واحد زياني	6.36 //
أكتوبر 1599	واحد سلطاني	8.00 //
فيفيري 1600	واحد سلطاني	8.00 //
نوفمبر1617	واحد سلطاني	7.00 //

وفي حدود سنة 1630، أبدت الوثائق الرسمية أسعار وقيم ريالات الثمانية، مع العلم أن تداول هذه الريالات كان موجودا قبل هذا التاريخ . فقد تم تثبيت قيمها ما يساوي 4.64 دوبلا ، أو 232 قرش . وبقيت هذه القيمة دون تعديل على الأقل ما بين 1620 حتى 1685[33].

وليس من الممكن تحديد تاريخ محدد لدخول القروش الأسبانية إلى الجزائر وكمياتها، غير أنه يمكن التقدير بأنها قد استعملت في نطاق محدود خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر. من Gomez خلال سنة 1535، إلى سواريزSuarez الذي عاش في وهران من سنة 1577إلى 1604، مرورا بهايدو وهاكلويت (Hakluyt) وغيرهم من الأوربيين الذين تحدثوا عن تنامي تداول هذه العملة خاصة من جراء عمليات افتداء الأسرى من الجزائر . وفي هذا الإطار نسوق مثالا ، حيث قام التاجر الانكليزي F.Knight الذي كان أسيرا في الجزائر بين سنة 1631-1638 بسرد قصة هروبه مع أسرى أوربيين آخرين ،

وكانوا قد نقلوا معهم مجموعة قطع من ريالات الثمانية التي كانت ملكا لحراسهم [34]. فقد تم تحصيل الجزائر من خلال عمليات الافتداء في الفترة الممتدة مابين 1580-1620 على مبالغ معتبرة من بينها عملات أسبانية.

إن قطعة الثمانية كعملة دولية التي تم ضربها في أسبانيا أو في المكسيك بقيت تحافظ على مادة صنعها من الفضة منذ القرن 16 إلى القرن 19 ، دون أن يعتريها أي تغيير. فهذا الاستقرار الطويل لهذه العملة سمح لها باعتبارها كمعيار لحالة العملة الجزائرية ابتداء من العقد الثاني من القرن السابع عشر . وعند النظر إلى أنواع العملات الأكثر تداولا يمكننا الوقوف على الاستنتاجات التالية:

1 ـ في أوراق العقود والوثائق القضائية ، فإن عملة الدوبلا التي قيمتها 50 أسبر Aspres ظلت متداولة بشكل واسع في البداية ، ثم تراجع استعمالها شيئا فشيئا ، وفي النهاية ظهرت هيمنة ريال الثمانية ثم مختلف أنواع الريال .

2 ـ في سجلات البيالك والأوقاف وغيرها ، تم استعمال في النفقات القليلة القيمة عملة Aspres والصايمة çàyma (الإسم الثاني للدوبلا). ولكن بالنسبة للمبالغ الكبيرة كان يستعمل في العموم الريال.

3 ـ وفي بعض الحالات المتعلقة بالمبالغ الكبيرة أو في بعض العمليات ذات الطابع التجاري كان يستعمل السلطاني والزياني.

4 ـ إلى غاية سنة 1685 كانت القيمة بين الريال و Aspre ثابتة ، إذ كان الريال يساوي 4.64 دوبلا ، أو 232 أسبر . غير أن بعض التغير في القيمة قد حدث ، ولكن بشكل بسيط وصل إلى غاية واحد ريال مقابل خمسة دوبلا ، ولكن هذه العلاقة كانت قليلة[35].

ولم تكن للعملات الجزائرية في العموم قيمة ثابتة لأن الحكام كانوا يرفعون من قيمتها ويخفضونها حسب الظروف ، باستثناء عملة الزياني التي ذكر بشأنها هايدو أنها شهدت استقرارا بالمقارنة مع القرش الأسباني ، وذلك يعود من دون شك إلى وفرة الذهب بالمقارنة مع الفضة. وابتداء من سنة 1580 وحتى سنة 1620 شهدت العملات المحلية اضطرابات مما سمح لسيطرة القرش الأسباني [36]
.

وفي الجدول التالي يمكن أن يظهر جانب من العلاقة بين النقود الأسبانية والجزائرية من خلال مقارنة قيمة القرش الإشبيلي مع قيمة الدوبلا ، فإن بعض دلائل المصادر العثمانية تبين :

1 ـ أن عقد توثيق سنة 1643 حدد قيمة 400 ريال تساوي 1856 دوبلا ، معنى ذلك فإن 1 ريال يساوي 46،4 دوبلا.

2 - في سنة 1648، 9 ريالات تساوي 48 دوبلا.
3 - في سنة 1656 ، 12 ريال تساوي 56 دوبلا.
4 - في سنة 1662 ، 1724 ريال تساوي 8000 دوبلا.
5 - في سنة 1665، 2 ريال يساوي 9.28 دوبلا.
6 - في سنة 1670 ، ثمن ريال يساوي 29 أسبر
7 - في سنة 1672 ، 1 ريال يساوي 5 دوبلا.
8 - في سنة 1676 ، 1177 دوبلا يساوي 5450.

وبسبب العلاقة المستقرة بين القرش الأسباني والعملات الجزائرية ، فإن كل تعديلات الصرف بين هذه القروش والعملات الأجنبية الأخرى في مدينة الجزائر قد عكست نفس العرض في العلاقة بين هذه العملة مع العملات الجزائرية[37].

خاتمة الباب :

وما يمكن استخلاصه من هذا الباب نوجزه في النقاط التالية :

1 - إن إقدام الأسبان على النيل من الموانئ الجزائرية سواء بالاحتلال العسكري ، كما هو الشأن بالنسبة للمرسى الكبير ووهران ومدينة بجاية ، أو بواسطة فرض معاهدات الولاء كمدينة الجزائر ومستغانم ، أو عن طريقة الاحتلال والتدمير كما تعرضت له مدينة هنين على الخصوص . قد أدى إلى قطع الاتصال التجاري الخارجي الذي كانت تنعم به هذه المنافذ وغيرها مع السفن التجارية الأجنبية . وأدى إلى تزايد سفن الغزو البحري في البحر المتوسط مما أثر على النشاط التجاري فيه .

2 - كان لاحتلال المدن الساحلية لدولة بني زيان ، حدوث المزيد من التدهور في أوصال هذه الدولة الذي كانت تنخرها الانقسامات الداخلية . ومما زاد من عزلتها وإصابتها في صميم نشاطها التجاري الخارجي ؛ قضاء الأسبان على منفذها البحري الوحيد الذي بقي لها حتى سنة 1531م. فأدى ذلك حتما إلى نهاية عهد مدينة تلمسان باعتبارها مخزنا للسلع الآتية من سواحل البحر المتوسط ، وسلع ما وراء الصحراء التي كانت تنقل في اتجاه الشمال أو الجنوب عبر القوافل التجارية .

3 - ترتب عن الاحتلال الأسباني لمدينة وهران والمرسى الكبير لمدة تقارب ثلاثة قرون، تعرض سكان المناطق المجاورة للموقعين إلى استنزاف ثرواتهم من قبل الأسبان. فكان العرب الموالون لهم ملزمين بدفع الضرائب المتنوعة مقابل عدم التعرض إلى الغزو. أما القبائل المعادية التي رفضت الوقوع تحت نفوذهم وتعرضت لأعمال الغزو والنهب لثرواتها والأسر لأفرادها .

4 ـ ورغم العداء الذي كان بين أسبانيا والجزائر الذي استمر إلى غاية تحرير وهران النهائي سنة 1792 ؛ فإن العملات الأسبانية كانت متداولة في الجزائر ، بل كان الإقبال شديدا على القطع النقدية المصنوعة من المعدنين الثمينين من قبل التجار. وكان للعملات الأسبانية تأثيرات على العملات المحلية ، فمنها ما تسمى ببعض أسمائها ، ومنها ما تأثر بقيمتها .

هوامش الفصل الرابع:

(1) Haedo : Histoire générale , Op.cit., R.A., 1871, p.95.

(2) الأرشيف الوطني الجزائري : العلبة رقم: 12 ، الوثيقة رقم: 62.

(3) سعيدوني : النظام المالي ..، مرجع سابق ، ص.194.

(4) Jean Imbert : Histoire économique, des origines a 1789, P.U.F., Paris, 1965, pp.263-273.

(5)سعيدوني : النظام المالي...، مرجع سابق ، ص.197.

(6) حليمي: مرجع سابق ، صص.336-337.

(7) Pananti : relation dun séjour à Alger , Traduit de l'anglais, Le Normant, MDCCCXX(1820), Paris, pp.364-365.

(8) Malki:Razzia…, Op.cit., p. 223-224.

(9) Ibid.: p.225.

(10) Malki : Op.cit.,pp.223-226.

(11) وهي عملة مصنوعة من النحاس ليس لها قيمتها الحقيقية تعرف باللغة الأجنبية بمصطلح بيون (Billon)

(12) Monographie de la commune d'Ain –el turck, B.S.G.O. , 1915, T.35, p.68.

(13) Sandoval : Op.cit., R.A., N°16, 1872, p.62.

(14)للاطلاع عن مختلف أنواع العملة الأسبانية أنظر: Gaillard Joseph: Description des monnaies espagnoles et des monnaies étrangères qui ont cours en Espagne depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours, Madrid, 1852, pp.442-447.

(15) حليمي : مرجع سابق ، صص.336-337.

(16) محمد العربي الزبيري : التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792-1830، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984 ، ص. 70.

(17) نفسه ، ص.43.

(18) شالر: مصدر سابق ، ص.138.

(19) الزبيري : التجارة الخارجية ، ص.42.

(20) شالر : ص.156 .

(21) الزهار: مصدر سابق ، ص.34 .

(22) نفسه ، ص.27 .

(23) الدولار الأسباني يساوي خمس بدقات جزائرية ، أو ما يعادل حوالي 5,43 فرنكات فرنسية.

(24) الزبيري : التجارة الخارجية ... مرجع سابق ، ص.41 .

(25) الزهار: مصدر سابق ، ص.34 .

(26) Sandoval : Op.cit., R.A., 1872, T.16, p.67.

(27) الزبيري : التجارة الخارجية..، مرجع سابق ، ص.70.

(28) M. Emerit : Le voyage de la Condamine a Alger 1731, R.A., 1954, T.98, p.377.

(29) اسمه الكامل شارل فرانسوا ديبوا تانفيل (Charles-François Dubois-Thanville) تولى قنصلية بلاده في الجزائر ما بين سنة 1800–1814 ، ثم عاد إلى تولي هذا المنصب سنة 1815 ، ثم خلفه بيير دوفال آخر قنصل فرنسي في الجزائر ، الذي مكث في هذا المنصب إلى غاية حادثة المروحة سنة 1827. فتوترت العلاقات وأدت إلى غزو الجزائرسنة 1830.

(30) قنان : نصوص ووثائق ، صص.251 . 252. .

(31) Lemnouar Merouche : Recherches sur l'Algerie à l'époque ottoman , I. Monnaies prix et revnues 1520-1830, édition Bouchene,Paris, 2002, p.35.

(32) Ibid., p.34.

(33) Ibid., p.36.

(34) Ibid .,pp.36-37.

(35) Merouche : Op.cit., p.36.

(36) Haedo : Topographie …, Op.cit., R.A., 1871, p.96.

(37)Merouche: Op.cit., pp.37-38.

الــبــاب الــرابــع

الآثـار الاجـتمـاعـية للاحتلال الأسباني

مقدمة الباب :

الفصل الأول : تضرر السكان

الفصل الثاني : الخسائر البشرية من الجزائريين

الفصل الثالث : الأسرى الجزائريين لدى الأسبان وطرق افتدائهم

الفصل الرابع : علاقة السكان مع الأسبان

خاتمة الباب

الباب الرابـع

الآثار الاجتماعية

مقدمة الباب :

إن دراسة الآثار الاجتماعية للغزو الأسباني للجزائر تتطلب البحث فيما آل إليه أمر السكان فيها . ولتسليط الضوء على هذا الجانب فإنني سأتناول ذلك في أربعة محاور رئيسية رأيتها تتناسب مع هذا الموضوع وهي : تعرض السكان للأذى ، الخسائر البشرية في صفوف الجزائريين ، الأسرى الجزائريون لدى الأسبان وطرق افتدائهم ، وفي الأخير سأتعرض إلى علاقة بعض الفئات من السكان مع الأسبان .

فقد ترتب عن هذا العدوان ، الذي كان يستهدف السكان شأنه شأن أي عمل استعماري ؛ انتقال السكان من مناطق إقامتهم إلى مناطق أخرى ، فقد وجد بعض هؤلاء أنفسهم مجبرين على الهجرة إلى مناطق أخرى على أمل أن يكونوا فيها آمنين على أنفسهم ، ولكنهم مع ذلك قد يجدون أنفسهم في بعض الأحيان غير آمنين فيها ؛ إذ كان الجنود الأسبان يلاحقونهم أينما استقروا فيستولون على ممتلكاتهم ويأسرون منهم ما استطاعوا . وقد نجم عن أعمال الغزو خسائر بشرية من السكان المحليين سنوضحها في حينها .

إن أهم ما ترتب عن ذلك الغزو هو وقوع أسرى من الطرفين . وإذا كان موضوع الأسرى المسيحيين في الجزائر قد أشبعه الأوربيون بالدراسات وتقدير أعدادهم ؛ فإن موضوع الأسرى المسلمين في المعتقلات الأوربية عموما ، والأسرى الجزائريين على الخصوص في أسبانيا ؛ مازال يفتقر إلى البحث والدراسة من جميع الجوانب . لذا فإنني أعمل في هذه الفصل توضيح بعض الجوانب المتعلقة بهذا الموضوع ، ويبقى البحث متواصلا للكشف عن جميع حيثياته .

كما نجم عن ذلك الغزو ميل بعض القبائل إلى التحالف مع الأسبان في وهران وأصبحت بذلك تمثل شريحة من المجتمع الجزائري آنذاك الذي اتصف بهذه الصفة، وهي صفة الموالاة للعدو ، والوقوف في بعض الأحيان ضد إخوانهم من السكان المعادين للأسبان. وقد أصبح يطلق عليهم نعت المغطسين أو المغاطيس.

الفصل الأول

تضرر السكان

إن أهم ما ينجر عن أي اعتداء يتعرض له شعب من طرف شعب آخر، هو إلحاق الضرر بالطرف المعتدى عليه، وإن كانت تختلف صور ذلك الضرر متفاوتة في درجاته. وأهم ما أصاب السكان الذين تعرضت مناطقهم إلى العدوان الأسباني أنهم أصبحوا غير آمنين في مواقعهم ، وهذا ما جعلهم ينتقلون إلى مناطق أخرى آمنة ، كما تعرضت مملكاتهم إلى مختلف أعمال النهب والسطو والتدمير في بعض الأحيان ، وخاصة في المناطق التي ظلوا فيها مدة طويلة ، كما هو الحال في وهران المرسى الكبير.

1 . زحف السكان إلى المناطق الآمنة:

من بين آثار الاحتلال الأسباني لبعض المواقع في الجزائرية ، هو لجوء سكان المناطق المستهدفة من الأسبان إلى التنقل نحو المناطق الداخلية الآمنة . فإثر احتلال المرسى الكبير سنة 1505 ، اضطر سكانها إلى الاعتصام بالمناطق الجبلية المجاورة، فقاموا في البداية بإخلاء المدينة من النساء ، ثم تبعهم الرجال. أما البعض الآخر فقد اضطر إلى طلب الهدنة [1]، وعندما تم انسحاب المسلمين، دخل الأسبان المدينة ورفعوا فوقها أعلامهم [2]. غير أن ذلك السلوك لم يكن عن طواعية، إذ أنهم كانوا يقومون من حين لآخر بشن الهجمات عليهم ، وذلك من أجل منعهم من التوسع إلى المناطق المجاورة.

وقد كان الأسبان في كثير من الأحيان يتوسعون في المناطق الداخلية ، خاصة في الجهة الغربية من البلاد ، فغزوا حول المرسى الكبير مواطن قبيلة غمرة الممتدة بين الجبل والبحر الواقعة إلى الغرب من المرسى الكبير بوادي الملك سنة 1513 ، وتمكنوا من النيل منها ورجعوا ومعهم الغنائم .

أما سكان مدينة وهران فإنهم لما تعرضت مدينتهم للاحتلال سنة 1509 . خرجوا إلى المناطق المرتفعة المحاذية للجهات الساحلية الممتدة بين المرسى الكبير ووهران ، وذلك من أجل الدفاع عنها [3].

واضطر سكان بجاية بعد نجاح الأسبان في احتلالها سنة 1510 إلى التموقع في الأماكن الحساسة خاصة على سفوح مرتفع غورايا ، وذلك من أجل التصدي للغزاة. ولما أدرك سكانها عدم جدوى المقاومة اليائسة،لجأ أغلبهم إلى إخلاء المدينة من أجل تخليص أنفسهم ونسائهم وأطفالهم من الهلاك ، فتوجه بعضهم إلى الجبال المجاورة مثل منطقة آيت أوجبار ، وإلى بني وغليس ، وإلى قلعة بني عباس ، وآيت مسعود [4]، واتجه آخرون إلى جبال جيجل، بينما سار البعض الآخر نحو منطقة زواوة ، وهناك من ذهب إلى بني يعلا[5] .

كما اضطر سكان قلعة بني راشد الذين كانوا يناصرون إسحاق إلى تركها بعد نفاذ ما كان لديهم من المؤونة ، عندما تعرضت القلعة إلى الحصار من قبل الجيش الأسباني ، الذي كان في طريقه إلى تلمسان . وانتهت المواجهة بقتل إسحاق وجميع رفقائه وذلك في سنة 1518 [6].

وشهدت مدينة هنين حالة سيئة بعد تعرضها للاحتلال وتدمير هياكلها العمرانية وخاصة الميناء ، وقد صاحب هذه النكبة هجر السكان لها بشكل ملحوظ ، حيث غادرها الكثير منهم نحو الجهات الداخلية [7].

وشهدت سنة 1543 توغلا أسبانيا كبيرا قاده الكونت دالكوديت نحو المناطق الجنوبية الغربية لوهران ، وبالذات على تلمسان ، وغريس ، والكرت قرب مدينة معسكر. وعندما وصلت أنباء هزيمة جيش تلمسان تحت قيادة المنصور بن أبي غانم أمام قوات الكونت دالكوديت في ضواحي المدينة ، نقل الناس نساءهم وأطفالهم إلى الجبال المجاورة في ليلة 5 فيفري 1543 . وفي 21 من نفس الشهر أعلم أحد الأتباع العرب يدعى القائد إبراهي م دالكوديت عن مكان تجمع السكان الفارين من تلمسان في مكان يبعد عن المدينة بخمسة أميال ، ومعهم الكثير من الجمال . فتحرك القائد الأسباني ومعه ألف رجل للسطو على قافلة كبيرة تتشكل من 2000 رجل ، كانت تحمل القمح والشعير للسكان الفارين من تلمسان . وفي هذا الاعتداء قتل الأسبان 60 رجلا وأسروا 40 شخصا آخر، واستولوا على 350 جملا وعشرين حمارا[8].

وحسب "كويفا" الذي كان مرافقا لهذه الحملة ، أن الأسبان وجدوا مدينة تلمسان شبه مهجورة من السكان ، الذين أخذوا معهم أموالهم وممتلكاتهم النفيسة لدرجة أن الجنود لم يجدوا ما يستولون عليه فعلا. وذكر أن السكان لم يتركوا وراءهم سوى القمح والشعير والزيت والزبدة والدقيق والأقمشة [9] . وفي سنة 1544، امتد العدوان الأسباني إلى عين فارس الواقعة إلى الشرق من معسكر.

وفي سنة 1545 خرج الجنود الأسبان إلى الوادي الأدنى لوادي المقطع ، وفي موقع يدعى الخلوفية ، غزوا الزاوية التي كان يتولاها سيدي بلاهة . وقد استولى الأسبان في هذه العملية على غنائم كثيرة ، كما أسروا ثلاث بنات لشيخ الزاوية[10].

وعندما تعرضت مدينة وهران للغزو مرة ثانية سنة 1732 أصيب السكان بالفزع واضطروا إلى مغادرتها ، فهذا نائب القنصل الفرنسي في وهران دومينيك ديدو(Dominique Dedaux) أرسل مع مبعوث يوناني خطابا إلى القائد العام للحملة الكونت دي مونتيمار (comte de Montemar) في أول جويلية 1732

، يخبره فيها أن السكان المرعوبين قد غادروا المدينة وقلاعها خلال الليل ، كما غادرها الباي ورجاله المقربون ومعهم عائلاتهم وممتلكاتهم وثرواتهم الثمينة و200 جمل[11] .

وهناك تقرير آخر فيه توضيح أكثر أن السكان لم يكن معهم من الوقت ما يحملون كل ممتلكاتهم ، بل حملوا معهم فقط المعدات النفيسة فقط ، فقد جاء في التقرير:((أعلمنا بأن الخونة أخذوا يغادرون القلاع ومدينة وهران ، وكان على رأسهم الباي الذي فر في جنح ظلام الليل مع كل حراسه و 200 جمل محمل بأمتعته الجد نفيسة ، ولما وصل الجيش الأسباني وجد المدينة خالية ، وفي دار الباي كميات من الأثاث. إن انسحابه المتسرع لم يسمح له بحمل المخازن المجهزة بكل أنواع المؤن والأسلحة. وقد عسكروا في موقع بين ووهران والمرسى الكبير مع خيمهم . ووجدنا كذلك كميات كبيرة من الذخائر الحربية والاستهلاكية)) [12].

وخوفا من القصف المترتب عن حملة بارثيلو على مدينة الجزائر سنة 1783، وافق الداي في 2 أوت على خروج النساء والأطفال من المدينة إلى الضواحي[13] . وعندما شاهد الداي مفعول القنابل يصيب القصر الذي كان يقيم فيه (قصر الداي) والجهات القريبة منه ، اضطر إلى تغيير مكان إقامته فوجد من الأليق له أن يلجأ إلى قصر القصبة[14] .

2 . السطو على ممتلكات السكان :

كانت الجيوش الأسبانية تشن الغارات على القبائل العربية بمساعدة حلفائهم من القبائل العربية . فخلال تلك الغارات كانوا يقومون بالاستيلاء على قطعان الماشية وغيرها من الممتلكات التي يظفرون بها . وهناك أمثلة عديدة لهذه الأعمال ، منها قيامهم قبل الهجوم على مدينة الجزائر سنة 1518 بغزو مواقع هذه القبائل ، فاستولوا منها على أكثر من تسعة آلاف من البقر والجياد وغيرها من المواشي كانت قد سلبت من أصحابها نتيجة لهذه الغارات المستمرة ، التي كانت تتعرض لها تلك النواحي المحصنة . ونذكر في هذا السياق نموذجا عن حالة الذعر التي كان يعيشها هؤلاء السكان ، فقد كان الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد مصطفى القلعي يسكن مع أهله في بيت من الشعر قرب غابة نصب في رأس جبل ، ينتقل إليه ليلا ، وفي النهار يعود إلى مدشره ليزاول عمله ومنها تدريب طلابه [15].

وأمام هذا الوضع غير الآمن كانت القبائل عندما تعجز عن مواجهة العدو تلجأ إلى تحصين نفسها في أماكن بعيدة عن أنظار الأسبان لكي تحافظ على سلامتها . وحتى المناطق البعيدة من وهران كانت هي الأخرى تعيش حالة من الذعر والهلع لانعدام الأمن خشية تعرضها للغارات الأسبانية . فقد ذكر أحد علماء تلمسان الذي كان يقطن هذه النواحي بأنهم كانوا لا ينامون إلا بعد أن يجعلوا حراسا يحرسونهم من الغارات الأسبانية التي يبدو أنها كانت تتم في الليل[16].

لقد عانى السكان خاصة في الجهات التي كانت قريبة من مناطق الاحتلال الأسباني في وهران والمرسى الكبير من أعمال الغزو والسطو على ممتلكاتهم . فقد جاء على لسان أحد الجنود الأسبان قوله : ((كثيرا ما كنا ننظم حملات في داخل البلاد . وذلك من أجل اقتياد رؤوس الماشية ، والتزود بالمواد الغذائية الضرورية . فقد هاجمنا إحدى القبائل المستقرة على بعد بضعة فراسخ [17]، انطلقنا ليلا ، وبعد مشي مجهد ، وصلنا إلى الدواوير مع بزوغ الفجر . وكان الناس ما يزالون نائمين ، فقمنا بنهبهم دون شفقة ، وكثيرا ما كنا نحصل على الكثير من الغنائم ، المتكونة من الأسرى والماشية والأسلحة، وسلع أخرى. كانت كلها تعرض للبيع ، وجزء من الحيوانات المستولى عليها تم توزيعها على الجنود . في بعض الأحيان كان يلزم الدخول في معارك طاحنة ، وتبعا لذلك فقد نتعرض لكمائن قاتلة ، بعد مشي لساعات صعبة كثير من الجنود والضباط يفقدون حياتهم في هذه الحملات)) [18].

وذكر بعض الكتاب الأوربيين الذين أرخوا لوهران وهي تحت الاحتلال الأسباني أن الصناعة الوحيدة في وهران هي أعمال الغزو ضد السكان ، فعندما تصل الأخبار إلى وهران عن ترحال قبيلة أو دوار واستقراره بقرب المدينة، يقوم الحاكم بإجراء التحريات عن حالة الدوار وقوتها وخاصة ما تملك من ثروة.

وفي نفس الليلة كان يشن عليها الهجوم بواسطة القوات التي لديه عند الفجر. فيقومون أولا بأعمال القتل ، ثم يتبعون ذلك بأعمال النهب . وفي الحال يسلكون طريق العودة بكل حيوية ونشاط دون توقف ، من أجل تجنب الوقوع في فخ التصادم مع التجمعات السكنية الأخرى المجاورة .وهم يحملون معهم كل ما استطاعوا حمله من الغنائم من أشخاص أو حيوانات، وأشياء أخرى . وفور وصولهم إلى وهران يختار الحاكم أولا لصالحه هدية تتمثل في عبد سواء كان رجلا أم امرأة ، ونصف الغنيمة التي جاؤوا بها . أما الباقي فيباع علانية وثمن هذا البيع يقسم على 160 جزء ، ليقسم في الأخير بناء على القواعد المحددة ،

وأكثر المستفيدين هم الحاكم والشخص الذي دله على هذه العملية ، وينال الأهلي الذي أوشى عن الدوار أجره[19] .

وهكذا كانت أعمال الغزو مدرة للثروة والمال ، فكانت وهران منطلقا لغزوات مشهورة وقعت في بداية القرن السابع عشر ، أتت بمئات الأسرى ، أو التي حققت مداخيل معتبرة .وكانت حمى الحصول على الغنائم قد طغت على روح كل وهران فهذا الدون خوزي باليخو (Vallejo)[20] قد بين أن الطمع في بعض الأحيان كان يدفع الأسبان إلى تنظيم غارات دون مبرر معقول على الدواوير وعلى القبائل التي طلبت منهم العون والحماية . وشبه غاراتهم في يومياته على القرى الآمنة بغارات التتار على المجر وبولندا ، وأن أهم ما كانوا يقومون به في هذه الغارات هو اختطاف السكان من الرجال والنساء والأطفال ، إلى جانب الحبوب والأنعام . وكانوا يسبون الصبيان من أجل إلى تنصيرهم . وأما الرجال والنساء فكان القائد الجيش الأعلى بوهران الحق في اختيار بعضهم، أما الباقي فكان يقسم بين الضباط والجنود والموظفين ، أو يباعون في الأسواق أسبانيا بأثمان مرتفعة . وكانوا في أول الأمر يحاولون تنصير الجميع إلا أنهم لم ينجحوا وقد أحصى باليخو أن ثلاثين شخصا كانوا يتنصرون سنويا إلا أنهم لم يخلص منهم في التنصير إلا الصبيان ... وكانوا يستعملون بعض المتعاونين معهم لاختطاف الصبيان فيرسلونهم للقرى في صورة تجار[21] .

ونظرا لتضرر السكان من تلك المداهمات اضطروا إلى تشكيل نظام للحراسة والاستطلاع لرصد تحركات الأسبان . فكانوا يكلفون أشخاصا على الانتشار عبر الطرق وعلى المرتفعات لمراقبتهم واتخاذ الإجراءات اللازمة لمواجهتهم أو الإفلات من غدرهم. فعندما يشرع الجنود الأسبان في تحركهم ضد القرى الواقعة حول وهران والمرسى الكبير، كانت القبائل تعلم بوصولهم ، من طرف هؤلاء الحراس .

وعندما يقترب الجنود الأسبان من الدواوير ، أو التجمعات السكانية الجزائرية ، كانت هذه الأخيرة تتنقل وبسرعة إلى أماكن أخرى . وكانت في بعض الأحيان تطبق - حسب رأي مونتانيس - سياسة الأرض المحروقة أمام تقدم صفوف الغزاة الأسبان، ثم تهرب بكل عجلة ، وذلك حفاظا على سلامة العائلات [22].

و حسب مونتانس فإن المخبرين كانوا ينقسمون إلى مجموعات تتألف كل واحدة منها من شخصين . وذلك من أجل الإعلان عن الخطر ، أو إخطار الدواوير، وذلك بتحريك راية بيضاء في النهار . وبناء على هذه الإشارة تقوم القبائل بالرحيل من مكان إقامتهم بصورة سريعة ، أو يتخذون الإجراءات اللازمة

، والاستعداد لمواجهة الخطر . تدعى هذه الحركة عند قبيلة بني حميان تيبرقنت (Tiberguent). أما في الليل فكان هؤلاء المخبرون يستعملون إشارة إشعال النار ، وتدعى هذه العملية شوالة .(Chouala) عند نفس القبيلة ، وكذلك عند بعض القبائل الأخرى[23]. وقد بين ذلك القبطان "نوال" (Noel) في دراسته آل حميان (Les Hamyanes) ، حيث قال: << كانت كل الدواوير تلجأ بسرعة إلى الأسلحة، وهي عملية تيبرغنت، أما الشوالة فتقوم على إشعال النار بسرعة ، وهو يعني النداء لاستعمال السلاح ليلا >> [24] .

كما تسبب العدوان في تضرر المدن ، الذي أصاب القصف المدفعي الكثير من عمرانها . لقد كان الخطر الأسباني قائما وملموسا ، مس بالكثير من المباني في الجزائر وأثر فيه . فإلى هذه الفترة يرجع تخريب عدة مدن ، حيث تسبب في تدهور عمران مدينة بجاية ، وتخريب ميناء هنين القريب من تلمسان. ونذكر في هذا الصدد نموذج عن كثافة القصف المدفعي الذي أصاب مدينة الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر . فحين تعرضت المدينة سنة 1775 إلى حملة أوريللي أصيبت بقصف كثيف وصفه ابن رقية بقوله : ((إن مرامي الملاعين من الرصاص والكور والدوبلة لا يعلم عدده إلا الله تعالى، إذ في مقابلة كل رمية منا يرمي منهم مائة رمية ، ولو قلنا مائتا رمية أو ثلاثمائة رمية فليس بكذب))[25] .

وخلال حملة بارثيلو الأولى سنة 1783 ألقى الأسبان عليها 3750 قنبلة مدفعية، و 3833 من الكور ، ألحقت بالمدينة خسائر عظيمة وصفها القنصل الفرنسي في مذكرته قائلا :((أصيب أكثر من أربعمائة ما بين منزل ومتجر ومسجد وقبة وبنايات أخرى بأضرار متفاوتة . ومن بين المنازل الإثنى عشر التي تحتلها فرنسا أصيب ثمانية ، وقد اشتعلت النار في منزل قنصل السويد ، ولكن الذي يبعث على اعتزاز الحكومة الجزائرية هو أن الحصون البحرية لم تمس إلا بأضرار تافهة)) [26]. فأصابت القنابل بعض الديار ، وسقطت قذيفة على دار الحكومة. وفي الأخير تمكن الأسطول الجزائري وبطاريات الحصون من رد العدوان وإفشاله .

3 . تفشي مرض الطاعون :

إن أهم الانعكاسات التي نجمت عن هذه الأحداث المتعلقة بتنقل الناس إلى مناطق أخرى ، والسطو على ممتلكاتهم من قبل الجنود الأسبان نتيجة للغارات المتكررة هو تعرضهم إلى الأوبئة ومن أهمها وباء الطاعون ، كان ذلك منذ الأيام الأولى لبداية الغزو الأسباني للمدن الساحلية الجزائرية . غير أن الإحصائيات

تبقى دائما نادرة لطبيعة الحالة السياسية السائدة في ذلك الوقت إذ لم يكن الحكام في الجزائر يهتمون بأمور الصحة ولا يعطونها العناية اللائقة [27].وكانت مدينة وهران من بين المدن التي تعرضت إلى وباء الطاعون وذلك في سنة 1558 . وقد خلف العديد من الضحايا من النساء والأطفال ، وانتقلت العدوى إلى ضواحي المدينة ، فأصابت العديد من قبائل البدو التي كانت تقطن قرب وهران . ولقد بادرت السلطات الحاكمة في وهران إلى جملة من الإجراءات من أجل القضاء من هذا الوباء الخطير السريع الانتشار بين الناس ، حيث قام الحاكم دالكوديت بإبعاد السكان عن وهران وتجميعهم في قمة جبل مرجاجو داخل خيم. وكان جهده أكثر في حماية الجنود حتى يتسنى له حماية وهران من أي هجوم يقوم به الجزائريون ضد معقل وهران. كما انه سعى إلى الحفاظ على السكان الذين الذين كانوا في خدمة الحامية العسكرية بوهران ، وذلك بتغيير أماكان تعسكرهم في الخيم من حين لآخر [28]. ومن أجل معالجة المصابين ، شيد الأسبان في جبل مرجاجو مستشفى كبير .

هوامش الفصل الأول :

(1) Pedro de madrid : Rapports officiels espagnols sue le prise de Mers-el-Kebir en 1505, traduction de Berbrugger, R.A., 1869, t.13, pp.104-105.
(2) المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، مرجع سابق ، ص.98 .
(3)Cazenave, Pierre Navarro, Op. Cit., p.145.
(4) Gaid Moloud: Histoire de Bejaia et de sa région depuis l'antiquité jusqu'a 1954 , SNED , Alger , 1976, p.117.
(5) (Feraud, Conquète de Bougie, Op.cit., p.256.
(6)Grammont: Op.cit., p.26 .
(7) بشاري ، التجارة الخارجية لتلمسان ...، ص.102. للتوسع في خلو هنين من السكان بعد تدمير مينائها سنة 1534 من قبل الأسبان : أنظر Sari, Honaine...:Op.cit.,pp.70-72.
(8)Cueva : Op. cit., B.S.G.O., 1891 ,T.11, pp.272-273.
(9) Ibid. p.245.
(10) L. Guin : Quelques notes sur les entreprises Espagnoles , pendant la permière ocupation d'Oran , R.A., 1886, N.30, pp.312-322.

(11) A. Pestemaldjoglou : Op.cit., p.223.
(12) Herault : Op.cit., p.87.
(13) (Feraud : Op.cit., p.307 .

(14) الميلي : مرجع سابق ، صص.234-235.
(15) حساني مختار : تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الأسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال مخطوطتين : فتح مدينة وهران للجامعي ، الرحلة القمرية لابن زرفة ، جامعة الجزائر ، مخبر المخطوطات ، الجزائر ، 2003، صص.14-15.
(16) نفسه: ص.15.
(17) مفردها فرسخ وهي وحدة قياس قديمة يقدر طولها بحوالي أربعة كيلومترات .

(18) Cazenave: L'Organisation militaire, Op.cit., p.328.
(19) Kehl .Op.cit., p.39.

(20) الذي حكم وهران ما بين 1734-1738.

(21) Vallejo, Op.cit., pp.364-368.

(**22**) **أنظر** : Diego Suarez Montanes:Op.cit., R.A., 1866, p.197 et suivres

(23)Malki : Op.cit., pp.151-152.
(24) Capitaine Noel: Documents pour servir l' histoire des Hamyanes et de la region qu il occupent, B.S.G.O., 1915, t.35, p.153.

(25)الزهرة النيرة :ص.31.
(26) الميلي : مرجع سابق ، صص.234−235.
(27) سعيدوني: الجزائر في التاريخ (العهد العثماني) ، ج.4، مرجع سابق، ص.88.
(28) بلبوري : وهران وضواحيها ...، ص.212.

الفصل الثاني

الخسائر البشرية

إن موضوع الخسائر البشرية من الجزائريين التي ترتبت عن الاعتداءات الأسبانية على الجزائر ، خلال الحملات التي كان يقوم بها الجنود الأسبان انطلاقا من المواقع الساحلية التي احتلوها ، خاصة في الجهة الغربية من البلاد ؛ من المواضيع التي ما زالت إلى غاية يومنا هذا غامضة ، خاصة من حيث العدد، حيث أن الكثير من المصادر الغربية تتحفظ عن البوح بها. لقد ترتب عن الأعمال العدوانية الأسبانية على المدن الساحلية التي استهدفتها هذه القوة الأوربية الراغبة في التوسع على حساب المدن الساحلية لبلاد المغرب الأوسط في القضاء على العديد من السكان المحليين ، ولا زالت إلى يومنا هذا لم تبح بأرقامهم الحقيقية ، وهذا راجع من دون شك إلى حالة الاضطراب السياسي الذي كانت تعيشه البلاد ، والانشقاق الواقع بين مختلف شرائح المجتمع الجزائري في ذلك الحين ، إذ كان هذا الحال لا يسمح بالوقوف على تقدير معين عن الخسائر البشرية المترتبة عن العدوان الخارجي الأسباني ، كما لا يمكن الثقة في بعض الأرقام التي ذكرتها بعض المصادر الأسبانية بصفة نهائية ، إذ كانت في كثير من الأحيان تتحفظ عن ذكر الأرقام ، أو أنها تذكر أرقاما تختلف عن تقديرات المصادر المحلية . وهذا التقديم ينطبق على مختلف أنواع المواجهات التي ذكرتها

آنفا . وعلى كل فإنني سأعمل على تتبع هذا الموضوع للوقوف في النهاية على أرقام استنتجتها من مختلف الكتابات والدراسات التي تناولت تلك المواجهات. وسأتناول هذا الموضوع في أربع حالات من المواجهة.

1 ـ الخسائر البشرية الناجمة عن الحملات على المدن الساحلية :

بدأت الحملات الأسبانية على السواحل الجزائرية من المرسى الكبير ، فقد وضع فرديناند تحت تصرف قائد الحملة قوة عسكرية تزيد عن عشرة آلاف رجل ، ويذكر أن سبب نجاح الأسبان في احتلالها يعود إلى تفرق سكانها الذين تجمعوا للدفاع بعد علمهم بقدوم الحملة ، وبعد طول ترقب تفرقوا ، ولم يتركوا لحراستها سوى حامية لا يتجاوز عددها خمسمائة رجل(1) . وقد أسفر هذا الهجوم على قتل 100 جندي من أفراد الحامية (2).

وبعد سقوط المرسى الكبير أخذ الأسبان يتهيئون لاحتلال مدينة وهران ، فقد أبحر إليها هذه المرة الكاردينال خمينيس بنفسه صحبة القائد بيدرو نافارو على رأس قوة عسكرية تتألف من خمسة عشر ألف رجل ، وتمكنوا من دخلوها بعدما فتح لهم المكاس اليهودي المعروف باسم (سطورة) أحد أبوابها ، فهاجموا سكانها بوحشية لا نظير لها ، وهكذا أشرف الكاردينال خمينيس على قتل أكثر من 4000 شخص(3) .

وفي السنة الموالية عزم الأسبان على احتلال مدينة بجاية ، فقاد الحملة بيدرو نفارو المتكونة من عشرة آلاف مقاتل ومعهم مدافع ضخمة. وبعدما دخلوا المدينة إثر استماتة سكانها في الدفاع أعملوا السيف في رقاب من وجدوهم من أهلها والمدافعين عنها ، أسفرت عن مصرع أربعة آلاف وخمسمائة وخمسون شهيدا (4) ، وقتل من رجال عبد الرحمن 300 شخص ، كانت من بينهم زوجته وإحدى بناته، وذلك في إحدى المناطق المجاورة لبجاية حيث كان يعسكر الأمير بعد فراره من المدينة(5).

وبعد عامين من احتلالها استنجد علماؤها وأعيانها وكذلك حاكمها المخلوع عبد الرحمن بعروج ، الذي انتشرت أخبار نشاطه البحري حيث كان يقيم هو وإخوته وأتباعه في تونس . لم يتخلف عروج عن هذه الدعوة وقام بعدة محاولات لتحرير بجاية ما بين 1512-1515 بعد أن تعزز جانبه بمقاتلين من أهل المنطقة ، لكنه لم يتمكن من تحقيق الهدف في طرد الأسبان منها ، وأصيب في هذه المحاولات العديد من رجاله منها ما حدده هايدو بمائتي رجل في معركة سنة 1515(6).

وتعرضت مدينة الجزائر خلال سنة 1516 و1519 لحملتين انتهتا بالفشل الذريع ، واكتفت المصادر بتقدير الخسائر البشرية الأسبانية والأسرى من صفوفهم ولم تتعرض إلى الخسائر البشرية من الجزائريين ، وهذا من دون شك يعود إلى قلة عددها عن الخسائرالأسبانية .

وإثر حملة أندري دوريا على مدينة شرشال سنة 1531 ، لم تستطع المصادر تحديد عدد القتلى من الجزائريين في هذه المواجهة ، بل اكتفى بعض الكتاب بذكر أن ((شدة الهول تخطف الأبصار ، فزهقت أرواح وقطعت رؤوس))[7].

وذكرت الوثائق الأسبانية أن احتلال الأسبان لهنين 1531 الذي كان بقيادة الدون ألفارو دي بازان ترتب عنه 40 قتيل[8] .

وتعرضت مدينة عنابة في سنة 1535 إلى حملة قادها القائد دي مونديخار، فبعد نزوله بها شرع في احتلال القلعة والمدينة . ولم تذكر المصادر عدد الضحايا من الجزئريين وإنما اكتفت بذكر أن الأسبان ((عاثوا في تلك الجهات فسادا يغيرون على أهلها ويغنمون منهم المواشي والعبيد))[9].

وأسفرت حملة سنة 1541 على مدينة الجزائر التي قادها شارلكان بنفسه عن استشهاد 200 شخص حسب أحد المصادر العربية[10]. ومما لا شك فيه أنها كانت خسائر قليلة إذا ما قورنت بحجم الحملة ، وكذلك إذا قارناها بالخسائر الأسبانية ، فقد ذكرت بعض التقديرات أنهم تجاوزوا اثنتي عشر ألف بين قتيل وجريح[11].

وخلال إعادة احتلال الأسبان لوهران سنة 1732 ذكرت الكتابات الأوربية أن عدد القوات العربية كانت تتألف من اثنين وعشرين ألف رجل ومن ألفي رجل تركي، شاركت في المقاومة الباي مصطفى بوشلاغم ، غير أنها لم تتمكن من رصد الخسائر البشرية التي لحقت بهم ، وأرجعوا ذلك إلى تقاليدهم المبينة على التفكير الديني ، القاضي بسحب موتاهم من ساحة المعركة بصورة عاجلة [12] . بينما ذكرت بعض المصادر العربية أنه قتل في هذه المعركة النزر القليل من الجيش، دون تحديد العدد [13].

وظل الأسبان يحلمون بإسقاط مدينة الجزائر تحت نفوذهم منذ بداية القرن السادس عشر ، ولهذا الغرض جددوا غاراتهم عليها ، حيث قاد أوريللي حملة ضدها في سنة 1775 ، لكنها كانت فاشلة كسابقاتها ، ومع ذلك فقد تسببت في حدوث خسائر بشرية من الطرف الجزائري تحدث عنها صاحب " الزهرة النيرة" حيث قال : << كان عدد موتانا لا يبلغ ثلاثمائة ممن استشهد في المعركة ، وممن مات من المجروحين >> [14]. بينما ذكر مؤرخون آخرون مثل أبي راس

الناصري والمزاري أنها بلغت أربعمائة شهيد دفنوا في مقبرة بالرميلة بعين الربط[15] ، عرفت لدى الناس بحصن المجاهدين [16].

وتسببت حملتا باثيلو اللتان تعرضت لهما مدينة الجزائر في حدوث خسائر بشرية غير محددة بالضبط ، إذ كثيرا ما تشير التقارير التي تحدثت عنهما بجهلها عدد الضحايا ، أو تذكر أنها كانت معتبرة.

فالنسبة للحملة الأولى سنة 1783 جاء في أحد التقارير ، << من الصعب جدا في هذا الوقت معرفة الخسائر المعتبرة التي أصابت الجزائريين ، نحن نعرف بأنهم فقدوا أكثر من 300 رجل دون حصر الذين ماتوا تحت حطام المنازل المهدمة ، حيث تعرضت حوالي 300 منزل إلى جحيم القذائف >> [17]. أما المؤرخون الجزائريون ، فذكروا أن عدد القتلى من الجزائريين في الميناء لم يتجاوز مائة قتيل [18] . وأضاف مؤرخ آخر إلى هذا الرقم ، العدد الذي ذكرته الكتابات الأوربية وهو ثلاثمائة ، الذين قتلوا في المدينة نتيجة للقصف المدفعي الذي أصاب المباني[19] .

أما الحملة التي وقعت في شهر جويلية من السنة الموالية (1784) ، فإن عدد القتلى من الجزائريين قد تجاوز المائتين حسب نفس التقرير الذي ذكره فيرو ، موضحا أن أغلب الضحايا كان بسبب انفجار المدافع المصنوعة من الحديد ، التي كان يستعملها المقاتلون الجزائريون ، وذلك يعود إلى الإفراط في استعمال المدافع التي كانت تحشى بكميات زائدة عن اللزوم ، وأنهم كانوا لا يتركون لها الوقت اللازم لتبرد ، فيعيدون حشوها بشحنات كبيرة من الذخيرة قبل أن تبرد ، مما أدى إلى انفجار بعض منها ، وبالتالي إلى تدمير الزوارق الموجودة على متنها أو القريبة منها . لقد أدت الحوادث إلى قتل 100 شخص في يومي 22 و23 جويلية [20].

وعكس الحملة السابقة فإن أغلب الضحايا كانوا من الجنود الذين كانوا على متن السفن بسبب تحطمها. وقد اقتضت الخطة الدفاعية هذه المرة على إبقاء السفن الأسبانية بعيدة عن المدينة حتى لا تصيبها القنابل ، وذلك بخروج السفن بعيدا عن المرسى ، ورمي قطع الأسطول الأسباني بالقذائف من حصون المدينة. وأجبر هذا الأسلوب الدفاعي على إبقاء الأسطول المسيحي بعيدا عن المدينة لا تصيبها قنابله . وهذا ما أدى إلى قلة الخسائر البشرية في المدينة ، فلم يستشهد خلال هذه المعارك إلا نحو الثلاثين رجلا فقط من المدنيين . وفيما يلي جدول يوضح عدد القتلى والجرحى طيلة أيام العدوان التي وقعت ما بين 12 يوم جويلية ويوم 23 من نفس الشهر لسنة 1784. وما يلاحظ عن ضحايا هذه المعركة أنها بدأت برقم

كبير وانتهت في اليوم الأخير بأكثر من ثلاثة أضعاف من ضحايا اليوم الأول . أي أن أغلب القتلى لقوا حتفهم في اليوم الأول وفي واليوم الأخير من المعركة . أما عدد الجرحى فكان أقل [21].

التاريخ	عدد القتلى	سبب القتل	عدد الجرحى
12جويلية	40	انفجار سفينة	20
15 "	12	غرق سفينة	14
16 "	10	انفجار مدافع	15
17 "	02	قصف أسباني	5
18 "	05	-	8
19 "	02	-	17
21 "	07	تفجير مدفعين	15
22-23 "	100	نيران الأسبان انفجار المدافع	-
المجموع	208		89

2 - في المناطق الجاورة للمدن المحتلة.

لقد سعى الأسبان إلى التوسع نحو المناطق الداخلية ، انطلاقا من المواقع الساحلية التي وقعت تحت نفوذهم ، خاصة حول المرسى الكبير ووهران وكذلك بجاية . غير أن عوامل عديدة تحدثنا عنها في الفصل التمهيدي حالت دون تحقيق مرادهم . ورغم ذلك فإن ما قاموا به من محاولات ؛ قد تسبب في حدوث أضرار أصابت السكان ، وخاصة الخسائر البشرية التي لحقت بهم خلال غارات الجنود الأسبان على القرى والتجمعات السكانية التي رفضت الانضواء تحت سلطتهم .

فبعد عامين من احتلال الأسبان للمرسى الكبير(جوان 1507) شن الجنود الأسبان بقيادة مارتين دي أرغوت (Martin de Argote) حملة عسكرية على دوار غرابة بالقرب من مسرغين وذلك بهدف نهب ماشيتها ، إلى جانب رغبتهم في بسط نفوذهم على الطريق المؤدي إلى تلمسان . وكانت النتيجة أنهم قتلوا كل الرجال الذين حاولوا صدهم ، وأسروا باقي أهل الدوار من الرجال والأطفال والنساء ، ونهبوا ممتلكاتهم وماشيتهم[22] .

وبعدما تمكن عروج من وضع قلعة بني راشد تحت سلطته وهو في طريقه إلى تلمسان سنة 1518، ترك فيها حامية تتكون من 300 جندي على رأسهم أخوه

إسحاق . غير أن الأسبان سارعوا إلى مهاجمتها بقيادة الدون مارتينيز دي أرغوت (Don Martinez de Argote) فحاصروها . حاول اسكندر كسر الحصار بواسطة هجمات خاطفة ، لكنه كان كل مرة يفقد عددا من رجاله .
ونتيجة للقصف المدفعي اضطر سكانها إلى مغادرتها خاصة بعد نفاذ المؤن . فلم يجد إسحاق بدا من الاستسلام بعد ما تعهد له الأسبان أن يتركوه هو ورجاله[23].

ولما خرج إسحاق وأتباعه من القلعة في طريقهم إلى تلمسان ، نقض الأسبان العهد وأغاروا عليهم ، فتجدد القتال بين الطرفين ، انتهى بقتل إسحاق وجميع أتباعه[24]، بسبب قلة عددهم ، إذ كان كل واحد يقابل عشرة رجال من القوات الأسبانية . حدث هذا في أواخر شهر جانفي 1518.

توجه إثر ذلك دي أرغوت إلى تلمسان لمنع عروج الاستفراد بها فحاصرها. وكان لدى عروج قوات عسكرية أقل من جيش الأسبان وعدتهم . فلم يقدم على الخروج من المدينة لوقف زحفهم بل قاد المقاومة من أسوار المدينة بمهارة ، فقد استطاع أن يصمد أمام الحصار لمدة ستة أشهر . غير أن القصف المدفعي الأسباني قد تسبب في تحطيم الأسوار ، مما مكنهم من الدخول إلى المدينة وتحولت المجابهة إلى حرب الشوارع والمباني [25] ، مما اضطر عروج إلى الاعتصام بقلعة المشور ، ولما لاحظ أن عدد قواته في تناقص إذ لم يبق لديه سوى خمسمائة رجل ، انسحب من القلعة ليلا . ولما شعر الأسبان بذلك تعقبوا طريقه ، فأدركوه وتجدد القتال بين الطرفين . وبعد مقاومة مستميتة تمكن الأسبان من القضاء على معظم من بقي معه، ولم يتمكن إلا القليل من النجاة بأنفسهم ، ولقي عروج هو الآخر مصرعه بعد دفاع مستميت وصفه بعضهم بأنه ((دافع عن نفسه مثل الأسد)) [26] ، كان ذلك في شهر ماي من سنة 1518[27].

وعندما تعرضت تلمسان إلى هجوم أسباني آخر قاده ألونسو مارتينيز دي أونجيلو سنة 1535 ، تمكنت المقاومة من صد الهجوم وإلحاق الهزيمة بالجيش الأسباني وأسر القائد مارتينيز مع عدد من رجاله اقتيدوا إلى تلمسان . وتسببت المعركة كذلك في قتل مائتي شخص من أهل تلمسان [28].

وفي 5 فيفري 1543، واجه ملك تلمسان أبو زيان حاكم وهران الكونت دالكوديت عند أسوار المدينة في معركة عنيفة استمرت من العاشرة صباحا إلى غاية المساء [29].تمكن خلالها جنود دالكوديت من الانتصار ، وأجبر أبو زيان على الانسحاب إلى منطقة أنجاد [30] . أما عن الخسائر البشرية التي أصابت أهل تلمسان فقد ذكر بعضهم أنها كانت كبيرة ، لكن دون تحديد رقمها[31].

كما تعرض دالكوديت خلال هذه الحملة إلى قافلة كانت تحمل المؤونة لسكان مدينة تلمسان ، وقتل من رجالها 60 شخصا [32]، بعدما نهب حمولتها ، وأسر عدادا آخر من أفرادها . وفي طريق عودته إلى وهران في أول مارس من سنة 1543 ، تعرض دالكوديت مع قواته إلى هجوم شنه عليه أبو زيان أحمد ومعه حسب بعض التقديرات 15 ألف رجل[33] ، في مكان مكسو بأشجار الزيتون ، وقد عرفت هذه المعركة التي وقعت بين الطرفين بـمعركة أشجار الزيتون ، دامت طوال اليوم. بلغت الخسائر البشرية الجزائرية 450 رجل وألف جريح [34]. أما مجمل الخسائر الأسبانية في هذه الحملة فبلغت 2300 رجل[35].

وحذا الدون مارتين القرطبي (D.Martin de Cordoba) حذو أبيه ؛ فبعد خلافته لأبيه في حكم وهران ، قام في عام 1551 باعتراض قافلة جمال في منطقة شمال شرق مليتة محملة بالملح ، وهي في طريقها إلى تلمسان . أدت هذه العملية إلى قتل 70 شخص وأسر مائة وأربعة وستون آخر[36].

وقام الأسبان خلال الفترة ما بين سنوات (1568-1571) بغزوات على قرى وتجمعات سكانية في المناطق المجاورة لوهران ، وقد تم القبض على 2160 أسير [37] . ومما تجدر الإشارة إليه ، هو أن مونتانيس لم يعط أي رقم عن الجزائريين القتلى في المعارك التي وقعت خلال غزوات الأسبان لضواحي وهران والمرسى الكبير . كما لم يرد ذكر عن الذين قتلوا من جراء المداهمات، خاصة من النساء والأطفال[38].

3 - في البحر وفي أسبانيا والمناطق التابعة لها .

لقد استدعت الظروف التي شهدها عالم البحر المتوسط ابتداء من القرن السادس عشر إلى غاية بداية القرن التاسع عشر ، والمتميزة بالصراع والتنافس بين القوى الحضارية المطلة عليه . إلى تشكيل محورين أساسيين ؛ إسلامي وتمثله الدولة العثمانية ، ومسيحي وتترأسه أسبانيا . وقد وجدت الجزائر نفسها طرفا في هذا الصراع إثر التحاقها بالدولة العثمانية عندما تعرضت سواحلها إلى الغارات الأسبانية. فكانت قواتها البحرية في بعض الأحيان تخوض غمار القتال ضد الأسبان سواء في عرض البحر ، أو في السواحل الأسبانية نفسها . وكان أسطولها في أحيان أخرى يحارب إلى جانب الأسطول العثماني في حروبه ضد التحالف المسيحي المذكور. وقد ترتب عن هذه المواجهات البحرية وقوع خسائر بشرية في صفوف الجزائريين ، وفيما يلي إشارة نماذج إلى تلك المواجهات وما ترتب عنها .

بعد تحريره للصخرة التي كان يحتلها الأسبان قبالة مدينة الجزائر ، انفتح المجال البحري أمام خير الدين ، حيث شرع في تطبيق خطة لنقل العمليات الحربية إلى نطاق الأراضي الأسبانية ، والاستمرار في نجدة المسلمين الأندلسيين ونقلهم إلى السواحل الجزائرية . فقد أرسل لهذا الغرض أسطولا بقيادة إيدن رايس إلى أحد الموانئ الأسبانية في إقليم بلنسية يدعى أوليفا (oliva)[39] ،حيث كان يتجمع المسلمون الأندلسيون . وفي طريق العودة اضطر الأسطول إلى الالتحام في معركة بحرية عند جزر الباليار مع أسطول أسباني كان بقيادة رودريغو دي بورتوندو ، وذلك في أكتوبر 1529 . ورغم أن نتيجة المعركة كانت لصالح الأسطول الجزائري قتل فيها بوتوندو، إلا أن المصادر مرة أخرى لم تتعرض إلى الخسائر البشرية في صفوف الجزائريين[40].

وبعد نجاح قطع من الأسطول الجزائري في شن هجوم على بلدة جبل طارق سنة 1539 ، طاردتها السفن الأسبانية بزعامة قائد البحرية الأسبانية بيرنار ميندوسا (Bernard Mendoza) ، وبعد انتقاله بين عدة مواقع بحثا عن الأسطول الجزائري، حل في بداية أكتوبر بجزيرة ألبوران (Alboran) ، [41] حيث كانت قطع السفن الجزائرية راسية ، ووقعت المعركة بين الطرفين ، غير أن التفوق العددي أدى بكفة النصر تميل لصالح الأسبان ، فقتل خلالها من الجنود الجزائريين 700، من بينهم القائد قارة مامي ، وعلي أحمد[42] .

وفي سبتمبر 1540 فاجأ أسطول حربي أسباني أسطولا جزائريا صغيرا ، متشكلا من 16 سفينة و 1300 رجل ، كان متوجها إلى جبل طارق ، وكانت نتيجة الاشتباكات ثقيلة ، حيث استولى الأسبان على 9 سفن ، وقتل عشرات البحارة الجزائريين[43] .

وخلال حصار مالطا الذي ضربه عليها الأسطول العثماني سنة 1565 ، شاركت الجزائر بأسطول يتكون من ثمانية وعشرين سفينة وعلى متنه 2500 رجل[44] . وكان بقيادة حسن باشا . وقد اضطر قائد الأسطول العثماني إلى رفع الحصار في 12 سبتمبر الذي دام خمسة أشهر، وذلك إثر وصول تعزيزات مسيحية كبيرة[45] . لقد كلف الحصار خسائر كبيرة أصابت الجيش العثماني إذ قدرت بنحو عشرين ألف رجل[46] . واضطر من جهته حسن باشا هو الآخر إلى العودة للجزائر، بعد ما فقد نصف قواته ، التي قدرت بحوالي 1250 قتيل[47] .

وفي عام 1621غرقت أربع عمارات جزائرية بين منطقتي بوركيروليس (Porquerolles) وسان تروبي (Saint-Tropez) . وكانت الخسائر جد مرتفعة

، عندما وصل البحارة الفرنسيون والأسبان إلى التعاون فيما بينهما لمحاربة الجزائريين[48] .

وفي سنة 1639 دخلت الدولة العثمانية في حرب ضد البنادقة في ساحل دالماسا بألبانيا ، واستنجدت بالأسطول الجزائري الذي قاده الجزائري علي بتشيني . وبسبب حدوث زوابع بحرية شديدة التجأ الأسطول الإسلامي إلى خليج فالونا ، فاغتنم البنادقة نزول البحارة إلى البر وانقضوا على المراكب ، وقتلوا 1500 شخص من بينهم جزائريين ، وخربوا تسعة مراكب واستولوا على اثني عشر منها، وتمكن علي بتشيني بصعوبة من إنقاذ بعض المراكب [49].

وفي نهاية ديسمبر من سنة 1751 دمر الأسبان سفينة دانتزيك (Dantzik)[50]التي كانت تبحر مع سفينة أخرى اسمها (القصر) ، كان يقود الأولى الرايس محمد شريف ، أما الثانية فكانت تحت قيادة الرايس سليمان. بينما كانت السفينتان تبحران قرب جزر ماديرا والكناري في طريقها إلى البحر المتوسط، وعلى بعد 120 كلم من رأس سان فانسان (Saint-Vincent) ، التقتا بسفينتين حربيتين أسبانيتين ، تحمل كل واحدة 60 مدفعا ، فوقع بينهما القتال . اضطر الرايس سليمان منذ البداية إلى سحب سفينته القصر من المعركة على الرغم من شدة رجاله الذين ودوا القتال . وبقيت دانتزيك تقاتل لوحدها المقاتلتين الأسبانيتين القويتين لمدة أربعة أيام دون أن تستسلم ، رغم ما أصابها من عطل في بعض أجزائها . وتحت تأثير القصف المدفعي تحطمت السفينة، مما تسبب في خسائر بشرية معتبرة . فقد قتل نحو 200 شخص ، وأسر 300 آخر ، وجرح 80 بحارا من بينهم القائد محمد شريف . لقد أحدث هذه الخسارة صدى كبيرا في عاصمة الجزائر ، ويذكر أن الداي بقي لمدة 11 يوما لا يتكلم ولا يأكل ، وعاقب بشدة الرايس سليمان والضباط الرئيسيين[51] .

وفي كثيرا من الأحيان تأتي الزوابع البحرية على السفن الجزائرية وتؤدي إلى غرق من فيها من البحارة ففي سنة 1700 غرقت إحدى السفن الجزائرية في سواحل جزيرة مينورقة [52].

4 - خلال الهجمات الجزائرية ضد المواقع المحتلة قصد تحريرها:

لقد أخذ الجزائريون على عاتقهم منذ الوهلة الأولى لغزو الأسبان لأراضيهم الدفاع عنها ، ورغم عدم نجاحهم في صدهم ومنعهم من الدخول إلى بعض المدن الساحلية التي تمكنوا من احتلالها ؛ إلا أن روح المقاومة ظلت قائمة في أنفسهم ، والشاهد على ذلك أنهم وحتى عام 1555 ؛ وهي السنة التي تم فيها تحرير بجاية ، أصبحت كل السواحل الجزائرية خالية من وجودهم باستثناء بقاء احتلالهم

لوهران والمرسى الكبير، التي عمل الأسبان كل ما في وسعهم من أجل الاحتفاظ بهذه القاعدة. وفي المقابل بذل الجزائريون جهدهم من أجل تحريرها ، فتكررت المحاولات لهذا الغرض ، والتي كانت تؤدي في كل مرة إلى سقوط العديد من الضحايا.

وشهدت بجاية جهود كبيرة لتحريرها فور وقوعها تحت الاحتلال الأسباني في عام 1510. حيث سارع علماء وأعيان المدينة يستصرخون عروج وإخوته. وكانت الاستجابة لهذا النداء سريعة وفعالة . فقد قام عروج بثلاثة محاولات تحرير بين أعوام (1512-1515)[53] ، حيث فقد ذراعه خلال المحاولة الأولي (1512). كان خلالها مدعما من طرف سكان المنطقة . لكن المصادر لم تذكر بالتدقيق الخسائر البشرية التي لحقت بصفوف عروج ومن كان معه من المقاتلين من السكان المحليين، باستثناء ما ذكره "هايدو" عن المحاولة الأخيرة التي وقعت في سنة 1515، فقد ذكر أن الأسبان تمكنوا من إصابة مائتي من رجال عروج[54] .

ومن المواقع الهامة التي احتلها الأسبان قبالة مدينة الجزائر ؛ الصخرة التي أقاموا عليها قلعة ، وأصبحت تمثل تهديدا خطيرا ليس على مدينة الجزائر فقط بل على كامل البلاد ، ولما أدرك قادة الدولة آنذاك وعلى رأسهم خير الدين تلك الخطورة ؛ حرص على تطهير وجودهم منها ، وتم له ذلك في سنة 1529 ، وكان ثمنها ستة وأربعون شهيدا[55].

ومن القواعد التي بقيت تحت الاحتلال الأسباني المرسى الكبير ، ولهذا فكلما سمحت الظروف قامت الدولة الجزائرية بشن الهجوم عليها أو على وهران قصد تحريرهما. فلما تولى حسن باشا بن خير الدين الحكم في سنة 1562 للمرة الثالثة [56]، قاد هجوما على المرسى الكبير ، فتمكن من فتح برج القديسين ، وحاصر برج آخر يدعى سان ميغال الواقع على الغرب من الميناء ، ثم حاول اقتحامه ، لكن مقاومة الحامية الأسبانية أجبرته على رفع الحصار ، بعد أن فقد 500 من جنوده ، منهم قائد فرقة زواوة أحمد بن القاضي صهر حسن آغا . ويذكر أن سبب توقفه عن الهجوم تأخر وصول قطع الأسطول التي تحمل المدافع والذخيرة والمؤن [57]. وقد نظم عبد الرحمن بن موسى[58] قصيدة يوم حزن الباشا على من مات من المسلمين في فتح الحصن سنة 1563.

أمولاي بالمختار من آل غالب   أحبته والصحب كل الأقارب [59]

وفي سنة 1686 قاد الباي شعبان هجوما على وهران ومعه ثلاثة آلاف رجل ، ولما أشرف عليها خرج إليه الأسبان ومعهم بعض الرجال من بني عامر في

مكان يدعى كدية الخيار فهزمهم ، ثم لاحقهم إلى أسوار المدينة بالقرب من حصن رأس العين ، وأصيب الباي شعبان بسهم أدى إلى استشهاده ، وهذا ما أثر في سير المعركة ، فانسحب مع جنوده [60] . قال أبو راس الناصري في عجائب الأسفار:

آخر ما بعد الزناكي حاصرها فامتنعت وشمست أيما شمس أنظر[61]

استمرت هجمات بايات الغرب على وهران بعد استشهاد الباي شعبان ، فقد حاصر وهران خلفه الباي إبراهيم خوجة في العام الموالي 1687 وشرع في قذفها ، لكنه اضطر إلى رفعه بأمر من الداي الذي طلب منه الالتحاق العاصمة لمواجهة حملة الماريشال "دوستري" (d'Estrées) الفرنسي، حيث قاد الحملة المارشال دوستري ، ووصل إلى ميناء الجزائر في 26 جوان 1688 على رأس 41 سفينة . وفي أول جويلية بدأ بقصف المدينة الذي استمر إلى غاية 16 من نفس الشهر، حيث سقط عليها 10.420 قنبلة ، تسببت في تدمير أكثر من 5000 منزل. وكان رد الداي باعتقال القنصل بيول (Piolle)وعدد من الرعايا الفرنسيين وتم إعدامهم [62]. وفي عام 1706 أعد الداي حسين خوجة حملة أخرى على وهران . غير أن المصادر لم تحدثنا عن الخسائر البشرية التي لحقت بصفوف الجزائريين . وكانت الحملة الأخيرة هي الحملة التي قادها الباي مصطفى بوشلاغم التي أدت إلى تحريرها الأول في سنة 1708 . وذكر أحد الكتاب أنه استشهد في هذه المعركة قرابة ثمانية آلاف شهيد ، وكانت خسائر العدو 15 ألف قتيل [63].

غير أن أهم حدث وقع في أواخر القرن الثامن عشر هو تحرير وهران النهائي من الوجود الأسباني الذي جاء بعد سلسلة من الهجمات وأعمال الحصار التي كانت تقوم به القوات الجزائرية من حين لآخر . غير أن الزلزال الذي تعرضت له مدينة وهران يومي 9 و10 أكتوبر 1790 الذي دمر الكثير من منشآتها العمرانية ، وقتل أزيد من 3000 شخص ، قد عجل بنهاية الوجود الأسباني ، حيث شجع الجزائريين على استمرار ضرب الحصار ، وسهل عليهم اكتساح المدينة . فقد ذكر الحافظ أبوراس الناصري : ((ان أمير المؤمنين السيد محمد بن عثمان باي الإيالة الغربية وتلمسان ، لما ضايق وهران اشد التضييق ، سأل منه النصارى السلم والتوثيق ، وراودوه عليه فأعطاهم الأمان ، على أمتعتهم وأنفسهم من غير امتهان ، فذهبوا منها وتركوا كل ما فيها للأمير فأخذه منهم بالقيمة بلا تجميع))[64] . وعن الخسائر البشرية التي لحقت بالجزائريين ، فحسب صاحب " الثغر الجماني" أنه استشهد أكثر من خمسمائة طالب[65] ، وقد أشار في موقع آخر

فذكر : ((ويوم ثالث سقط فيه جبل بغير سبب على نحو الثلاثين من الحراس فماتوا رحمة الله علينا وعليهم أجمعين ، فكانوا من الشهداء)) [66].

وبعد التعرض إلى مختلف صور المواجهة التي وقعت بين الجزائريين والأسبان، وما نجم عنها من ضحايا في صفوف الجزائريين ، يمكن أن نتوقف قليلا عند هذا الموضوع قبل أن ننتقل إلى الحديث عن موضوع آخر فنقول : إن عدد القتلى في صفوف الجزائريين يظل مجهولا رغم هذه المحاولة ، إذ يحتاج إلى جهد خاص يولي الباحث به عناية مركزة ، قد يفضي به الجهد إلى الوقوف على أرقام قد تظل غير متطابقة مع ما وقع بصورة فعلية .

ولم يترتب عن هذه المواجهات خسائر بشرية فقط ، فبطبيعة الحال نتج عنها كذلك أعمال الأسر وهذا ما سنعالجه في الفصل التالي .

هوامش الفصل الثاني:

(1) المدني : مرجع سابق ، ص.97.
(2) ناصر الدين سعيدوني : دراسات أندلسية ، مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2003، ص.152.

(3) جوليان : مرجع سابق ، ج.2 ، ص.324.
(4) Feraud : op.cit., p.256.
(5) Wintzer: Op.cit., p.194.
(6) Haedo : Histoire des rois.., Op.cit., p.50.
(7) التر: مرجع سابق، ص.95.
(8) Primaudaie : Documents.., R.A., T.19, 1875, pp.187-188.
(9) مارمول : مصدر سابق ، ج.3 ، ص.9 .
(10) مجهول : ص.120.
(11) Garrot: Op.cit., p.408.
(12) Tapié : Op.cit., p.26.
(13) المزاري : مصدر سابق ، ج.1 ، ص.257.
(14) ابن رقية : مصدر سابق ، ص.31 .
(15) مكانها اليوم ساحة أول ماي .
(16) المزاري : ج.1 ، ص .259 .

Feraud, Charles: Attaque d'Alger par la flotte espagnole commondée par Don Antonio Barcello en aout 1783 , R.A., t.20, 1876, p.312.

(18) الميلي : مرجع سابق ، ص.235.

(19) المدني : مرجع سابق ، ص.514.

(20) Feraud : Attaque.., Op.cit., R.A., 1876, p.317.

(21) Ibid.: pp.315-317.

(22) Montanes : Op.cit., p.412.

(23) Grammont : Op. cit., p.26.

(24) ذكر الكتاب الأوربيون أن عملية الغدر تسبب فيها جماعة أبي حمو ، غير أنه من دون شك أن الخيانة تمت بالتواطؤ مع الأسبان ، لأن أبا حمو ورجاله كانوا تحت نفوذ الأسبان.

(25) محمد الطمار : تلمسان ، مرجع سابق ، ص. 230 .

(26) Mercier : Op.cit., t.3, p.23.

(27) أنظر Berbrugger: La mort …, Op. cit., R.A.,t.4, 1859-1860, p.27.

(28)Ruff:Op.cit., p.49.

(29) Grammont, p.70, أما بول روف (ص. 91) فذكر أنها لم تدم سوى ساعتين، أما ليون فاي (ص.87) فذكر أنها دامت ثلاث ساعات.

(30) وهو سهل واسع يقع وراء تلمسان من جهة الجنوب والغرب .

(31) Ruff : Op.cit., p.92.

(32) Ibid., p.94.

(33) Cueva : op.cit., p.385.

(34) Ibid. , p.458.

(35) Ruff : Op.cit., P.101.

(36)Ch. De la Veronne : Population de la région oranaise entre 1551 et 1577 d'après des sourses espagnoles, Actes du 3è congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb, Oran, 26-28 novembre 1983 , O.P.U., Alger , 1987, t.1, p.168.

(37) Malki : Op.cit., pp.184-188.

(38) Malki: Op.cit., pp.184-188.

(39) Belhachemi : Op.cit., p.215.

(40) Rotalier:Op.cit.,p.163.

(41) تبعد عن السواحل المغربية بـ 50 كلم ، وعن السواحل الأسبانية بـ 90 كلم.

(42) مارمول : مصدر سابق ، ج.1، صص.509−510.

(43) Belhamissi: Marine.., Op.cit, t.2, p.155.

(44) Vertot : Op.cit., p.264.

(45) أرسلها القائد العام للأسطول الأسباني الدون غارسيا دي توليدو وهي تتكون من 28 سفينة، وعلى متنها اثنتا عشر ألف مقاتل.

(46) Vertot : pp.266-267.
(47) Braudel : La Méditerranée…, Op.cit., t.2, p.324.
(48)Mercier :Op.cit., T.3, p.104.

(49) بوعزيز : علاقات الجزائر ، مرجع سابق ، ص.73 .

(50) وهي سفينة كان قد غنمها البحارة الجزائريون من الدانزيغيين Dantzikois سنة 1749 ، كانت يطلق عليها اسم أغسطس3 (Augustus III)، وكانت كبيرة جميلة وجديدة ، ولهذا اتخذها الداي سفينة أميرالية .

(51) Belhamissi: Marine.., t.2, p.158.
(52) Ibid.: p.153.
(53) Wintzer: Op.cit., p.214.
(54) Haedo: Histoire des rois, p.50.
(55) Primaudaie: Document.., Op.cit., R.A., T.19, p.165.

(56) فترة الحكم الأولى امتدت ما بين 1552-1554 ، والفترة الثانية كانت ما بين 1557-1561.

(57) Didier : Op.cit. , pp.78-79.

(58) هو عبد الرحمن بن محمد بن موسى الوجديجي ، ولد في عام 929هـ/1523م ، تعلم على يد الشيخ محمد بن هبة الله شقرون الوجديجي ، وعلى يد والده ، وعلى يد الشيخ السلكيني الجادري، توفي في 19 من شعبان 1011هـ / 1فيفري 1603. ابن مريم ، ص.129.

(59) أنظر بقية القصيدة في : محمد بن مريم : البستان في ذكر العلماء في تلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986، ص.133 .

(60) أنظر : بوعزيز: وهران ، مرجع سابق ، صص.87-88.

(61) أنظر عجائب الأسفار في المجلة الإفريقية ، العدد 25 ، سنة 1881.

(62)Plantet : Op.cit., t.1, pp.157-159.

(63)ألتر : مرجع سابق ، ص.461.

(64) المزاري : مصدر سابق ، ج.1ن ص.264.

(65) أحمد بن سحنون الراشدي : الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، مطبعة البعث ، قسنطينة 1973، ص.289.

(66) نفسه ، 295.

الفصل الثالث

الأسرى الجزائريين لدى الأسبان

لقد أثار موضوع الأسرى المسيحيين في أراضي الإسلام ، وفي الجزائر منها على الخصوص الكثير من الجدل ، وأسال الكثير من الحبر ، بينما ظل موضوع الأسرى المسلمين في الضفة الشمالية من البحر المتوسط ، ومنه الأسرى الجزائريين في أسبانيا أو في المناطق الموالية لها في أوربا ، يكتنفه الكثير من الغموض . ويلاحظ سكوت شبه تام للمصادر الغربية عن وضعية العذاب والتشريد والأسر التي كان يتعرض لها الجزائريين خاصة ، والمسلمين عامة على أيدي قراصنة ولصوص البحر المالطيين والإيطاليين والأسبان والفرنسيين وغيرهم ، ابتداء من الحروب الصليبية ومرورا بحروب الاسترداد في الأندلس . فليس هناك جرد للأعداد البشرية المشردة في مختلف شواطئ المتوسط الشمالية منها على وجه الخصوص[1] .

وأما ما يتعلق بالأسرى الجزائريين في أوربا؛ فباستثناء دراسة الدكتور مولاي بلحميسي التي صدرت باللغة الفرنسية سنة 1988 تحت عنوان (Les captifs algériens et l'Europe chrétienne) ، لا نجد دراسات أخرى في هذا الموضوع، تفصل الحديث عن طبيعة الأسرى في كل دولة أوربية على حدة . ولما كان موضوع دراستي يتعلق بالأسبان ، فإنني سأتناول قضية الأسرى الجزائريين لدى الأسبان، محاولا التطرق إليها من جوانب مختلفة .

لقد نتج عن العدوان الأسباني على السواحل الجزائرية ، وما ترتب عنه من ردود الفعل اتساع نطاق المواجهة في عرض البحر المتوسط حتى في السواحل الأسبانية نفسها، وتعرض الكثير من الجزائريين والأسبان إلى الأسر . وأول تساؤل يطرح نفسه، هو كيف كان الجزائريون يقعون في الأسر لدى الأسبان ؟

1 . كيفيات وقوع الجزائريين في الأسر :

لقد تعددت طرق وقوع الجزائريين في الأسر لدى الأسبان ؛ من بينها الوقوع في أيدي الجنود الأسبان خلال الحملات العسكرية التي كانوا يشنوها على القرى المجاورة للمدن التي تمكنوا من احتلالها خاصة وهران والمرسى الكبير ، من ذلك ما وقع على سبيل المثال في مسرغين بعد عامين من احتلالهم للمرسى الكبير . ففي حملتهم عليها في جوان 1507 ، بقيادة مارتين دي أرغوت (Martin de Argote) تمكنوا من قتل الرجال الذين حاولوا صدهم ، وأسروا الباقي من أهل الدوار من رجال وأطفال ونساء [2] . غير أننا لم نتمكن من العثور على رقم محدد .

وكان عدد الأسرى الجزائريين كبيرا إثر احتلال الأسبان لمدينة وهران في عام 1509 ، فقد ذكرت المصادر أن الكاردينال خيمينيس تمكن من أسر ثمانية آلاف شخص[3] .

واستعدادا لحملة دي مونكادا على مدينة الجزائر سنة 1519 ، رأى الأسبان في وهران ضرورة التزود ببعض المؤن وخاصة اللحوم ، فأرسلوا إلى القرى المجاورة للمدينة جنودهم ونهبوا آلافا من رؤوس الماشية . كما أسروا بعض الأهالي . وقد وصف مارمول هذه الأعمال بقوله << حملوا على خمس وثلاثين قرية لأعراب ... ففاجئوهم لأن فرسانهم كانوا قد ذهبوا بعيدا نحو أرزيو ، واختطفوا خمسة عشر ألفا من الماشية الكبيرة والصغيرة التي كانت في الجبال المجاورة ، ولم يأسروا سوى مائة وستين من هؤلاء البرابرة الذين لاذوا بالفرار ، وعادوا إلى وهران بهذه الغنائم >> [4].

وفي جاء في رسالة بعثها ملك تلمسان مولاي عبد الله إلى حاكم وهران مؤرخة في 15 جانفي 1530، ما نصها:((وفيما يتعلق بالعرب الذين تم أسرهم من طرف أشخاص مدينة قرطبة فإنهم ينتمون إلى منطقة تبقريت (Tabekrit))) [5]. وطلب من جلالته إعادتهم له مقابل 500 دوبلا . وأن أحفاد الشيخ موسى بن عبد الله الذين تم تسريحهم مقابل فدية . وذكر ابن يعقوب بن يازار بأن المسيحيين الذين أسروهم ظلما ، كان في مكان يدعى بوزيفار (أو بوسفر)، عندما جاءوا مع

القافلة . مكتفيا بالذي تم دفعه ، وعلى صاحب الجلالة أن يعطي أمرا بإطلاق سراح الأسرى[6]. وخلال حملة دالكوديت على تلمسان 1543 هاجم قافلة كانت تحمل المئونة إلى سكان المدينة وأسر من رجالها ألف رجل[7].

وقاد دالكوديت حملة أخرى سماها الأسبان كافالغادا (Cavalgada) وقعت في 22 جانفي 1549 ، ضد سكان منطقة (Céçili)[8] الذين كانوا معادين للأمير الزياني المخلوع مولاي أحمد ، والذي كان مواليا للأسبان وملزما بدفع الضرائب للملك الأسباني. وقد أسفرت هذه العملية على أسر 75 شخصا[9] .

وحذا الدون مارتين القرطبي (D.Martin de Cordoba) حذو أبيه ؛ فخلال خلافته لأبيه في حكم وهران ، قاد ثلاثة حملات ضد السكان في سنة 1551. فقد اعترض في الحملة الأولى قافلة من الجمال تحمل الملح كانت متوجهة إلى تلمسان في شمال شرق مليتة ، وأسفرت هذه العملية على أسر 164 شخص ، وقتل سبعين آخرين . وفي 7 أكتوبر 1551 هاجم عرب أولاد تميم ـ الذين كانوا من العرب المعادين للأسبان ـ في طريق سلسلة جبل القصر ، حيث استولى على 144 أسير ، بيع منهم 41 شخص في المزاد ، بسعر إجمالي 150.894 مرافيدي. وكانت الحملة الثالثة ضد سكان مديونة القبيلة التي تقيم في منطقة تسالا ، واستولى على 241 رجل وامرأة ، بيع منهم في المزاد أيضا 138 شخص بسعر 1.441.137 مرافيدي [10].

وفي شهر أكتوبر من سنة 1562 اشترك الدون مارتين مع أخيه الدون ألونسو في قيادة هجوم على مكان يدعى سيدي سليمان [11] ، مستهدفين القبيلة الكبيرة بني راشد ، وتمكنوا خلالها من أسر 350 شخصا بين رجل وامرأة .

وفي 11 أوت 1567، شن الجنود الأسبان هجوما آخر استهدف تجمعا سكانيا صغيرا بجوار المرسى الكبير ، وتمكنوا من أسر أربعة أشخاص ، والاستيلاء على 12 حصانا[12]. كان الأسبان يسمون هجماتهم على السكان بعدة تسميات منها : (Jornadas , corrieras)[13] . ومن أهم الذين وصفوا الغارات الاسبانية على السكان القاطنين حول وهران "دييغو سواريز مونتانيس"، فقد تحدث عن التجسس ، وخروج الجنود الأسبان من المدينة ، وطريق سيرهم نحو التجمعات السكانية ثم الهجوم[14].

وخلال الفترة الممتدة بين 18 أفريل 1568 و 16 نوفمبر 1571 ؛ نظم الأسبان إحدى عشر غزوة انطلاقا من وهران والمرسى الكبير ، وتمكنوا خلالها أن يستولوا على 2160 أسيرا من مختلف الأعمار ، رجالا ونساء وأطفالا . توفي منهم 26 شخصا ، نتيجة الجروح التي أصيبوا بها ، و أطلق سراح 25 شخصا

بعدما ثبت انتماؤهم للعرب المسالمة . حيث كان أفراد هذه الفئة يبرؤون ، لأنهم كانوا يدفعون ضريبة السيغورو للحاكم الأسباني في وهران . وقد احتفظ القائد العام لوهران بعدد يتراوح ما بين 52 إلى 65 أسيرا[15].

وكانت السلطات الأسبانية في وهران تلجأ إلى أسر من لا يلتزم من أفراد بعض القبائل الوهرانية بتطبيق شروط ضريبة السيغورو ، وانتقاما من ذلك التصرف كان الجنود الأسبان يلقون القبض على الأشخاص الذين تخلوا عن دفع الضريبة ، فيسوقونهم إلى وهران كعبيد . وبعد إجراء التحريات ، يضع الجنود الأسبان حدا لحرياتهم ، ولا يقدم الحاكم العام على إطلاق سراحهم إلا إذا أثبت هؤلاء الأسرى وثيقة ضريبة السيغورو. وكان الأسبان يفضلون قتل أسراهم على إطلاق سراحهم[16].ولهذا كان السكان بدورهم يفضلون الموت على الوقوع في الأسر ، وهذا ما يؤكده مونتانيس حيث قال: ((كنا نرى أحيانا الرجال والنساء يستسلمون ، بينما كان آخرون يرفضون الاستسلام رغم الجراح التي كانوا يعانون منها ، وكانوا يطلبون الموت على تحويلهم إلى عبيد))[17].

وكان مونتانيس ينتقد الوحشية المرتكبة من قبل مواطنيه . فخلال الغزوة كان الحاكم العام كثيرا ما يترك رجاله يعملون وفق أهوائهم ، ونزواتهم مع الأسرى من حلفائهم العرب . فقد حدث مرة واحدة في وهران أن أمر بالتأكد هل حقيقة أن هؤلاء الأسرى أصدقاء الأسبان ، وذلك بإظهار وثيقة التأييد التي بأيديهم . وحدث في بعض المرات ، أن الأسرى من العرب الموالين يتم إطلاق سراحهم بعد صدور أمر من الحاكم العام ، وتقدم لهم تعويضات مالية ، مقابل المعاملات السيئة التي تعرضوا لها . وذكر مونتانيس أنه قد حضر بعض الحوادث التي كانت تقع باستمرار، وأثبت أنه قد رأى بأم عينيه في إحدى المرات أن الحاكم العام عزم على نقل أسرى من العرب المسالمين إلى وهران لكي يتم التحقق من وضعيتهم ، ثم إطلاق سراحهم. ومن أجل تفحص سجلات الأسرى ، أحصى مونتانيس بعض الأشخاص ، بأن كل العرب المسالمين قد تم تحريرهم بعد الغزوات التي وقعت ما بين 18 جويلية 1568 و 27 مارس 1570، مقابل تعويضات إجمالية وصلت إلى 230 دوكادوس (Ducados) ، مقابل الخسائر التي ألحقت بهم [18] .

ومن دون شك أن تعزيز وجود الدولة الجزائرية في الجهة الغربية من البلاد ، والقيام من حين لآخر بالهجوم على وهران ، فضلا عن الحصار المضروب على الأسبان في المدينة ، جعل الإسبان يعززون وجودهم هناك ببناء العديد من الحصون خاصة من الناحية الشرقية لوهران [19]، منذ الثلث الأخير من القرن السادس عشر إلى تعطيل سطوتهم على النواحي المجاورة لوهران ، وبالتالي

نقص خرجات جنودهم إليها . غير أن المجابهة ظلت على أشدها في البحر ، ولهذا فإن أغلب الأسرى الجزائريين كان يقبض عليهم في المواجهات البحرية ، أو خلال هجمات القراصنة الأسبان على بعض المناطق الساحلية الجزائرية .

2 - الأسر الناتج عن المواجهات البحرية:

إلى جانب الأسر الذي تم في الأراضي الجزائرية بناء على التواجد الأسباني في وهران والمرسى الكبير ، امتدت المواجهات بين الجزائريين والأسبان في البحر المتوسط، وفي بعض المناطق البرية المطلة عليه . وفي بعض الأحيان كانت عملية الخطف تتم إما في المناطق الساحلية الجزائرية ، أو في عرض البحر . فقد تحدث دانكور(Dancour) عن ممارسات سكان جزيرة مايورقة في خطف الأشخاص من السواحل الإفريقية إذ قال : << كلهم ملاحون مهرة ، قراصنة ولصوص كبار ، يترددون باستمرار على السواحل البربرية ، فيقومون بخطف عدد من العبيد >> [20]. ونسوق فيما يلي نماذج من هذه العمليات :

فقد نجح أسطول جزائري يتألف من ستة عشر سفينة حربية ، على متنه 1300 جندي على رأسهم كل من الشاب قارة مامي والبحار العجوز علي أحمد[21] في هجومه على بلدة جبل طارق سنة 1539. ولما بلغت أنباء العملية إلى حاكم غرناطة الدون لويس هوتادو(Don Luis Hutado) أسرع إلى إخبار قائد البحرية الأسبانية بيرنار ميندوسا (Bernard Mendoza) ، فأعد أسطولا وسار يتعقب الأسطول الجزائري ، متنقلا بين عدة مواقع بحثا عنه . وفي بداية أكتوبر حل بجزيرة ألبوران حيث كانت السفن الجزائرية راسية. فوقعت المعركة بين الطرفين ، وتمكن الأسبان من اقتحام سفينة القيادة الجزائرية وقتلوا قائدها قارة مامي، فأدى ذلك إلى حدوث اضطراب بين صفوف رجاله ، أسفر عن أسر القائد الثاني علي أحمد وخمسمائة شخص آخر من رجاله[22] .

وقاد حسن خلفات - الموصوف لدى الغرب بالقرصان المرهب الساحر- خمس سفن صغيرة وأخرى كبيرة من نوع (Galion)، لكنها تعرضت في سنة 1624 للهجوم من قبل خمس عشرة سفينة من نوع (Galère) ، ولم يستسلم إلا بعد تسع ساعات من القتال العنيف[23] .

وشهد القرن الثامن عشر تزايد أعمال القرصنة في البحر المتوسط . ففي سنة 1711 أقدم اثنان من رجال القرصنة على احتجاز عمارة جزائرية في عرض البحر، وتم اقتيادها إلى جزيرة مايورقة مع طاقمها المتكون من 200 رجل[24].

وفي شهر ديسمبر من سنة 1741 هاجم بعض القراصنة الأسبان سفينتين جزائريتين أمام مدينة طولون ، فألقوا القبض على واحدة منهما ومن كان عليها

من البحارة على رأسهم قائدها الرايس محمد . وتمكنت السفينة الثانية بقيادة سليمان رايس من النجاة والالتحاق بالجزائر . وقد أدى هذا الحادث إلى تداعيات سلبية في العلاقات مع فرنسا ، حيث اتهم قائد السفينتين سليمان رايس الفرنسيين بأنهم كانوا وراء هذا الاعتداء الغادر ، وغضب الداي إبراهيم باشا وصادر سبع بواخر فرنسية من القنصل الفرنسي كانت راسية بميناء الجزائر، فأسر بحارتها وسجنهم . وطلب من باي قسنطينة أن يحاصر المؤسسات الفرنسية في القالة وعنابة ويأسر من بها من الفرنسيين[25].

ولما خشي الفرنسيون أن يحل الإنكليز مكانهم في المدينتين الجزائريتين ؛ أرسل الكونت مورياس (Maurepas) الأمين العام للبحرية الفرنسية خطابا إلى الداي إبراهيم مؤرخ في 16 جانفي 1742، بين له فيه الإجراءات التي قامت بها بلاده للتخفيف من هذه الأزمة [26]. ومن تلك الإجراءات سحب القنصل الفرنسي بالجزائر دو جونفيل (De Jonville) وتعيين بدله فرانسوا ديفان (François d'Evant) في سنة 1742. وقامت بإجبار أسبانيا على إعادة الشبك إلى الداي [27] .

وترتب عن تحطيم الأسبان لسفينة دانتزيك(Dantzik) في نهاية 1751 في عرض المحيط الأطلسي أسر 300 شخص من أفراد البحارة [28] .

وفي أفريل 1755 أقدمت مجموعة سفن أسبانية على إغراق ثلاث سفن جزائرية من نوع (Chebèc) . كان على متنها 1100 بحار ، يقودهم ثلاثة رياس وهم الحاج موسى، حسين بربوشة ، وحسين الصغير ، وتم اقتياد أكثر من 500 بحار إلى قرطاجنة. وفي جويلية ـ أوت من نفس العام ، قام قرصانان اثنان من جزيرة إبيزا بالاستيلاء على سبعة عمارات وأسر ثمانين شخصا من الشواطئ الجزائرية[29].

وفيما بين 1762-1769 ، أقدم بارثيلو ـ الذي عرف فيما بعد بالأميرال ـ على أخذ تسعة عشر عمارة تابعة للإيالة الجزائرية ، والقبض على أطقمها المتألفة من 1900 شخص [30] .

وكان البلنسي خوان كانيت (Juan Canette) ـ الذي اتخذ من جزيرة مايورقة مركزا له ـ يتردد أحيانا على مياه مدينة الجزائر. وفي إحدى الليالي تمكن من أسر عدد من المسلمين كانوا تحت الأسوار[31].

وفي صيف عام 1775 استولى قرصانان من جزيرة إبيزا (Iviza) على سبع سفن جزائرية ، وثمانين أسيرا من السواحل الجزائرية[32].

وفي أوت 1777 تمكنت بعض المراكب الأسبانية من احتجاز سفينة فرنسية تدعى سان فيكتور (Saint-Victor) أمام مدينة الجزائر ، وعليها 183 حاجا جزائريا ، ظلوا في حوزة الأسبان حتى شهر فيفري 1778 ، ولإرضاء الجزائر اضطرت غرفة التجارة بمرسيليا إلى دفع تعويض مالي مقداره 185,964 جنيه للجزائر ، حمله لها مارتيلي (Martelly) قائد فرقاطة بلياد (Bleyade)(33).

3 . أماكن تواجد الأسرى في أسبانيا:

لقد أدت الغزوات التي شنها الأسبان على المناطق المجاورة لمدينتي وهران والمرسى الكبير ، والمواجهات في البحر المتوسط إلى وجود نظام استعبادي خضع له الجزائريون في المواقع الأسبانية . فكانت وهران هي الموقع الرئيسي التي يساق إليه الأسرى الذين تم القبض عليهم في المناطق المجاورة للموقعين المحتلين ويتحولون إلى عبيد . وكان عددا منهم يباع لصالح من يقدم مبلغا أكبر ، لأن هناك عددا كبيرا من الزبائن من يود شراء أكبر عدد من الأسرى . وقد يحتفظ الحاكم العام لصالحه بالعدد الذي يناسبه. ثم يذهب بالباقي إلى المدن الأسبانية المختلفة(34) .

فبعدما عاد دالكوديت بـ 75 أسيرا من إحدى حملاته في بداية سنة 1549 على إحدى المناطق السكانية حول مدينة وهران ؛ بيع منهم 12 أسيرا بطريقة المزاد في الساحة العامة للمدينة . من بينهم عشر نساء تتراوح أعمارهن بين 25 سنة و 40 سنة وهن : تالية ، تونس ، عربية ملوزة ، عائشة ، مريم ، ملشة، فاطمة ، يطو ، عائشة . وكان لبعضهن أطفال ، تتراوح أعمارهم بين ستة أشهر وثلاثة سنوات . أما الأسيران الآخران ، فأحدهما يدعى علي عمره ستة سنوات ، والآخر اسمه قوحاك وعمره ستون سنة ، بيع الطفل بخمسة عشر دوبلا ، أما العجوز بخمسة دوبلات . وكانت الأسعار تختلف حسب الجنس والسن ، فأما النساء فتراوحت أسعارهن بين 8 و 48 دوبلا ، أصغرهن سنا هي الأغلى ثمنا . وبعد يومين بيع رجل وعمره 27 سنة بأربع وأربعين دوبلا ، وستة رجال آخرون ، تتراوح أعمارهم بين العشرين والخمسة وخمسين سنة بثمن تراوح بين 5 و 32 دوبلا ، أكبرهم سنا أقل ثمنا(35) .

فمن دون شك أن هذه الصورة عن حالة الأسرى في وهران تعد النموذج الذي يمكن تطبيقه على كل حالات الأسر التي وقعت قبل التاريخ المذكور، أو بعده إلى أن تم تحرير وهران النهائي .

أما بالنسبة للمدن الأسبانية التي كان يرسل إليها العبيد من وهران ، فقد ذكرت بعض الدراسات ، أنه في سنة 1571 أرسل حاكم وهران 271 أسيرا من وهران لبيعها في الموانئ الأسبانية ، تم توزيعهم بين مدن مالقة ، رندة (Ronda) وأنتيكيرا(Antequera) . بعدما بيع عدد منهم في وهران مقابل مبلغ معتبر[36] .

وكان تجار الرقيق الذين يأتون إلى وهران ، يدفعون للجنود الأسبان مقابل الأسرى، الأقمشة ، الألبسة والمواد الغذائية ، وقليلا ما يدفعون لهم النقود ، حيث كانت وهران تفتقر بشكل كبير إلى العملة ، لأن أسبانيا كانت لا ترسل الأجور إلى الجنود والنقود الضرورية إلى الموقعين وهران والمرسى الكبير. وكان ثمن بيع العبيد دائما يتم بأجل ، إذ كان على الجنود أن ينتظروا من شهرين إلى ستة أشهر من أجل الحصول على أجورهم ، ولم يكن لدى الجنود حل آخر سوى ترك العبيد لدى التجار ، وكثيرا ما كانوا ينتظرون مدة طويلة للحصول على مستحقاتهم[37] .

وخلال الغزوات التي وقعت فيما بين سنوات (1568-1571) ، تم بيع 1803 أسرى في وهران من مجموع 2160 أسير تم القبض عليهم ، وتم إرسال 253 منهم لبيعهم في أسبانيا، بينما تم توجيه أسير واحد إلى مصالح مستشفى وهران [38]. وتجدر الإشارة هنا بأنه في الوقت الذي قام فيه الأسبان بطرد المسلمين الأندلسيين ، كانت بلادهم تستقبل في نفس الوقت مئات العبيد جيء بهم من وهران على الخصوص.

وفي سياق تطرق بعض الدراسات الأوربية للأسرى المسيحيين واعتناق بعضهم الدين الإسلامي ، كانت تشير إلى وجود الأسرى المسلمين في المدن الأوربية ومنها المدن الأسبانية . فقد ذكر أحدهم أن إعمال القرصنة والغزو أسفرت عن وقوع عشرات الآلاف من الأسرى بيعوا في الأسواق المسيحية ، منها مسين ، البندقية ، نابولي ، جنوة، مالقة ، بالما ، بلنسية ، إشبيلية ، لشبونة[39].

أما عن تواجد الأسرى الجزائريين في أسبانيا فقد كانت بعض الكتابات أو التقارير تشير إليها ضمن تواجد عموم الأسرى من كل الجهات ، فتذكر بعض الأرقام . فعن تواجد الأسرى بشكل عام لدى أسبانيا ، ذكر أحد الكتاب أنه في أواخر القرن 16 ، كان فيها حوالي 100 ألف أسير ، يتركزون في الأندلس . وفي سنة 1565 كان في مقاطعة أشبيلية 14670 أسير ، أغلبهم من السود . وكان تعداد سكانها 409 ألف نسمة، أي بنسبة 3,3 % من مجموع السكان[40] .

قد دلت الإحصائيات عن وجود الكثير من الأسرى في كبريات المدن ، وخاصة في مدريد والمدن الساحلية الأخرى ، مثل بلنسية . فقد كان 10 آلاف في

مقاطعة مالقة ، وفي مدينة قادش يوجد 300 عربي (Maures) و500 أسود في سنة 1616. حوالي 15% من مجموع السكان . هذه المعطيات هامة ولكنها تبقى جزئية [41] ، وذلك يعود من دون شك كما ذكرنا سابقا إلى سكوت الكثير من المصادر عن الأعداد الحقيقية لهؤلاء الأسرى ، خاصة إذا تعلق الأمر بالمسلمين أو السود . وأن الأرقام الواردة في بعض الوثائق تبقى غير دقيقة للدلالة على الأعداد الحقيقية لهؤلاء الأسرى .

وفي دراسة أسبانية حديثة صدرت في سنة 1978 ، عن الأسرى الموجودين في مدينة بلنسية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، ذكر صاحب هذه الدراسة ويدعى سانث (Sanz) ، أنه من مجموع 2999 شخص بين أسير وعبد، هناك 289 من بلاد المغرب . ويلاحظ في هذا العدد أن الأغلبية المتوقعة للعبيد الذين دخلوا إلى مملكة بلنسية تتشكل من سواحل إفريقيا الشمالية ، وأن أغلب المناطق التي ينتمون إليها هي وهران ، وأعداد لا بأس بها من مدينة الجزائر [42] .

وذكرت بعض الكتابات أرقاما أخرى عن الأسرى الذين كانوا جدافين في العمارات الأسبانية والبابوية. ففي سنة 1695 كان عدد الجدافين الجزائريين في السفن البابوية 200 جزائري. وفي سنة 1698 أصبح عددهم 80 جزائريا .وقد كان يتم شراؤهم لغرض التجديف من المدن الإيطالية مثل ليفورن وجنوة ، وفي مالطا وغيرها ومن المدن المتوسطية المسيحية الأخرى [43] ، مثل طولون ومرسيليا الفرنسيتين .

وفيما يلي جدول يوضح تواجد الأسرى في مقاطعة بلنسية خلال الفترة ما بين 1569إلى سنة 1668 ، من بلاد المغرب ، ومن مدينة وهران[44] .

الفترة	1569 - 1570	1571 - 1578	1579 - 1585	1594 - 1603	1609 - 1666	1607 - 1620	1666 - 1668	المجموع
من بلاد المغرب	-	63	34	07	72	77	27	280
وهران	25	88	06	02	07	62	11	201

وهناك بعض الأرقام الخاصة بالأسرى تخص بعض السنوات . ففي سنة 1733 أرسل إلى قرطاجنة أربع عمارات تحمل كل واحدة على ظهرها 170 أسير جزائري . وفي سنة 1766 أعلن قنصل البندقية في الجزائر بأنه كان أكثر من 30 رايس ، وألفي جندي أسير لدى الأسبان . وذكر أنه ما بين سنة 1755-1762 بلغ عدد الجدافين فوق العمارات الأسبانية حوالي 1700 أسير جزائري[45].

وجاء في وثيقة أسبانية مؤرخة في 5 جويلية 1782 تحتوي على ثلاثة وعشرون صفحة تتضمن قائمة بأسماء الأسرى المسلمين الموجودين في مدينة قرطاجنة الأسبانية ، عددهم 311 أسيرا ، أغلبهم من الجزائريين البالغ عددهم 142 أسير [46].

وظلت مأساة الأسرى المسلمين قائمة حتى بعد تحرير وهران سنة 1792 ، فقد جاء في بعض الدراسات أنه بمجرد ما استرجع الباي محمد الكبير المدينة من الأسبان سنة 1792 ، استدعى يهود معسكر مستغانم وندرومة وتلمسان ، وخصص لهم مكانا واسعا لاتخاذه مقبرة ، وأغمض عينيه ـ لحاجته إلى خدماتهم الاقتصادية ـ عن تعاون اليهود أو بعض اليهود على الأقل مع المحتلين الأسبان ضد المسلمين ومتاجرتهم بالأسرى الجزائريين الذين وقعوا في قبضة الأسبان[47].

4 . نماذج من الأسرى:

لقد أصاب الأسر العديد من فئات المجتمع ، من العامة من الرجال والنساء ، ومن رجال الدين ، وفي بعض الأحيان كان يتعرض كبار رجال الدولة وأفراد من العائلة الحاكمة إلى الأسر. فإلى جانب الرجال من عامة الناس الذين هم في الغالب ما يكونون عرضة للأسر ، كذلك كانت النسوة تتعرضن في كثير من الحالات إلى هذه الحالة. ففي عقد خاص بافتداء الأسرى ، وردت أسماء لبعض النساء المسلمات اللائي أقمن بعض الوقت في وهران ما بين 1511-1512 نذكر منهن :

عائشة زوجة ابن يعقوب مع ابنتها مهاسا العالية ، التي كان عمرها ستين عاما في سنة 1511، كانت أسيرة لدى ألبارو دي إسكوبار(Alvaro de Escobar) .

فاطمة عمرها سبعون سنة ، كانت ملكا لخيسبيرتو دي سانتا في (Gisberto de Santa fe) .

عزيزة ، عمرها عشرون سنة ، كانت ملكا للكونت دي أوليبا (Comte de Oliva) .

عائشة ، كان عمرها ثمانية عشر في عام 1512 ، تم إعادة شرائها لصالح روي دياز روخاس(Ruy Diaz de Rojas).
باستا (Basta)،عمرها ستون سنة ، كانت ملكا لبيدرو دي فارغاس (Pedro de Vargas).
أمستا غاني (Amesta Gani)، كانت ملكا لخوان كويادو[48] (Juan Collado).
ولما غزا الأسبان منطقة تسالة أسروا الوالي الصالح الشيخ المهاجي الحسين ، وبناته الثلاثة ، وظلوا في الأسر عاما كاملا ، وقد فر الشيخ وإحدى بناته ربانية ، وافتدى إحداهن أبو غرة بن حميدة شيخ أولاد سليمان من بني عامر ، وافتدى الثالثة الشحط شيخ أولاد علي من بني عامر أيضا فزوجها له ولدها[49].
وبعد ما خرج الداي منتصرا على حملة أوريللي سنة 1775 ، أرسل ابن أخيه حسن إلى القسطنطينية في السنة الموالية ، لتقديم الهدايا الثمينة إلى السلطان عبد الحميد الأول ، ولما كان حسن عائدا على متن سفينة باغتته طرادة أسبانية وألقت عليه القبض قرب شواطئ مدينة الجزائر ونقلته إلى قرطاجنة . وكانت الحكومة الأسبانية تود من القبض على حسن لكي تضغط على الداي بغية التوصل إلى إبرام الصلح مع الجزائر، ولكن الداي لم يخضع لهذه المساومة . وبعد ضغوط من قبل الداي ، اضطرت أسبانيا إلى إطلاق سراح حسن ومعه الهدايا راجية منه أن يعمل على تحقيق رغبتها [50].

5 ـ افتداء الأسرى:

وقد صاحب هذه الظاهرة عملية تحرير الأسرى ، التي تمت بطرق مختلفة ، نذكر من أهمها طريق التبادل بين الأسرى المسيحيين والأسرى المسلمين ،أو المترتبة عن إبرام البلدين لاتفاقية السلم سنة 1786، فكان أغلب الأسرى الذين استرجعوا حرياتهم تم عبر هذه الطريقة . وهناك من الأسرى من تخلص من العبودية بطرق أخرى منها الافتداء بالمال ، أو عن طريق الفرار عندما يجدون الفرصة سانحة لذلك[51]. وكان الحكام جادين في افتداء تحرير أتباعهم من قبضة الأسبان من خلال إرسالهم لخطابات إلى زعماء أسبانيا. وفي بعض الأحيان كان من الأسرى من يستعيد حريته بواسطة حكام مسلمين وخاصة من سلاطين المغرب، وذلك ضمن افتدائهم لأسراهم وأسرى مسلمين آخرين.
فمن طرق تحرير الأسرى الجزائريين لدى الأسبان في وهران ، دفع الأموال كان يتولاها رجال من القبيلة لديهم أسرى لدى الأسبان . فخلال سنتي 1511-1512 تم افتداء عددا من الأشخاص ، نذكر منهم محمد (سبع سنوات) ، محمد

البدوي (ثلاثون سنة) ، أحمد (خمسة عشر سنة) الذي كان أسيرا لدى الأسباني فرانسيسكو برتيس (Francisco Partes). وقد تراوحت حقوق تحريرهم من وهران ما بين ثمانية إلى عشرة دوبلا(Doblas) للشخص الواحد حسب السن [52] .

وإثر تعرض زاوية الخلوفية إلى غارة أسبانية سنة 1545، تم خلالها أسر ثلاثة بنات شيخ الزاوية سيدي بلاهة الحاج ثم نقلن إلى وهران . وقد تم افتداء إحدى بناته من قبل بوعزة ولد حميدة ، وتم افتداء ابنته الثانية من طرف الشيخ ابن دموش قائد أولاد علي [53] . أما البنت الصغرى فقد حررها كما ذكرنا سابقا أحد شيوخ بني عامر.

وإلى جانب زعماء القبائل كان الحكام حريصين من جهتهم على تحرير مواطنيهم ، وذلك يتجلى في بعض الجهود التي بذلوها من خلال النماذج التي سنذكرها فيما يلي.

ففي رسالة بعثها ملك تلمسان مولاي عبد الله إلى حاكم وهران مؤرخة في 15 جانفي 1530، جاء فيها أن: ((العرب الذين تم أسرهم من طرف أشخاص من مدينة قرطبة فإنهم ينتمون إلى منطقة تبقريت (Tabekrit)[54]. وطلب من جلالته إعادتهم له مقابل 500 دوبلا . وأن أحفاد الشيخ موسى بن عبد الله الذين تم أسرهم مقابل فدية . وذكر ابن يعقوب بن يازار بأن المسيحيين الذين أسروهم ظلما ، كان في مكان يدعى بوزيفار (بوسفر)، عندما جاءوا مع القافلة . مكتفيا بالذي تم دفعه،وعلى صاحب الجلالة أن يعطي أمرا بإطلاق سراح الأسرى[55] .

ودعا الداي الحاج أحمد الملك الأسباني كارلوس الثاني في ثلاث رسائل مؤرخة في سنتي (1695 – 1696) [56] إلى النظر في شأن الأسرى الجزائريين ، فذكرت الرسالة الأولى سوء المعاملة التي كانوا يتعرضون لها، والسماح بالانتقال إلى الجزائر مع المكلفين بإنقاذهم ، وفي المقابل يتم تحرير راهبين مسيحيين . أما الرسالتان الثانية والثالثة فتحدثتا عن بعض الأسرى الجزائريين الذين كانوا لدى تاجر إيطالي في مدينة نابولي [57].

وكان الحكام حريصين على افتداء عدد أكبر من الأسرى المسلمين مقابل الأسرى المسيحيين عندما كانوا يستقبلون الآباء من رجال الدين وغيرهم من المكلفين بافتداء الأسرى المسيحيين ، وفي بعض الأحيان كانوا يرفضون عرضهم ويردونهم دون تسليمهم أي أسير . ففي خلال سنة 1645 جاء الأب هيرو Père) (Héraut إلى الجزائر ومعه عددا من الأسرى الجزائريين ، لكنه عاد دون أن

يستلم أي أسير مسيحي واحد ، ذلك أن الجزائريين اشترطوا عليه تسليمهم اثنين أو ثلاثة أسرى مسلمين مقابل كل أسير مسيحي[58] .

وفي حادث آخر جاء من أسبانيا الآباء المكلفون بافتداء الأسرى المسيحيين ومعهم عدد من الأسرى المسلمين من أجل مقايضتهم . لكنهم أجبروا على العودة بحمولتهم . حيث لم يرض داي الجزائر بيع الضباط الأسرى بأسعار عادية[59] .

وكان الأسبان من جهتهم يرفضون في بعض الأحيان فدية الجزائريين ، فقد ورد في كتاب رحلة حمدوش أنه في عهد الداي إبراهيم [60] رفض النصارى فداء المسلمين، وخصوصا ابن الحاج موسى [61] ونظرائه من الرياس . وكان موقف الداي أن ((غضب أميرنا إبراهيم باشا صانه الله ، وحلف ألا تبقى كنيستهم في الجزائر ، وكانت لهم كنيسة عظيمة ، إن لم يأتوا بهم بالثمن ، فصولح عليهم أن تغلق الكنيسة إلى أن يوجهوا منهم من يقوم بما أراد ، وإلا هدمت فغلقوها وذهب منهم من ذهب))[62].

إن هذا النوع من المواقف تجاه تحرير الأسرى يبين درجة التوتر في العلاقات بين البلدين الذي استمر إلى غاية سنة 1786، التي توصل فيها البلدان إلى إبرام معاهدة أسفرت عن إطلاق سراح الأسرى من الجانبين. ورغم ما أسفرت عنه هذه المعاهدة من تحرير الكثير من الأسرى ، غير أنه ظلت أعداد منهم قابعة في المعتقلات الأسبانية مما دعى بالحكام إلى السعي لتحريرهم .فقد ذكر الرحالة الزياني أن الداي حسن باشا [63] قد اهتم بفك<< الأسرى المسلمين من جميع أيالة الكفار ، والبحث عنهم في القرى والأمصار ، قاصدا بذلك وجه الله وابتغاء مرضاته >>[64].

6 . تبادل الأسرى:

والمقصود به تبادل الأسرى بطرق رسمية . فنتيجة لاستمرار البلدين في حالة حرب، لم يقع تبادل للأسرى بواسطة القنوات الرسمية ، رغم ما ذكرناه عن حرص الحكام الجزائريين على استعادة مواطنيهم لحرياتهم. ومن جانبها كانت السلطات الأسبانية تتخذ من وجود أسراها بالجزائر ذريعة لضرب الجزائر. فقد جاء في تقرير عن تحرك أسباني يوحي بتنفيذ مخطط لضرب مدينة الجزائر . وذكر صاحب التقرير أن تحطيم الجزائر في اعتقاده يتطلب إعدادات كبيرة . وذكر أنه يوجد في الوقت الراهن الكثير من العبيد ، ومن أجل تحريرهم لا بد من إنفاق مبالغ مالية طائلة ، وكان على أسبانيا اختيار هذا السبيل ، والمتمثل في تشكيل قوة عسكرية وإرسالها لضرب مدينة الجزائر، ومطالبة قائد القوات

مقايضة الأسرى الأسبان بالأسرى الأتراك والعرب الموجودين حاليا في أسبانيا ، وأن يشترط تسليم الأسرى الأسبان بالمجان ، الذين يتجاوز عددهم عدد الأسرى المسلمين. وعن طريق التفاوض يمكن تحريرهم بدفع مبلغ رمزي أقل من المبلغ الذي طالب به الداي إلى غاية هذا الوقت من الآباء المكلفين بافتداء الأسرى[65]

وكان بعض الأسرى المسلمين يسترجعون حرياتهم بفعل مقايضتهم بأسرى مسيحيين بواسطة تجار من الأوربيين ، كان ذلك يتم ذلك إثر شرائهم من مالقة وبالما وغيرها من المدن الأسبانية والأوربية الأخرى ، ليتم نقلهم إلى مدينة الجزائر أو إلى تونس لمقايضتهم بأسرى مسيحيين[66] . فقد ذكر الأب فرنثيسكو خيمينت ، أنه في سنة 1722 وقع تبادل الأسرى المسلمين في برشلونة مع الأسرى المسيحيين في وهران[67] .

وعرفت طريقة التبادل تطورا ملحوظا خلال منتصف القرن الثامن عشر ، ففي سنة 1755 عرض رجال دين مسيحيون على الداي تحرير 370 أسيرا جزائريا مقابل 20 أسير مسيحي كانوا محل اهتمام الملك الكاثوليكي،فقبل الداي العرض[68] .

أما على الصعيد الرسمي فقد أقدمت أسبانيا سنة 1767 على افتداء عدد كبير من الأسرى النصارى ، وفي المقابل أطلقت سراح المسلمين المؤبدين للأشغال الشاقة في سفنها ، وهذا أمر حدث لأول مرة منذ قرنين ونصف ، ولم توافق حكومة أسبانيا قبل 1786 على افتداء الأسرى المسلمين ولا على مبادلتهم بالنصارى الأسرى حتى لا تقوى - في نظرها - صفوف المسلمين . ولهذا كان المسلم الجزائري إذا وقع في قبضة الأسبان يئس أهله من عودته ، وكانت أملاكه توزع على ورثته باعتباره مفقودا [69] . وكان يتم في بعض الأحيان استبدال الأسرى المسيحيين بأسرى جزائريين ، وقعوا في يد الأعداء . ففي سنة 1769 تبادل البلدان أكثر من 1300 أسير من بينهم 25 قبطانا[70] .

وفي سنة 1773 تم التوصل إلى اتفاق آخر ، واشترطت الجزائر فيه فك أغلال أسيرين مسلمين مقابل كل أسير أسباني ، وهكذا أطلقت أسبانيا سراح 1106 من المسلمين ، وهم كل ما كان لديها ، مقابل إطلاق الجزائريين سراح 570 من الأسبان [71]. وفي عام 1776 أبرم الطرفان اتفاقا لتبادل الأسرى ، فأطلقت أسبانيا سراح 1200 أسيرا مسلما ، كانوا مسخرين للتجديف في السفن الأسبانية . وفي المقابل أطلقت الجزائر سراح 712 أسيرا مسيحيا أسبانيا مقابل مبلغ مالي[72] .

وفي سنة 1783 جدد الاتفاق السابق ، فأطلقت أسبانيا سراح 1106 أسير جزائري ، وأطلقت الجزائر سراح 570 أسيرا أسبانيا [73] . لكن ذلك التبادل للأسرى لم يكن لينهي سياسة العداء بين البلدين ، فقد شنت أسبانيا في نفس السنة حملة على مدينة الجزائر ، وأتبعتها بحملة أخرى في السنة الموالية (1784) . وبعد عامين توصل الطرفان إلى توقيع معاهدة الصلح بعد تبادل العديد من الرسائل بين الطرفين، نذكر منها الرسالة التي بعثها الملك الأسباني كارلوس الثالث إلى الداي محمد عثمان باشا مؤرخة في 25 أبريل من سنة 1785 أخبره فيها بأنه سيرسل له شروط الصلح بعد أن يمضيها الوزير الأول الأسباني .

وهكذا فتحت معاهدة الصلح الموقعة بين البلدين في سنة 1786 مجال تبادل الأسرى بشكل واسع ، وهذا ما سمح للأسبان في عهد محمد باشا بالمجيء إلى الجزائر ومعهم عدد من الأسرى الجزائريين تم إبدالهم بأسرى مسيحيين فقد جاء في مذكرات نقيب الأشراف ما نصه : << فلما كانت سنة 1199هـ أتى الأصبانيول للصلح ، وأتى معه بالأسرى الذين عنده وأبدلهم بالنصارى الأسرى. أما الأسارى الباقون من الأصبانيول فدفع عنهم ألف دورو على الرأس>>[74].

وذكر أحد الكتاب الأوربيين بأنه عقب توقيع الصلح مع أسبانيا 1786 قدمت "هيأة أباء الشكر" إلى الجزائر لاسترجاع الأسرى الأسبان مقابل الأسرى المسلمين من ترك وعرب . ولكن الداي أقدم على بيع الأسبان ، وترك الترك والعرب في أسر الأسبان إلى أن افتداهم سلطان المغرب مولاي محمد ، حيث أطلقهم ملك أسبانيا إكراما له[75] .

إن ما ذهب إليه (دي بارادي) يتناقض مع ما ذكره الزهار في الفقرة السابقة الذكر. غير أنه لا يمكن تجاهل دور سلاطين المغرب في تحرير الأسرى الجزائريين ، فقد تبين من أحدى الرسائل كتبها أحد الأسرى الجزائريين مؤرخة في السادس يوم من شعبان عام 1119 هـ.الموافق لشهر نوفمبر 1707 الذي استفاد من هذه العملية يدعى عثمان بن قاسم الجزائري الأعرج . بين فيها وضعيته فقال: ((وقعت أسيرا في صبانية مدة سنين ، وخرجني مولاي اسماعيل[76]. من جملة الأسرى الذي خرج من صبانية خمسة عشر ماية أسير خرجهم مولانا إسماعيل وخرجني من جملتهم ومشينا عنده بقصد الملاقاة به والحضور بين يديه لينظر إلينا . فعند ذلك ودعنا وودعناه وأرسل كل غريب إلى بلاده)) [77]. وفي بعض الأحيان كان بعض السلاطين يتوسطون لأسبانيا لدى الجزائر من أجل افتداء الأسرى الأسبان في الجزائر عن طريق التبادل . وبواسطة هذه العملية تحصل المئات من الأسرى الجزائريين على حرياتهم .

وقد كان سلطان المغرب محمد بن عبد الله [78] ، يعطي للسياسة والحوار الديبلماسي الأولوية على الحروب ، في المشاكل الدولية ، وطور أسطوله الحربي الصغير ليكون في خدمة هذه السياسة الخارجية ، ولكي يظهر الدليل على إخلاصه للحوار الديبلماسي ، اتجه إلى تحرير الأسرى المسلمين والمسيحيين ، وبذل مبالغ مالية هامة لهذا الغرض . ولهذا وسطته أسبانيا لافتداء أسراها بالجزائر . وبعد محاولات عديدة ؛ نجح في عام 1760 في أن يرسل بعثة إلى الجزائر أشرف عليها كاتبه الذي سلم للجزائر 1600 أسير ، وتسلم منها نفس العدد من الأسرى الأسبان ، وتم شراء الباقي من الأسرى الأسبان بالأموال ، ألف ريال لكل ضابط ، وخمسمائة ريال لكل جندي بسيط[79]. ومما يؤكد جهد هذا الملك في تحرير المسلمين الموجودين لدى الأسبان عثورنا على رسالة في أرشيف التاريخ الوطني بمدريد وجهها إلى حاكم سبتة مؤرخة في 8 شعبان 1193هـ الموافق لـ 21 أوت من سنة 1779م طلب منه تبليغه عن هؤلاء الأسرى الموجودين في أسبانيا بعد أن أبلغه بتسليم بلاده واحد وعشرون أسير أسباني كانوا في الجزائر نذكر منها هذا المقطع ((...فقد وجهنا إليك مع كاتبنا محمد بن عثمان القائد أحمد العتا في ثلاثة وعشرين من النصارى اصبنيول منهم أحد وعشرون الذين كانوا عند أهل الجزائر أحدهم فرانصيص واثنان هربوا من مليلية . وكان ما يقوله لك كاتبنا السيد محمد بن عثمان على شان الأسارى فأنا أمرته بتبليغه لك ونؤكد عليك أن تعلمنا بما عندكم في أصبانية من أسارى المسلمين في زمام مبين فيه جميعهم أهل الجزائر وأهل تونس وطرابلس وغيرهم)) [80]. ومن دون شك أن القائمة التي تم ذكرها فيما سبق تندرج ضمن هذا الطلب .

7 . طريقة الفرار:

إلى جانب الطرق السابقة ؛ كان بعض الأسرى الجزائريون يستعيدون حريتهم عن طريق الفرار من السفن الأسبانية ، أو يفدون أنفسهم بأنفسهم . فقد استغل الأسرى المسلمون ـ الذين كانوا مسخرين للتجديف في السفن الأسبانية ـ الوضع خلال غزوة شارلكان على الجزائر 1541 ، فكانوا يتتبعون سير المعركة باهتمام ، ولما أجبر الجيش على الانسحاب استغلوا هذه الفرصة ، فتركوا التجديف واندفعوا وهم مكبلون بالسلاسل يفتحون لأنفسهم طريق النجاة . وقد نتج ذلك التصرف ارتطام 16 سفينة حربية بالساحل لفقد الجدافين . وتمكن خلال هذه العملية 1800 شخص من التحرر[81] .

وفي نهاية عام 1679 تمكن سبعة من الأسرى الجزائريين الذين كانوا على متن سفينة أسبانية من نوع غاليرا ، من تحطيم أغلالهم الحديدية والفرار على متن قارب على أمل الوصول إلى الجزائر . لكنهم تعرضوا للأسر من جديد على يد مركبة فرنسية ، ثم اقتيدوا إلى مرسيليا [82].

وورد عن الأب فرانسيسكو خمينيث [83]، الذي حضر إلى وهران سنة 1718، فذكر أنه ((جاء معنا 66 مسلما من كل الأجناس من أصيلي جهة وهران، وقد تمكنوا من افتداء أنفسهم بفضل ما حصلوه من عملهم في أسبانيا ، وكانوا يذكرون إلى الباي بوشلاغم أنهم في قرطاجنة يتعرضون إلى معاملة سيئة ، وأن الأطفال لا يتركونهم يدفنون موتاهم ، فأبدى لنا الباي غضبه عندما اشتكى لنا من هذا الموضوع))[84] .

8 . معاملة الأسرى :

وفي ختام هذه المعالجة الخاصة بالأسرى الجزائريين لدى الأسبان نتساءل عن المصير الذي كان ينتظرهم . فنذكر أن الكثير منهم كانوا يحولون إلى عبيد ، يباعون في وهران إلى تجار العبيد ، ومنهم من كان يرسل بهم إلى أسبانيا لأن هناك عددا كبيرا من الزبائن من يود شراء أكبر عدد من الأسرى . وهناك من الأسرى من كان يوجه إلى التجديف في السفن مكبلين بالأغلال . ومنهم من كان يوجه نحو الأشغال الشاقة فور وصولهم إلى الأراضي الأسبانية ، فكانوا يوزعون للعمل في المنازل كخدام ، أو يتم إرسالهم إلى المؤسسات أو إلى السفن الملكية بما فيهم النساء. حيث كانت امرأة من تلمسان في خدمة الكاردينال أراغون[85].

وفي المقابل كان الأسرى الأسبان في الجزائر يحظون بحسن المعاملة حسب ما جاء في مذكرات بعضهم . فقد ذكر كاثكارت في مذكراته أنه << كان في استقبالنا "الرايس" أو القبطان سفينة وهو عربي مسن ومحترم ، كان قد قضى سنين عديدة في الأسر في أسبانيا ثم في جنوة . إنه رجل طيب بدون شك. وقد وجه إلينا الحديث قائلا : أيها المسيحيون إن حظوظ الناس في العالم شديدة التقلب ، سوف تألفون حالكم . وأنا شخصيا كنت عبدا في السابق ، وسوف أعاملكم معاملة أفضل من التي لقيتها . خذوا شيئا من الخبز والعسل وفنجان القهوة ، والله كفيل بأن ينقذكم من تعاسة العبودية، كما أنقذني أنا مرتين >>[86].

وذكر أسير آخر كان في مدينة الجزائر أن الأسرى المسيحيون في الجزائر لم يموتوا في العبودية ، فقد كان بعضهم يفر والآخرون يفتدون [87].

وورد عن الأسير تيدنا الذي كان أسيرا لدى باي معسكر في مذكراته : <<
كان كل ما قاله لي هؤلاء الشباب يعد لغزا بالنسبة إلي ، ولم يعمل إلا في زيادة دهشتي أكثر فأكثر وقلت لنفسي : ما كل هذا ؟ أين هي تلك البربرية واللانسانية التي تنسبها معظم أوربا لهذا الشعب الذي أنتمي إليه حاليا ، ألا يمكن أن يكونوا إنسانيين تجاهي فقط ، فقلت لنفسي : لا . وواصلت القول : يجب على من ينسبوا إليهم مالا يشرفهم أن يعرفوهم أولا ، لأنهم لم يعيشوا أبدا معهم . وواصلت القول : أملنا أن يعامل العبيد من الترك الموجودين بين أيدي الأسبان والنبوليتانيين ، والجنويين والمالطيين مثل ما يعامل المسيحيون ،وهم أشخاص وصفوا بالوحشية وذلك من أجل كل الإنسانية))[88].

ورغم كل هذه المعاناة التي عاشها الجزائريون خلال تلك الفترة إلا أن هناك من بعض الفئات الجزائرية قد تعاونت مع الأسبان سواء كانت برضاها أو غير رضاها، وشكلت فئة اجتماعية تميزت بهذه الخاصية ، هذا ما سنعالجه في الفصل التالي .

هوامش الفصل الثالث:

(1) عبد الله حمادي : جزائر القرن السادس عشر من خلال وثائق بعض الأسرى ، المصادر ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ، مارس 2002، العدد : 6 ، ص.270 .
(2) Montanes : Op.cit., R.A., T.9, 1865, p. 412.
(3) جوليان : مرجع سابق ، ج.2، ص.324 .
(4)مارمول : مصدر سابق ، ج.2 ، ص. 311.
(5) حدد حسن الوزان موقعها ، بأنها ميناء صغير يقع قرب رأس هون .
(6) Primaudaie : Documents, R.A.1875, p.17.
(7) Ruff: Op.cit., p.94.
(8) تبعد عن يلوس (Yelos)بعشرين كيلومتر ،التي تبعد بدورها عن وهران بنفس المسافة.
(9) veronne: Populations.., Op.cit., pp.167-168 .

(10)Veronne: populations.., Op.cit., p.168.
(11) على بعد حوالي 44 كلم جنوب وهران ، قرب وادي الهبرة.
(12)Malki: Op.cit., p.190.
(13) J.Casenave : Deux razzias mouvementés des espagnols d'Oran au XVI[e] siècle B.S.G.O, 1925; p.285.
(14) Montanes: op.cit., pp.72-77.
(15)Malki: pp.185-186.
(16) Malki : Op. cit.,p.162 .
(17) Montanes: op.cit., pp.79.
(18) Malki:p.163- 164.
(19) عن الحصون الأسبانية في وهران ، أنظر الفصل الرابع من هذه الأطروحة.
(20) Vittu: Un document sur la Barbarie en 1680-1681, la relation de voyage du sueur Dancour, C.T., 1977, p.300.
(21) Rotalier : Op. cit., t.1, pp.298-299.
(22) مارمول : مصدر سابق ، ج.1، صص.509-510.
(23)Belhamissi: Marine.., t.2, p.156.
(24) Ibid., p. 160.
Plantet : Op.cit., t.2, p192.
أنظر Ibid., pp.190-192.
(26)نص الرسالة في:
(27) Pestemaldjoglou, (A .): Le consulat Français d’Oran de 1732 à 1757 , R.A., t.86, 1942, , p.236.
(28) Belhamissi: Marine.., t.2, p.158.
(29) Ibid.: t.2 , p.159.
(30) Ibid.: t.2, p.159.

(31)Braudel : La Meditérranée .., Op. Cit., t.2, p.197.
(32)Belhamissi: Les captifs .., Op.cit., p.21.
(33) Lettre de Sartine , secrétaire d'état de la marine a Baba Mohamed, Dey d'Alger, Versailles , le 22 décembre 1777, Eugène , t.2, pp.349-351.
(34) إلى جانب المدن الأسبانية كان عدد من الأسرى الجزائريين يرسل بهم إلى مدن أوربية أخرى مثل البندقية ، نابولي ، جنوة ، لشبونة.
(35) veronne: Populations.., Op.cit., pp.167-168.
(36) Malki : op.cit., p187.
(37) Ibid. : pp.187-188.
(38) Ibid. : p.190.
(39) Bartolomé Bennassar: Lucil Bennassar, Les chrétiens d'Allah , l'histoire extraordinaire des rénégats 16-17è siècles, Perrin , Paris, 1989, p.19.
(40) Salvatore Bono : Les corsaires en Méditerranée , ed. La Porte, Edif 2000 , Cahors , 1998 , p.216.
(41) Ibid.: p.216.
(42)Vicente Graullera Sanz : La esclavitud en Valencia en los siglos XVI y XVII, Instituto Valenciano de Estudios Historicos, Valencia, 1978, p.133.
(43) Salvatore Bono: Achat d'esclaves turcs pour les galères pontificales (XVI[e]-XVIII[e] siècle),ROMM, 1[er]sem., 1985, N[o]39, p.86.
(44) Sanz: p.134.
(45)Belhamissi, Les captifs.., Op.cit., p36.
(46)A.H.N., Estado, leg.3562/2.
(47) فوزي سعد الله : يهود الجزائر هؤلاء المجهولون ، دار الأمة ، ط.2، 2004، ص.141.
(48) Veronne: Oran et Tlemcen.., Op.cit., p.15.
(49) أبو عبد الله الأعرج : تاريخ الجزائر بين قيام الدولة الفاطمية ونهاية ثورة الأمير عبد القادر ، تحقيق ، الدكتور ، حساني مختار ، نشر المكتبة الوطنية الجزائرية، د.ت ، ص. 181−180 .
(50) الزهار: مصدر سابق، ص.34.
(51) مولاي بلحميسي : صفحات من تاريخ العلاقات الجزائرية الأسبانية ، معاهدة 1786 بين الجزائر وأسبانيا سبب إبرامها مضمونها نتائجها ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، العدد ، 11، 1974، ص.9 .
(52)Veronne: Oran et Tlemcen..0p.cit., p.15.
(53) L.Guin : Op.cit., p.321.
(54) حدد حسن الوزان موقعها ، بأنها ميناء صغير يقع قرب راس هون .
(55) Primaudaie: Documents.., R.A.1875, p.17.

(56) الرسالة مؤرخة في مارس 1695، الثانية في أكتوبر 1695، أما الثالثة في جوان 1696 . مكتوبة باللغة التركية ولها ترجمات باللغة الأسبانية ، وهي محفوظة في قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية مدريد ، ولي نسخ مصورة من هذه الرسائل.

(57) المكتبة الوطنية مدريد ، قسم المخطوطات ، MSS/5065

(58) Jaques Wilhem :Captifs chrétiens a Alger , Extrait Revue des Sciences Politiques, Librairie Felix Alcan , Jan.-Mars , Paris 1933, T.LVI,p.133.

(59) Ibid., p.133.

(60)حكم بين عامي(1732-1745).

(61) ذكر عنه أنه أحد البحارة المشاهير ، لا يشبهه إلا الرئيس حميدو.

(62) عبد الرزاق بن حمدوش : رحلة ابن حمدوش الجزائري ، المسماة: "لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال" ، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور أبو القاسم سعد الله ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1983 ص.119.

(63) حكم الجزائر بين (1791-1798).

(64) بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات...، مرجع سابق ، ص.188.

(65)A.G.S., Marina, Leg.482, pp.2-3.

(66)Bartolomé : Op.cit. , p.19.

(67) د. ميقال دي إيبالزا والهادي الوسلاتي :ملاحظات أب أسباني يزور وهران في عهد مصطفى بوشلاغم ، المجلة التاريخية المغربية ، 1978، العدد: 12، ص.193.

(68) Belhamissi : Les captifs .., pp.84-85.

(69)بلحميسي : صفحات..، مقال سابق ، ص.7.

(70)Belhamissi : Les captifs .., pp. 85.

(71) المدني : مرجع سابق ، ص. 509 .

(72) بوعزيز : وهران ، صص. 96-97.

(73) نفسه : ص.97 .

(74) الزهار : مصدر سابق ، ص.34 .

(75)Venture De Paradis : Alger au XVIII e siècle , R.A., 1896, t.40, p.38.

(76) حكم الدولة العلوية ما بين 1672–1727.

(77) أنظر النص الكامل للرسالة في : قنان : نصوص ووثائق ، مرجع سابق، صص. 144–145.

(78) حكم الدولة العلوية بين 1747 – 1792.

(79) يحيى بوعزيز ، أسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس ، مجلة التاريخ ، المركز الوطني للدراسات التاريخية ، رقم 25 ، 1983 ، ص.26 .

(80) A.H.N. Estado, leg.3565/2.

(81) Michel Hérvé : Les débuts de la Régence d'Alger de 1518 à 1566, Corlet, Paris, 2005, p.109.
(82) Lucien Misermont , Le double bombardementd Alger, extrait de la revue des etudes historiques janv.-juin Picard, Paris,1905, p.93.
(83) ولد في طليطلة سنة 1685 ، اهتم بحالة الأسرى الأسبان الذين أسروا بعد سقوط وهران في يد الجزائر سنة 1708 ، وتوزعوا على بلاد المغرب العربي ، كان مهتما بجمع المعلومات وتسجيلها ، حيث خلف سبعة مجلدات ، ثلاثة منها تخص رحلته إلى وهران والجزائر من 1717 إلى 1720 ، وأربع مجلدات تتحدث عن تونس من 1720 إلى 1735.
(84)ميغال دي إيبالزا : ملاحظات أب أسباني يزور وهران في عهد مصطفى بوشلاغم ، المجلة التاريخية المغربية ، 1978 ، العدد 12 ، ص.199.
(85)Belhamissi: Les captifs.., p.36.
(86) كاثكارت : مذكرات أسير الداي كاثكارت ، قنصل أمريكا في المغرب ، ترجمة وتعليق اسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982، ص.18.
(87) Wilhem : Op.cit., p.131.
(88)عميراوي احميدة : الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني مذكرات تيدنا أنموذجا ، دار الهدى ، عين مليلة ، 2003 ، ص.56 .

الفصل الرابع

تعاون بعض القبائل الجزائرية مع الأسبان

من بين ما ترتب عن الوجود الأسباني فترة أطول في المرسى الكبير ووهران اتجاه بعض القبائل إلى التعاون مع الأسبان . وقد جعلهم موقفهم هذا يشكلون فئة من المجتمع الجزائري التي نزعت إلى سلوك كان قد ساهم من دون شك في تعزيز وجودهم في المنطقة . أصبح يطلق عليهم يطلق عليهم اسم (

العرب المتنصرة) ،كما أطلق عليهم نعت آخر أكثر شهرة وهو (المغطسون) .
وحسب ما جاء في كتاب "بهجة الناظر" أن المغطسين في الأصل هم أفراد قبيلة كرشتل الذين كانوا يقدمون الأخبار إلى الأسبان في وهران أو يبيعون إليهم أشخاصا ، وأصبح هذا النعت يطلق على غيرهم من الناس الذين عملوا مثلهم . ((وكيفية التغطيس أنهم يأتون بدوابهم للدواوير على صفة الحضر المتجولين البائعين للعطرية ومعهم مناطقة من الجلود الفلالية ، فإذا وجدوا خبرا جلبوه للنصارى ، وإذا رأوا فرصة في الصغير أو الكبير أخذوه وجعلوا الجلود على فيه كي لا يتكلم وحملوه على دوابهم ومشوا به ليلا إلى وهران)) [1] .لقد ترتب عن توجه هذه القبائل إلى سلوك اتسم بربط علاقات مع المحتلين الأسبان مما أحدث شرخا في صفوف المجتمع الجزائري . فكانوا كما وصفهم صاحب كتاب بهجة الناظر << خدمة لهم ومن حملة جيشهم وكثر بهم السواد على المسلمين ، فكانوا لهم عليهم أعوانا ، وفي الدين الفاسد لهم إخوانا ، فشنوا لهم الغارات وانتفعوا هم فيما يحتاجونه من الدواب والأقوات >> [2].

1 . بداية اتصال الأسبان مع السكان المحليين :

تعود جذور هذه العلاقة إلى أعقاب احتلال الأسبان للمرسى الكبير سنة 1505، عندما فتح الأسبان سوقا تجارية بجوار المدينة المحتلة من أجل تزويدهم بما يحتاجونه من المحاصيل الزراعية والحيوانية . مقابل ما كان عند الأسبان من الذهب والفضة. لكن جماعة المسلمين اعتبرت أولئك المتعاونين خونة وعاملتهم معاملة العداء ، وأخذت توجه ضدهم الغارات ، والهجوم على سوق التعاون هذا بصورة دائمة ، استمر ذلك الموقف إلى أن احتل الأسبان مدينة وهران[3].

وبعد احتلالهم لوهران زاد اهتمام الأسبان لكسب ود العرب القاطنين حول المدينة ، والتوسع في هذا النطاق . فإلى جانب الأسلوب العسكري الذي أشرنا إليه سابقا كان الملك الأسباني فيليب الثاني جادا توسيع نفوذه في هذه البلاد . ولهذا الغرض حضر لديه سيرفانتيس بداية سنة 1581 ، وهو في مدينة تومار[4](Tomar). وهناك أسند إليه مهمة سرية في إفريقيا والمتمثلة في الذهاب إلى وهران وتقديم إلى حاكمها تعليماته . وكان الماركيز دي كورتيس (Marquis de Cortes) يتبع سلوك من سبقه ، وهو دون دييغو فيرنانديز القرطبي[5] (don diego Fernandez de Cordoba). فتوجه إلى التوسع نحو المناطق الداخلية ، حيث تفاوض في تلك الأثناء مع بعض القبائل المحلية وخاصة مع قائد مستغانم ، هذه المدينة التي كانت تعد الميناء الأكثر أهمية في

المنطقة بعد وهران . ومنذ ما يقرب من 60 عاما ، بذل الحكام الأسبان كل ما في وسعهم من أجل التوسع وإقامة محميات . فقد تمكن من بسط سيطرته على القبائل القوية بغرض زعزعة نفوذ سلطة الدولة الجزائرية في نفوذها على مدينة تلمسان وعلى مدينة مستغانم . وبهذه الصورة كانت حكومة وهران تعمل على تنفيذ مشاريع التحالف مع زعماء القبائل العربية المجاورة ، وتطالب بإرسال المزيد من الأسلحة والجنود كلما استعدت الضرورة [6].

2 ـ أهم القبائل التي تحالفت مع الأسبان :

لقد تحالف مع الأسبان عدة قبائل ذكرها المشرفي في كتابه "بهجة الناظر"وهي :

ـ **كرشتل** : وهي قبيلة من زناتة تنسب إلى جدها كرشتل بن محمد المغراوي، كانوا يقطنون عند مصب نهر الشلف في البحر، ثم انتقلوا إلى مزغران غربي مستغانم ثم إلى سيرات الواقعة في شرق مستنقعات المقطع شمال المحمدية ، اشتغلوا بالزراعة والتجارة . كانت مهمتهم لدى الأسبان تتمثل في نقل الأخبار وبيع الناس إليهم ، وهم الذين سموا بالمغاطيس[7]. ويذكر عنهم أنهم باعوا إمامهم الذي كان يصلي بهم إلى الأسبان في غفلة منه .

ونسب إليهم أنهم كانوا يقومون بهذه الأعمال رغبة في جمع المال . وقد أدت صلاتهم بالأسبان إلى الاستقرار حول وهران . وكانت لديهم ((زوارق يسافرون فيها من مدشرهم لوهران إذا اشتد عليهم الأمر وسدت عليهم الطرق البرية، يحملون فيها للأسبانيين سائر الخضر ونحوها. وكان الأسبانيون لا ينقطعون عنهم في البحر لأخذ ما يفتقرون إليه من عندهم ، وكان من الكرشتليين بعض الأعين للنواحي الشرقية والقبلية)) [8].

ـ **قبيلة شافع** : وهم بطن من بطون بني عامر [9] ، من قبائل العرب كانوا متفرقين في الجزيرة العربية ، ثم هاجروا إلى الشام ومصر، ومنها زحفوا إلى المغرب الإسلامي سنة 1050م/442هـ في نطاق هجرة بني هلال ، ينسبون إلى جدهم شافع بن عامر بن زغبة الهلالي ، كانوا يقيمون بالعين البيضاء بملاتة، وكذا في جبال سيدي سعيد التلمساني . كان منهم جنود للأسبان في وهران ، وكان منهم الرعية للنصارى لدرجة أنهم وصفوا بأنهم ((هم الأسبانيون دون غيرهم من إخوانهم من بني عامر))[10]. كان عددهم حوالي عشرين دوارا . اتصفوا بشدتهم وقدرتهم على القتال ، ولهذا استند عليهم الأسبان في توجيه الغارات على العرب الذين رفضوا الخضوع لنفوهم ، كما كانوا يقدمون لهم الأخبار، وأعانوهم على سبي الناس من بني دينهم[11] .

ـ **قبيلة حميان** : ينسب أفرادها إلى جدهم حميان بن عقبة ، كانوا من جملة جند الأسبانيين النصارى ، أقاموا في ملاتة بأرض الحفرة وما جاورها ، ثم رحلوا إلى ضواحي تلمسان ، ومنها انتقلوا إلى قرب المقطع . وكان عدد سكانها يتوزعون على أكثر من ثلاثين دوارا . يذكر عنهم أنه كانت لديهم رغبة شديدة في الميل إلى النصارى ، وبعد الهجوم الذي شنه إبراهيم باشا [12] على وهران لتخليصها من الأسبان ، إذ صعد إلى الجبل المطل على وهران ، فنصب فيه مدافعه وآلات إلى هذا أشار محمد أبو راس في سينيته في الأبيات التالية:

أتاها باشة إبراهيم وسط حاد من القرون من بعد الألف للوطس

قام بالمـائدة حينـا يزاولـها ثم قفا درجة من فتحـها آيـس

بعد هذه الحادثة تفطن الأسبان لأهمية هذا الموقع الجبلي في تأمين مدينة وهران ، فأقاموا عليـها قلعة حصينة منيعة أطلقوا عليها اسم سانتا كروز (Santa Cruz) ، وعندما صعب عليهم التزود بالمياه الضرورية قام شيخ آل حميان بنقلها إليهم[13] ، وذكر أن شيخ آل حميان هو الذي نصح الأسبان ببناء الحصن المذكور . وقد هجاهم بعض الأدباء إثر هذا التصرف الذي قام به شيخهم في مساعدة الأسبان ونصحهم على بناء الحصن فقال :

لأنكب ألمـا من قرية لمن يقـول أنا حميـاني

أدفـع الكلـب مع ربه وقل قلبه ما زال نصراني[14]

ولما أعجبوا برأيه خشوا من فتكه بهم وقالوا:<< المدبر لنا مدبر علينا>>. فنووا الفتك به ، وشرعوا في بناء هذه القلعة وحفروا بقرب أساسها بئرا شديد العمق، وألقوه فيه[15] .

ـ **قبيلة غمرة** : وتنسب إلى جدها غمرة البربري ، يذكر أن أصلهم من برقة ثم انتقلوا إلى المغرب ، ومنها رحلوا إلى الحفرة وراء وهران مع حميان . كان سكانهم يتجمعون فيما يزيد على ستة دواوير. وفي مجال علاقتهم مع الأسبان ذكر المشرفي أنهم ((نصروا الأسبانيين نصرة شديدة على المسلمين ، حتى كانوا لهم عضـدا في كل شيء))[16].

ـ **قبيلة قيزة :** ينسبون إلى جدهم قيزة عامر بن إبراهيم ، وهم فرقة من بني عامر ، كانوا يقيمون بنواحي تارغة ، وباسمهم تسمى الجبل الذي يقال له جبل جيزة. ولما لحق بهم إخوتهم الونازرة ، انتقلوا وسكنوا في ضواحي تمزوغة [17] وواد الغسول . كان عددهم حوالي ثلاثة عشر دوارا . اشتهروا بشدة البأس ، وتسلطهم على إخوانهم المسلمين ، حتى أطلق عليهم لفظ "اللصوص". عرفوا

بمناصرتهم للنصارى في وهران لدرجة أن الأسبان في هذه المدينة عندما كانت تضيق بهم دائرة الحصار من قبل المسلمين ، كانوا يسكنون معهم هؤلاء العرب ، في الأبراج والفضاء الذي بمنطقة مرجاجو، بين حصن اليهودي وحصن العيون . عرفوا بتجسسهم على المسلمين وتقديم أخبارهم إلى الأسبان. كما كانوا يغيرون عليهم ، فيسبون منهم ويفتكون بهم . هذا السلوك جعل صاحب كتاب " بهجة الناظر" يذكر عنهم أنه ((كان منهم المحنشون[18] المغطسون)) [19].

ـ **قبيلة أولاد عبد الله التالي** : وهي إحدى فرق بني عامر ، ينتسبون إلى جدهم عبد الله بن سقير ، كانوا يقيمون في وادي الثلاثاء بمنطقة ملاتة جنوب وهران ، انتشر وجدوهم إلى المطمر الأحمر بوادي مينا . انفردوا عن غيرهم من القبائل السابقة بصلتهم باليهود إلى جانب صلتهم بالأسبان ، فقد ذكر المشرفي في كتابه " بهجة الناظر في قوله : ((لقد أخبرني من أثق به من كرشتل أنه رأى العامري يقبل يد اليهودي فضلا عن النصراني من الجهتين تشريفا له))[20]. وذكر عنهم أنهم كانوا في علاقة المصاهرة مع اليهود والأسبانيين ((فلا ترى إلا العامرية في بيت الكافر تجول وأهلها في غاية الفرح)) [21] . كما نسب إليهم أنهم كانوا مع إخوانهم المسلمين ، وليس لهم غيرة على الإسلام ، حتى أن أحدهم اسمه أبو نصابية[22] وصف بالكافر عندما نسب إليه قتل الباي شعبان عند باب وهران سنة 1098 هـ/1686 م واجتز رأسه[23]. إثر زحفه على وهران على رأس جيش قوامه أربعة آلاف . وأشار الحافظ أبو راس الناصري إلى هذا الحادث في الأبيات التالية:

ءاخره شعبان الزناقي حاصرها فامتنعت وشمشمت أيما شمس
أوطى الفيلق الجرار لأراضيهم به هامت دمعهم من زكا وخس
دارت حروب عظام بينهم قد أتى ءاخر أمرها باستشهاده النفس[24]

ـ **أولاد علي** : وهم فرقة من بني عامر ينسبون إلى جدهم علي بن عامر ومسكنهم ببلاد ماخوخ [25].كانت تتشكل من سبعين دوارا ، ولهم ما يزيد عن مائتي فارس يملكها الأعيان منهم ، ورغم قوتهم تميزوا بخضوعهم الكبير للأسبان ، وتقديم العون لهم. فقد شاركوا معهم مرات عديد في غزو قرية الكر [26] . ففي منتصف القرن السادس عشر خرج من وهران أحد رجال أولاد علي مع الأسبان يدعى رابح بن صولة على رأس جيش عربي وأغاروا على الكرط، بل تكرر غزوهم لها ، إلى أن استأصلوا أهلها، فهرب من بقي بها [27] . وذكر عنهم أنهم كانوا أشد إعانة للأسبان وتقديم لهم كل ما احتاجوا إليه من التبن والحشيش

والحطب السمن واللبن والعسل والضأن المعز والبقر والخيل والإبل والبغال الحمير[28].

ـ الونازرة : وهم بطن من بطون أولاد عبد الله ينسبون لجدهم ونزار بن عبد الله. كانوا يتشكلون من ستة دواوير تقطن وادي سنان بنواحي تيموشنت ، ثم انتقلوا إلى نواحي تارقة ، فسكنوا في جبالها مع قبيلة قيزة ، ثم رحلوا مع قيزة وسكنوا بالجبل المطل على وهران في نواحي تمزوغة واستقروا في جبال ملاتة وسهولها اتصفوا بالشجاعة والبأس. ولما احتل الأسبان مدينة وهران كانوا من العرب الذين قبلوا التعاون معهم ، فأصبحوا جنودا لهم وعيونا. وإذا كان أفراد قبيلة غيزة صاروا عند الأسبان لصوصا ، فإن الونازرة صاروا لهم زمالة ، حيث أطلق عليهم هذا الإسم ، المشرفي[29] .

3 . دوافع التعامل مع الأسبان :

قد يتساءل المرء عن الأسباب التي دفعت بهذه القبائل إلى إتباع هذا السلوك. لقد حاول بعض الكتاب الإجابة عن هذا السؤال ومنهم المشرفي الذي أرجعه إلى ضعف الإيمان والطمع ، وذلك في سياق حديثه التالي: << لما قدم الأسبانيين بوهران وانحياز إليهم طوائف من الأعراب الذين ضعف إيمانهم ، فصاروا خدما لهم ، ومن جملة جيشهم وكثر بهم السواد على المسلمين . فكانوا لهم عليهم أعوانا ، وفي الدين الفاسد لهم إخوانا، فشنوا بهم الغارات ، وانتفعوا بهم فيما يحتاجونه من الدواب والأقوات . وسبب ذلك الطمع في غرضهم الفان>> [30].

وإذا بحثنا في تركيبة القبائل التي استقرت في المغرب الأوسط وطبيعة العلاقات التي كانت بينها ، أو بينها وبين السلطات القائمة ، نجد أن هناك صراعا كان قائما ، اختمرت انعكاساته وتجددت أوجهه ، حين ظهر الأسبان على مسرح الأحداث في المنطقة منذ القرن السادس عشر. وفيما يلي عرض لأهم العوامل التي أدت إلى هذا الوضع :

1 ـ يمكن أن نقول أن ذلك الخلاف الذي حدث بين القبائل الموالية للدولة والمعارضة لها ، تعود جذوره إلى الزمن الذي زحفت فيه قبائل بني هلال من الواحات الصحراوية نحو التلال ابتداء من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وازداد ذلك الصراع حدة بعد سقوط الدولة الموحدية وقيام ممالك المرينيين والحفصيين والزيانيين . وقد أدى ذلك الصراع الذي وقع بين بني هلال وبعض القبائل البربرية (بنو عبد الوادي، بنو راشد ، مغراوة ، بنو توجين) إلى تشتت المجتمع الجزائري فظهرت إلى الوجود مجموعة من الإمارات المتصارعة

فيما بينها مثل إمارة تنس والثعالبة وإمارة كوكو. وقد ساعد هذا الانقسام إلى بروز الخطر الخارجي البرتغالي والأسبان ونجاحه في السيطرة على كثير من الموانئ البحرية لهذه الممالك المتنافسة[31] .

2 ـ أدت الظروف السياسية التي عاشتها المنطقة منذ تأسيس الدولة الزيانية ببني هلال إلى اغتنامهم لفرصة طلب المساعدة منهم ، فانتقلوا إلى المناطق المحيطة بتلمسان في عهد يغمراسن خدمة الدولة الزيانية التي كانت في أمس الحاجة إليهم من أجل مواجهة الأخطار الخارجية التي كانت تستهدفها من الموحدين والحفصيين والمرينيين، إلى جانب التنافس الذي كان ينشأ بين أفراد الأسرة الحاكمة ، فكانوا يضطرون إلى الاستعانة بالقبائل العربية مثل بني عامر[32].فكانت الدولة الزيانية تعاني من معاداة قبائل المنطقة ، فقد رفضت قبائل زناتة مثل بني توجين ومغراوة الخضوع لسلطتها ، مما جعل هذه القبائل تقوم بثورات متواصلة ضد سلاطين الدولة انطلاقا من مضاربها . وهذا ما دفع بأمراء تلمسان إلى نقل القبائل العربية الهلالية إلى أراضي تقع ضمن نطاق القبائل المعادية لهم ، وقد أدت تلك السياسة إلى إضعافها وإقلال خطورتها على الدولة . لكن حسابات أمراء هذه الدولة لم تكن دقيقة لأنه بعد ضعف القبائل الزناتية ظهر الخطر المتمثل في بني هلال الذين دخلوا بدورهم في صراع مع الدولة الزيانية وتحالفوا مع قوى خارجية معارضة للدولة الزيانية .

وقد استغلت الدولة المرينية ورقة بني هلال في صراعها مع الدولة الزيانية، ولهذا نقل أبو الحسن المريني بنو عامر إلى منطقة تسالة ثم إلى النواحي المجاورة لوهران . ولعل النموذج التالي يسلط الضوء على تلك الأوضاع . فبعدما استعاد أبو حمو الحكم في تلمسان إثر استيلاء عبد العزيز المريني عليها[33] . وجد الملك الزياني نفسه أمام مأزق التنافس القبلي بين بني عامر وسويد[34] ، فعمد إلى تغيير سياسته ، وأصبح يعهد إلى سويد بمهمة الدفاع عن كيان دولته ، واستعان بهم على إعادة سلطته في المنطقة الشرقية للمملكة ، ولم يرض بنو عامر بجلائهم عن أراضيهم لفائدة سويد وانتهاء نفوذهم في المملكة الزيانية التي دافعوا عن كيانها مدة طويلة . وفي سنة 777هـ/1375م نشبت الحرب بين جيش أبي حمو وحلفائه الجدد سويد وبين قوات بني عامر ، فانهزم بنو عامر وقتل كثير من رجالهم . وهكذا أصبح السلطان الزياني أبو حمو ينتهج سياسة جديدة تعتمد على تحالفه مع سويد وإرضائهم من أجل نيل طاعة قبائل المنطقة الشرقية للملكة ، والاستفادة من نفوذهم لدى المرينيين في إقامة السلم معهم . وأنهى الحلف القديم الذي كان يربط مملكته ببني عامر[35].

3 ـ كانت المناطق التي تواجدت بها القبائل المتحالفة مع الأسبان أغلبها أراضي منبسطة لم تسمح لهم بالدفاع عنها لعدم وجود الحصانة الطبيعية ، مما جعلها معرضة لهجمات الجنود الأسبان ، ولم يكن الأمر مقتصرا على القبائل المجاورة لوهران ، بل امتد إلى جوار مدينة تلمسان ، حيث بث الرعب بين صفوف القبائل خوفا من النصارى. وهذا عكس ما حدث في بجاية حيث لم يتمكن هؤلاء الجنود من الخروج من المدينة لطبيعة الأراضي المجاورة لها ، لأن أغلبها مناطق جبلية يصعب التوغل إلى داخلها وقلة معرفتهم بتضاريسها ، ولهذا كانت قرى هذه المدينة تتميز بشدة تحصينها مما صعب على الأسبان الوصول إليها [36] .

4 ـ ذكر "مونتانيس" أنه بعد احتلال المرسى الكبير ؛ رأى العرب القاطنين في ضواحي وهران أن وضعهم أصبح سيئا خاصة وأن الأسبان قد وصلوا إلى ديارهم، وهم يقتلون ويجرحون ويستولون على الأشخاص ويهدمون كل شيء يقدرون الوصول إليه . ولهذا قرروا طلب الأمان وإعلان الولاء[37] .

5 ـ وجاء على لسان "باليخو" أحد حكام وهران في القرن الثامن عشر أن سبب تعاون العرب معهم يعود إلى تخوفهم من قبائل عربية أخرى والأتراك ، ورد ذلك في سياق حديثه عن العائلات التي كانت تقطن في بلدتي إيفري (Ifre) وكناستيل . وحسبه فإنه لم يكن لهم الجرأة على العودة إلى بلداتهم ، وذلك لخوفهم من أي هجوم قد يتعرضوا له من طرف العرب والأتراك . يوجد 21 عائلة ينتمون إلى قبيلتي أولاد زاير مع شيخها، وأولاد علي. لقد جاءوا إلى هذا المكان من أجل نفس السبب، حتى يكونوا في مأمن [38].

ومهما كانت المبررات فإن ذلك السلوك كان مستهجنا من قبل بعض الكتاب والشعراء، نذكر منهم أحمد بن القاضي السجلماسي الذي نظم قصيدة ينتقد فيها بني عامر على علاقتهم مع الأسبان ، ومن جهة أخرى يناشدهم الإقلاع عن فعلتهم .

فمن مبلغ عني قبائل عامر ولا سيما قد ثوى تحت كافر
وكل كمي من صناديد راشد بتيجانها مع رأسها عبد القادر[38]

4 . صور من التعاون مع الأسبان :

كانت صور التعاون مع الأسبان متعددة ؛ فإلى جانب التعاون الاقتصادي الذي تعرضنا له في الفصل السابق ، كان بعض رجالهم جنودا نظاميين في فرق عسكرية يستعملون في الأعمال العسكرية التي كان يقوم بها الأسبان في الأراضي

المحيطة بوهران والمرسى الكبير . فقد شكل خوزي باليخو (José Vallejo) في سنة 1734 جماعة نظامية من الجنود تتألف من الجزائريين ، وقد عرفوا تحت اسم المغطسين (Mogataces) ، كما كانت تحتوي على العرب اللاجئين إلى مدينة وهران . وظهر ذلك التشكيل بناء على قرار ملكي صدر في 10 ماي 1734 . وقد وافق وزير الحرب الأسباني مبدئيا وأصدر تعليمة رسمية على هذه الفرق العسكرية المساعدة [40].

غير أن تلك السياسة قد اعترتها بعض الصعوبات حددها باليخو في يومياته حيث قال : << تشكلت كتيبة المغطسين خلال شهر جويلية من سنة 1734. وكان من المفروض أن تتألف من 100 فارس عربي ومعهم قبطان ، ملازم ورقيبان . غير أنه حتى الآن لم نتمكن من تجنيد سوى 24 شخصا جيدي التجهيز بسبب النفور الذي أحدثه البرابرة (Barbares) ، حتى لا يكونوا في خدمتنا . ولم نتمكن من شراء سوى عدد من الأحصنة يساوي عدد الفرسان . وعلى الرغم من عدد العربات التي جلبناها ، فإنهم لم يقبلوا ابتياعنا الجياد القوية، والرديئة منها . لأن الأعراب يعتمدون في حياتهم على الأحصنة ، وبما أنهم في حالة حرب مسمرة فيما بينهم ، فإنهم يرغبون دائما أن يكونوا فرسانا . ومن أجل بلوغ هذه النهاية فإنهم يدفعون من أجلها أثمانا باهضة >> [41] . وكانت لهذه الكتيبة قيادة تتكون من قائد برتبة نقيب ، وملازم أول ، وملازم ، وحامل لواء ، ومساعد [42]. وهي عبارة عن وحدة قتال تساند الجنود ، يقيم أفراده في بيوت بسيطة من نوع القربي، في الطريق المسمى (Arsenal). يقومون ببعض الخدمات لصالح الأسبان عندما يحتاجونهم. تدفع الأسلحة إلى الرجال منهم ، البالغ عددهم 132 شخص . وأضاف باليخو أن ذلك كان بتحفظ شديد لتجنب الاستعمال السيئ للأسلحة . ورغم تعاونهم هذا كان ينظر إليهم أنهم أعداء المسيحيين ، ولهذا ذكر باليخو أنه ((في كل يوم تظهر لدينا أدلة على سوء طبعهم وأحيانا صداقتهم المزيفة))[43] .

وكان هؤلاء العرب الموالين للأسبان غير آمنين بصورة مطلقة ، إذ كانوا يتعرضون في بعض الأحيان إلى الغارات ، أو على الأقل بعض منهم كان يداهمهم الجنود الأسبان . فقد وصف مونتانيس[44]. بعض المعارك التي شاهدها، فذكر أن الحياة التي كان يعيشها الجيش الأسباني المرابط بوهران ، تشبه حياة المساجين في سجونهم . وتعرض لقادة الجيش فوصفهم بالجشع والطمع والسرقة ونقض العهد، واستدل على ذلك بأن القائد الأعلى للجيش الأسباني كان يتعهد القبائل الموالية لهم بالحماية ، لكنه لم يبق ملتزما بعهده ، فتهاجمهم جنوده في

قراهم للاستحواذ على أموالهم ومواشيهم ، وعندما يعود جيشه إلى وهران حاملا الغنائم ، يحتفظ الجنرال لنفسه بنصيب الأسد . ثم يذهب مونتانيس إلى أن كل ما يقع في هذه المنطقة من أحداث وهزائم ومجاعة يجهلها ملك أسبانيا ، مدعيا أن التقارير كانت تصله مزيفة[45].

حتى 1708 وقبل أن يضرب الأتراك حصارهم ، كان نطاق مدينة وهران يمتد محورها إلى عدة كيلومترات ، وكانت القوات الأسبانية تضمن حياة وممتلكات الذين كانوا يزرعون فيها مساحات . إن العرب الموجودين في هذا النطاق ، كانوا يعيشون في حالة قبائل متنقلة ، وفي دواوير ، حيث كانوا يغيرون أماكن إقامتهم من حين لآخر حسب ظروف حياتهم أو متطلبات معيشة حيواناتهم . فيقومون باستصلاح أراضي أو البحث عن مراعي أكثر خصوبة لضمان الكلأ لمواشيهم . وكانت مساكنهم عبارة عن خيم يسهل نقلها متجمعة في شكل دواوير ، أو تجمعات سكنية أكثر عزلة حيث يعيش عدد قليل من السكان في هذه الحالة كقبيلة أو تجمع سكاني يحمل اسما خاصا . وكانت تعيش في هذه الدواوير الآلاف من العائلات ، وعلى رأس كل دوار مسؤول يدعى شيخ الدوار[46].

وكان هؤلاء السكان ينقسمون إلى ثلاثة فئات وهم : فئة الدواوير النبيلة ، ويطلق الأسبان في وهران على رجالهم اسم (الفرسان النبلاء) ، فئة الدواوير المستضعفة ، أو المزارعون ، وهناك فئة الدواوير المختلطة ، وهي تضم نمادج من الفئتين الأولى والثانية[47] . وكان عرب الدواوير النبيلة يمتازون عن عرب الدواوير الضعيفة بشجاعتهم وإقدامهم وحسن سلوكهم تجاه الأسبان[48]. ومن دون شك كان هؤلاء الأقرب إلى الأسبان دون غيرهم من الفئات الأخرى.

وكانت بلدة إيفري (Ifre) يسكن فيها قبل سنة 1808 العرب الموالين للأسبان ، وهي توجد في أعالي مدينة وهران القديمة على الضفة اليسرى لوادي رأس العين ، وعلى موقع ممتاز يشرف على هذا الوادي[49] .

وعندما كانت تصدر الصرخات من بعض الشعراء يدعون فيها إلى تحرير وهران والمرسى الكبير ، كان بعض السكان يعرضون عنها ، ولكن البعض من هؤلاء كانوا يستجيبون لهم ويعملون معهم في محاولات لتحرير المدينة . أما العرب الذين كانوا يقيمون بعيدا عن مناطق التواجد الأسباني مثل قبائل زناته وبني راشد وغيرهم ، لا يجيبون النداء ، لأنهم كانوا في بعض الحالات مرتبطين بالأسبان ويقدمون خدمات لهم . ولعل ذلك كان يحدث عندما تكون الإيالة الجزائرية مشغولة بقضايا أخرى تمنعها عن تنفيذ مشروع تحرير وهران والمرسى الكبير ، ولما يشتد ساعد الإيالة كانوا يغيرون من موقفهم ؛ فيقفون إلى

جانبها ضد الأسبان . ولهذا يلاحظ أن موقف هذه القبائل كان يتغير حسب تغير ظروف قوة وضعف كل من الأسبان والدولة الجزائرية.

خاتمة الباب :

وما يمكن استخلاصه من هذا الفصل نجمله في العناصر التالية :

1 ـ إن التحرش الأسباني بالسواحل الجزائرية ، وما ترتب عن تلك الحركة من احتلال لبعض المدن الساحلية ، قد تسبب في إلحاق الضرر بالسكان . فقد أدى احتلالهم لتلك المواقع إلى انتقال السكان إلى أماكن أخرى أكثر أمنا ، غير أن ذلك التحرك لم يمنع من وصول الأذى إليهم ، إذ تعرضت مضاربهم إلى غارات الجنود الأسبان والسطو على ممتلكاتهم .

2 ـ وترتب عن العدوان الأسباني تعرض الكثير من الجزائريين إلى القتل خلال مختلف المواجهات التي وقعت بين الطرفين في البر والبحر . إلا أن إشكالية تحديد عدد الضحايا يبقى دائما مطروحا ، لاختلاف التقديرات بين المصادر المحلية والأجنبية ، أو السكوت عنها في بعض الأحيان إما عن جهل وإما عن قصد .

3 ـ إن أهم ما كان يتعرض له الناس هو الأسر ، كان الأسبان يستولون عليهم إما لغرض بيعهم في الأسواق ، وبذلك يتحولون إلى عبيد ، أو لغرض استعمالهم في مخلف الأشغال ، وخاصة في التجديف . وقد تعرض لهذه العملية الناس من مختلف الأعمار والجنس . وكانت طرق تخلص بعضهم من الأسر مختلفة ، بواسطة الافتداء بالمال ، وعن طريق الفرار ، وبطريقة التبادل خاصة بعد توصل البلدان إلى إبرام معاهدة الصلح سنة 1786 .

4 ـ إن من أهم الظواهر التي ترتبت عن العدوان الأسباني على الجزائر واستقرارهم لمدة طويلة في وهران المرسى الكبير هو تحالف بعض القبائل مع الأسبان. وقد تسبب ذلك في حدوث شرخ في صفوف المجتمع الجزائري في المنطقة الغربية من البلاد . وقد ساهم ذلك من دون شك في استمرار بقائهم مدة طويلة في هذا المكان . وإن هذا السلوك قد انعكس عن الوضع السياسي القائم في الفترة التي سبقت الغزو ،التي كان فيها بعض المتناحرين يستجيرون بالأسبان.

هوامش الفصل الرابع:

(1) عبد القادر المشرفي : بـهجة الناظر في أخبار الداخلين تحتت ولاية الأسبان بوهران من الأعراب كبني عامر ، تحقيق ، محمد بن عبد الكريم ، دار مكتبة الحياة، بيروت ، صص.13-14.
المشرفي : مصدر سابق
(2) نفسه : ص.12.
(3) المدني : صص.101-102.
(4) وهي حاليا مدينة برتغالية تقع في مقاطعة إيسترامدورا ، كانت المقر الرئيسي للأديرة المسيحية مابين القرن 12-16.
(5) Cazenave : Les Gouverneurs d'Oran.., Op.cit., p.291.
(6) Jean Cazenave : Cervantes à Oran 1581,B.S.G.O., 1923, pp.216-217.
(7) من هذا أخذ الأسبان كلمة (Mogatazes) التي تدل على قبيلة كرشتل.

(8) المشرفي : مصدر سابق ، صص12-14.
(9) نسبة إلى عامر بن صعصعة.
(10) المشرفي : ص.26 .
(11) المشرفي : ص.26 .
(12) حكم ما بين سنة (1656-1659).
(13) Noel : Op.cit, pp.156-157.
(14) حساني : تاريخ تحرير وهران..، ص.142.
(15)المشرفي : ص. 28 .
(16) نفسه : ص.28.
(17) تقع بأسفل جبل بوحنش ، في سهل مليتة جنوب سبخة وهران .
(18) يقال لهم في المغرب و الأقصى الحنانشة ، كانوا يسرقون رجال المسلمين وصبيانهم الذين يسكنون الشواطئ ويبيعونهم للأسبانيين والبرتغال.
(19) المشرفي : صص.28-29.
(20) نفسه : ص.30.
(21) المشرفي: مصدر سابق ، ص.30.
(22) من النصاصيب أحد بطون أولاد عبد الله .
(23) المزاري ، : ج.1 ، ص.230.
(24) نفسه : ص.230.
(25) تعرف بثنية ماخوخ وهي اليوم تحمل اسم عين الباردة ، تقع على الطريق العام الذي يتجه نحو سيدي بلعلباس . وهناك قرية أولاد علي التي تقع إلى الشمال ببضع كيلومترات ، كما أنها لا تبعد كثيرا عن سيدي بلعباس.

(26) قرية أسست بجبل كان يحمل هذا الإسم من قبل ، تقع غرب معسكر.

(27) المزاري :ج.1 ، ص.219.
(28) المشرفي :صص.36-37.
(29) أنظر المشرفي : بهجة الناظر، ص.35. وكذلك المزاري: ج.2، صص.335-336.
(30) نفسه : ص.12.
(31) حساني : تاريخ تحرير مدينة وهران...، ص. 19-20 .
(32)ابن خروف : العلاقات السياسية ...، مرجع سابق ، ص.15.
(33) ما بين 772-774هـ .
(34) وهي قبيلة هلالية استقرت منذ القرن الثامن الهجري / الرابع عشر ميلادي.
(35) أنظر: عبد الحميد حاجيات : التاريخ السياسي لدولة بني زيان ، في : الجزائر في التاريخ ، العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1984، ج.3 ، صص.414-415.
(36) حساني : تاريخ تحرير مدينة وهران ...، صص.21-22.
(37) Montanes : Mers el-Kebir, R.A., N.9, 1865, p.351.
(38) Vallejo: Op.cit., p.232.
(39) أنظر بقية القصيدة في : المشرفي : صص.33-34.
(40) José Vallejo : Contribution a l'histoire du vieil Oran , Traduit et annoté par J.Cazenave , R.A. 1925, T.66, p.327.
(41)Vallejo: Op.cit., B.S.G.O., 1926, p.229.
(42) Don Harnaldo Hontabat: Relacion general de la consistencia de la plazas de Oran y Mazalquivir, B.S.G.O., 1924, t.XLIV, p.114.
(43)Vallejo : p.232.
(44) كان جنديا بوهران بين سنتي 1577 و1604.

(45) المهدي البوعبدلي: موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر عبر العصور ، الأصالة، 1973، العدد 14-15 ، ص.129.
(46) Hontabat: Op.cit., p.109.
(47) Ibid., p.109.
(48) المدني: حرب الـ300 سنة ، ص.447-448.
(49) Berbrugger: Reprise d'Oran ...Op.cit., p.25.

الباب الخامس

آثار الغزو على الجوانب الثقافية والمخلفات العمرانية الأسبانية بالجزائر

الباب الخامس

آثار الغزو على الجوانب الثقافية

والمخلفات العمرانية الأسبانية

مقدمة الباب :

إن غزو الأسبان للشواطئ الجزائرية وما جاورها من المناطق الداخلية، كان له أسوأ الأثر على الحياة الثقافية في البلاد ، إذ أصاب العديد من المدن التي كانت مراكز ثقافية هامة كوهران وبجاية وتلمسان ، فخف بريقها العلمي والحضاري الذي كانت تتميز به من قبل ، كما أصاب وبدرجات متفاوتة مدنا أخرى كمدينة الجزائر التي تعرضت إلى الكثير من الغارات الأسبانية .

وقد ترتب عن هذا العدوان تسجيل كثير من العلماء والكتاب والشعراء مختلف الوقائع التي حدثت في البلاد الناجمة عن العدوان الأسباني . فمنهم من شارك بصورة فعلية في المعارك مما أدى إلى استشهاد بعضهم في ساحات القتال . ومنهم من كان يحث الحكام على تحرير المناطق التي ظلت تحت الإحتلال ، أو مبتهجا بالنصر. وذلك في قصائد شعرية يمكن تسميتها بأدب الجهاد أو الأدب السياسي . وقد خلد كتاب آخرون مؤلفات تحدثت عن العديد من الحملات العسكرية الأسبانية وأعمال الغزو التي تعرضت لها بعض المدن الجزائرية ، عبرت عن صور المواجهة بين الجزائريين والأسبان .

إلى جانب ذلك فقد خلف الأسبان في المناطق التي حلوا بها وخاصة التي بقوا فيها مدة طويلة معالم عمرانية. كان بعضها قد أقيم على نسق عمراني محلي ، ونظرا لأهمية موقعه طوره الأسبان وزادوا من طابعه التحصيني ، وهذا ينطبق خصوصا على مدينتي وهران وبجاية . وهناك بعض الكتاب الأسبان قد نسبوا لأسلافهم بعض المعالم العمرانية في مدن أخرى سنتعرض لها في حينها.

الفصل الأول

التراجع الثقافي للحواضر الجزائرية

لقد تأثرت المدن الجزائرية التي مسها العدوان الأسباني تأثرا سلبيا أصاب نسقها الحضاري والثقافي والعلمي . حيث تعرضت الكثير من المنشآت الثقافية والدينية والعلمية بتحويلها عن طابعها الذي كانت عليه إلى محلات تستجيب لمراد الأسبان ، خاصة تلك المدن التي بقوا فيها مدة طويلة كوهران وبجاية ، أو التي

كانت تحت طائلة التهديد مثل مدينة الجزائر والقصف المدفعي الذي كان يصيبها عندما كانوا يحتلون الصخرة ، أو خلال الحملات التي تعرضت لها المدينة فيما بعد. وتأثرت بعض المدن من انتقال السلطة منها أو إليها مثل مستغانم ومازونة ومعسكر وتلمسان ووهران . وما نتج عن ذلك من هجرة العلماء أو الطلبة إلى بلاد إسلامية أخرى ، وفيما يلي ذكر لأهم المدن التي أصابتها هذه الحالة .

1 . تدهور المراكز الثقافية المحتلة:

تأثرت العديد من المدن التي وقعت تحت الاحتلال المباشر كوهران وبجاية، أوغير المباشر كمدينة تلمسان،وتراجع دورها الثقافي الذي كانت تزخر به من قبل .

- وهران :

تميزت مدينة وهران منذ عهودها الإسلامية الأولي بمركز حضاري وثقافي بما شهدته من مؤسسات علمية ومساجد ، وما أنجبته من علماء في مختلف الميادين . فقد بدأ نجمها يلمع منذ حكم المرابطين حين سيطر عليها يوسف بن تاشفين سنة 1081م. حيث أصبحت قاعدة بحرية ، وتوسع عمرانها . كما ازدهرت بها الحياة الثقافية فبرز فيها عدد من العلماء والفقهاء والأدباء نذكر منهم أبي محمد بن عبد الله الوهراني الذي كان متفوقا في علوم الطب والرياضيات والتصوف [1]، والأديب ركن الدين بن محرز الوهراني [2] . ولما خضعت للموحدين منذ سنة 1145م ، أصبحت قاعدة لهم . وأسست بها عدة مدارس للتعليم ونشطت الحركة الثقافية، وظهر بها عدد من العلماء منهم أبي محمد عبد الله بن جبل الذي كان عضوا في مجلس أعيانها .

وبعد زوال الدولة الموحدية ، ظلت المدينة محافظة على مكانتها الاقتصادية والثقافية رغم التقلبات السياسية التي شهدتها المنطقة بين الزيانيين والمرينيين والحفصيين ، فتوسع عمرانها وازداد عدد سكانها . وازدهرت بها الحياة الفكرية والثقافية ، وزارها بعض العلماء سواء من القطر الجزائري أو من المناطق العربية الأخرى ، مثل الشاعر القسنطيني ابن الفقون ، وأبو سعيد الغرناطي الذي تحدث عن كثرة علمائها ، والجغرافي أبو الفدا الدمشقي[3]. وأقام بوهران الرحالة عبد الباسط بن خليل حوالي 871هـ ، وتحدث عن بعض علمائها حيث قال : ((نزلت بمكان بالقرب من زاوية ابراهيم التازي ...ثم اجتمعنا بها على شيخها الشيخ الإمام العالم العامل سيدي أبي العباس أحمد بن العباس المالكي مفتي وهران ،

وعلى الشيخ سليمان الحميدي ، وهما من كبار أهل العلم...وحضرت الكثير من دروسهما)) [4].

ونبغ فيها العديد من العلماء والأدباء ، مثل أبي تمام الوهراني الذي هاجر منها إلى بجاية واستقر بها لتدريس العلوم الشرعية والأدبية [5] . وقد اشتهرت وهران بعالمها محمد الهواري[6]، الذي أخذ العلم من المشرق ومن المغرب ، ثم استقر به المقام في وهران مثابرا في العلم والعمل . وأشهر تلامذته ابراهيم التازي[7] ، الذي أسس زاوية بوهران وجعل يبث بدوره التصوف .

وكانت مدينة وهران خلال القرن الخامس عشر تحتوي على خزائن مملوءة من الكتب العلمية والآلات الجهادية . وكان العلماء وأصحاب الكتب في مدينة وهران يخشون على تلف كتبهم في وقت كانت فيه المدينة مهددة بالغزو الأجنبي، فكانوا يعملون التدابير اللازمة لتهريبها إلى أماكن أخرى [8]. ولما تمكن الأسبان من احتلالها قضوا على مساجدها وزواياها وحولوها إلى مؤسسات تخدم مصالحهم ، كما هجرها علماؤها إلى نواحي أخرى من الجزائر أو إلى الخارج وخاصة إلى المغرب ، وهذا ما حولها من مركز ثقافي مشع للثقافة والحضارة الإسلامية إلى مركز هام للاستعمار الأسباني في الشمال الإفريقي.

- بجايـة :

يرتبط اسم بجاني ة كثيرا بفترة الازدهار الحضاري الذي شهدته خلال عهودها الإسلامية ، التي سبقت الاحتلال الأسباني الذي كان السبب في أفول نجمها . حيث تبوأت هذه المدينة مكانة مرموقة في مجال الثقافة والحضارة العربية الإسلامية. فقد ظلت لفترة تزيد عن ثلاثة قرون [9]إحدى منارات المعرفة ومركزا للعلوم المختلفة ببلاد المغرب [10] . فلا شك أن عظمتها في عهدها الزاهر يرجع إلى هيئة مرساها الذي كان يلائم حاجات الملاحة ، ولهذا المرسى قيمة دفاعية كبيرة لأنه في مأمن من العواصف التي تهب من حين لآخر على البحر المتوسط [11].

ولما أدرك ملوكها الأوائل منذ العهد الحمادي هذا السر وخاصة الملك الناصر بن علناس الذي راح يرفع من شأن عاصمته الجديدة ببناء القصور ، من أشهرها قصر اللؤلؤة. واقتفى ولده المنصور بعده أثره بتوسيع القصور الموجودة وبنائه لقصور أخرى. وقد مدح ابن حمديس الصقلي المنصور وأبدع في وصف القصر، ما يدل على حسنه الباهر ، وذلك في قصيدة منها هذان البيتان :

واعمر بقصر الملك نديك الذي أضحى بجدك بيته معمورا

قصر لو أنك قد كحلت بنوره أعمى لعاد إلى المقام بصير [12]

وقد ذكر عن الملك الناصر أنه كان يركب سفينتة وفي صحبته أكابر الدولة، يخترق بها الخليج ليتأمل إنجازاته العمرانية ، فكانت تأخذه روعة جمالها الطبيعي. وقد شجعه هذا ليجعل منها مدينة عظيمة ، لما تمتعت به من المنعة والجمال[13].

إن أهم ما اشتهر به عمران بجاية هو كثرة المساجد ، فقد ذكر أنه كان بها قبيل الاحتلال الأسباني ثلاثة وسبعون مسجدا بقببها ومنازلها البيضاء . كما اشتهرت المدينة بعلمائها وأدبائها وأصحاب الصنائع من سكانها ، وممن قدم إليها من الأندلس وإفريقيا والمغرب الأقصى والمشرق ، حتى ارتفع شأنها بين العواصم ، ولا سيما بين عواصم شمال إفريقيا . ومن هذه الفنون ازدهار صناعة الكتب ، فقد كانت بجاية عاصمة علمية مزدهرة ، حيث بلغت فيها صناعة الكتب تأليفا ونسخا وجمعا درجة عالية . ولهذا كانت تحتل مركزا علميا مرموقا ، فبواسطتها انتقل التراث العلمي الأندلسي المتأخر نحو تونس والمشرق، ومن خلالها استقبلت بلاد القبائل خاصة والمغرب الأوسط عامة جموع علماء الأندلس الذين انتشروا في البوادي وتوزعوا في المدن الداخلية ، يؤسسون المعاهد والزوايا ويحافظون على المعارف الإسلامية وتقاليد السلف الصالح، يشد أزرهم ويعاضدهم السكان وفي مقدمتهم الفقهاء وشيوخ القبائل[14].

غير أن بوادر التراجع الحضاري لبجاية بدأت بفعل حالة الانكسار التي عرفتها بلاد المغرب مع نهاية العهد الحفصي والزياني (ق 8هـ/ 14م) والتي تميزت بتناقص السكان وجمود الاقتصاد واضطراب الحياة الاجتماعية والسياسية[15]. ورغم هذه الأوضاع الصعبة التي أصبحت تعيشها المدينة في القرن 9هـ/ 15م . فقد استمر دورها نتيجة لاستقبالها العديد من الأندلسيين . فأصبحت المدينة في حالة تيقظ واستنفار لمواجهة الخطر الأسباني الذي أصبح يهدد الوجود الإسلامي ببلاد المغرب بعد ضياع الأندلس ، ومواصلة سياسة الاسترداد المسيحي بإفريقيا بمباركة من البابوية وتشجيع من الكنيسة . وقد برزت هذه الحركة بانطلاق عملية الجهاد البحري من بجاية بفعل حيوية العنصر الأندلسي وتعاونه مع السكان ، فتحولت بجاية إلى قاعدة لشن هجمات بحرية على السواحل الأوروبية [16]. وقد انجر عن هذا النشاط البحري ازدياد الضغط الإسباني على سواحل المغرب الأوسط ، كما تسبب في احتلال بجاية وتدميرها من طرف أسطول إسباني بقيادة بيدرو دي نافارو في سنة 1510م. ومنذ ذلك الحين أفل نجمها ولم تتمكن من استعادة دورها الثقافي والحضاري التي كانت تنعم به قبل التاريخ المذكور ، رغم تحريرها بعد خمسة وأربعين سنة من قبل الدولة

الجزائرية الحديثة في سنة 1555، وذلك من دون شك يعود إلى تغير الظروف في البلاد التي أصبحت تعتمد بالدرجة الأولى على الجانب العسكري الذي اتسم به الوضع ، الذي كان يتركز على مواجهة القوى الأوربية المعادية للجزائر خلال الفترة العثمانية.

. تلمسان :

لقد حازت تلمسان نصيبا وافرا من الجمال الطبيعي مما جعلها تستقطب اهتمام الأجانب في الكتابة عنها ووصف معالمها . فقد جاء في أحد المصادر الأسبانية أن مدينة تلمسان تحتوي على أجمل منظر في العالم ، حيث تجثم هذه المدينة فوق هضبة في حجر أحد الجبال ، ثم انتقل إلى الحديث عن مآذن المساجد التي تعلو مبانيها ، ولعل من أهمها مئذنة المسجد العظيم ، الذي شبهه الكاتب الأسباني ببرج كنيسة اشبيلية[17] .

ورغم تاريخ مدينة تلمسان العريق إلا أن بروزها الثقافي والعلمي يعود إلى العهد الزياني ، فقد تمكن ملوكها أن يجعلوا منها عاصمة علمية ضاهت مراكز العلم المشهورة آنذاك كمصر وغرناطة وتونس وفاس وبجاية . كما اشتهرت بصناعة الكتب تأليفا ونسخا وجمعا . وذلك يعود من دون شك إلى تفتحها على علماء هذه المناطق وغيرها ، فاستقبلهم رجالها في بلادهم [18]. وانتشرت فيها المدارس ، حيث تثبت بعض الإحصاءات أن عدد مدارس تلمسان كان في نهاية القرن التاسع عشر يربو على الستين ستين مسجدا ، حيث كانت تضاهي مدينة بجاية التي كانت تحتوي على عدد من المدارس والمساجد قريب من ذلك[19] .

غير أن التطورات التي عاشتها المنطقة الغربية من البحر المتوسط إثر بداية الهجمة الأسبانية مع بداية القرن السادس عشر على سواحل المملكة واحتلال المرسى الكبير ووهران ، وما ترتب عنه من دخول العثمانيين في النزاع . أدى ذلك إلى زيادة تدهور تلمسان ، ولم تحافظ على أهميتها ، فبدأت بالانهيار بسبب تسلط الأسبان عليها . كما أن الحكام الذين عينوا عليها من قبل الأسبان لم يعملوا على تقويتها وتحصينها ، وشيئا فشيئا بدأ الإهمال والفساد يسودها .

فبالإضافة إلى التدهور الاقتصادي والسياسي ، شهدت تلمسان تدهورا اجتماعيا وثقافيا . فقد هاجر عدد من عائلاتها الغنية والعلمية إلى المغرب الأقصى فرارا من الأسبان الذين تدخلوا في شؤون دولة بني زيان عند ضعفها السياسي، ثم فرارا من حكم العثمانيين عند استيلائه م بالقوة على تلمسان . وبذلك فقدت هذه المدينة عددا من سكانها ذوي النفوذ الاجتماعي والتأثير العلمي. ومن العائلات

التي هاجرت إلى المغرب الأقصى عائلتي الونشريسي والمقري[20] . وقد أكد هذه الحالة حسن الوزان حين زار تلمسان سنة (923هـ/1516م) بعد احتلال الأسبان لوهران ، حيث وجد طبقات العلماء هم أسوء الطبقات حالا حيث قال : ((أما المثقفون فإنهم بؤساء يقضون حياتهم داخل المدارس ، وبعد نيلهم الشهادات يعينون في وظائف التدريس أو التوثيق أو السلك الديني))[21].

ومن أهم ما اشتهر به عمران تلمسان كثرة مساجدها الرائعة الجمال التي بنيت في عهد الأدارسة والمرابطين والزيانيين والمرينيين . أهمها الجامع الكبير الذي بناه المرابطون سنة 530هـ/1135م[22]، وهو أشهر المساجد وأكبرها، وقد أفادنا الوادي آشي ببعض العلوم والفنون التي كانت تدرس فيه ، مما يبين أن الدروس التي تلقى فيها تضاهي ما كان يلقى في مدارس تلمسان الكبرى، ومن ثم يمكن اعتبار هذا المسجد جامعة على طريقة المتقدمين، وهو بذلك يضاهي جامع القرويين بفاس، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة [23] .

وعندما تعرضت تلمسان لغزو الأسبان بقيادة دالكوديت سنة 1543، لم تسلم المدينة من النهب ، وتعرض المسجد الأعظم للإهانة والنهب. فربطوا فيه دوابهم ، واستولوا على إحدي كبرى ثرياته ، التي كانت في نظر الأسبان عبارة عن ناقوس يستحسن وضعه في أحد كنائسهم ، فأرسلت إلى وهران حيث بقيت بعض الوقت ، ثم تم نقلها فيما بعد إلى أسبانيا وتم وضعها في كنيسة قصر دالكوديت[24].

وبعد سقوط مملكة تلمسان وضمها إلى السلطة القائمة في مدينة الجزائر ، لم تستعد مكانتها العلمية التي كانت تتمتع بها خلال القرنين 8-9هـ/14-15م فقد ظلت خلال العهد العثماني مدينة متواضعة تعاني التذمر والفقر[25].

2 . تعرض المؤسسات والمنتوج الثقافي إلى التخريب:

لقد أدى مفعول الاحتلال الأسباني لبعض المدن الجزائرية مثل وهران وبجاية أو القصف المدفعي الذي أصاب مدينة الجزائر على الخصوص ، إلى إصابة وتعطيل الكثير من المؤسسات الثقافية ، من زوايا ومساجد ودور التعليم إلى التخريب ، وهذا ما يمكن الوقوف عنده في النماذج التالية .

في وهران :

كانت مدينة وهران القديمة تحتوي على عدد كبير من المساجد والزوايا، التي كانت مراكز للتعليم إلى جانب دورها الديني . فقد قيل أن عددها كان يزيد على الثلاثين، ولكن الأسبان خربوا معظمها ، وحولوا الباقي إلى كنائس من أهمها :

1 ـ جامع البيطار : الذي أسس عام 747هـ(1347م) على كدية شمال القصبة ، وقد حوله الكاردينال خيمينيس ، إلى كنيسة عام 1509باسم سيدتنا المنتصرة (Notre dame de la victoire) ، ثم أطلق عليه فيما بعد اسم القديس كريست الصبور (Saint-Christe de la patience) ، وعندما فتح بوشلاغم وهران عام 1708 هدم هذه الكنيسة ، وبعدما أعاد الأسبان احتلال وهران للمرة الثانية سنة 1732، حولها اليهود إلى معبد لهم ، وخربها محمد الكبير عام 1791[26].

2 ـ مسجد البرانية : أسسه بوشلاغم عام 1708 للتجار الأجانب الذين يحضرون إلى وهران لغرض التجارة بالقرب من باب الجيارة خارج السور . ولما احتل الأسبان وهران للمرة الثانية عام 1732 هدموه ، وأقاموا في مكانه برج قورد (La Tour Gourd) ، لتدعيم برج الصبايحية ، ولكن الباي عثمان هدم هذا البرج عام 1801 ، وأعاد تأسيس المسجد الذي بقي عامرا حتى سنة 1844 ، حيث حوله الفرنسيون إلى كنيسة باسم القديس أندري[27]. وكانت بجانب قلعة القصبة بوهران بعض المساجد ، أزيلت في عهد الأسبان[28].

أما في المرسى الكبير ، فقد حول الأسبان المسجد الكبير يوم الثلاثاء 14جويلية إلى كنيسة ، أطلق عليها اسم "كنيسة القديس ميكائيل" . اتخذوه مقرا للاجتماع المسيحي تحت ترانيم سان ميشال أرشانج، (Saint Michel Archange).وفي اليوم الموالي أقيم فيه قداس ديني[29]. بينما خصص للمسلمين المتعاونين مع الأسبان مصلى صغير غير بعيد عن هذه الكنيسة .

وبحكم خضوع وهران مدة طويلة للأسبان ، كان عدد سكانها من المسلمين قليلا ، ولم يستطع التمغروتي أن يصفها في أواخر القرن العاشر ، واكتفى بالقول بأنها تحت النصارى وإن لم يظهر له منها وهو يعبر البحر غير الأبراج، وهذا يعني أنه لم يشاهد فيها مآذن إسلامية . وقال عنها أبو راس الناصري أنها كانت في القديم كثيرة العلماء والمدارس والمآذن ، في إشارة منه إلى حالها قبل تعرضها للاحتلال الأسباني ،ولكنه قال عن مدارسها ((درسها الكفرة وعفوا رسمها)) [30] .

في بجاية :

إثر تعرض مدينة بجاية للغزو ، تعرضت إلى إفراغ حضاري . فقد قضى الأسبان على ما بقي فيها من مظاهر حضارية وأوقفوا مسارها الثقافي. وهذا ما لاحظه الحسن الوزان الذي زارها سنة 1515م فذكر أنه عندما جاءها الكونت

نافارو نهبها بعد أن هجرها سكانها إلى الجبال حاملين معهم ما يملكون [31].
وأصبحت عبارة عن حطام بفعل التدمير الذي تعرضت له تحت حكم الأسبان لمدة خمس وأربعين سنة . فقد مست يد التخريب والتحطيم معظم معالم المدينة التي كانت آية في جمال الفن المعماري العربي . فخربوا كثيرا منها وخاصة قصريها المشهروين الباقيين إلى عهد احتلالهم ، وهما قصرا اللؤلؤة وأميمون [32].

وقد ورد عن أحد الكتاب الأوربيين أنه في عام 1524 دمر الأسبان مئذنة القلعة واللؤلؤة ، وجمعوا كل الأشياء الثمينة من رخام وخزف ومأثورات على ظهر ثلاثين سفينة من أجل الوصول بها إلى بلادهم ، ولكن حين خروجهم من ميناء بجاية
واجهتهم عاصفة هوجاء أغرقت معظم المأثورات في البحر[33]. وكما أشرنا سابقا أنه كان بالمدينة 73 مسجدا ، تناقص عددها إلى 52 مسجدا ، أما الباقي فإما أهمل ، وإما دمر ، وقد صرح السلطان أبو بكر أن نصف المدينة قد دمر من طرف المسيحيين . وقد وصف التمغروتي حالة بجاية في رحلته "النفحة المسكية في السفارة التركية " (999هـ/1591م) بقوله : << بجاية كانت دار علم وعمل ومستقر العلماء الصالحين وهي الآن خراب هدمها النصارى ... لم يبق منها إلا ديار قلائل على طرف البحر ، وقلعة صغيرة تسمى باللؤلؤة ينزل بها متولي تلك الناحية من الترك يمنع المرسى من العدو>>[34].

وقد أتى الأسبان كذلك على ذخر المدينة من الكتب المكتوبة باللغة العربية وكذلك المكتوبة بالأمازيغية فقد أوضح أحد الباحثين المعاصرين اعتمادا على تصريحات أهالي بجاية ، أن الكتب الفقهية الأمازيغية قد أحرقت أثناء الغزو الأسباني لمدينة بجاية سنة 1510، مؤكدا استمرار أهل بجاية في تدوين العلوم الدينية بالأمازيغية بالحروف العربية حتى القرن التاسع عشر ، وظلت هذه المخطوطات متداولة في زاوية سيدي علي بن الشريف مثالا على ذلك [35]. كما ذكر أن شارلكان اغتنم فرصة وجوده في بجاية سنة 1541، إثر هزيمته في مدينة الجزائر، فأقدم على إحراق كتب اليهود ومعابدهم وطردهم جميعا منها ، وذلك بعدما طردوا من الأندلس سنة 1432 ، كما طرد العرب المسلمون .
وكانت جماعات من نخبة المثقفين اليهود اختارت الاستيطان ببجاية لما يسودها من خير وأمن ، تعيش في أمن ودعة تحت حماية المسلمين . وكان على رأس الجالية اليهودية الحاخام ابن يمينة الذي كان يتمتع في الأندلس بصيت ذائع لتضلعه في الآداب العربية والعبرية [36].

ورغم تحريرها من الوجود الأسباني واعتناء حكام الجزائر العثمانية ببجاية ووضعهم بها حامية عسكرية لحراستها بعد تحريرها سنة 1555م ؛ إلا أنها لم تسترجع سالف مجدها ، فظلت قليلة السكان ناقصة العمران حسب قول وأوصاف بعض الرحالة الذين تعرفوا عليها في الأوقات اللاحقة مثل شاو وبايصونال وغيرهم [37]. وهكذا أدى الاحتلال الإسباني ببجاية إلى اضمحلال عمرانها واختفاء دورها العلمي مع مستهل القرن السادس عشر[38].

ورغم اضمحلال عمران بجاية واختفاء دورها العلمي مع الاحتلال الأسباني لها في مستهل القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي) ، فإن نواة الروح العلمية ظلت حية في ريف هذه المنطقة ، التي هاجر إليها أغلب علماء بجاية الأندلسيين هروبا من الأسبان ، فقد نجح هؤلاء العلماء في تأسيس الزوايا والمعاهد العلمية بوادي الصومام وجرجرة وبني يعلي وتامقرة وفي مقدمتها زوايا سيدي عبد الرحمن اليلولي وسيدي علي بن الشريف وسيدي أحمد بن إدريس وسيدي منصور والشيخ أعراب وأولاد مصباح وغيرها . وخرجت هذه المعاهد والزوايا أجيالا من الفقهاء القادرين على تحفيظ القرآن ورواية الحديث وتلقين مبادئ العربية وشرح مسائل الفقه ، فكانوا عاملا حاسما في استمرار الثقافة العربية الإسلامية بالمنطقة[39].

في مدينة الجزائر:

لقد شهدت مدينة الجزائر منذ تأسيسها على يد بلكين بن زيري حياة علمية وثقافية خصبة اشتملت على عدة جوانب . فقد نبغ فيها أعلام في الفقه والآداب والدراسات الدينية والتصوف والكلام والطب وغيرها من العلوم الأخرى . وكانت مراكز التعليم خلال هذه الفترة هي المساجد ، إلى جانب دورها التعبدي، وهناك الزوايا والكتاب القرآني الذي كان يدعى في الجزائر بالمسيد[40].

أما من ناحية المباني الثقافية والدينية ، فهناك أدلة على أنها كانت تضم عددا من المساجد والزوايا والربط من أشهرها الجامع الكبير . وكانت أيضا موطنا لعدد من العلماء أمثال عبد الرحمن السطاح[41]، وأحمد بن هلال العروضي ، وعبد الله بن السكات ، ومحمد القلعي[42]، وأبو البركات الباروني وغيرهم . ونبغ في القرن الرابع عشر أعلام في الفقه والتصوف والكلام ، أشهرهم عبد الرحمن الثعالبي. وشيخه أبو جمعة[43] ، وأحمد بن عبد الله الجزائري[44] .

وتعرضت كثير من المباني نتيجة للقصف الذي قام به الأسبان خلال حملاتهم على المدينة ، وخاصة في الحملات الأخيرة التي وقعت في أواخر القرن الثامن

عشر، وكانت حملة بارثيللو الأولى سنة 1783 أكثر تدميرا ، ولهذا حرص الحكام على الحد من هذا الخطر ، منها ما قام به الداي محمد الكبير ، الذي ذكر عنه " الزهار" أنه : << هو أول من صنع اللنجور [45] وقالت به الصبانيول وقبل صنع اللنجور كانت البومبة تنزل على البلاد وتهدم الديار . حتى هدمت جامع السيدة بازاء دار الملك>> [46]. ويقع مكانه قبالة المدخل الرئيسي لقصر الجنينة ، يحدد مكانه الآن في الزاوية الغربية لساحة الشهداء المعروفة بحديقة الإيالة . بنى هذا المسجد مكان مسجد قديم . تذهب بعض الروايات إلى أنه من بناء بنت الناصر الحمادي صاحب بجاية ، ومن ثم أخذت تسمية المسجد الذي أسس مكانه فعرف بمسجد السيدة الذي يرجع تاريخ إنشائه إلى سنة 1561 م وقد أصبح نظرا لموقعه قبالة قصر الجنينة المكان المفضل لصلاة حكام الجزائر وحاشيتهم والمقر المعتاد لاجتماع مجلس الأمناء لتبادل الرأي والمشورة واتخاذ القرارات وإصدار الأوامر التي تمس الحياة الاجتماعية والنشاط الحرفي والمعاملات التجارية . أعاد بناءه الداي محمد عثمان باشا في سنة 1784 ، بعدما تعرض لأضرار كبيرة ، ثم اعتنى به وحسن في عمارته خلفه الداي بابا حسن (1794) فزينه برخام أبيض جلبه من إيطاليا ، فعد من أجمل مساجد الجزائر من حيث النقوش وطراز العمارة ، لكن ذلك لم يحل دون هدم الفرنسيين له بعد احتلالهم لمدينة الجزائر (1830) وأتموا عملية الهدم سنة 1832بعد أن استعصت منارته عن الهدم[47].

وتعرض الجامع الكبير كذلك للقصف المدفعي الأسباني في أيام البومبة كما سماها صاحب كتاب " صفحات في تاريخ مدينة الجزائر " الذي أورد فيه تخوف السكان أن تتلف القنابل الكتب التي كانت فيه حيث قال : << رفعوا كتب الجامع الكبير إلى برج مولاي حسن خارج باب الجديد أعلى المدينة ، نقلوها على الإبل ثلاثة أيام ، وأما عدد الإبل لا ندري كان اثنين أو أكثر ، كذا أخبرني شيخنا سيدي مصطفى العنابي >>[48] .

كما أصيبت زاوية سيدي والي دادة [49]. قرب جامع كتشاوة والميناء . يقال أنه انهار يومئذ من دور العاصمة ومنازلها أكثر من 400 بناية ، مما أدى إلى انسحاب أكثر سكان العاصمة ملتجئين إلى خارج المدينة . ما عدا الحصون البحرية فإنها كما جاء في تقرير القنصل الفرنسي دي كيرسي (de Kercy)الذي بعث به إلى حكومته ذكر فيه أن القنابل سقطت على كل أجزاء المدينة ، وقد تسببت في إحداث الكثير من الخسائر ، ووقع التحطيم في بعض البناءات في الناحية السفلى من المدينة[50] .

3 ـ هجرة العلماء :

كانت هجرة العلماء الجزائريين إلى الخارج ، خاصة إلى المغرب قائمة قبل تعرض السواحل الإفريقية إلى الحملات الأسبانية ، حيث كانت تلك الهجرات فردية وبدافع تحصيل العلم من العلماء الذين اشتهرت بهم البلاد، خاصة مدينة فاس خلال القرن الخامس عشر ، فقد هاجر إبراهيم التازي من وهران إلى فاس واستقر بها قبل أن تتعرض مدينـة وهران إلى الغزو الأسباني ، واستقر بها إلى غاية وفاته بها سنة 866هـ(51).

وكانت للهجمة الشرسة التي شنها الأسبان على المسلمين في الأندلس ، التي أدت إلى سقوط غرناطة في سنة 1492 ، وضياع الأندلس من أيدي المسلمين نهائيا ، قد أثر على توجه العلماء الجزائريـين نحـو المغرب والمشـرق والحجاز خاصة ، حيث الاستقرار والأمن في مجال الفكر . ولم تقتصر هذه الهجمة الصليبية على مطاردة المسلمين من بلاد الأندلس ، بل لاحقهم الأسبان حين اشتد ساعدهم في وقت كانت فيه دويلات بلاد المغرب تعيش التفكك والتشتت . فاحتلوا العديد من المدن الساحلية، وشدوا حصارهم على الجزائر بالذات ، وحاولوا أكثر من مرة الاستيلاء عليها. لقد أدت هذه الظروف السياسية المتوترة التي عاشتها الجزائر في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر إلى ارتفاع عدد العلماء الذين غادروا بلادهم نحو البلدان الشقيقة سواء في المغرب أو في المشرق(52).وهذا ما يؤكده الكتاني في حديثه عن حركة هجرة علماء تلمسان فيقول :<< أن هجرة المغراويين التلمسانيين لفاس زادت بدخول الأسبان وهران>> (53) وأكثر المدن التي تعرضت إلى هذا النزيف البشري من الطلبة والعلماء إلى جانب تلمسان ، نذكر منها وهران ومناطق أخرى من الغرب الجزائري ، أما في الجهة الشرقية من البلاد فكانت بجاية .

وقد ورد في كتب التراجم لهذه المرحلة أسماء بعض الطلبة العلماء الذين هاجروا إلى المغرب من المدن الجزائرية التي وقعت تحت الاحتلال الأسباني كوهران وبجاية (54). ومن بين الطلبة والعلماء الجزائريين الذين هاجروا إلى المغرب نذكر :

أحمد بن جيدة المديوني الوهراني: درس عن فقهاء وهران وتلمسان منهم، محمد بن يوسف السنوسي في العقائد . وأبو عبد الله محمد بن أبي مدين، وابن مرزوق الكفيف، الذي كان يطالع له ، ومحمد بن أبي الجمعة المغراوي . ودرس التصوف عن ابن تاغزرت ، وعن أبي إسحاق إبراهيم التازي . هاجر إلى المغرب واستوطن بفاس ، وكان يدرس فيها علم الكلام . أخذ عنه كثير من

الطلبة منهم أبو العباس أحمد المنجور ، والشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الخباز القصري. توفي بفاس سنة 951هـ/1544م ، وعمره يزيد عن السبعين سنة [55] .

منصور بن عبد الحق المشدالي البجائي : هو أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي البجائي استوطن شمال المغرب ، وكان التلميذ الكبير لأبي عبد الله محمد الشطيبي الأندلسي الأصل ، نزيل تازغردة ببني زروال ، كما كان من أصحاب الشيخ سيدي يوسف التليدي صاحب الزاوية الشهيرة في إقليم غمارة بشمال المغرب [56].وذكر صاحب كتاب " تعريف الخلف..." على لسان الغبريني أن منصور كان فقيها ومحصلا ومتقنا ومجيدا ، وأضاف أنه رحل إلى المشرق ، حيث لقي العلماء هناك منهم عزالدين بن عبد السلام ، والشيخ صدر الدين سليمان الحنفي وغيرهما [57].

قاسم عمر الزواوي : الذي آثر الهجرة إلى المشرق والاستيطان في القاهرة إلى أن توفي بها في 1521/927م ابن عماد الحنبلي[58] .

محمد شقرون : لم يذكر الذين ترجموا لحياته تاريخ ولادته ، أما مكان ولادته فأغلب الظن أنها مدينة وهران حيث جاء في أحد مؤلفاته : ((محمد شقرون بن أحمد بن أبي جمعة المغراوي ثم الوهراني)) [59] رحل إلى فاس ، فأخذ عن شيوخها مثل ابن غازي ، وأبي العباس الدقون [60] خلف العديد من التلامذة أشهرهم علي بن يحيى السلكسيني الجادري [61]. اشتهر بمؤلفه "الجيش الكمين لقتال من كفر عامة المسلمين" الذي ألفه سنة 920هـ/1514، وهو عبارة عن جواب عن سؤال عرض عليه يتعلق بمسالة (إيمان المقلد في العقائد) الذي ينطق بالشهادتين ويؤمن بالله ورسوله ، هل يعد إيمانه صحيحا أم هو كافر . وقد دافع الشيخ عن إيمان العوام، وأثنى عليه أربعة علماء من تلمسان نتيجة لهذا الموقف . توفي سنة 929هـ/1523م[62].

محمد بن مرزوق (السبط) : وهو سبط الحفيد ابن مرزوق ، ابن بنته حفصة . وصفه ابن مريم نقلا عن أبي عبد الله الإمام بن العباس ، بأنه آخر علماء قطرنا(مملكة تلمسان) الآخذ من كل فن بأوفر نصيب . أخذ العلم عن خاله محمد بن مرزوق الكفيف ، والشيخ العلامة محمد بن العباس وغيرهما . وأضاف ابن مريم أنه كان حيا سنة 918هـ ، دخل فاس وأجاز عبد الوهاب الزقاق [63].

محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني : ولد بتلمسان سنة 908هـ ، درس على يد العديد من مشايخها ، كالفقيه المفتي أبي عبد الله محمد بن موسى والفقيه أبي عثمان سعيد المقري ، والمحقق أبي العباس أحمد بن أطاع الله وغيرهم. كان ملازما لوالده عبد الرحمن في رحلاته. رحل إلى فاس سنة 958هـ ، في عهد السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف ، ولما استقر بفاس منحه السلطان المذكور مهمة الفتوى والتدريس ، حيث تولى الخطابة بجامع الأندلس لمدة ثمان سنوات ، وكذلك في جامع القرويين لمدة ثلاث عشرة سنة . كان عارفا بعلوم عدة منها المنطق والعقائد والبيان والفقه والحديث والتفسير وغير ذلك . وذكر المنجور في فهرسته : استفدت منه في العقائد والفقه والحديث والأدب ، وأضاف أنه كان ذا تؤدة وسكون وهمة وسخاء . ظل بفاس إلى أن توفي بها سنة 981هـ/1573م[64].

محمد بن عبد الرحمن المغراوي: هاجر إلى فاس سنة 958هـ، أصبح فيها مفتيا وعميد علماء وخطيب جامعها الأعظم وشيخ الجماعة لها [65]. ولما ذاع صيته بفاس قلده السلطان عبد الرحمن بن ابراهيم الدكالي رئاسة الإفتاء والتدريس والخطابة بجامع الأندلس زمن أبي زيد ، لمدة طالت الثمان سنين ، ثم جامع القرويين ثلاث عشرة سنة ، وكان يلقب بإمام الأئمة ، متضلعا في المنطق والعقائد والبيان والفقه والحديث والتفسير ، كما كان مرجعا لا يستغنى عنه في الإفتاء في فاس . أخذ عنه الشيخ أبو المحاسن الفاسي ولازمه كثيرا وقرأ عليه التفسير وأصول الفقه ، والكبرى والصغرى للسنوسي . قال ابن مريم : أنه أخذ أيضا عن الشيخ الإمام الزاهد أبي عثمان الكفيف ، وعن الشيخ السنوسي، وعن الشيخ أبي العباس ابن زكري . كما أخذ الشيخ أبو المحاسن عنه عقائد التوحيد . وشهد له اليسيتني : <<إنه كان من العلماء الراسخين في علوم الدين وخطيبا بالقرويين ومفتيا بها>>[66].

محمد شقرون بن هبة الله الوجديحي التلمساني : نزيل فاس في سنة 1560 تولى الإفتاء بمراكش . قال المنجور في فهرسته : كان فقيها علامة مشاركا في كل فن ، كان إماما بتلمسان ومفتيا تأتيه الفتاوي شرقا وغربا . توفي بفاس في آخر سنة 1577م عن خمس وسبعين سنة ، له شرح على التلمسانية، أخذ عنه سعيد المقري ومحمد بن الهواري ومحمد بن عبد الله ابن قونزع التلمسانين وإبراهيم الشاوي[67].

محمد بن عزوز الديلمي : الذي انتقل من البادية إلى الحاضرة ثم قصد فاس حيث توفي . ونفس الشيء يقال عن محمد بن محمد العاباسي الذي رحل إلى فاس ، ويقول ابن مريم أنه رجع إلى تلمسان [68].

وهناك من رحل إلى تونس مثل أحمد بن حاتم السطي ، الذي ولد في سنة 851 هـ، بدأ حياته بتلمسان حيث درس على عدد من الشيوخ منهم محمد بن أحمد العقباني ، ومحمد بن الجلاب ، ثم ارتحل إلى تونس ودرس على يدي الشيخ ابراهيم الحضرمي ، ثم انتقل إلى طرابلس الغرب وأخذ عن الشيخ أحمد حلولو المغراوي وابراهيم الباجي ، وامتد به طريق السفر من أجل طلب العلم إلى القاهرة [69]. ورحل إلى تونس كذلك منصور البجائي (865-930هـ/1461-1524م وقاسم بن يحي الفقون (تـ.965هـ/1558) [70].

هناك من العلماء من آثر الهجرة إلى البقاع المقدسة ، وهناك من رحل إلى مصر ، نذكر منهم بلقاسم بن محمد الزواوي المتوفي في سنة 922هـ/1516 . من أكابر فقهاء المالكية في وقته ، تعلم في تلمسان [71] . ما ذكرناه عبارة عن أمثلة فقط عن هجره هذه الشريحة من المجتمع الجزائري في ذلك الوقت[72] .

4 . إسهام العلماء والطلبة في الجهاد ضد الأسبان :

هناك كثير من العلماء من شارك بنفسه في المواجهات العسكرية ضد الأسبان ، سواء خلال أيام الاحتلال الأولى ، أو خلال هجمات التحرير، وهذا يبدو من خلال ذكر النماذج التالية .

فعندما تعرضت مدينة بجاية للغزو الأسباني في سنة 1510 وتولى سكانها في الدفاع عنها . كانوا مدعومين من قبل أربعة علماء مدينة بجاية ، وهم أبو أحمد بن اسماعيل بن علي الكتاني ، أبو اسماعيل بن ابراهيم الحنتاتي ، أبو يوسف بن الحسين بن علي ، أبو علي بن محمد [73]. غير أن سوء التنظيم ، وقلة الاستعداد والتدريب القتالي رغم التفوق العددي فإن فعالية الأسلحة النارية الأسبانية أجبرت المقاومين على التراجع أمام الهجوم الأسباني المضاد وخروجهم المفاجئ من مواقعهم [74].

وذكر ابن سليمان في كعبة الطائفين 222/2 أن الفقيه محمد بن ملوك بن عبد القادر العامري والولي الصالح محمد السائح وولده قد استشهدوا في مقاتلة كفار وهران سنة 1053هـ [75].

ومن العلماء ـ الذين ساهموا في الفتح الأول 1708م، في عهد الباي مصطفى بوشلاغم ـ مصطفى بن عبد الله بن مؤمن الرماصي المشهور بالقلعي درس في

مازونة، ثم رحل إلى مصر لطلب العلم واكتساب الآداب ، وذكر صاحب تعريف الخلف أن من تآليفه (شرح متن السنوسية) [76].

محمد بن توزينت العبادي التلمساني الذي يعد من القراء المشاهير ، وقد عرف عنه العلم والجهاد معا ، ذلك أنه توفي مجاهدا ضد الأسبان سنة 1118،/1708 أي أثناء الفتح الأول لوهران [77].

أحمد بن ثابت ، الذي قاد الطلبة في الحرب ضد الأسبان في وهران مثل شيخه . لكنه لم يمت في تلك المواجهة بل ذكر عنه أن ثار على الأتراك سنة 1150هـ/1737م، وأنه اضطر إلى الهجرة والوفاة في المهجر [78]. وعلي أبو حسون العبدلي فقد روى الجامعي أن هذا الشيخ ومن كان معه من السكان في حوز تلمسان ، غير آمنين ولا ينعمون بنوم هادئ ، مما جعلهم يلجئون إلى إقامة الحراسة عليهم .

وفي معركة تحرير وهران الثانية سنة 1792 . جند الباي محمد الكبير بعض العلماء وطلبتهم ، وأمرهم أن يتوقفوا عن التدريس في المدن ، وأن يدرسوا بدل ذلك في الرباطات والمراكز الأمامية مثل جبل المائدة المطل على وهران وأمر عليهم الشيخ محمد الموفق بوجلال [79] ، وإلى جانبه الشيخ طاهر بن حوا قاضي معسكر[80]. واستجاب الشيخ محمد بن علي الشارف المازوني لدعوة الباي ، فالتحق بالرباط هو وولده الشيخ هني وأخوه السيد محمد ومعهم نحو مائتي طالب . وأعطاهم الباي السلاح والعدة [81].

ونجح الباي محمد الكبير في تجنيد نحو 400 طالب. وقام بتسليحهم وتدريبهم على خوض الحرب ، وقدم إليهم الأطعمة والعتاد كل شهر [82].وعندما وقعت المواجهة مع الأسبان استشهد الشيخ ابن حواء. وقد رثاه ابن سحنون بقصيدة تتألف من ثمانية وثلاثين بيتا منها الأبيات التالية :

عز نفسك عن صروف الزمان كل شيء على البسيطة فان

كل من عاش لم يزل كل يوم يشتكي من إصابة الحدثان

إن للنائبات قوسا وتيرا عرضت لسهامه الثقلان[83]

هوامش الفصل الأول :

(1) اسمه الكامل أبو عبد الله بن يونس بن طلحة بن عمرو الوهراني ، انتقل إلى الأندلس في عام 1037م للتدريس في إشبيلية ، درس التصوف ، امتد به العمر إلى الثمانين.

(2) هاجر في إلى مصر ، ثم إلى الشام وتوفي بدمشق عام 1179هـ/. 1779م .
(3) هو عماد الدين اسماعيل أبو الفدا (1273-1331م) اشتهر بكتابه في الجغرافيا " تقويم البلدان" الذي بدأ تأليفه سنة 1317م وأتمه بعد أربع سنوات.
(4) Robert Brunschvig : Deux récits de voyage inédits en Afrique du nord au XV[e] siècle Abdalbasit B. Halil et Adorne, Larose éditeurs , Paris,1936, p.46.
(5) بوعزيز: وهران ، ص.46-47.
(6) ولد في عام 1350، أو عام 1351، بكلميتو شرق مستغانم ، ارتبط اسمه وتاريخه بمدينة وهران ، وأصبح جزءا من تراثها إلى اليوم.
(7) أستاذ محمد السنوسي ، كان متصوفا توفي سنة 866هـ . له قصيدة "المرادية" مطلعها:
مرادي من المولى وغاية آملي دوام الرضى والعفو عن سوء أعمالي
(8)أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري(16-20م)، ج.1 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1980 ، ، ص.286.
(9)السادس والسابع والثامن للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر ميلادي .
(10) سعيدوني : دراسات أندلسية ، ص.125.
(11) رشيد مصطفاوي : بجاية في عهد الحماديين ، الأصالة ، مارس 1971، العدد 1 ، ص.84.
(12) نفسه : ص.91.
(13) نفسه : ص.85.
(14) سعيدوني : داسات أندلسية ، مرجع سابق ، ص126.
(15) أنظر: ابن خروف : العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب ...، مرجع سابق ، ص.15.
(16) سعيدوني: ص.126.
(17)Cueva:Op.cit., p.246.
(18) المهدي البوعبدلي :أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ ونبذة مجهولة عن تاريخ بعض أعلامها ، الأصالة ، 1975، العدد 26 ، صص.124-125.
(19) سعد الله :تاريخ الجزائر الثقافي ، ج.1، ص.34.
(20) سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج.1 ، ص.172.
(21) الوزان : مصدر سابق ، ج 2، 333.
(22) أنظر: رشيد بوروبية: جولة عبر مساجد تلمسان، الأصالة، 1975،العدد: 26، ص. 172.
(23) أنظر: عبد الحميد حاجيات : الحياة الفكرية بتلمسان، الأصالة، العدد:26، ص 138.
(24) Baltazar de Morales: Dialogue sur les guerres d'Oran , Traduit par R.Fransisque-Michel , B.S.G.A.O., 1889, p.113.
(25) عن تلمسان في العهد العثماني أنظر: Brosselard: Les inscriptions arabes de Tlemcen R.A., 1862, t.6, pp.11-21,161-172.
(26) بوعزيز: وهران، ص.160.
(27) بوعزيز: وهران ، مرجع سابق ، صص. 159-161.
(28) نفسه: صص. 145-146.
(29)Montanes : Op.cit., p.345.

(30) سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ج1 ، ص.179.
(31) الوزان : مصدر سابق ، ص.51.
(32) مصطفاوي : مقال سابق ، ص.91 .
(33) Laurent-Charles Féraud: Histoire de Bougie, Bouchene, Paris , 2001, p.102.
(34) بلحميسي : الجزائر من خلال الرحالة المغاربة ، مصدر سابق ، ص.49.
(35) محمد أرزقي فراد : المؤرخ التونسي عثمان العكاك والحضارة الأمازيغية ، جريدة الشروق، العدد.2060، 01 /2007/8، ص.14.
(36) مفدي زكرياء : أمجادنا تتكلم ، ملحمة تاريخية عن بجاية ، الأصالة ، 1974، العدد:2 ، الهامش رقم 33، ص.124 .
(37) سعيدوني : دراسات أندلسية ، ص.127.
(38) يحكى أن أحد علمائها تنبأ بهذه الحالة ، وهو سيدي التواتي صاحب الزاوية الصوفية المشهورة عندما ذهب به الناصر في سفينته إلى وسط الخليج ، وقال له تأمل كيف يلمع بنيان هذه المدينة التي تزدهر ازدهارا بمنارات مساجدها العديدة ، ألا تستحق لقب مكة الصغيرة ، أما الولي فلم يتأثر بجمال المدينة ولم يتحمس لها ، بل أخذ يعظ الناصر وعظا شديدا ويعنفه على عمله هذا وحبه للترف وإنشاء القصور ، وقال له: إنك نسيت زوال الأشياء ، فاعلم أنك تبني للخراب وإن سمعتك ستتلاشى وتسقط بسقوط مدينتك ، فلم يأبه الملك لهذا الكلام ، فلما رأى الشيخ ذلك نزع برنسه ورفعه بين الملك والمدينة حتى غابت عن عينيه، وقال له أنظر فنظر الناصر فلم يرى سوى خراب وأطلال تتراءى في برنسه ، فلم يبق قصور ولا بساتين ولا مساجد ، فرأى ما ستؤول إليه بجاية في عصورها المتأخرة من خراب وقلة عمران. مصطفاوي، مقال سابق ، ص.85 .
(39)سعيدوني : دراسات أندلسية ، ص. 128 .
(40) أي تصغير مسجد.
(41) كان أديبا وفقيها توفي ببجاية سنة 629هـ. أنظر الحفناوي ج.2، ص.198.
(42) ولد سنة 785هـ وتوفي سنة 875هـ وقد اشتهر بمؤلفاته العديدة في التفسير والوعظ والفقه والتصوف وغيرها. أنظر أبو القاسم الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف ، ج.2 ، موفم للنشر ص. 197-201.
(43) كان مشهورا بعلمه وتقواه ، أنظر صفحات من تاريخ مدينة الجزائر ص.240، والحفناوي، ج.2، ص.470.
(44) صاحب منظومة الشهيرة بـ"الجزائرية' كان فقيها ومتكلما اشتهر بلاميته في التوحيد ، توفي سنة 884. أنظر الحفناوي ، ج.1 ، ص.23 .
(45) نوع من السفن الحربية الخفيفة تحمل المدافع وتتجه بسرعة لملاقاة العدو على بعد.
(46) الزهار : مصدر سابق، ص.24.
(47) عبد الله محمد بن الشويهد : قانون أسواق مدينة الجزائر(1107-1117هـ/ 1695-1705م) تحقيق وتقديم وتعليق د. ناصر الذين سعيدوني ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2006، الهامش رقم 2،ص.93.
(48) نور الدين عبد القادر : مرجع سابق ، ص.280 .

(49) سيدي والي دادة هو رجل صالح من أهل مدينة إزمير قدم إلى الجزائر مرابطا بثغرها وبها توفي ودفن بزاويته قرب جامع كتشاوة (1551/961هـ

(50) De Kercy: Mémoire sur Alger ,In Esquer , La prise d'Alger , librairie ancienne , Paris, 1927, pp.112-116.

(51) كمال فيلالي : هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في العهد العثماني ، المواقف ، عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول : الظاهرة الدينية ، أيام 14-16 أفريل 2008، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطنبولي ، معسكر ، ص.374.

(52) عمار هلال : العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (3/ 14هـ) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995،ص.275.

(53) عن فيلالي: ص.374 .

(54) عمار بن خروف: العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرنين العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ، الجزء الثاني ، دار الأمل للطباعة والنشر ، الجزائر 2008، ص.100.

(55) أنظر : محمد بن مريم : البستان في ذكر العلماء في تلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986 . صص.52-53 ؛ الحفناوي : ج.1، مصدر سابق ، صص.287-288.

(56) محمد بن عسكر الحسني : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق : محمد حجي ، ط.2، =ار المغرب ، الرباط ، 1977، صص. 16-18.

(57) الحفناوي : ج.2، ص.445.

(58) ابن خروف : مرجع سابق ، ج.2، ص.101.

(59) محمد شقرون بن أبي جمعة المغراوي : الجيش الكمين لمن كفر عامة المسلمين ، مخطوط، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 2301، ورقة .8.

(60) ابن قاضي : درة الحجال في أسماء الرجال ، تحقيق : محمد الأحمدي أبو النور، ج. 2، المكتبة العتيقة ، ط.1، تونس ، 1971، ص.93.

(61) كان فقيها وخطيبا ومحققا في الحساب والفرائض تولى الإمامة في مسجد أغادير بالمغرب الأقصى ودرس فيه .

(62) أنظر محمد شقرون بن أبي جمعة المغراوي : الجيش الكمين لقتال من كفر عامة المسلمين تقديم وتعلق : عبد القادر فكاير ، مذكرة ماجستير ، غير منشورة ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، الموسم الجامعي 1995-1996.

(63) ابن مريم : مصدر سابق ، ص.258.

(64) الحفناوي :ج.2، صص.257-259 ؛ ابن مريم : ص.260-261.

(65) فيلالي : مقال سابق ، ص.374.

(66) ابن مريم : ص.261.

(67) نفسه: ص.261.

(68) ابن مريم :مصدر سابق، صص. 258-261.

(69) نفسه ، ص.55.

(70) هلال : مرجع سابق ، ص.113.

(71) نفسه : ص.295 .

(72) للاطلاع عن أسماء أخرى شهدت هذه الحركة أنظر: عمار هلال : العلماء الجزائريون في البلدان العربية .

(73)Feraud:conquête de Bougie , Op.cit.,p.254.

(74)Gaid: Histoire de Bejaia.. , Op.cit., p.116.

(75) سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج.1 ، الهامش رقم 131، ص.199.

(76) الحفناوي : ج.2، مصدر سابق ، ص.443.

(77)سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ،ج.2، مرجع سابق ، ص.23.

(78) نفسه : ج.2 ، الهامش رقم 30 ، ص.24.

(79) يعتبر من أبرز العلماء والمدرسين في عصره ، وكان وقت تامير الباي له أستاذا بارزا في معسكر.

(80) من كبار علماء عصره تولى قضاء معسكر.

(81) أنظرحساني ، تاريخ تحرير وهران صص.342-343 .

(82) أنظر المزيد في ، ابن سحنون ، الثغر ، ص.235.

(83) ابن سحنون ، الثغر الجماني ، مصدر سابق ، صص.237-239.

الفصل الثاني

أدب الجهاد

لقد خلف كثير من العلماء والشعراء العديد من القصائد الشعرية التي تناولت مسألة الصراع مع الأسبان ، تندرج ضمن غرض الأدب السياسي. فبعضهم كان محذرا من وقوع الغزو قبل تعرض البلاد إلى آذاهم ، وهناك من كان محرضا بقصائده الحكام والمحكومين على تحرير المواقع المحتلة وخاصة وهران. وفي حالة الانتصار على الأسبان كما حدث سنة 1119 هـ /م 1708 وسنة 1205هـ/ 1791م أصدرت قرائحهم الشعرية قصائد تعبر عن الابتهاج بهذا الإنجاز ، فيها من المدح والثناء على الباي والداي والجيش وقادته . كما ساهم بعض العلماء في الحروب أمثال ابن خلوف والرماصي وابن حواء وأبي راس وابن زرفة ، وبقصائد خلدت تلك المجابهات مع الأسبان ، ومنهم من لقي الشهادة[1]. ومما يلاحظ أن علماء الغرب الجزائري وشعرائهم قد أنتجوا هذا النوع

من الأدب بكمية كبيرة نتيجة لوضعية المنطقة المتوترة المترتبة عن استمرار الوجود الأسباني لوقت طويل في وهران والمرسى الكبير . وهذا خلافا لأي منطقة أخرى من البلاد الجزائرية .

1 - تحذير بعض العلماء من وقوع الغزو :

لقد اتبع هذا الأسلوب الشيخ عبد الرحم الثعالبي [2]. الذي اشتهر عصره بالاضطرابات السياسية والاجتماعية، فكانت الجزائر في عهده مقسمة بين بني حفص في الشرق تضم حواضر قسنطينة وبجاية وعنابة ، وبني زيان في الغرب. وكانت مدينة الجزائر وما جاورها من مناطق الوسط ميدانا للنزاع بين الدولتين المذكورتين . وكانت الإمارات المحلية في هذه المناطق توالي القوي من السلطتين ، ومن بين هذه الإمارات إمارة الثعالبة بسهل متيجة وما جاوره إلى وادي يسر . وقد زاد من الاضطرابات المذكورة تهديد الأسبان والبرتغاليين الإيطاليين لسواحل شمال إفريقيا ، واستغلالهم حالة الضعف في هذه الدويلات . وكانت بجاية التي درس بها الثعالبي على يد علماء بارزين . محل اهتمام الشيخ في الدفاع عنها . في هذا الظرف كتب الثعالبي رسالة بعثها إلى محمد بن أحمد الكفيف بأحد نواحي بجاية.

لقد عبر الثعالبي في هذه الرسالة عن فرحه في كون أهل بلد الشيخ الكفيف قد أخذوا يعدون أنفسهم للجهاد بصنع وسائل الدفاع مثل درق العود [3]. وأن أهل مدينة الجزائر أخذوا هم كذلك في الاستعداد للجهاد بعدما حرضهم هو على ذلك. كما اطمأن الثعالبي على المنطقة التي يقطن بها محمد الكفيف عندما أعلم من قبل والده أحمد الكفيف أن السكان قرروا إخراج الأطفال والنساء وممتلكاتهم من المدينة إذا حل بلادهم الغزو الخارجي، وألا يبقى فيها الرجال من المقاتلين .

وطلب الثعالبي من الشيخ الكفيف أن ينبه فقهاء بجاية وسكانها في البادية والحضر على الاستعداد للجهاد ، لأنه قد لاحظ غفلتهم عن الخطر الذي يهددهم رغم أنه سبق له أن طلب من فقهائهم النهوض للجهاد فلم يرى لكلامه من أثر.

وقد استند الثعالبي في توقعه الهجوم الخارجي على بجاية إلى حالة الهزائم التي لحقت بالمسيحيين في القسطنطينية وغيرها[4].

وخاطب الشيخ محمد التواتي البجائي[5] أهل وهران ، يحذرهم من الاستمرار على حالهم ، لما رأى كثرة غفلتهم وانحرافهم وتقاعدهم عن حفظ بلادهم . فأخذ ينهاهم عن ذلك ويدعوهم إلى محاربة الأسبان والاستعانة عليهم بأهل الأندلس لما تفرس فيهم من الحزم والجهاد وخبرتهم في الحرب.

أيا أهل وهران انظروا نظر شفقة   لبلدكم قبل أن تتردت

وقـبل مجيء المنشآت ببـحرها وأي قلوب عندنا مستقرة

إلى أن يقول بعد التوبيخ الشديد والتأسف الشديد :

فيا قادرا عن دفع ذلك مقصـرا فما العذر يا ذا الطول يوم القيامة

ولا يحمي مرساكم ضعاف رجالكم ولا البدو بل تحميه أهل الجزيرة

فإن لهم بالطعن والضرب خـبرة وكم فـتكوا بالكـفر أكبر فتكة[6]

من خلال قراءة هذه الأبيات يتضح أن القصيدة قيلت قبيل احتلال وهران من الأسبان الذين كانوا في صراع مع المسلمين الأندلسيين . ذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله في تقديمه لكتاب (كعبة الطائفين) ، أن مؤلف هذا الكتاب لم يأت بها كاملة ، ثم ذكر أنه ومن الواضح أن القصيدة طويلة [7].

2 ـ الحث على تحرير وهران :

أصبحت قضية وهران هي القضية الأولى التي يهتم بها الرأي العام ويريد أن يصفي حسابه مع الأسبان مهما كانت التكاليف ، فالعلماء بدروسهم وكتبهم ورجال الدين بخطبهم ومواعظهم ، والشعراء بقصائدهم العديدة كانوا يلهبون الحماس ويشحذون العزائم، ويستنفرون الحكام من أجل الحملة النهائية. لقد حفظ لنا التاريخ الكثير من القصائد المؤثرة التي تعبر بصورة صادقة عن الشعور الشعبي تجاه هذه القضية . وفيما يلي عرض لأهم هؤلاء الشعراء .

العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي الملقب بابن آقوجيل : وكان من كبار العلماء له فهرس مشهور، وتصانيف في العلوم [8]تولى القضاء في عهد بكداش باشا. وقد اشتهر الشاعر بتوجيهه لباشا الجزائر أحمد خوجة قصيدة يحرضه فيها على محاربة الأسبان بوهران وذلك في سنة 1067هـ/ 1667م . ويروي بعض المؤرخين أن الدور الأساسي في التحريض كان لهذا الشاعر [9] ، الذي أكثر من نظم الشعر البليغ التحريضي، أدي فيما بعد إلى تحرير وهران الأول في عهد محمد بكداش وذلك سنة 1708/1119. غير أن الشاعر لم يكتب له معايشة الحدث الذي تحمس له في قصيدته ، إذ توفي سنة 1080هـ/ 1669م قبل فتح وهران . والقصيدة المشهورة التي أقرضها تبلغ سبعين بيتا مطلعها :

بسعادة تجديدكم وسرور وبه الهناء على ممر دهور

ومن الأبيات التي تحرض الداي على تحرير وهران فهي :

والتفت نحو الجهاد بقوة والكفر اقطع أصله بذكور

جهز جيوشا كالأسود وسرحن تلك الجواري في عباب البحور

أضرم على الكفارنارالحرب لا تقلع ولا تهملهم بفتور[10]

العلامة المحقق سيدي محمد بن عبد المؤمن: كان أديبا إخباريا وفقيها، حتى أن بعضهم كان يسميه بـ ((أديب العلماء علم الأدباء)) لجمعه بين الأدب والفقه[11]. وصفه ابن زاكور بأنه << ممن ضرب بسهم وافر من العلم ، العالم الفقيه اللوذعي جامع القضائل>>[12] . كما ذكر عنه أن له ديوانا شعريا ورسائل ، وضع أرجوزة جمع فيها بين العقائد والفروع الفقهية وهي تقع في نحو سبعين بيتا . بدأها بقوله :

الله موجود قديم باقي مخالف للخلق بالإطلاق

كان قد طلب من ابن زاكور الذي أجازه بها أن يشرح هذه القصيدة إذا تمكن [13].
كما درس علم التوحيد وكتب فيه . له قصيدة يحرض فيها الأمير الداي حسن الشريف باشا على غزو وهران تتشكل من ثلاثين بيتا ، منها هذان البيتان:

نادتك وهران فلب ندتها وانزل بها لا تقصدن سواها

واحلل بهاتيك البطائح والربى واستصرخن دفينها الأواها [14]

محمد بن علي بن المهدي الجزائري : درس على يد علي الأنصاري السجلماسي أحد علماء المغرب الذين استوطنوا الجزائر خلال الأربعينات من القرن السابع عشر[15] ، له قصيدة طويلة في نفس الغرض منها هذه الأبيات :

تملكها حرب الشقاء ولم يكن زمانا لحرب الحق عنها مخاصم

بها يسمه الناقوس من نحو فرسخ ومن لغة الكفار عنها تراجم

وفي كل يوم صيحة من خيولها ينوح لها الإسلام والشرك باسم

وقال في قصيدة أخرى

جئناك يا شيخ العلى نتوسل ونروم غيثا من جنابك يهطل

حتى نرى وهران دار إقامة لصلاتنا بعد الأذان تكمل[16]

أبو العباس أحمد أبي علي أحد علماء تلمسان له قصيدة يحرض فيها على تحرير وهران منها هذه الأبيات :

فمـن مبلغ عني ملوك الأقالم وكل رئيـس من رؤوس العمائم
يريدون وهرانا فما سبق القضا بـتـنفيـذه للوقـت في جفـن عالم[17]

وهناك من وصف محاولات بعض الحكام في تحرير وهران ، فعندما قدم إبراهيم باشا إلى وهران بغرض فتحها سنة 1050هـ/1640-1641 وصعد مرتفع المرجاجو المعروف بالمائدة ، وهي الوطاء الذي برأس جبل وهران المطل عليها ، فتمكن من نصب المدافع ، ولكنه لم يفده ذلك شيئا وصعبت عليه المهمة فاضطر إلى رفع الحصار والعودة إلى الجزائر. إلى هذا الحادث أشار محمد أبو راس في قصيدته المعروفة بالسينيه:

أتاها باشة إبراهيم وسط حاد من القرون من بعد الألف للوطس
قام بالمـائدة حينـا يزاولها ثم قفا درجـة من فتحـها آيس[18]

وقال أبو العباس أحمد بن عبد الله القاضي المعروف بابن أبي المحلى[19]في قصيدة تنتقد استكانة بني عامر للأسبان التي تعد نموذجا من هذا الأدب الذي يعتبر أصدق تعبير عن عاطفة الشعب المتأججة . ومما جاء في هذه القصيدة البيتان التاليان :

فهل مبلغ عني قبائل عامر ولا سيما من قد ثوى تحت كافر
وكل كمي من صناديد راشد بتيجانها مع رأسها عبد القادر[20]

وكان الشاعر ابن محلى من الذين هزتهم الغيرة على بنات المسلمين وهن في يد اليهود بوهران حين رخص النصارى لهم حكمها ، فوجه الشاعر خطابه إلى بني عامر الذين كان بعضهم يتعاملون مع الأسبان يستثير نخوتهم وكرامتهم حيث قال :

عليكم إكاف الذل أين فحولكم أما أبصروا في السبي غير الحرائر
وتحت اليهودي غادة عربية يعالجها الخـنزير فـوق المـزابر[21]

وفي نفس الغرض حذر محمد بن سليمان [22] في قصيدة له عرب وهران من التعامل مع الكفار هناك ، سواء مع الأسبان أو مع اليهود ، وأنذرهم بأنهم إن يفعلوا ذلك سيصبحون رعية لهم ودعاهم لليقظة ومخافة الله ، منها هذان البيتان :

فكيف يا قبائل العربان عافاكم الله من الشيطان
اتخذوا هارون في هران يهوديا ملعونا في القرآن[23]

3 - الإبتهاج بتحرير وهران الأول والثاني(1708، 1792):

لقد ارتاح لحادثي فتح وهران الأول والثاني كثير من الشعراء والأدباء ، ففاضت شاعريتهم بما أعربوا به عن ابتهاجهم بهذا الانتصار الذي انتظروه طويلا، فنظموا قصائد مشتملة على أبلغ التهاني من هؤلاء الشعراء :

محمد بن محمد المشهور بابن علي : الذي ينحدر من أصل تركي نزحت عائلته مع العثمانيين الأوائل إلى الجزائر ، كان جده محمد المهدي بن رمضان قد تولى الإفتاء الحنفي سنة 1045هـ. وتولى ابن علي بدوره مهمة الإفتاء في سنة 1150 ، استمر في هذه الوظيفة ما يقرب العقدين (1169هـ) . فإلى جانب هذا التخصص الديني كان شاعرا ، ومن الذين مدحوا محمد بكداش باشا وهنأه بفتح وهران الأول سنة (1119هـ/1708م) في قصيدة منها هذه الأبيات:

وإني وإن أحجمت أول مــرة على خوض هذا البحر والغير عائم
فمـا هي إلا هيبة الملك قلمــا على مثلـها في الناس يقدم قــادم
وعهدي قوافي الشعر عني أذودها زمانا وفكري موجــه متلاطــم
ولولاك ما كان التفات لفــقرة ولا سام نظم الشعر كالدر سائــم[24]

أبو عبد الله محمد بن أحمد البوني : ولد في عنابة سن 1063هـ/1653، وتوفي في سنة 1139هـ/1726م أخذ عن والده قاسم بن محمد ساسي البوني ، وسافر إلى تونس وكذلك إلى مصر لطلب العلم، كما ذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، كتب عنها رحلة سماها (الروضة الشهية في الرحلة الحجازية). ولما عاد إلى عنابة أصبح عالما يقصده طلاب العلم من كل مكان ، من بينهم عبد الرحمن الجامعي . صنف البوني كتبا عديدة تزيد عن المائة ، خاصة في الحديث والتصوف والفقه والنحو واللغة وغيرها من العلوم ، كانت في معظمها نثرا أو مختصرة في قصيدة طويلة . ويذكر أنه كانت له علاقات مع محمد بكداش قبل تولية هذا الأخير من خلال رسالة مؤرخة في سنة 1115هـ/1703م بعثها بكداش إلى البوني ردا على رسالة كانت قد وصلته من الشيخ. وفي مدحه لمحمد بكداش نذكر هذه الأبيات:

ملـك يزيـن مـديـحة مـداحـه هيهات أن يحصـيه من إنسان
يرتاح قلبـي عـند ذكـر حديـثه فالـسقم عـندي وضـده سيان
لا عيب فيه سوى الهجوم أخي على وهـران ذات الكفر والطـغيان
يا صـاح هـذا الأمـر مـما قد خبأ ربي له في سـابـق الأزمـان
بشراك يا بكـداش قد نلـت المنى وعمر أرض الكفر بالإيمان[25]

محمد الحلفاوي : هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الحلفاوي التلمساني لا يعلم عن تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته ، كان متفوقا في عدة علوم ولا سيما في الفقه والنوازل ، تولى الإفتاء بتلمسان والخطابة والوعظ والتدريس بمساجدها . كان معاصرا لمصطفى بوشلاغم باي وهران الذي تولى الحكم ما بين (1697-1710م) [26] . إن أعظم ما اشتهر به الحلفاوي هو تنظيمه أرجوزة في فتح وهران الأول 1119هـ 1708هـ ، وهي تتألف من اثنين وسبعين بيتا مطلعها :

لما أراد الله بالدين جلا عن أرض وهران بني الكفر جلا[27]

وقد شرح هذه الأرجوزة محمد عبد الرحمن الجامعي[28] وقد نظم هو الآخر قصيدة أخرى مهنئة بالفتح وهي تتألف من ثلاثين بيتا ، منها هذان البيتان :

تلت رسل البشائر يوم عيد علينا سورة الفتح السعيد
فأحيت من رسوم البشر رسما عفا بالشرك مذ زم مديد[29]

الشاعر أبو عبد الله المعروف بابن يوسف الجزائري : له قصيدة يهنئ فيها الداي بهذا الفتح منها هذان البيتان مولاي فضلك للكروب مفرج وبتاج عز الله أنت متوج

جهزت حقا للجهاد عساكرا كرب الورى بقربهم يتفرج[30]

الشيخ الحافظ أبو عبد الله سيدي محمد التغريري[31] له قصيدة مطلعها :

الحمد لله الذي فتحا وهران عن أيدي الرجال الصلحا[32]

محمد بن محمد بن علي بن سيدي المهدي الجزائري له قصيدة في نفس المناسبة منها هذان البيتان :

وهل طاوعت وهران قبل مملكا سواه فأضحى أنفها وهو راغم
فكم سامها من لا يناهضها وكم حوالي حماها حام بالزوار حالم[33]

وحظي فتح وهران الثاني بعدة مؤلفات ، وقصائد شعرية تصف عملية الفتح وتمدح الباي محمد الكبير الذي تم في عهده من هؤلاء:

أحمد بن سحنون الراشدي ، الذي كان مرافقا للجيش المقاتل ، حيث ألف كتابا سماه (الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني) يحتوي على فتح وهران وعلى سيرة الباي ، وأحداث أخرى تتعلق بالجزائر .
أما القصيدة التي قالها في الفتح الثاني لوهران مطلعها :

أرج الفتح بالبسيطة فاح وكسى النصر بالبهاء البطاحا
وغدى واجس الظنون يقينا مذ بدى لألأ الهدى وألاحا[34]

الحاج عبد القادر بن السنوسي بن دحو: له قصيدة في نفس المناسبة منها هذان البيتان :

بشرى لنا قد بلغنا غاية الارب   بفتح وهران ذات العجب والعجب
أرخت لقوم ذاك العام مبتدرا   قالوا فما الشهر منه يا أخا العرب[35]

4 ـ قصائد شعرية نظمت في مناسبات مختلفة :

هناك أحداث أخرى من المواجهات مع الأسبان ، نظم الشعراء حولها قصائد شعرية خلدت تلك الوقائع، بعضها وصف معارك عسكرية ضد الجيوش الأسبانية ، وبعضها وصفا لحملات الأسبان على مدينة الجزائر، وفيما نماذج من هذه القصائد.

الأكحل بن خلوف : اشتهر بقصائده في مدح النبي محمد (صلعم) ، وعندما وقعت معركة في مزغران سنة 1558 بإحدى ضواحي وهران إثر غزو الجيش الأسباني لها ، شارك الشاعر فيها . وقد ألف فيها قصيدة من الشعر الشعبي تتكون من خمسين بيتا استهلها بالبيت التالي :

يا سايلني عن طراد الروم   قصة مزغران معلومة

سجل فيها جهود حسن باشا الذي قاد الجيش الجزائري في المعركة ، ودور السكان فيها . كما ذكر الجيش الأسباني الذي كان يقوده الكونت دالكوديت ، فتحدث عن الطريق الذي سلكه ، ووصف معنويات كل جيش في المعركة . وتعرض لنتيجة المعركة التي قتل فيها القائد الأسباني[36]، وعودة حسن إلى مدينة الجزائر مبتهجا بالنصر. وهذا ما جاء في البيتتين التاليين

الأمير حسن يوم مزغران   أخلف الثار مالعدو تحقيق
ارجع للبهجة عاصمة البلدان   بغنايم شتى ونصر البيق

وإذا كانت هذه القصيدة أسلوبها مهلهلا إلا أن قيمتها التاريخية لها وزنها حيث كان صاحبها شاهد عيان[37].

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن موسى : ولد في سنة 929هـ/1523م ، جمع بين عدة علوم ، درس على يد الشيخ على بن يحيى السلكسيني الجادري ، وشقرون محمد بن هبة الله بين هبة الله الوجديجي ، كما أنه أخذ عن والده محمد بن حمد بن موسى الوجديجي ، رحل إلى بلاد زواوة وأخذ عن الشيخ يحيى بن عمر الزواوي فكان علامة في الفقه وعلم الحديث والنحو والشعر واللغة الحساب والفرائض . توفي في سنة 1011هـ/1603م[38]. له قصيدة تصف يوم هدم الباشا

حسين حصن المرسى وهروب النصارى للحصن الأسفل في سنة 1563. تتألف القصيدة من أربعة عشر بيتا منها هذان البيتان :

هنيئا لك باشا الجزائر والغرب بفتح أساس الكفر مرسى قرى الكلب
ستفتح وهرانا ومرساتها التي أضرت بذا الإقليم طرا بلا ريب[39]

وله قصيدة أخرى نظمها يوم حزن الباشا على من مات من المسلين في معركة الفتح السابقة الذكر ، ذكر منها ابن ميمون ثلاثة عشر بيتا منها هذان البيتان :

أمولاي بالمختار من آل غالب أحبته والصحب كل الأقارب
تحيي بنصر مع فتوح تواترت على نجل خير الدين خير المطالب[40]

وكان لشدة هول هذا الحادث الحربي المفزع الذي تعرضت له مدينة الجزائر خلال حملة أوريللي سنة 1775، أن نظم الشعراء فيه القصائد المؤثرة من ذلك ما تراسل به من الشعر كل من الشيخين سيدي محمد بن سعيد أبو قريش التيطواني[41]
و الشيخ أحمد بن الشيخ سعيد قدورة [42]. ومما قاله الأول في المناسبة البيتان الشعريان التاليان :

أحقا ما أشيع عن الجزائر من إرهاب البواطن والظواهر
متى تصل النفوس لمبتغاها إذا بقي الهوان على الجزائر[43]

ورد عليه أحمد بن سعيد قدورة بقصيدة منها هذان البيتان :

هي الأقلام تنطقها المحابر لتسمعك اليقين عن الجزائر
أتاها ما أراد الله حينا فكانت تنشق لها المرائر [44]

ونظم ابن سحنون الراشدي قصيدة يشيد فيها بالانتصار الذي حققه الجزائريون ضد الحملة الأسبانية سنة 1784 تتشكل من 22 بيتا .

يا بشير السرور سر في البلاد مسرعا فوق عاديات الجياد
كي تبشر كل حمى بماذا فعلت بالعدا الصقور العوادي[45]

هوامش الفصل الثاني:

(1) للمزيد عن هذا الموضوع أنظر : عبد القادر فكاير : دور العلماء في مواجهة العدوان الأسباني على الجزائر ، المواقف ، عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول : الظاهرة الدينية ، أيام 14-16 أفريل 2008، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطنبولي ، معسكر صص. 281-290.

(2) ولد بوادي يسر سنة 1384، وتوفي سنة 1479.

(3) نوع من الدروع تقي صاحبها من الضربات.

(4) للاطلاع عن النص الكامل للرسالة أنظر : سعد الله ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، المجلد الأول ، دار الغرب الإسلامي ، ط.5، بيروت ، 2005، صص. 208-211.

(5) كانت له زاوية في بجاية استمرت سنة 1228 حين أمر حسين باشا بغلقها.

(6) أنظر بقية الأبيات في : ابن سحنون الراشدي : الثغر الجماني ..، مصدر سابق ، ص439.

(7) أنظر أبيات أخرى للقصيدة في: سعد الله ، أبحاث وآراء .. ، المجلد 1، صص.173-174.

(8) محمد بن ميمون الجزائري : التحفة المرضية المرضية في الدولة البكدشية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط.2 ، الجزائر ، 1981، ص.205.

(9) Fey: Op.cit., p.126.

(10) أنظر النص الكامل للقصيدة ابن ميمون : ص. 205-209.

(11) سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج.2، ص.103.

(12) نفسه : صص.46-47 .

(13) سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج.2، ص.77.

(14) أنظر نص القصيدة في كتاب "حرب الثلاثمائة سنة ، صص.439-440.

(15) أنظر حياته في سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج.1.صص.377-383.

(16)أنظر أبيات أخرى من القصيدة في : المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، صص.441-442.

(17) أنظر أبيات أخرى للقصيدة في : المدني حرب الثلاثمائة سنة، صص.442-443.

(18) المشرفي : مصدر سابق ، ص.27.
(19) له كتاب (أصليت الخريت) ذكر فيه أن سعيد قدورة كان من تلامذته ، كان ابن محلى أديبا وصاحب تآلف ، ويذكر عنه كان متصوفا ، مات سنة 1022هـ . ويذكر عنه انه ثار واستولى على سجلماسة ودرعة ومراكش ، ذهب إليه سعيد قدورة مع وفد من تلمسان والراشدية لتهنئته على دعوته وثورته. سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج.1، ص.367.
(20) أنظر نص القصيدة في : المشرفي : بهجة الناظر ، صص. 32-35.
(21) نفسه : ص.35.
(22) هو محمد بن سليمان الصائم التلمساني المعروف بالجزولي من شيوخه الشيخ محمد بن علي بن موسى اللاتلي التلمساني الذي كتب قصيدة (حزب العارفين) في التصوف وقد شرح هذه القصيدة العامية تلميذه الشيخ محمد بن سليمان أصبح كتابا عنوانه (كعبة الطائفين وبهجة العاكفين في الكلام على قصيدة حزب العارفين.
(23) سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ،ج.2، ص.272.
(24) أنظر نص القصيدة في شرح الجامعي لرجز الحلفاوي ، الكتبة الوطنية الجزائر،رقم: 2521، وتبلغ 77 بيتا.
(25) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج. 3 ، دار الثقافة بيروت 1980، صص.213-214.
(26) الحاج محمد بن رمضان شاوش : باقة السوسان في العريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995 ، ص.526.
(27) أنظر بقية القصيدة في : ابن ميمون ، التحفة المرضية ، صص249-259.
(28) أنظر توضيح عنه في المبحث الموالي.
(29) أنظر بقية الأبيات في : ابن ميمون ، صص.260-261.
(30) أنظر مقتطف من القصيدة في الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ،ج.3، ص.214 .
(31) لم أعثر على سيرة حياته.
(32) أنظر أبيات من القصيد في المزاري :طلوع سعد السعود: ج.1، صص.236-237.
(33) أنظر أبيات من القصيدة في العسلي: الجزائر والحملات الصليبية ، صص192-193 .
(34) أنظر بقية القصيدة في : ابن سحنون : صص.312-313.
(35) أنظر أبيات أخرى من القصيدة في الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، ج.3، صص.269-270.
(36) أنظر: المهدي البوعبدلي : أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التركي من خلال مخطوط الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، الأصالة ، 1972 ، العدد 8 ، صص.284-285.
(37) أنظر نص القصيدة في: قنان : نصوص..، صص .47-49.
(38) ابن مريم ، البستان ، ص.129.
(39) أنظر بقية القصيدة في ابن مريم : ص.132.
(40) أنظر بيقة الأبيات في : ابن مريم ، البستان ، صص 129-133 ؛ ابن ميمون ، التحفة المرضية، صص280-281 .
(41) لم له على ترجمة له.
(42) كان أديبا نجيبا وخطيبا فصيحا تولى الإفتاء من سنة 1107 إلى سنة 1118 هـ ، حيث خلف أخاه محمد الذي كان يتولى نفس المنصب بين سنة 1066 و 1107 هـ ، الذي سبق له هو الآخر أن

خلف والده سعيد المعروف الذي كان مفتيا بين سنوات 1028-1066هـ . .سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج.1، ص.364.

(43) أنظر أبيات أخرى في: عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج3 ، ص.243.

(44) أنظر بقية الأبيات في الجيلالي : تاريخ الجزائرالعام ، ج3 ، ص.243.

(45) أنظر بقية الأبيات في : ابن سحنون : الثغر الجماني ، صص262-263.

الفصل الثالث

مصنفات جزائرية معاصرة لأعمال الغزو الأسباني

نقصد بهذا العنوان كل عمل فكري أنتجه الجزائريون يتحدث عن عمليات الغزو الأسباني للأراضي الساحلية الجزائرية، وغيرها من المواجهات التي وقعت ضدهم . ما زال بعض هذه الأعمال مخطوطا ، وبعضه الآخر تم طبعه ، أما البعض الآخر فلم يعثر بعد على أصله العربي ، وإنما تم التعرف عليها عبر ترجمات لها باللغات الأجنبية. وفيما يلي عرض لهذه المصنفات.

1 ـ كتاب ‘‘غزوات عروج وخير الدين‘‘ لمؤلف مجهول ، كتب في الأصل باللغة التركية، أمر بترجمته إلى اللغة العربية المفتي الحنفي محمد ابن علي ذي الأصل التركي [1]،الذي أعجب باللغة العربية ، وهذا ما جعله يجيدها شعرا ونثرا . وكان يدعو الناس والمثقفين إلى الاهتمام باللغة العربية والعناية بالشعر . ونظرا لأهميته أشرف على طبعه نور الدين عبد القادر ، بدأه بقدوم خير عروج وخير الدين إلى الجزائر سنة 1516 ، ثم تعرض إلى مختلف الحملات الأسبانية على الجزائر، إلى جانب العمليات البحرية التي قام بها البحارة الجزائريون في السواحل الأسبانية الهادفة إلى إنقاذ المسلمين الأندلسيين.وأتمه بالحديث عن حملة شارلكان على مدينة الجزائر سنة 1541، حيث ختمه بالعبارة التالية وهو يتحدث عن انسحاب الإمبراطور << سافر إلى بلاده لا يصدق النجاة بنفسه >> [2].

2 ـ كتاب "عنوان الأخبار فيما مر على بجاية" للشيخ علي إبراهيم المريني البجائي ، أشرف على نشره الفرنسي فيرو (Feraud) في المجلة الإفريقية تحت عنوان (Conquète de Bougie par les espagnols) ، في العدد 12 سنة 1868. ذكر فيرو الفرنسي أنه حصل على نسخة من هذا الكتاب من عند أحد علماء بني يعلى لم يذكر اسمه . تحدث فيه صاحبه عن تاريخ بجاية في عهد الأسبان ، ابتداء من الاحتلال الأسباني لمدينة بجاية ، وما ارتكبوه من

فضائع في حق المعالم والآثار الإسلامية في المدينة . كما أنه تعرض إلى أحداث المعركة التي قادها صالح رايس ضد الأسبان في المدينة التي انتهت بتحريرها في سنة 1555م . اعتبر فيرو هذا العمل من الكتب الهامة التي تصحح المعلومات المأخوذة عن مارمول وحسن الوزان بهذا الصدد[3] .

3 ـ مخطوط المحكمة : نقل من التركية إلى العربية وهو من تأليف أحد المعاصرين لا يعرف اسمه منه نسختان ، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1100، ونسخة في ذيل الغزوات عنوانها:(هذا تاريخ قدوم لنبلادور إلى الجزائر). توجد ترجمة له باللغة الفرنسية ، نشر في المجلة الإفريقية العدد 35، سنة 1891. يتحدث بالخصوص على حملة شارل الخامس ضد مدينة الجزائر سنة 1541 [4].

4 ـ كتاب" فتح وهران 1708" لعبد الرحمن الجامعي : وهو عبارة عن شرح لقصيدة الحلفاوي. وقد ذكر أن هذه الأرجوزة تشتمل على خمسة فصول ومعان .

الفصل الأول: في ذكر أبو عبد الله محمد بن علي المعروف ببكداش.

الفصل الثاني: يذكر فيه تجهيز الجيش والعدة.

الفصل الثالث: فيه ذكر لعمل الحصار لوهران وبروجها والدخول في الأعمال الحربية الني انتهت بالنصر ، ويعد هذا الفصل حسب الجامعي هو الأهم والمقصود من القول .

الفصل الرابع: في ما آل إليه أمر الفريقين وافترقا عليه(أي نهاية المعركة)

الفصل الخامس: فيه ثناء على الله تعالى والصلاة على الخاتمة وما يتبع ذلك من الرضى عن الصحب والآل [5] . وقد نشر الدكتور حساني مختار هذا الشرح مع مخطوط الرحلة القمرية لابن زرفة في كتاب واحد عنوانه " تاريخ تحرير وهران من الاحتلال الأسباني خلال القرن الثامن عشر من خلال مخطوطين". وذلك في سنة 2003.

5 ـ كتاب ‘‘ التحفة المرضية في الدولة البكدشية في بلاد الجزائر المحمية‘‘ لمحمد بن ميمون الجزائري : هو أبو عبد الله بن ميمون الزواوي النجار الجزائري ولد بمدينة الجزائر من عائلة اشتهرت بالعلم ، أخذ الفقه واللغة على العديد من علماء مدينة الجزائر، من أهمهم الشيخ محمد الشغيري الجزائري. عرف بثقافته الأدبية وميله إلى التصوف وولعه بتنظيم الشعر من تلامذته ابن حمدوش . تولى القضاء في مدينة الجزائر في عهد الداي محمد بكداش (1707-

1710م) . وفي عهد الداي إبراهيم باشا (1745-1748م) تولى وظيفة خطة المواريث . برع في نظم المقامات [6] . لا نعرف تاريخ ميلاده ولا مكانه ، عاش حادث استعادة وهران من الأسبان سجله في كتابه(التحفة المرضية). كان معاصرا للداي محمد بكداش ، الذي استردت وهران في عهده على يد الباي مصطفى بوشلاغم من يد الأسبان . وحضر سقوط وهران للمرة الثانية في يد الأسبان سنة 1732 الذي حدث في عهد الداي عبدي باشا(1724-1732) . يذكر أحد معاصريه ، وهو عبد الرزاق بن حمدوش أنه كان متوليا قضاة المواريث زمن الداي إبراهيم باشا (1745-1748) ، وأنه درس معه مجموعة من الكتب الأدبية والتاريخية والدينية مثل مسائل في الأدب .

كتابه عبارة عن قطع أدبية في شكل مقامات (16 مقامة) تروي سيرة الداي بكداش، وفيه أخبار كثيرة عن الحياة الأدبية في الجزائر آنذاك . تحدثت المقامة الأولى عن أخلاق الداي بكداش ، أما المقامة الأخيرة فتحدثت عن عودته بعد الفتح ومعه الأسرى والغنائم [7].

6 ـ كتاب " الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة " لمحمد بن رقية الجديري التلمساني : عاش في نهاية القرن الثامن عشر ، توفي بعد سنة 1780 ، كان عارفا بعلم الفقه واللغة . اشتهر بكتابه هذا الذي سجل فيه الغارات التي شنها النصارى على مدينة الجزائر ، أتم تأليفه في سنة 1779م . وضعه استجابة لرغبة باي الغرب محمد الكبير . أرخ فيه لتسعة حملات على مدينة الجزائر حسب التسلسل الزمني ، منها أربع حملات أسبانية وهي حملة دييغو دي فييرا سنة 1516 ، وحملة هيغو دي مونكادي سنة 1519 ، وحملة الإمبراطور شارلكان سنة 1541 ، وحملة أوريللي سنة 1775 التي شارك فيها المؤلف .توجد منه عدة نسخ مخطوطة منها النسخة الموجودة في المكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 1626. وهناك نسخة أخرى في مكتبة ميونيخ بألمانيا تحت رقم 419. ونسخة ثالثة في مكتبة سعد الذين بن شنب [8] ، ترجمه إلى اللغة الفرنسية ألفونس روسو (A.Rousseau) بعنوان : يوميات إيالة الجزائر[9] ، ونشر بالجزائر سنة 1841. وبعد الاستقلال حققه سليم عمر ونال به دبلوم الدراسات المعمقة في جامعة الجزائر، ثم نشره في مجلة "تاريخ وحضارة المغرب" ، العدد 3، سنة 1967.

7 ـ كتاب" الأخبار المبيتة لاستيلاء الترك على قسنطينة" لأحمد بن محمد العنتري. كان الكاتب قد رافق صالح باي إلى الجزائر العاصمة رفقة جيشه

للوقوف إلى جانب الداي من أجل رد العدوان سنة 1775 ، حيث كان شاهد عيان للحملة الأسبانية على مدينة الجزائر خلال هذه السنة. أنهى كتابه سنة 1192/1777 ، وقد ترجم ل.فيرو (Loran.Feraud) الرواية المتعلقة بحملة أوريللي الأسبانية سنة 1775، إلى اللغة الفرنسية ، وهي منشورة في المجلة الإفريقية العدد 9، سنة 1865[10].

8 ـ كتاب " تاريخ مجيء الصبنيول إلى الجزائر " الذي يتحدث عن حملتي بارثيللو على مدينة الجزائر سنتي 1783 و1784. إن صاحب هذا المخطوط معاصر للأحداث، فقد ورد فيه عبارة << سقطت بونبة في دار صاحب هذا التاريخ ولم تتفرقع>> [11]، وذلك خلال حملة بارثيللو الأولى 1783. وفي إطار تقدير لعدد السفن التي شاركت في الحملة الثانية (1784)، ذكر << عددت منهم اثنين وأربعين لكنهم ينقصون أو يزيدون >> [12]. ولم يرد اسم الكاتب في عمله هذا، غير أنه مسجل في أعلى الورقة الأولى العبارة التالية: << في نوبة الفقير عبد الله سنة 1259>> [13]، ويبدو أنه اسم الناسخ الذي قام بإعادة نسخه سنة 1259 وهو ما يوافق سنة 1843م. وفي آخر المخطوط أضاف الناسخ ذكر لبعض الحملات الأوربية التي أصابت مدينة الجزائر، نوردها على النحو التالي : << تاريخ دينمرك 1184 [15] ، تاريخ الانكليز حارب الجزائر 1231 [14]، تاريخ الفرنصيص لما أخذ الجزائر 1246[16]>>. يوجد المخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم: 2285 ، وهو من الحجم الصغير يحتوي على ست ورقات .

9 ـ ومن المواضيع التي ترتبت عن الوجود الأسباني في وهران والمرسى الكبير تعاون بعض القبائل مع الغزاة ، وقد أغضب هذا السلوك بعض الكتاب نذكر منهم عبد القادر المشرفي[17] ، الذي خلف رسالة عنوانها "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر" . وقد احتوت على العناصر التالية :

1 ـ ذكر الأسبان ، وأصلهم وموطنهم .

2 ـ تحدث عن قبائل بني عامر , أصلهم ، ونسبهم ، وموطنهم . ثم تعرض إلى علاقاتهم مع السكان القاطنين حول مدينة وهران وضواحيها أيام الاستعمار الأسباني للمدينة .

3 ـ وفي القسم الأخير عرض الحكم الشرعي المتعلق بمن تحالف مع الأسبان من بني عامر ، أو بمن عدل عن موقفه وندم عن فعلته .

انتهى المشرفي من تصنيف كتابه سنة 1178هـ /1764م . وكان هذا الكتاب من الأعمال التراثية الجزائرية التي لقيت اهتماما من قبل الفرنسيين ، حيث تولى السيد بودان (M.Bodin) بترجمته إلى اللغة الفرنسية ونشره في المجلة الإفريقية (Revue Africaine) سنة 1924[18].

10 - أما أبو راس الناصري الذي غلب على شعره علوم الفقه والتاريخ ، فكان له قصيدة مشهورة بالسينية مدح فيها الباي محمد بن عثمان مهنئا إياه بالنصر سماها ((نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران على يد المنصور بالله الباي سيدي محمد بن عثمان)) ، وقدمها للباي المذكور . شرحها فيما بعد في كتاب أصبح يطلق عليه ((عجائب الأسفار ولطائف الأخبار)) وهذا الكتاب رغم تخصيصه بمدح الباي محمد بن عثمان وتسجيل أعماله الحربية في فتح وهران ، وتحريرها من الاحتلال الأسباني في أواخر القرن الثامن عشر ، فإنه يتناول أحداث أخرى لوقائع مختلفة تخص تاريخ الجزائر. فتعرض إلى مجابهات عروج في تلمسان مع الأسبان ، والغارات التي تعرضت لها مدينة الجزائر خلال القرن السادس عشر من قبل الأسبان ، وكذلك الغزوات الأخرى التي لحقتها من أوريللي سنة 1775 ، وحملتي بارثيللو سنة 1783 و 1784 . ترجمه إلى اللغة الفرنسية المترجم العسكري الفرنسي م.أ. أرنو (M.A.Arnaud) ونشره في المجلة الإفريقية في الأعداد من 22 إلى 29 ، بين سنة 1878، 1884 ، ثم طبع في كتاب يتألف من 219 صفحة في سنة 1885[19] . وذلك تحت بعنوان :
voyages extraordinaires et nouvelles agréables par Mohamed Abou Ras Ben Ahmed Abdelkader EN-NASRI ,Récits historique sur l'Afrique septentrionale.

أما عمل الثاني لأبي راس الناصري عنوانه "الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية" ، وهو يحتوي على 181 بيتا ، تناول فيه بلاد الأندلس وعلاقة سكانها ببلاد المغرب ، كما تعرض فيه إلى النزاع الذي وقع بين المسلين والأسبان في الأندلس ، وفي بلاد المغرب حتى تحرير وهران الثاني ، وهو الحدث الذي عاصره . ثم وضع لهذه الأبيات شروحا ثلاثة أظهر فيها عنايته بالأحداث التاريخية للمنطقة . وكان دافعه لإنجاز هذا العمل هو الحديث عن فتح وهران[20]. وعناوين هذه الشروح هي : القصص المعرب عن الخبر عن المغرب ، عما وقع بالأندلس وثغور المغرب ، وغريب الأخبار عما وقع بوهران والأندلس مع الكفار ، يوجد بالمكتبة الوطنية تحت رقم 3182 .

11 - ابن زرفة : هو محمد المصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بابن زرفة الدحاوي [21] ، هو أحد شرفاء منطقة غريس بمعسكر . لا نعرف تاريخ ميلاده ، لكنه توفي في سنة (1215هـ/1800-1801) في عهد الباي عثمان بن محمد الكبير[22] . وهو من تلاميذ أبي راس الناصري ، كان كاتبا خاصا للباي محمد الكبير الذي عينه كمساعد لرئيس رباط إيفري بوهران خلال الحصار الذي وقع عليها من طرف الجزائريين ، وخاصة فيما يتعلق بشؤون الطلبة المشاركين في الحصار وما يحتاجونه من تموين وأسلحة . وبعدها عين قاضيا في المدينة ، استمر في هذا المنصب إلى وفاته . له كتاب " فتح وهران وجامع جوامع الحسان " الذي يرجح أن يكون هو نفسه " الرحلة القمرية في السيرة المحمدية " . وكان ابن زرفة من ملازمي الباي وقد كلفه بتسجيلها ، فقد ذكر صاحب كتاب الثغر الجماني : ((ولما أنزل الطلبة بيفري أمر السيد مصطفى بن عبد الله وهو إذ ذاك معهم بتقييد الحوادث الواقعة فيما يتعلق بالجهاد وما يصل الطلبة من رزق وغيره ، فقيد قليلا ، ثم اشتغل عن التقييد إلى أن حصل الفتح ، فهو الآن يتلقى الأخبار من أفواه الرواهة ويجمعها من الرسائل ، ويضمها إلى ما قيده ، حتى يصير المجموع إن شاء الله كتابا.)) [23]. كما اعتمد ابن زرفة في تدوين كتابه على وثائق الباي وخزائن كتبه ، وذلك يتضح في قوله : ((ولما عزمت على الانطلاق وعقدت لتقييد الرحلة حبال النطاق دخلت إلى مجلسه الرحيب وتضللت بأفياء غصنه الرطيب فكان من سابع فضله أن زودني من خزائن كتبه))[24]. وكان الكاتب يستطرد ويقارن بين هذه الغزوة وغزوات النبي محمد صلى الله عليه وسلم . تحتوي المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة على نسختين من الرحلة القمرية ، إحداهما تحمل رقم : 3322 ، والنسخة الأخرى

تحت رقم 2597 . وقام الدكتور حساني مختار بنشره إلى جانب مخطوط آخر تحت عنوان " تاريخ تحرير وهران من الاحتلال الأسباني ". في سنة 2003.

12- **ابن سحنون الراشدي** : ينتمي إلى عائلة علمية اشتهر كثير منهم بالعلم . ومن جملتهم والده قاضي قضاة معسكر الشيخ محمد بن علي سحنون ، من بين أهم شيوخه الذين درس عليهم الشيخ محمد بن عبد الله الجلالي [25] . كان المؤلف ملازما لبلاط الباي محمد بن عثمان مختصا بولده ولي عهده وقائد جنده عثمان ، تربط بينهما صداقة متينة وزيادة على هذه الصداقة التي مكنته من الاطلاع على خبايا القصور ، فإنه استفاد من الوثائق الهامة والمصادر التي سجلها في تأليفه هذا الذي هو عبارة عن مذكرات لشاهد عيان (ص. 65) .

يمتاز كتاب الثغر الجماني بأسلوبه المتين ، يدل على أن المؤلف كان ضليعا في اللغة العربية وملازما لموضوعه لم يخرج عنه إلا في بعض الاستطرادات . وعلى هذا يمكن أن نقول أن هذا الكتاب هو أهم ما ألف في فتح وهران الثاني 1791.

شرع المؤلف في الحث على الجهاد وذكر أهميته (ص. 105) ثم تعرض لحياة الباي محمد بن عثمان وتقلباته في الوظيف حتى أصبح بايا للغرب في مدينة معسكر(ص.109) كما تطرق إلى اعتناء الباي بتدريب الجيش الذي كان يعده لغزو وهران ، كما تحدث عن مشاركة الباي في صد حملة أوريليي على مدينة الجزائر سنة 1189هـ/1775م. وسبق ذلك إلى ذكر الهجومات التي قام بها الأعداء على الجزائر.(ص.140). ثم تعرض إلى الرباط الذي أحياه محمد بن عثمان والمحلات التي خصها له، من أهمها وادي يفري الذي كان رباطا من قديم الزمان لموقعه الجغرافي واشتماله على الكهوف الطبيعية (ص. 233.) ثم تعرض إلى إلحاق الجيش النظامي بالرباط ، ثم وصف الحرب. وختم المؤلف كتابه بنشر الرسالة التي أرسلها الباي إلى الباشا وإلى الملوك يبشرهم بالفتح. (ص.462)[26].

13 ـ **مجهول : تاريخ الباي محمد الأكحل** : ذكر الدكتور جمال قنان في كتابه "نصوص ووثائق ..." أنه مخطوط يوجد في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 5022 ، حيث اعتمد المؤلف الذي لم يذكر فيه اسمه على أرجوزة الحلفاوي ، وكذلك على كتاب الثغر الجماني لابن سحنون الراشدي ، وتاريخ تأليفه يعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر[27].

وإذا كان الكتاب يحمل العنوان المذكور والذي تناول فيه حادثة تحرير وهران الثاني 1791 على يد الباي محمد الأكحل بن عثمان الكبير ، فإن صاحبه عرض

فيه كذلك الفتح الأول لوهران الذي حدث سنة 1708 ، ومما جاء فيه ((...وفي اليوم الرابع عشر من ربيع سنة تسع عشر ومماية وألف هجرية مطابقة لسنة 1707وسنة 1708بدأ الحصار لها وهجم جماعة منهم على برج العيون في اليوم العاشر من جمادي الثاني وفتحوا برج الجبل في اليوم السابع والعشرين من الشهر كما أجزأ برج الزهوة في اليوم الخامس من شعبان))[28] .

14 - أحمد بن محمد الشقراني : له كتاب : القول اليقين في وقائع هبرة مع الأسبانيين . ذكره المزاري في كتابه "طلوع سعد السعود" ، وذلك في إطار حديثه عن غارات الأسبان على أحواز وهران ، وعلى الخصوص منطقة قبيلة هبرة[29].

هوامش الفصل الثاني:

(1) تولى الإفتاء ما بين 1150-1169هـ .

(2) مجهول : غزوات ، ص.127.

(3) Feraud: conquête de Bougie,Op.cit. , p.246.

(4) P.P. L'Expédition espagnole de 1541 contre Alger, R.A., 1891, N.35, p.177.

(5) مخطوط الجامعي في فتح وهران ، المكتبة الوطنية الجزائر،رقم: 252،ورقة 2(ب)، 3(أ).

(6) ناصر الدين سعيدوني : من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1999، ص.398.

(7)أنظر: محمد بن ميمون : التحفة المرضية ، ص. 236..نشره محمد بن عبد الكريم، سنة 1972.

(8) سعيدوني : من التراث التاريخي ، مرجع سابق ، ص.427.

(9)Chroniques de la Régence d'Alger, traduit d'un manuscrite arab,inutile " El Zahra El Nayerat".

(10)تحت عنوان : Deuxième récit indigène de l'expedition D'Oreilly, en 1775, R.A.,t.9, pp.180-192;303-306.

(11) مجهول : تاريخ مجيئ الصبنيول ، مخطوط ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، 2285، ورقة 2(ب).

(12) نفسه : ورقة 4(ب).

(13)نفسه ورقة 1.

(14) وهي الحملة الدانمركية على مدينة الجزائر في سنة 1770 ، التي قادها الأميرال كاس(Caas)، وانتهت بالفشل .

(15) وهي حملة اكسموث 1816.

(16) وهي الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830.

(17) عبد القادر المشرفي هو عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن أحمد أبي جلال المشرفي الغريسي ثم المعسكري ، درس على يد كثير علماء المشرق والمغرب نذكر منهم محمد بن مجمد بن عربي وعلي بن محمد الميلي وغيرهما . وتخرج على يديه الكثير من التلامذة من أشهرهم أب راس الناصري الذي رثا شيخه إثر وفاته سنة 1778م بقصيدة طويلة .

(18) المشرفي:بهجة الناظر، صص.5-7.

(19) أنظر : -Arnaud, M.A.: voyages extraordinaires et nouvelles agréables par Mohamed Abou Ras Ben Ahmed Abdelkader EN-NASRI , Récits historique sur l'Afrique septentrionale, traduit par: Arnaud, Adolphe Jordan, ,Alger 1885.

(20) سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ، ، ج.2، مرجع سابق ، ص.342 .

(21) زرفة هي مرضعة جده .

(22) أنظر مسلم بن عبد القادر : أنيس الغريب والمسافر ، تحقيق وتقديم : رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والإشهار ، ، ص.1974.69.

(23) الراشدي : صص.146-147.

(24) ابن زرقة : الرحلة القمرية ، في حساني : تاريخ تحرير مدينة وهران ، ص155.

(25) اختاره الباي محمد بن عثمان الكبير لإدارة مدرسته التي بناها قرب مسجده الذي أسسه على أنقاض الجامع الأعظم العتيق .

(26) قدم له وحققه الشيخ المهدي البوعبدلي ، وقد وضع له مقدمة هامة تتكون من 88 صفحة ، أشرفت على طبعه وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر في سنة 1973.

(27) قنان ، نصوص ..، ص.159 .

(28) نفسه : صص.160.

(29) لم نتكمن من الحصول عليه للاطلاع على محتواه . أنظر المزاري : طلوع ..، ج. 1 ص.214.

الفصل الرابع
المخلفات العمرانية الأسبانية في الجزائر

تحتوي بعض المدن الجزائرية التي تعرضت للاحتلال الأسباني على العديد من القلاع التي أنشأها الأسبان منذ بداية القرن السادس عشر . وهي تستحق الدراسة باعتبارها معالم عمرانية تشهد على ما مرت به هذه المناطق من فترات تاريخية كانت فيه هدفا لحركة التوسع الأوربي التي دشنتها أسبانيا ، التي أنشأت قلاعا وحصونا خاصة في وهران والمرسى الكبير وبجاية.

إن الأرشيف التاريخي العسكري بمدريد يحتفظ بوثائق غنية جدا كان قد وقع جمعها من طرف مهندس أسباني يهتم بالطابع الفني لهذه القلاع [1]. فتخطيط وهران الذي وقع في القرن السادس عشر والإصلاحات المعمارية الحديثة ما زالت تنتظر من يدرسها وهذا على الرغم من وجود عدة سجلات حول طرق البناء وترتيب هذه المعالم ، وكذلك تمكننا هذه الوثائق من التعرف على الحياة الداخلية والعلاقات التي تربط هذه القلاع بداخل البلاد. كما تساعد على دراسة شاملة تتعلق بالمدن البحرية والحياة الداخلية والدور الخارجي الذي تلعبه هذه القلاع . وبما أن دورهذه القلاع هو القيام بمراقبة الجزائر فإنها إلى جانب ذلك تعتبر شاهدا على المقاومة الجزائرية التي ظلت مستمرة .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الحصون الأسبانية هي في الأصل كانت حصونا مغربية، ذلك أنها في غالب الأحيان بنيت على أنقاض ربط أو حصون مغربية راجعة إلى العصر الوسيط ، أو أجريت عليها تحويلات في عهد مختلف الولاة المغاربة ، الذين تصدوا بعد ذلك إلى مواجهة الغارات الأجنبية [2].

ولتسليط الضوء على هذا الموضوع فإنني لا أتعرض فقط إلى المدن التي خضعت للاحتلال الإسباني مدة أطول كمدن المرسى الكبير ووهران وبجاية ، بل إنني سأتتبع المناطق التي تردد عليها الأسبان ، وهل خلفوا بصماتهم فيها كما تذكر بعض المصادر الأسبانية ، وعلاقة بعض المنشآت التي أنجزت بعدهم بالأسبان.

1 - المرسى الكبير :

يجمع الكتاب الأوربيون الذين عاينوا المرسى الكبير أنه يعد من أكبر الموانئ وأحسنها وأكثرها ملاءمة لإيواء السفن التجارية، واستقبال المراكب الحربية فقد ذكر أحدهم وهو الدكتور شو أنه:<< يقع حصن المرسى الكبير فوق امتداد من اليابسة على شكل لسان الذي يمتد إلى داخل الخليج ، بطول يبلغ حوالي 200 متر فيحمي من الرياح الشمالية ، والشمالية الشرقية . وقد بني الحصن من أجل حمايته >>[3] .

ونظرا لهذه الأهمية حظي هذا المركز البحري باهتمام كبير من قبل القوى المحلية أو الخارجية إلى أن خضع للاحتلال الأسباني في بداية القرن السادس عشر. وخلال هذه الفترة كان المرسى عبارة عن مدينة صغيرة تحيط بالقلعة الإسلامية المعروفة بالقصبة التي شيدها المرينيون في منتصف القرن الرابع عشر ، ثم تحول إلى حصن عسكري وقاعدة حربية لمواجهة الغارات الأجنبية .

ورد في تقرير أعده ألفونس دي سانتوجي (Alphonse de Santongie) يعود إلى نهاية القرن الخامس عشر (1496) ، يصف فيه الحصن . فذكر: << إن الحصن يتكون من بناء مستطيل الشكل تحيط به أسوار مبنية بالحجر على حافة الشاطئ... تحيط بهذه الأسوار من الجهة الخارجية خنادق محفورة في الصخر بغرض رد للأعداء ، وداخل هذه الأسوار تنتصب على حافة الحصن ثلاثة أبراج ضخم أحدهما مربع الشكل في مواجهة المرسى ، وآخر مستدير البناء يعرف ببرج الناقوس يقع في الجهة الشرقية . أما البرج الثالث فيشرف على البحر مباشرة يعرف ببرج الخيالة أو برج المجنون لمنظره الشائن>>[4] .

وأصبحت هذه الأبراج تشكل تحصينات المرسى الكبير في العهد الأسباني، فقد اتخذت البناية التي تتوسط حصن المرسى الكبير مقرا لحاكم المرسى . ولتعزيز وجودهم بهذا الموقع شيد حصنا صغيرا بمرتفعات جبل سانتو يشرف مباشرة على حصن المرس الكبير ع رف " بحصن المخلص" ، الغرض منه رد الهجمات عن المرسى الكبير . لكنه سرعان ما تعرض للتدمير إثر هجوم شنه عليه حسن بن خير الدين باشا سنة 1563 . ولم يتمكن الأسبان من إعادة تشييده من جديد بل راحوا يعملون على إعادة الحصن الرئيسي وذلك في عهد الملك فيليب الثاني . فبناء على تعليمات الملك تولى الحاكم دون خوان دافالوس (Don Juan d Avalos) تنفيذ المشروع ابتداء من سنة 1576 ، اعتمد فيه على المهندسين الإيطالي خوان باتيست أنطونيلي (Juan Batiste Antonelli) ، والمهندس جاكوم باليرو ألفراتان (Jacome Paleara Elfrantine) . واستمر العمل فيه لمدة ثلاثين سنة ، وجلبت له مواد البناء من أسبانيا مباشرة . وهذا ما رفع كلفة المشروع العمراني لحصن المرسى الكبير إلى أكثر من 3 ملايين دوكا[5]. وقد أدخل هذا الإنجاز العمراني الإعجاب نفوس بعض الذين شاهدوه بعد مدة من الزمن ، فهذا الدكتور شو يقول : << فقد كان حين شاهدته أكثر تميزا من حيث كبره ، ومن حيث قوته ، ومن حيث هندسته . إن جزءا كبيرا من ناحيته الغربية الذي يبدو منحوتا في الصخر بمسحة فنية . ويوجد بالقرب من هذا القصر بعض الآثار التي تحتل مساحة صغيرة >>[6].

2 - في وهران :

لقد ظلت مدينة وهران تحت الاحتلال الأسباني لمدة أطول ، وهذا يعود من شك إلى نظام التحصينات التي احتمى الأسبان داخلها ، رغم الغارات المتكررة التي شنها المسلمون عليها من أجل تحريرها التي مكنتهم في سنة 1708 من طرد الأسبان منها ، إلا أنهم أعادوا احتلالها من جديد سنة 1732. ومن أجل حماية بعض الهكتارات من الأراضي حولها عمدوا والحفاظ على هذا الموقع ، وصد الهجمات التي كانوا يتعرضون لها من حين لآخر من قبل الأهالي ، قام الأسبان بإنشاء عدد من القلاع والحصون الواسعة حول المدينة.بعضها مازالت معالمه قائمة والبعض الآخر تم تهديمه [7] . وكانت النفقات السنوية على الجنود باهضة تكلف الخزينة الأسبانية أموالا معتبرة ، فقد كانت مدينة وهران لوحدها تستهلك على الأقل أربعة ملايين وسبعمائة ألف ريال [8] . وفي حقيقة الأمرأن هذه الحصون والقلاع توجد على نوعين ، حصون أنشئت قبل الاحتلال وأخرى بعده :

1- الحصون التي أنشئت قبل الاحتلال الأسباني للمدينة : وقام الأسبان باستغلالها وتطويرها ، من أهمها حصن القصبة والقصر الأحمر :

قلعة القصبة (Alcazaba): تقع على الضفة الغربية لوادي الرحى (رأس العين) على سفح جبل المايدة (مرجاجو) . تأسست في أواخر عهد الدولة في مطلع القرن العاشر الميلادي . كانت مركزا لسلطة الحكام في العهود الإسلامية المختلفة وفي العهد الأسباني والأتراك منذ تأسيسها في قسم علوي على سفح الجبل ، وهي على شكل مثلث . وفي القسم السفلي إلى شرق من القسم العلوي توجد مرافق ثكنة الجيش ومخازن للأسلحة ، وعدة أبنية لإدارة الجيوش والبحرية ومجالس الحرب . وكانت بجانب هذه القصبة بعض المساجد أزيلت في عهد الأسبان ، وتتصل القصبة بباقي أجزاء المدينة بواسطة بابين .

وقد تعرضت القصبة مرارا إلى التهديم والتخريب ، فهدم الكاردينال خيمينيس جزءا منها عام 1509. ثم جدد الأسبان بناءها عام 1589 ، وأحاطوها بسور خلال أعوام 1665و 1682 ، وأحدثوا بها بعض الحصون والمنشآت للحماية والدفاع . وعندما فتح بوشلاغم وهران عام 1708 اتخذ القصبة مقرا لإقامته [9]. ولما أعاد الأسبان احتلالهم لوهران في سنة 1732. أحاطوا القصبة بعدد من المعاقل المحصنة حولها للدفاع عنها . من أهمها معقل الحاجز(La Barrera) في الجهة الشرقية ، والذي يمتد من القصر الأحمر إلى البرج الجديد المعروف بسان أندري[10] .

القصر الأحمر (Rozalcazar): يعود تاريخ تأسيس هذا البرج إلى العصر الوسيط حيث يقال أن الذي وضع نواته الأولى تجار من البندقية ، واتخذوه مركزا لنشاطهم التجاري . وعندما سيطر أبو الحسن المريني على المغرب الأوسط في الفترة ما بين 1331-1339 ، اعتنى بتطويره وتحصينه وإعلاء أسواره . ليصبح قاعدة لنشاط المسلمين للدفاع عن المدينة .

ولما احتل الأسبان وهران سنة 1509 اتخذوه مقرا لحكمهم ، وأطلقوا عليه روزا الكازار (Rozal-Cazar) ورووزاس كاخاس (Roxas-Cajas) وروزالكابير(Rozalcaper) . وشهد في عهد الملك فيليب الثاني بعض التغييرات ، كما تواصلت التحصينات بعده ، وأطلقوا عليه اسم القصر الجديد . هذا القصر عبارة عن مدينة بحالها لاتساعه ، وما يحتوي في داخله من حوالي عشرة حصون في ، وحصنين أماميين في الخارج ، وما يوجد به من عدة وأدوات للحماية والنجدة من بطاريات ومخازن للبارود ، ووضعوا به 30 مدفعا ثم زادوا منها حتى بلغت 300 مدفعا نظرا لأهمية الدفاع عن المدينة والميناء[11].

وعندما احتل الأسبان وهران مرة أخرى عام 1732 ، أحدثوا فيه بعض التغييرات ، وشيدوا بعض الأقواس والأقسام والمخابئ في عهد الملك شارل الثالث، وسجلوا ذلك في لوحة رخامية على أحد جدرانه [12]. ولما حرر محمد الكبير وهران عام 1791 ، خلد هذا الإنجاز في لوحة رخامية أثبتت تحت اللوحة الأسبانية عليها تاريخ سنة 1206هـ، ثم اتخذه مقرا لحكمه[13].

2 ـ الحصون والأبراج التي أنشأها الأسبان : إلى جانب الحصون التي وجدها الأسبان في وهران ، فإنهم قاموا بتشييد حصون أخرى في جهات مختلفة من المدينة أو بالأحرى حول القصبة ، حيث أحيطت بعدد من الحصون لتأمين أنفسهم من الغارات المرتقبة من السكان أو من السلطات التي كانت قائمة مملكة مثل تلمسان والدولة الجزائرية . فبعضها تم تأسيسه فور حلولهم بوهران، أما الأخرى فتم تشييدها أو تعزيز تحصين ما شيد منها من قبل بعد إعادة احتلالهم لوهران سنة 1732. وقد جلبوا لهذه المهمة أمهر المهندسين من أسبانيا ومن خارجها[14]. وفيما يلي عرض لأهمها :

برج المونة (La Mona): يقع هذا البرج في الشاطئ الشمالي الغربي لميناء المدينة على رأس بحرى ، الذي نزلت فيه قوات الاحتلال لأول مرة في البر، إلى جانب أحد أبواب المدينة وهو باب الميناء الذي يسميه الأسبان (Bab El Puerta)، على الطريق الذي يؤدي إلى المدينة شرقا وإلى المرسى الكبير

غربا، أسسه الأسبان سنة 1509. أطلق عليه السكان اسم برج اليهودي نسبة إلى المكاس اليهودي بن زواوة سطورة الإشبيلي الذي خانهم وأرشد القائد الأسباني دون دييغو القرطبي لينزل في ذلك المكان ويدخل المدينة ويحتلها . وكانت توجد بجواره مخازن سطورة اليهودي ، الذي أقره الأسبان في وظيفته مكاسا وقابضا للمال نظير خدمته لهم . أصبح هذا البرج حصنا للجنود ، ووضعوا فيه أربعة مدافع وللدفاع عن المدينة استغل الأسبان هذا البرج حصنا للجنود[15] .

برج العيون [16] **:** (San Felipe):أسسه الحاكم الأسباني الماركيز دي غوماريس (Marquis de Gomarès) عام 1509 في الجهة الجنوبية الشرقية لمدينة وهران على بعد 770 متر . وذلك على ربوة عالية تشرف على مناطق الجهة الشرقية . وسماه الأسبان برج القديسين ، ثم برج القديس فيليب . تعرض إلى العديد من هجمات الجزائريين . فهاجمه حسن قورصو ، وهدم جانبا منه عام 1556، وهاجمه حسن بن خير الدين عام 1563 ، وخربه وهدمه تماما ، وهدم بوشلاغم جانبا منه في عام 1708. ولكن الأسبان كانوا يجددونه باستمرار لأهميته في الدفاع عن المدينة ، ودعموه بحصون أخرى مثل حصن القديس كارلوس (San Carlos)، الذي يحتوي على حامية تتكون من 100 رجل ، الواقع في جنوبه الغربي ، وحصن القديس فيرناندو (San Fernando)في الجهة الشرقية . ونصبوا فيهما مدافع وربطوهما بواسطة أنفاق أرضية . أصبح برج العيون يحتوي على 28 مدفعا في سنة 1772. ورغم هذه التعزيزات تمكنت قوات الباي محمد الكبير في عام 1791 ومن اقتحامه وهدمه[17].

- برج القديسة تيريزا (Santa Teresa): أسسه الكونت دالكوديت بين عامي 1557- 1558 في شمال شرق البرج الأحمر ، على صخرة بساحل البحر . وحسب أحد المصادر الأسبانية أن وجود البرج في هذا موقع له أهمية بالغة، حيث يمكن من خلاله الأسبان الدفاع بواسطة المدافع والبنادق ، ومراقبة كل الأراضي والأودية الموجودة حوله، وكشف الكمائن ، وترصد زوارق الأعداء . ومن هذا المكان يمكن تأمين أسوار المدينة [18] . ونظرا لأهميته جدد تحصينه الحاكم فاليخو (Don José Vallejo) في عامي 1737-1738 ، ووضع به 12 مدفعا ، وأقام بجواره مركزين صغيرين للحراسة أحاطهما بأسوار في عامي 1740-1741، وأصبح بإمكانه احتواء 60 رجلا . وبعد تحرير وهران عام 1792 اتخذه عثمان الكبير مركزا لجمع أمواله وثروته [19].

برج الجبل (مرجاجو) Santa-Cruz : بناه الأسبان عام 1567على قمة جبل سيدي هيدور ، على ارتفاع يبلغ 375 متر ، في عهد الحاكم دون لويس غالسيران دي بورخا(Don Luis Galceran de Borja)[20] . تكمن أهميته في أنه يطل على المدينة وميناءها ويرصد البحر والتواء الساحل ومراقبته، كما أنه يحمي حصن سان غريغوريو [21]. ولما واجه الأسبان صعوبات كبيرة في بنائه استعانوا ببعض القبائل المجاورة لوهران خاصة الحميانيين ، الذين قاموا بنقل المياه على ظهورهم ، وذلك بتأثير من أحد شيوخهم يدعى مرجاجو الذي كان مواليا للأسبان [22] . وبعدما انتهوا من بنائه أطلقوا عليه اسم القديس كروز ووضعوا به 300 مدفعا . ورغم هذه المناعة التي تميز بها الحصن من موقع مرتفع، إلا أن باي معسكر مصطفى بوشلاغم تمكن من فتحه في عام 1708 وأسر أكثر من 600 رجل كما غنموا عتادا كثيرا[23]. وإثر إعادة الأسبان احتلال وهران في عام 1732 ، جددوا بناءه في عام 1738 بقيادة باليخو. ولما زحف محمد الكبير على وهران عام 1791 حاول نسفه ، لكن الجنود الأسبان فضلوا الاستسلام[24] .

برج ابن زهوة[25] (San Gregorio) : يقع على ربوة صغيرة جنوب برج المونة وشمال برج الجبل (سانتا كروز) ، على سفح جبل مرجاجو . كان في العهود الإسلامية رباطا يتعبد فيه بعض الأتقياء ، ويرابط فيه بعض المجاهدين للدفاع عن المدينة[26] . أقامه الأسبان في هذا المكان عام 1589 لحماية مرسى وهران وطريق المرسى الكبير ولتأمين الاتصالات بين المدينة وبرج الجبل . وعززوه بمنشآت دفاعية ، منها مخزن للذخيرة ، وبطارية مدافع تتكون من تسعة قطع ، كان بإمكانه سنة 1772 أن يستقبل تسعة قطع مدفعية أخرى [27]. وخلال زحف بوشلاغم على وهران عام 1708 ، هاجم هذا البرج هو والقائد حسن وهدما جزءا منه.

برج الصبايحية (سان أندري - San-Andrés): أسسه الأسبان عام 1693 من قبل الدوق كي كانثانو (Duc de Canzanno)[28] على الضفة الشرقية لواد الرحى لمراقبة قرية إيفري العربية على الضفة اليسرى للوادي .
وأورد مصدر أسباني أنه في يوم 4 ماي 1769 حدث انفجار بمخزن البارود مما أدى إلى تهديم البرج تماما ، وأبيدت خلال الانفجار ثلاث فرق ، ولكن أعيد بناؤه ، على مساحة أقل من التي كان يحتلها من قبل، بإمكانه احتواء 400 رجلا، ومعززا بـ25 قطعة مدفع[29] . وأنشئ إلى الشرق منه على طريق تلمسان حصن

جديد عام 1736 ، أطلق عليه اسم سان لويس (San Luis) لتدعيمه وتأمين الاتصال مع برج سان فيليب (San Felipe) الواقع إلى الجنوب من حصن سان أندري .

برج سانتا بربارا (Santa Barbara): أنشأة الأسبان في عام 1734 إلى الجنوب من البرج الأحمر ، وكان الهدف من إنشائه هو حماية الاتصالات مع برج سان أندري [30].

برج القديس ميغيل (San Miguel): بناه الأسبان في عام 1740، على ربوة في الضفة الشرقية بواد عين روينة الذي يفصل بين وهران وخنق النطاح، جهزه الأسبان بـ 18 مدفعا ، وبإمكانه احتواء 200 رجل من رجال الحامية [31]. هدمه محمد الكبير تماما عام 1791 ولم يجدد بناؤه[32].

أبراج أخرى : أضاف صاحب ابن سحنون عددا من الأبراج والحصون مثل سان نيكولاس فوق باب تلمسان ، سان خوزيف فوق الرحى ، ولاتينا حذو الباب ، وبال واراتي وسط المدينة فيه عشرون مدفعا ، وطبانة تحمل ثلاثة مدافع ، لاباتاريا نويفا بين البرج الجديد وبرج العيون تحمل ستة عشر مدفعا ، وفي آخر كلامه عن الحصون قال : << وهناك بقية مواضع لم أحفظ أسماءها>>[33].

2 - في بجاية :

كما أشرنا سابقا أن بجاية كان لها نظام عمراني أنيق يعود إلى العهود الإسلامية الأولى ، لعناية حكامها بهذا الجانب حيث كانت تحتوي على أنهج كبيرة مظللة بالنخيل وعلى ساحات جميلة. ويحكى أن الناصر بن علناس الحمادي ، كان شديد الاهتمام والعناية بتشييدها ، وكان يكلف رعاياه أن يبنوا منازلهم ، ويحضر المواد النائية حتى لا يتلكأ أحد في رفع منزله ، وأنه أصدر أمرا لكل داخل إليها بحمل حجرة وجعل للمدينة سورا إلا من الناحية الجبلية التي رفع لها حائط في عهد الموحدين [34] . وكانت المدينة شأنها كشأن المدن الأخرى في العهد الذي سبق الاحتلال الأسباني تحتوي على ستة أبواب هي باب البحر ، باب دار السانية وقد تم تدميره إثر الاحتلال الأسباني ، باب البنود ، باب البر ، باب أمسيون ، باب السادات [35].

كان الملك فرديناند الكاثوليكي يرغب أن يجعل من بجاية مدينة مسيحية خالصة[36]. ولهذا فعندما غزاها نافارو ، كان أول عمل قام به هو الإسراع في احتلال الحصون ، والمواقع الرئيسية من المدينة ووضع الحاميات بها ، وكانت أولى هذه البنايات هي برج عبد القادر ، ثم شرعوا في بناء القصر الامبراطوري

في المكان الذي كان مبنيا فيه قصر النجمة . وكذلك وضعوا اهتماما خاصا بالقصبة المشرف على البحر . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول مدينة بجاية تأتي في المرتبة الثانية من حيث التحصينات التي كان الأسبان قد استعملوها بعد مدينة وهران، كما حظيت أيضا هذه البنايات باهتمام الفرنسيين من بعدهم ، عندما تعرضت لاحتلالهم. وفيما يلي ذكر لأهم المعالم العمرانية الأسبانية في هذه المدينة .

القصبة : كان أول عمل قام به بيدرو نافارو بعد احتلاله لمدينة بجاية هو إعادة تحصين القصبة وبرج عبد القادر ، وذلك من أجل التحصن فيهما خشية على أنفسهم من هجمات المقاومين . فقد شهد الأسبان نوعا من الاستقرار الحذر من هجمات السكان استمر إلى غاية سنة 1512 ، مما سمح للأسبان على تنظيم نظامهم الدفاعي والتحصن في المرافق التي وجدوها ثم الشروع فيما بعد إلى إقامة القصر الإمبراطوري .

فبالنسبة للقصبة فهي ذات الشكل المستطيل ، مدعمة بحصون وثلاثة أبراج أسوارها عالية . القصر الكبير من جانب المدينة لا يحتوي على شرفات أو فتحات. أما الجانب المقابل للبحر فإنه يحتوي على حصون دفاعية ، وعلى شرفات ذات طابع أسباني . أما الباب فهو عال وضخم ، يتراوح سمك أسوار القصبة ما بين اثنين إلى ثلاثة أمتار في المتوسط . قاعدته واسعة . كما يحتوي القصر الكبير على خمسة خزانات للمياه بإمكانها احتواء مائتي لتر كانت استعملت كمخازن ومستودعات للذخيرة من قبل الفرنسيين فيما بعد [37].وخلال هجوم التحرير الذي شنه عليها صالح رايس في عام 1555، تعرضت القصبة للحصار لمدة 22 يوما ، حيث كان القائد بيرالتا(Peralta) معتصما بها، والذي أجبر على الاستسلام . وذلك إثر سقوط حصني الإمبراطور وعبد القادر[38] .

برج عبد القادر : ويعرف كذلك بقصر البحر يعد أصغر الأبراج الثلاثة، كان موجودا عندما تعرضت مدينة بجاية إلى الغزو الأسباني ، إن شكله يختلف عن الأبراج الأخرى ، أسواره المطلة على البحر مغمورة في مياه البحر، مما يبين الجهود الكبيرة التي بذلت في بنائه . يحتوي البرج على قسم منه ذي طابع عمراني عربي مبني من قطع أحجار ذات أحجام مختلفة ، أتي بها من بقايا البنايات الرومانية في الضواحي المجاورة . يحتوي البرج على صهريج وقاعات سفلية . الأجزاء العليا منه تبدو عليها مسحة العمارة الأسبانية . وهناك جزء من البرج مقام فوق مغارة تملؤها مياه البحر . وكان البرج يحتل موقعا دفاعيا هاما ، لإشرافه على البحر ، حيث يشرف على كل المساحة الموجود بين رأس بواك

والميناء . ويحتوي هذا البرج هو الآخر على خزانات للمياه . ولدواعي أمنية ربطه الأسبان بأنفاق تصله بكل من القصبة والقصر الإمبراطوري [39]. وعندما تعرض البرج لحصار المسلمين يوم التحرير هلك 40 أسبانيا بالجوع في هذا المكان[40].

القصر الإمبراطوري[41] **:** بني على أنقاض قصر النجمة[42] في مكان مرتفع يشرف على المدينة ، بأمر من شارل الخامس لهذا سمى بهذا الإسم في العهد الأسباني . ويذكر أنه إثر انهزام شارلكان أمام مدينة الجزائر سنة 1541 انسحب إلى بجاية واستقر فيها بضعة أيام ، وفيها حرص على مضاعفة التحصينات، وقد ركز على هذا البرج [43]. شكله عبارة عن متعدد الأضلاع ، وقسم في الجهة الشمالية شكله عبارة عن تقاطع مثلثين ، يذكر أن الذي وضع هذا التخطيط اللواء فوبو الأسباني . يحتوي على خمسة حصون جانبية في الواجهة الرئيسية ، وعلى حديدة رمح في الوسط ، وله حائط كبير جدا ، يبلغ علوه مائة قدم. أما سمكه 35 قدم . به اثنتا عشر فتحة خاصة بالمدافع . أما في الداخل فإنه مبني على شاكلة الكنائس الكبرى الممتدة تحت قبب[44] .

بعد تحريره من الأسبان أصبح يطلق عليه اسم برج موسى نسبة إلى أول رجل من بين السبعة الشجعان[45] ، الذي توفي على سور البرج أثناء مهاجمتهم للقوات الأسبانية الغازية[46]، وحول إلى متحف للمدينة سنة 1989.

برج سارازين (Tour Sarrazine) أو برج باب البحر : يطل على البحر يعود هذا الموقع إلى أيام الحماديين لاحتوائه على أقواس مبنية من قطع من الأحجار والآجر التي تتميز بها التحصينات العربية الإسلامية . كان هذا البرج ضمن النظام الدفاعي بين قصر البحر (عبد القادر) والقصبة ، يتميز بارتفاعه الشاهق ، استعمله الأسبان نظرا لطبيعة الأرض غير المستوية . أسواره مبينة من قطع من الطوب ذات أشكال مسطحة . في الأعلى توجد قبب صغيرة تتخلل فتحات المدافع ، وفي العموم فإن البرج يحمي خروج السفن من الميناء [47].

وذكر دي إيبالثا أن أحد المهندسين يدعى ليبران(Livran) قد رسم مشروع لقلعتين على شكل مضلع مؤرخين في 9 جانفي 1543 أرسله إلى الملك مع رسالة مؤرخة في نفس اليوم. تحيط بها أسوار مرتفعة تصل إلى 35 قدما[48] (10.5 متر). أما سمكه فيبلغ 10 أقدام (3أمتار) ، لها أسفق على شكل قبب يبلغ عرض الواحدة منها 60 قدم (18 متر)[49]. غير أن طرد الأسبان من بجاية حال دون إقامة هذين المشروعين . يبين هذا نية الأسبان في تثبيت أنفسهم بهذه المدينة

الهامة بموقعها في الجهة الغربية من البحر المتوسط ، وذلك يتأكد من تعداد أفراد حاميتها الذين بلغوا نفس العدد تقريبا الذين كانوا في وهران ، وذلك حتى سنة 1525 . فكان لكل قائد مدفعية 50 رجل، دون حساب أفراد الحامية، لقد ظل هذا العدد إلى غاية خروجهم منها سنة 1555 [50].

3 - في مدينة الجزائر :

من المعلوم أن مدينة الجزائر ظلت صامدة ومنيعة في وجه الغارات الأسبانية المتكررة عليها ، ولم يقدروا على احتلالها باستثناء الفترة الممتدة ما بين (1510-1529) حين تمكنوا من احتلال إحدى الجزر أمام المدينة وأقاموا فيها برجا . ما عدا هذا فإنها تحتوي على مواقع لها علاقة بنزول شارلكان مع جيوشه على أرض المدينة ، تم فيها بناء حصون ، مثل حصن الإمبراطور وحصن النجمة . ولهذا سأتطرق في هذا العنوان إلى أهم معلم تحصيني أقامه الأسبان في مدينة الجزائر خلال احتلالهم للصخرة (المسماة لدى الأسبان بالبنيون) ، التي تحولت إلى جزء من رصيف للميناء أقيم عليه برج سمي ببرج الفنار ، أو التي تم إنشاؤها من طرف الحكام الجزائريين إثر تعرض المدينة إلى الحملات الأسبانية ، وذلك كإجراء دفاعي لحمايتها من تلك الاعتداءات نذكر منها ما يلي:

حصن البنيون: ما أن احتل الأسبان صخرة اسطفلة سنة 1510 ، حتى شرعوا في بناء حصن عليها ، وهي قلعة على شكل ثمانية زوايا[51] . أشرف على بنائه بيدرو نافارو، وشحنه بالجيوش والسلاح الثقيل من أجل فرض الرقابة على هذه المدينة . كان يحتوي بصورة دائمة على مائتي رجل [52]. تسبب في إلحاق الأذى الشديد بمدينة الجزائر، إذ كان الأسبان يفرضون عليها الرقابة وتفتيش الصادرات والواردات ، كما أنها كانت تعرقل نشاط البحرية الجزائرية . ونظرا لتلك الأخطار ، أشرف خير الدين في ماي من ستة 1529 على تطهيره من الوجود الأسباني، بعدما اقتحمته قواته تمكنت من أسر معظم من كان بداخله، بما فيهم قائدها مارتين دي فارغاس . إثر ذلك شرعت القوات الجزائرية في هدمه باستخدام الأسرى ، واستعملت حجارته في بناء الميناء والرصيف بربط مجموعة الجزر الصغرى بالجزيرة الكبرى التي كان الحصن مشيدا عليها[53] .

إن هذا الميناء الذي أنشأه خيرالدين أصبح بديلا عن ميناء باب الوادي ، فطبيعة مينائه وتسليحه يظهر أنه كان ميناءا حربيا أكثر منه ميناء تجارة ، حيث أن أسوار المدينة المطلة على الشاطئ كانت تكثر فيها فتحات الرمي أكثر من الأسوار المطلة على الجهات الجنوبية . كما أقيمت فيما بعد ستة أبراج على الأربعة جزر من بينها الجزيرة التي كان عليها الحصن الأسباني ، وهي من

الشرق إلى الغرب برج القومان، وبرج السردين ، وبرج مابين ، والبرج الجديد، وبرج رأس اعمر ، وبرج رأس أحمد ، وهي أقوى الأبراج لاحتوائه على أسوار متينة ، ومدافع خفيفة ، ويحتوي على 172 فتحة للمدافع ذات العيارات المختلفة . وأقيم برج الفنار في مكان القلعة الأسبانية [54] ، التي كانت منارتها تبقى مضاءة طول الوقت ما دامت السفن الحربية تتجول في عرض البحر . ولكنها لا تضاء بعناية في أوقات أخرى ، وفي الوقت الذي كانت فيه الحرب قائمة بين الجزائر وأسبانيا. وعندما تكون السفن الحربية راسية في المرسى لا يضاء الفنار إطلاقا[55].

حصن الإمبراطور: يقع فوق كدية (ربوة) الصابون التي خيم بها شارل الخامس أثناء حملته المشهورة والمشؤومة على مدينة الجزائر سنة 1541، لا يبعد كثيرا عن الطريق الغربي ، حيث يشرف على كل الداخلين إلى المدينة من الباب الجديد . وقد أطلق عل يه السكان أسماء أخرى منها حصن بوليلة لأن الإمبراطور شارل الخامس خيم في هذا المكان ليلة واحدة ، هي ليلة الأربعاء 26 أكتوبر سنة 1541 حين انهزم انسحب . ويعرف كذلك بحصن قالاصي أو ببرج مولاي حسن نسبة إلى حسن باشا الذي أشرف على بنائه في سنة 1545 على شكل مربع ، وذلك تخليدا لذكرى انتصاره على الإمبراطور. وهو الحصن الوحيد الذي يتولى حماية المدينة من الجهات الجنوبية[56] . وفي سنة 1579 خشي حسن فنسيانو من شن الأسبان حملة جديدة على المدينة ، فقام بتحصين هذا المكان ، بإقامة أربعة حصون تحيط بالبناية القديمة للحصن ، تحتوي على فتحات للمدافع . وفي سنة 1656 تم تعديل المبنى وتدعيمه بالسلاح، حيث أصبح هذا الحصن مكانا بطوليا[57]. وخلال رحلته الجاسوسية في الجزائر سنة 1808 لاحظ بوتان أهمية موقعه العال المشرف على المدينة ، لذا ألح على مهاجمته هو الأول حتى يتم الاستيلاء على المدينة [58].

الحصن الجديد (النجمة): يقع غرب الحصن السابق على مسافة صغيرة، تأسس في عهد حسن باشا ، وقام خلفاؤه بتحسينه وتطويره ، وهو على شكل مبنى سباعي ، وقد تم تشييده في هذا المكان المرتفع لارتباطه بكون الأسبان قد نصبوا فيه سرية مدفعية خلال حملة شارل الخامس[59] .

وبعد نهاية هذه الحملة تم تنصيب في نفس المكان بطارية جزائرية كانت تدعى بطارية حمام المالح . ونظرا لصغرها فإنها كانت غير كافية في تغطية الجبهة البحرية المكشوفة على البحر من هذه الجهة. انتهت الأشغال به خلال سنتي 1773-1774 في عهد الداي محمد بن عثمان ، يتكون الحصن من طابقين

، يحتوي الطابق الأول على 14 قطعة مدفعية مصوبة نحو البحر ، أما الطابق السفلي فكان يحتوي على تسعة مدافع[60].

5 - في مدن أخرى :

والمقصود بها المناطق الأخرى التي تعرضت إلى الاحتلال الأسباني بدرجة أقل وتركوا بها بعض الآثار العمرانية على غرار مدينتي عنابة وأرزيو.

كانت مدينة عنابة شأنها كالمدن الساحلية محاطة بأسوار تتخللها أبواب أربعة هي كما يلي : باب المرسى من جهة الشرق وهو يؤدي إلى الميناء ، وباب الغرب تبتدئ عنده طريق قسنطينة ، وأما البابان الآخران فينفتحان من الجهة الشمالية الغربية في مواجهة حصن القصبة .

وكان هذا الحصن مشيدا فوق ربوة مقابل المدينة ، ومطلة على الناحية الجنوبية على ارتفاع 105 مترا ، كان يحيط بهذا الحصن سور منيع يبلغ طوله 350 مترا. ويحتوي هذا الحصن على قصر متين البناء ، كان قد أمر ببنائه أبو زكريا بن إسحاق الحفصي[61].

وعندما نجح الأسبان في احتلال هذه المدينة في سنة 1535 ، لما كان أسطول شارل الخامس في طريق عودته من تونس إثر احتلالها ؛ حرصوا كما كانوا يفعلون كل مرة على احتلال البنايات المنيعة والحصينة. وهذا ما يؤكده الماركي دي مونديخار في خطابه إلى الملك شارلكان بعد دخوله إلى عنابة يظهر فيه اهتمامه باحتلال حصونها وذلك في النص التالي : << أنزلنا الجند ، ثم شكلنا كتيبتين وأرسلناهما لمهاجمة القصر . ولم يكن العرب ينتظرون هجومنا عليه فبادروا بالتخلي عنه . ولم نفعل ذلك اليوم شيئا ، فاكتفينا باحتلال القصبة والمدينة ... وانصرفنا خلال الأيام الثلاثة التالية إلى إنزال المدفعية والذخائر والمؤن إلى البر ، وبعد دراسة وضع المدينة والقلعة ، تأكدنا أنه يجب احتلالهما معا وفي وقت واحد. لأن الجند الذي يحتل القلعة لا يتمكن بسهولة من نجدة العرب الذين يحتلون المدينة ويدافعون عنها ، ويجب علينا ألا نترك العرب يدخلون المدينة إلا بعد التصريح لهم بذلك . ولقد تركت 200 جنديا بالقصر ، و600 جندي بالمدينة ، وإذا ما رأينا السماح للعرب بسكنى المدينة من جديد فعلينا أن نقيم حصنا فوق المرتفع الذي يعلو المرسى حتى نستطيع نجدة جند القصر>> [62].

وبعد نجاح العملية نصب الإمبراطور الدون ألفارو دي بازان D. Alvaro de Bazan حاكما عليها ، ومعه ألف من الجنود الجنويين [63]. ولكي يضمن

المحتلون سيطرتهم على المدينة اهتموا بتحصين أنفسهم في قلاعها ، لعل من أشهرها حصن القصبة الذي اهتموا بتأمين أنفسهم بداخله خوفا من هجمات السكان عليهم، فأدخلت عليه الحامية الجنوية عدة إصلاحات هامة عندما كانت تقيم به أثناء الاحتلال الأسباني للمدينة، وهذا عكس ما ذهبت إليه بعض المصادر الأوربية التي أرجعت بناء هذا الحصن إلى الجنويين وحدهم مدعين في ذلك بأن الإمبراطور شرلكان قد أمر بناء هذا الحصن سنة 1535 قصد توطيد احتلاله للمدينة(64) .

وورد في مذكرة أسبانية من مجهول ، صدرت في مدريد علم 1817 تصف إيالة الجزائر (65) ، أن مدينة عنابة تحتوي على الحصن العظيم الذي كانت مدينة عنابة محمية به ، وعلى القصر الذي أمر شارل الخامس ببنائه(66) .

ونظرا لأهمية حصن القصبة الاستراتيجية فإنه كان طيلة الفترة العثمانية مقرا للحاكم التركي ، كما كانت مستقرة به الحامية المكلفة بالدفاع عن المدينة ، التي كان عدد أفرادها يتراوح حسب الظروف بين 100و500 شخصا(67).

ولكن رغم هذا التحصن الذي فرض على الأسبان في مدينة عنابة ، فإن شدة المقاومة جعلتهم لا يبقون فيها أكثر من خمس سنوات ، حيث تم طردهم منها في سنة 1540م . بعد أن حاصرهم فيها أهل المدينة حصارا شديدا ، ذاقوا فيها الأمرين حتى أن تحقيقا رسميا عن وضع الحامية في أسبانيا عام 1540 كشف أن الجنود ((من يأسهم كانوا يودون أن يصبحوا مسلمين))(68).

أما فيما يتعلق بمدينة أرزيو التي تعرضت لبعض الوقت للاحتلال الأسباني خلال القرن السادس عشر . فبعدما تمكن الجزائريون من استرجاع الأراضي المحاصرة ، قاموا بنقل المدينة إلى موقع أكثر ملاءمة للدفاع . وهناك مخطط في سيمانكاس يذكر عنه دي إبالثا : من المحتمل أن يعود إلى بوتيستا أونطونيللي(Bautista Antonelli) يبرز هذا المخطط كل الساحل الممتد بين رأس فالكون ورأس تاديا . مع تذكير موقع أرزيو القديمة وكذلك الجديدة . ويحتوي كذلك على مخطط القصر ، بالإضافة إلى وضعية كاناستيل ومدينة مستغانم ، والسكان المجاورين للمدينة(69).

خاتمة الباب:

نتج عن العدوان الأسباني على الجزائر انعكاسات ثقافية متنوعة ، منها تأثر الحواضر التي كانت تشهد انتعاشا ثقافيا متميزا قبل القرن السادس عشر، فمنها ما تعرضت مؤسساتها الدينية والثقافية إثر الاحتلال إلى مؤسسات ذات طابع يخدم مصالح الأسبان مثل مساجد ومدارس وهران وبجاية ، وقد مس الكثير منها

التدمير. كما تعرضت مساجد وزوايا ومؤسسات ثقافية أخرى للقصف الذي كانت تشنه البوارج الحربية الأسبانية، فأصاب بعضها.

ونتج عن هذا الاجتياح الأسباني لهذه المدن وغيرها من المدن الأخرى، التي كانت تحت النفوذ الأسباني مثل تلمسان ؛ أو التي كانت تهددها الغارات مثل معسكر، هجرة علمائها نحو المغرب وبلاد إسلامية أخرى ، مما أدى إلى التراجع الثقافي ليس في هذه المدن فقط بل انعكاساته على مختلف المناطق من البلاد، خاصة وأن السلطة التي حلت في حكم مدينة الجزائر لم تكن تعنى كثيرا بهذا الجانب .

وإذا كانت الحواضر التي كان بريقها الثقافي والعلمي لامعا قبل الغزو وأفل نجمها بعد هذه الأحداث ، فإن الاحتلال الأسباني لبعض المواقع الساحلية قد أجج مشاعر الشعراء والعلماء بمختلف مستوياتهم ، مما أدى بهم إلى التنبيه بالخطر الأجنبي ، والدعوة إلى تحرير المواقع التي خضعت للاحتلال الأسباني ، ووصف بعض المعارك في قصائد شعرية ، أو مبتهجين بالنصر .

كما أن هذا الصدام مع الأسبان قد دفع بعض المثقفين إلى تسجيل الكثير من أحداث المواجهات مع الأسبان على الأراضي الجزائرية ، وبذلك كانت تلك التسجيلات سواء منها الشعرية أو النثرية صورة عكست الأحداث ، وأصبحت مصادر لتاريخ الجزائر في هذه المرحلة .

وقد خلف الأسبان بعض المآثر العمرانية في المواقع التي احتلوها وبقوا فيها مدة أطول . ما يلاحظ أن الأسبان قد اتخذوا أولا من الحصون والمعالم العمرانية التي وجدوها مقرا لهم ، ثم زادوا في تحصينها ، بل زادوا في بناء حصون أخرى خاصة في وهران وبجاية لحماية أنفسهم من الغارات التي كانت تشن عليهم من قبل أهل البلاد .

هوامش الفصل الرابع:

(1) ميكال دي إيبالزا ، مذكرة حول القلاع الأسبانية بالمغرب العربي ، المجلة التاريخية المغربية، جانفي_1979 ، العدد 13-14،ص. 101.

(2) ميكال دي إيبالزا ، العلاقات التاريخية بين عنابة وأسبانيا ، الأصالة ، 1976، العدد: 34-35، ص.115.

(3) D[r]. Shaw, Voyage dans la Régence d'Alger , traduit de l'anglais par J.Mac Marthy , 2[è] éd. , Editions Bouslama, Tunis, 1980, p.224.

(4) سعيدوني : دراسات أندلسية ، ص.144.

(5) Cruck , Eugène , Le fort de Mers –el-Kebir theatre de combats héoriques Imprimerie Heintz , Oran ,p.47.

(6) Shaw: Op.cit, p.224.

(7) A.Pestemaldjoglou : Ce qui subsiste de Oran espagnol, R.A., 1936, t.79, p.665.

(8) Jean Cazenave : organisation militaire d'Oran pendant l'occupation espagnole, L'Armée d'Afrique, 1928, n°41,p.327.

(9) بوعزيز : وهران ، صص 144-147.

(10)Epalza, Mikel de y Juan Bta. Villar, Planos y mapas hispanicos de Argelia siglos XVI-XVIII , Instituto Hispanico-Arab de Cultura , Madrid, 1988. , p.123.

(11) للاطلاع على مختلف المرافق التي كان يحتويها في العهد الأسباني أنظر: Hantabat: Relacion general …Op.cit., pp.238-243.

(12) هذا نصها : Reynando en las Espanas la Magestad del Senor Carlos III y Mandando estas plazas el theniente general Don Juan Martin Zermano Inspector del regimiento fixo se hizo esta puerta de construciro las bovedas para alojamiento à la guarnicion y se reedifico el Castillo por la parte de la marins. Ano MDCCLX(1760). Hantabat, p.234.

(13) بوعزيز: وهران ، ص.149.

(14) . أنظر : Juan B.Vilar : Las fortificaciones hispanicas en Argelia : el sistema defensivo de Oran –Mazalquivir durante la dominacion espanola 1504-1791), publicacion ,consejo de cultura ,Melila, p.61.

(15) بوعزيز : وهران ، صص. 149-150.

(16) يسمى هذا الحصن ببرج العيون لكونه كما وصفه الجامعي : ((مبني برأس الماء الذي يسقي أخبة المدينة ويدخل منه أنبوب إليها)) ، الجامعي : فتح وهران ،في : حساني : تاريخ تحرير مدينة وهران ، ص.96.

(17) يذكر أنه قتل خلال هذه المعركة عدد كبير من عرب بني زروال والظهرة أنجندين في صفوف قوات الباي ، فأطلق السكان على البرج منذ ذلك اليوم إسم برج بني زروال تخليدا للمعركة.

(18) Hontabat: Op.cit.,p.240.

(19) بوعزيز: وهران ، ص.150-151.
(20)Kehl,(C.): Le Fort Santa-Cruz, B.S.G.O., 1933, T.54, p.381.
(21) José Valléjo : Mémoire sur l'état et la valeur des places d'Oran et de Mers-el-Kebir, traduit et annoté par Jean Cazenave, R.A., 1925, t.66, p.335.
(22) المشرفي : صص.27-28.
(23) بلحميسي : تحرير مدينة وهران سنة 1708، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، 1970 ، العدد 9 ، ص.69.
(24) بوعزيز :وهران ، مرجع سابق، صص.155/156.
(25) يسمى برج حسن بن زهوة نسبة على اليهودي حسن بن زهوة رفيق شطورة .
(26) بوعزيز : وهران، صص. 153−154.
(27) Hontabat: Op.cit., p.252.
(28) José Vallejo : Relacion de todas las obras de fortificacion y correspondientes a ellas que se han executado en las plazas de Oran , Mazarquivir, y sus castillos , B.S.G.A.O., 1926, p.223.
(29) Hontabat: Op.cit., pp.243-245.
(30) Vallejo: Op. cit., p.223.
(31)Hontabat : Relacion…, op.cit., pp.240-241.
(32) بوعزيز : وهران ، ص. 156 .
(33) أنظر ابن سحنون : صص.202-203.
(34) مصطفاوي : مقال سابق ،صص.84-85.
(35) Feraud: Histoire de Bougie ,Op.cit., p.86.
(36) George Marçais: Bougie, Documents Algériens, 1950, p.229.
(37) Wintzer: Op.cit, pp.306-308.
(38) مارمول : مصدر سابق ، ج.2، ص.380.
(39) Wintzer: Op.cit., pp.305-306.
(40) Salvator : Op.cit.,p.81 .
(41) له أسماء أخرى منها برج موسى الذي أطلق عليه بعد التحرير سنة1555، وبرج بارال (Baral) في العهد الفرنسي نسبة إلى الجنرال دي بارال الذي قتل في إحدى معارك المقاومة سنة 1850.
(42) الذي شيد في عهد المنصور بن الناصر الذي عاش في الفترة الممتدة من 1089 إلى 1104م بلغت بجاية الناصرية أوج رونقها وجمالها زينب بقصور ضربت بها الأمثال في وقتها أين أصبحت مادة يتغنى بها الشعراء .
(43) Edouard Lapène : Vingt six mois a Bougie, editions Bouchene, Paris 2002, p.33.
(44)Epalza: Planos y mapas, Op.cit., p.129.

(45) مازالت لحد الساعة بعض العائلات البجاوية تخلد ذكرى وفاة الرجال السبعة بإشعال الشموع في الحصن وإطعام زواره. محفوظ رمضاني: من المعالم الأثرية والتاريخية لبجاية برج موسى دليل عظمة تاريخ المدينة ، جريدة الشروق ، 22 ديسمبر 2007،العدد 2178، ص.21.
(46) نفسه : ص.21.
(47) Wintzer :Op.cit.,p.210.
(48) القدم الواحد يساوي 30.48سم.
(49) EPalza : planos.., pp.347-348.
(50) Ibid.: p129.
(51) Marçais,(G.): L'Archithècture musulmanes.., p.447.
(52) Nahoum Weissman: Les Janissaires, études de l'organisation militaire des Ottomans, Orient, Paris, 1964, p.58.
(53) Alfred Imbert : L'Amirauté d'Alger , B.S.G.A , 1927, p.421.
(54) Benselama Messikh: Identification du système défensif Ottoman d'El-Djezair (1516-1830), mémoire de Magistaire, Ecole polytechnique d'architecture d'Alger, Alger, 1996, p.48.
(55) اسماعيل العربي: مذكرات أسير الداي كاثكارت ، مرجع سابق ، ص.69.
(56) حليمي : مرجع سابق ، ص.245.
(57) Belhamissi: Alger …, Op.cit., p.27.
(58) Boutin : Reconnaissance général de la ville d'Alger , des Forts et batteries d'Alger , In Nettement: Histoire de la conquête d'Alger , op.cit.p.580.
(59) Epalza: Planos…, Op.cit. p. 128.
(60)Belhamissi: Alger, p.26.
(61) سعيدوني: دراسات وأبحاث ، مرجع سابق ،ص.203.
(62)Lettre du Marquis de Mondejar a sa Majesté. Bône, 29 août 1535., Elie de la Primaudaie : Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506-1575), A.Jordan, Alger , 1875, pp.142-143.
(63) سعيدوني دراسات وأبحاث ، مرجع سابق ، ص.206.
(64) نفسه : ص.203.
(65) عنوانها: Descripcion estadistica de Argel , o Noticia de los principales sucesos y situacion de este pais en sus diferentes ramos.
ترجمه بيرو (Perrot) إلى الفرنسية وأصدره في عام 1830 بعنوان : ملخص طوبوغرافي وتاريخي عن الجزائر (Notice topographique et historique sur l'Algerie)
(66) Planos..,p.129.:Epalza .
(67) سعيدوني : دراسات وأبحاث ..، ص.203.
(68) ليلى صباغ : عنابة بين اسمها وموقعها وعلاقاتها مع العالم المتوسطي حتى الاحتلال الفرنسي ، الأصالة ، 1976 العدد: 35/34 ، ص. 54.

(69) أنظر المخطط في: Epalza, pp.494-495 .

الخاتمـة

إن العدوان الأسباني على الجزائر في بداية القرن السادس جاء نتيجة لتحولات شهدتها أسبانيا منذ توحيدها والقضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس سنة 1492. وقد ترتب عن هذين الحدثين تطورات دفعت بالبلاد إلى تحقيق العديد من الأهداف سياسية ودينية واقتصادية عن طريق غزو بلاد المغرب عموما والأوسط منها على الخصوص .

ومما ساعد على القيام بهذا المشروع هو الأوضاع المتردية في الضفة الجنوبية من البحر المتوسط . ولذلك فإنهم نجحوا في احتلال بعض المدن الساحلية بالقوة العسكرية كالمرسى الكبير ووهران وبجاية ، وتمكنوا من وضع بعضها تحت سلطتهم بواسطة فرض المعاهدات احتوت في كثير من بنودها على فرض الولاء والطاعة للأسبان ، وما يلاحظ عنها أن العديد منها لم يستمر طويلا مثل المعاهدة مع مدينة الجزائر . كما فشل الأسبان في الاحتفاظ ببعض المدن الأخرى نظرا للمقاومة التي واجهوها ، مثل شرشال وهنين وكذلك عنابة رغم تدمير بعضها . على أن أهم مشروع ظل يراودهم هو احتلال مدينة الجزائر التي كرروا ضدها الغارات سواء في القرن السادس (1516، 1519، 1541)عشر أو في القرن الثامن عشر(1775، 1783، 1783) ، لكنم فشلوا في كل المحاولات .

وكان لاستعصاء هذه المدينة التي أصبحت عاصمة للبلاد قد عطلت من توسعهم في الأراضي الجزائرية ، وإفشال مشروعهم في البلاد . فقد ظلوا محاصرين في المواقع التي بقيت تحت احتلالهم رغم المحاولات التي قاموا بها لفك ذلك الحصار عبر الغارات على المواقع المجاورة للمناطق التي ظلت تحت نفوذهم . إن أهم ما يمكن استخلاصه من الأحداث التي مرت بها الجزائر منذ بداية القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر هذه الأحداث ما خلفته من آثار يمكن عرضها من جوانبها المختلفة .

فقد ترتب عن الغزو الأسباني في بداية القرن السادس عشر على السواحل الجزائرية عدة انعكاسات سياسية على بلاد المغرب الأوسط ، حيث استغل الأسبان الوضع المتردي في البلاد ، وراحوا يعملون تحت طائلة التهديد - بعد تمكنهم احتلال المرسى الكبير ووهران - للنيل من الممالك القائمة آنذاك مثل تلمسان ، ومشيخة الجزائر، وغيرها من المدن التي انفصلت عن الدولة الزيانية، وساهموا في القضاء بالقوة العسكرية على مملكة بجاية . فنقول أنهم ساهموا في القضاء على البنية السياسية القائمة في البلاد ، وساهموا بطريقة غير مباشرة في بناء نظام سياسي جديد في الجزائر اتخذ مدينة الجزائر عاصمة له .

فقد أدى ذلك التهديد والضغط إلى استنجاد أعيان مشيخة الثعالبة بعروج، وهو ما أدى إلى قيام سلطة جديدة في مدينة الجزائر التي أخذ شأنها يتعاظم والوقوف في وجه العدوان الأسباني ، فقد توسعت حدودها ، ودخلت في صراع مع الأسبان حول الحصول على النفوذ في دولة بين زيان . وتطلب من هذه الدولة الفتية لدرء الخطر الأسباني أن ترتبط بالخلافة العثمانية ، وهذا ما جعلها تحظى باهتمام الخلافة ، وزودتها بالعتاد الحربي والجنود ما مكنها من رد العديد من

الحملات التي تعرضت لها مدينة الجزائر ، وأصبحت هذه المدينة والسواحل التابعة للسلطة القائم بها نطاقا استراتيجيا في مخطط الدولة العثمانية في مد نشاطها الحربي ضد القوى الأوربية المنافسة لها في البحر المتوسط. ومن جانب آخر أصبحت الجزائر قوة دعم أساسية للبحرية العثمانية في حروبها التي خاضتها ضد التحالفات المسيحية .

وكان من تداعيات العدوان الأسباني رد فعل من قبل الجزائريين ، حيث كان البحارة ينظمون هجمات انتقامية على جزر الباليار وسواحل أسبانيا ، والعمل على نصرة المسلمين الأندلسيين الذين طالهم الطرد . فكانوا يدعمون ثوراتهم ، وعملوا على نقل الآلاف منهم إلى السواحل الجزائرية . وامتد نطاق نشاط البحارة الجزائريين إلى خارج البحر المتوسط ، فابتداء من أواخر القرن السادس عشر خرجوا إلى ما وراء مضيق جبل طارق في قلب المحيط الأطلسي، وخاصة في القسم الشمالي منه .

إن إقدام الأسبان على النيل من الموانئ الجزائرية سواء بالاحتلال العسكري، كما هو الشأن بالنسبة للمرسى الكبير ووهران ومدينة بجاية ، أو بواسطة فرض معاهدات الولاء كمدينة الجزائر ومستغانم ، أو عن طريقة الاحتلال والتدمير كما تعرضت له مدينة هنين على الخصوص . قد أدى إلى قطع الاتصال التجاري الخارجي الذي كانت تنعم به هذه المنافذ وغيرها مع السفن التجارية الأجنبية . فأثر ذلك كثيرا على حالة التجارة الخارجية للجزائر خاصة مع المدن الأوربية المطلة على البحر المتوسط ، وأدى إلى تزايد سفن القراصنة في البحر المتوسط مما أثر على النشاط التجاري فيه ، وأحدث خللا تجاريا كبيرا على الاقتصاد الذي كانت تتصف به هذه المنطقة في سالف عهدها.

وكان لاحتلال المدن الساحلية لدولة بني زيان ، حدوث المزيد من التدهور في أوصال هذه الدولة الذي كانت تنخرها الانقسامات الداخلية . ومما زاد من عزلتها وإصابتها في صميم نشاطها التجاري الخارجي ؛ قضاء الأسبان على منفذها البحري الوحيد الذي بقي لها حتى سنة 1531م وهو ميناء هنين ، فأدى ذلك حتما إلى نهاية عهد مدينة تلمسان باعتبارها مخزنا للسلع الآتية من سواحل البحر المتوسط ، وسلع ما وراء الصحراء التي كانت تنقل في اتجاه الشمال أو الجنوب عبر القوافل التجارية.

وترتب عن الاحتلال الأسباني لمدينة وهران والمرسى الكبير لمدة تقارب الثلاثة قرون ، تعرض سكان المناطق المجاورة للموقعين إلى استنزاف ثرواتهم من قبل الأسبان. فكان العرب الموالين لهم ملزمين بدفع الضرائب المتنوعة مقابل

عدم التعرض إلى الغزو. أما القبائل المعادية ، أو العرب المحاربة كما سماها الأسبان ، التي رفضت الوقوع تحت نفوذهم تعرضت لأعمال الغزو والنهب لثرواتها والأسر لأفرادها .

ورغم العداء الذي كان بين أسبانيا والجزائر الذي استمر إلى غاية تحرير وهران النهائي سنة 1792 ؛ فإن العملات الأسبانية كانت متداولة بصورة واسعة في الجزائر ، دخلت إلى الجزائر بطرق مختلفة ، وكان الإقبال شديدا على القطع النقدية المصنوعة من المعدنين الثمينين من قبل التجار . وكان للعملات الأسبانية تأثيرات على العملات المحلية، فمنها ما تسمى ببعض أسمائها، ومنها ما تأثر بقيمتها . وهذا ما يبين مدى التأثر الإقتصادي الذي أصاب الجهاز المصرفي الجزائري خلال هذه الفترة .

أما في الجانب الاجتماعي إن الغزو الأسباني ضد السواحل الجزائرية بالغارات أو بالاحتلال وما ترتب عن تلك الحركة من بقائهم في بعض المدن الساحلية لفترات متفاوتة، قد تسبب في إلحاق الضرر بالسكان . فقد أدى احتلالهم لتلك المواقع إلى زحف السكان إلى أماكن أخرى أكثر أمنا ، خاصة في المناطق التي بقي فيها الأسبان مدة طويلة، أي المناطق المجاورة لوهران والمرسى الكبير. غير أن ذلك التحرك لم يمنع من وصول الأذى إليهم ، إذ تعرضت مضاربهم إلى غارات الجنود الأسبان والسطو على ممتلكاتهم ، حيث كانت تلك الغارات مدرة للثروة والمال للمستعمرة الأسبانية بوهران .

وترتب عن العدوان الأسباني تعرض الكثير من الجزائريين إلى القتل خلال مختلف المواجهات التي وقعت بين الطرفين في البر والبحر ، سواء على الأراضي الجزائرية أو في المناطق الأخرى التي كان ميدانا للحرب . إلا أن إشكالية تحديد عدد الضحايا يبقى دائما مطروحا وغير دقيق لاختلاف التقديرات بين المصادر المحلية والأجنبية ، أو السكوت عنها في بعض الأحيان خاصة من طرف المصادر الأسبانية ، إما عن جهل وإما عن قصد ، وذلك من دون لتغطية طبيعة أعمالهم العدوانية . غير أن ذلك لا ينفي تعرض الكثير من الجزائريين إلى القتل يبقى الإفصاح عن تعدادها مطروحا .

وأهم ما كان يتعرض له الناس في تلك المواجهات هو الأسر من خلال مختلف أنواع المواجهة أو أعمال الغزو انطلاقا من وهران على المواقع والقرى العربية ، فقد كان الأسبان يستولون عليهم إما لغرض بيعهم في الأسواق ، وبذلك يتحولون إلى عبيد، أو لغرض استعمالهم في مختلف الأشغال فور وصولهم إلى أسبانيا ، مثل أعمال التجديف في السفن الأسبانية ، أو العمل كخدام في المنازل .

وقد تعرض لهذه العملية الناس من مختلف الأعمار والجنس . وكانت طرق تخلص الكثير من الأسرى تتم عبر طرق مختلفة، فبعضهم كان يفتدى بواسطة المال ، وبعضهم يستعيد حريته عن طريق الفرار، وبعضهم تم إطلاق سراحه بوساطة مغربية ، أما الآخرون فكانوا يسترجعون حريتهم عن طريق التبادل مع أسبانيا خاصة بعدما توصل البلدان إلى إبرام معاهدة الصلح سنة 1786 ، وغيرها من الصفقات التي وقعت بعد هذا التاريخ .

ومن أهم الظواهر التي ترتبت عن العدوان الأسباني على الجزائر واستقراره م لمدة طويلة في وهران المرسى الكبير هو تحالف بعض القبائل العربية مع الأسبان ، حيث كانوا يزودونهم بالحبوب والماشية وبضائع أخرى كانوا في حاجة إليها . وقد تسبب ذلك في حدوث شرخ في صفوف المجتمع الجزائري في المنطقة الغربية من البلاد . وهذا ما ساهم من دون شك في استمرار بقاء الأسبان مدة طويلة في هذه المنطقة . إن هذا السلوك قد انعكس عن الوضع السياسي القائم في الفترة التي سبقت الغزو، التي كان فيها بعض المتناحرين يستجيرون بالأسبان. ولاشك أن ذلك قد وقع بناء على عوامل عديدة، من أهمها خلفية الأوضاع التي كانت سائدة في البلاد قبيل الغزو الأسباني ، والمتمثل في العلاقات التي كانت بين هذه القبائل وبين السلطة في تلمسان .

أما في الجانب الثقافي ، فقد نتج عن العدوان الأسباني على الجزائر انعكاسات ثقافية متنوعة ، منها تأثر الحواضر التي كانت تشهد انتعاشا ثقافيا متميزا قبل القرن السادس عشر، فمنها ما تعرضت مؤسساتها الدينية والثقافية والعلمية إثر الاحتلال إلى مؤسسات ذات طابع يخدم مصالح الأسبان مثل مساجد ومدارس وهران التي كان بها ما يزيد عن ثلاثين مسجدا خرب الأسبان معظمها، وكذلك الحال بالنسبة لمدينة بجاية . فقد أثر هذا الوضع طبيعتها الدينية التي كانت تشتهر بها من قبل. كما تعرضت مساجد وزوايا ومؤسسات ثقافية أخرى للقصف الذي كانت تشنه البوارج الحربية الأسبانية، فأصاب بعضها خاصة في مدينة الجزائر .

ونتج عن هذا الاجتياح الأسباني لهذه المدن وغيرها من المدن ، التي كانت تحت النفوذ الأسباني مثل تلمسان ؛ أو التي كانت تهددها الغارات مثل معسكر ، هجرة علمائها نحو المغرب وبلاد إسلامية أخرى ، مما أدى إلى التراجع الثقافي ليس في هذه المدن فقط بل كانت له انعكاسات سلبية على مختلف المناطق من البلاد ، خاصة وأن السلطة التي حلت في حكم مدينة الجزائر لم تكن تعنى كثيرا بهذا الجانب .

وإذا كانت الحواضر التي ظل بريقها الثقافي والعلمي لامعا قبل الغزو وأفل نجمها بعد هذه الأحداث ، فإن الاحتلال الأسباني لبعض المواقع الساحلية قد أجج مشاعر الشعراء والعلماء بمختلف مستوياتهم ، مما أدى بهم إلى التنبيه بالخطر الأجنبي ، والدعوة إلى تحرير المواقع التي خضعت للاحتلال الأسباني ، ووصف بعض المعارك في قصائد شعرية ، أو مبتهجين بالنصر. وهذا ما أدى إلى انتشار نوع متميز من النظم الشعري اشتهر به العديد من الشعراء ، ونظرا لأهمية هذه القصائد قام غيرهم أو أصحاب القصائد نفسها بشرحها حتى تحولت إلى كتب نثرية تخص الجانب التاريخي .

كما أن هذا الصدام مع الأسبان قد دفع بعض المثقفين إلى تسجيل الكثير من أحداث المواجهات مع الأسبان على الأراضي الجزائرية في مؤلفات كانت مرآة صورت أطوار بعض المواجهات في بعض المدن الساحلية ، وبذلك كانت تلك التسجيلات سواء منها الشعرية أو النثرية صورة عكست الأحداث ، وأصبحت من مصادر كتابة تاريخ الجزائر في هذه المرحلة .

وقد خلف الأسبان بعض المآثر العمرانية في المواقع التي احتلوها وبقوا فيها مدة أطول . ما يلاحظ أن الأسبان قد اتخذوا أولا من الحصون والمعالم العمرانية التي وجدوها مقرا لعم ، ثم زادوا في تحصينها ، بل زادوا في بناء حصون أخرى خاصة في وهران وبجاية . وأن الوقوف على طبيعة بنائها وأماكن إقامتها يفيد في معرفة مدى حرص الأسبان على البقاء فيها لمدة أطول لو أتيح لهم الظرف.

وظلت العلاقات السياسية بين البلدين متوترة في حالة حرب إلى غاية سنة 1786 حينما توصلا إلى إبرام معاهدة صلح فتحت مجال التحسن في العلاقات السياسية والتبادل التجاري . غير أن هذا الاتفاق لم يضع حدا نهائيا للخلاف بين البلدين ما دامت أسبانيا تحتل وهران والمرسى الكبير . ولهذا استمر الحصار حول المدينة إلى غاية سنة 1791 حيث رضي فيها الأسبان على قبول السلم مع الجزائر مع الجلاء عن المدينتين . فتحت هذه المعاهدة مجال العلاقات السياسية والاقتصادية بين البلدين .



الملاحق

الملحق رقم :

جدول عن الهجمات الأسبانية
والمواجهات الجزائرية لهم في الجزائر

السنة	المكان
1505 1507 1509 1509 1510 1510 1511 1511 1515-1512 1516 1518	احتلال المرسى الكبير الغارة على بلدة مسرغين احتلال وهران احتلال القل احتلال بجاية رضوخ مدينة الجزائر للأسبان خضوع مستغانم للأسبان خضوع تلمسان للأسبان

هجمات عروج مدعوما بالسكان على بجاية	1519
حملة دييغو دي فييرا على الجزائر	1529
حملة الأسبان على تلمسان	1531
حملة هيغو دي مونكادي على الجزائر	1531
تحرير البنيون	1535
حملة الأسبان على شرشال	1535
حملة الأسبان على هنين	1540
احتلال الأسبان لعنابة	1541
غزو الأسبان لتلمسان	1543
تحرير عنابة	1543
حملة شارلكان على الجزائر	1547
غزو الأسبان لتلمسان	1555
الهجوم على مستغانم	1556
الهجوم على مستغانم وتلمسان	1558
تحرير بجاية	1563
حصار وهران بهدف تحريرها	1567
غزو مستغانم ومعركة مزغران	1601
الهجوم على المرسى الكبير بهدف تحريره	1603
حصار وهران بهدف تحريرها	1708
فشل مخطط احتلال مدينة الجزائر	1732
محاولة إنزال أسباني في أزفون	1775
تحرير وهران الأول	1783
الاحتلال الأسباني الثاني لوهران	1784
حملة أوريللي على مدينة الجزائر	1792

حملة باثيللو على مدينة الجزائر حملة بارثيللو الثانية على مدينة الجزائر تحرير وهران النهائي	

الملحق رقم:
نموذج لصيغة اتفاقية الحماية (السيغورو)
التي كان الأسبان يبرمونها مع السكان[1]

أنا الدون س....القائد العام لقواعد وهران ، المرسى الكبير ، مملكة تلمسان، وتنس، لقد بلغ علمنا عن رغبتم أنتم ......شيخ قبيلة......في قبول خدمة مولانا الملك والعيش تحت حمايته الملكية ، بناء على الطلب الذي أرسلتموه إلي ، الخاص بدوار يتألف من عشرة خيم . والوعد الذي قطعتموه على أنفسكم لخدمة صاحب الجلالة ، وكل رجال الحرب الذين يقاتلون تحت رعايته الملكية . قررت الموافقة على هذه الاتفاقية التي تضعكم تحت حمايتنا إلى غاية نهاية شهر أوت من السنة المقبلة . أنتم ملزمون بدفع إلى جلالته ضريبة 20 دوبلا من القمح التي تعد ضريبة الرومية ، وهي مجموع 2 دوبلا عن كل خيمة . وعن كل دوبلا واحدة ، عليكم بتسليم كميات من القمح التي سيتم تحديدها في ضريبة الحصاد ، ووضعها في المخازن الملكية لهذه القاعدة (وهران) . وإذا أراد العرب الأعداء الانضمام إلى دواركم أو قبيلتكم ، عليكم أن ترفضوا بكل قواكم ، فإذا كانوا مجدين في طلبهم ، عليكم أن تسلموا لي تقريرا دقيقا عن الحالة . أي تهاون من طرفكم

سيجلب عليكم وعلى دواركم عقوبات قاسية ، وتكونون قد ارتكبتم جريمة في حق جلالته.

عليكم أن تقدموا هذه الاتفاقية لدى مكاتب المقتصدية أو المحاسبة في هذه القواعد ، لكي يأخذها بعين الاعتبار كل من المراقب وأمين الخزينة في الوقت الملائم ، وإخلاء ذمتكم من المبالغ الضريبية التي توليتم دفعها ، وأن كل دوار من قبيلتكم لا يحذون حذوكم في الود والتحالف معنا ، يعتبر لدينا بمثابة العدو .

وعلى كل حال فإنني سلمتكم هذه الاتفاقية ممضاة بيدي ومختومة بختم الجيش التابع لنا ، وهي ممضاة كذلك من طرف الكاتب .

سلمت في القصة الملكية بوهران في :...........

---

(1) المصدر: Vallejo: Contribution…, R.A., N.66, 1925, pp.361-362

الملحق رقم:

نموذج عن وصف جزائري لقصف اليوم الأول والثاني الذي شنه بارثيللو على مدينة الجزائر سنة 1783[1]

....جاء خذله الله يوم الثلاثة التاسع والعشرين من شعبان سنة ألف وماية وسبعو وتسعين من الهجرة ، وكان الثامن عشر من يلين ، وجاء من البحر فقط وجملة مراكبه نيف وسبعون منهم أربعة سفن كبار ، ونحو الستة متوسطة ، ونحو العشرة ما بين البراكنت وغيرهم من القرصان والباقية وهي نيف وأربعون كلها شفوف مثل الفلايك الكبار تسمى انجور في البعض مدافع وفي البعض بومبة ، وهكذا قيل ، وقيل في كل واحد مدفع ومهراز بومبة ، ومكث ثلاثة أيام وبدا القتال في يوم الجمعة ، وكان اليوم الثاني من رمضان . وجاء بعد صلاة الجمعة بساعة ونصف ، ورمى على الجزائر والمرسة نحو الخمسماية بومبة ، لكن الكثير منها وقع في البحر وأصاب الجزائر منها نحو العشرة ، واحدة سقطت في (صاياط ؟) العرض عند دار سيدي محمد بن صالح والباقي في أسفل الجزائر وواحدة سقطت في برج الفنار على بيت باش طيح وتفرقعت

---

(1) المصدر : مجهول : تاريخ مجيئ الصبنيول ، ورقات ، 1(ب) ، 2(أ).

ولم يمت بها أحدن لكن انجرح واحد ، واثنان وقعت في رأس عمار ولم يمت إلا واحد وانجرح في هذا اليوم نحو العشرة ، ثم رجع بعد أن قاتل نحو السعتين ونصف.
...وجاء يوم الست مع الزوال وقاتل قتالا أشد من يوم الجمعة ، ورمى على المسلمين في الفلايك والأبراج والجزاير والطبابن نحو الخمسمائة بونية قيل هذا عدده في كل مرة . وأما المدافع لم تعد ، والظاهر أن في هذا اليوم رمى أكثر من خمسماية بومبة لطول القتال بيننا وبينه ، وقع منها في المدينة كثير وانهدم بعض الديار في أسفل المدينة ، كان أغلب مما وقع فيها لم يتفرقع ، مات فيها رجلان أو ثلاثا . ووقعت في الجامع الكبير واحدة وتفرقعت ، ولم يضر شيئا سوى أنها خرقت السقف وحفرت الأرض يسير ، وهي التي سقطت قبالة باب البواقل . ووقع بعض البومبة في المرسة منها ثلاث في برج الفنار ، اثنان لم يتفرقعا ، ولم يضر أحدا ، وواحدة تفرقعت فقتلت خمسة رجال منهم باش طيج الذي في البرج المذكور ، ومهم شاب يقال له ابن عنبرج ، وهو طيج أيضا ، ومنها واحدة في البرج الجديد سقطت على مدفع صغير كان فوق باب السطح وتفرقعت ولم تضر أحدا ن ثم رجع بعد أن قاتل نحو الخمس ساعات .

الملحق رقم :

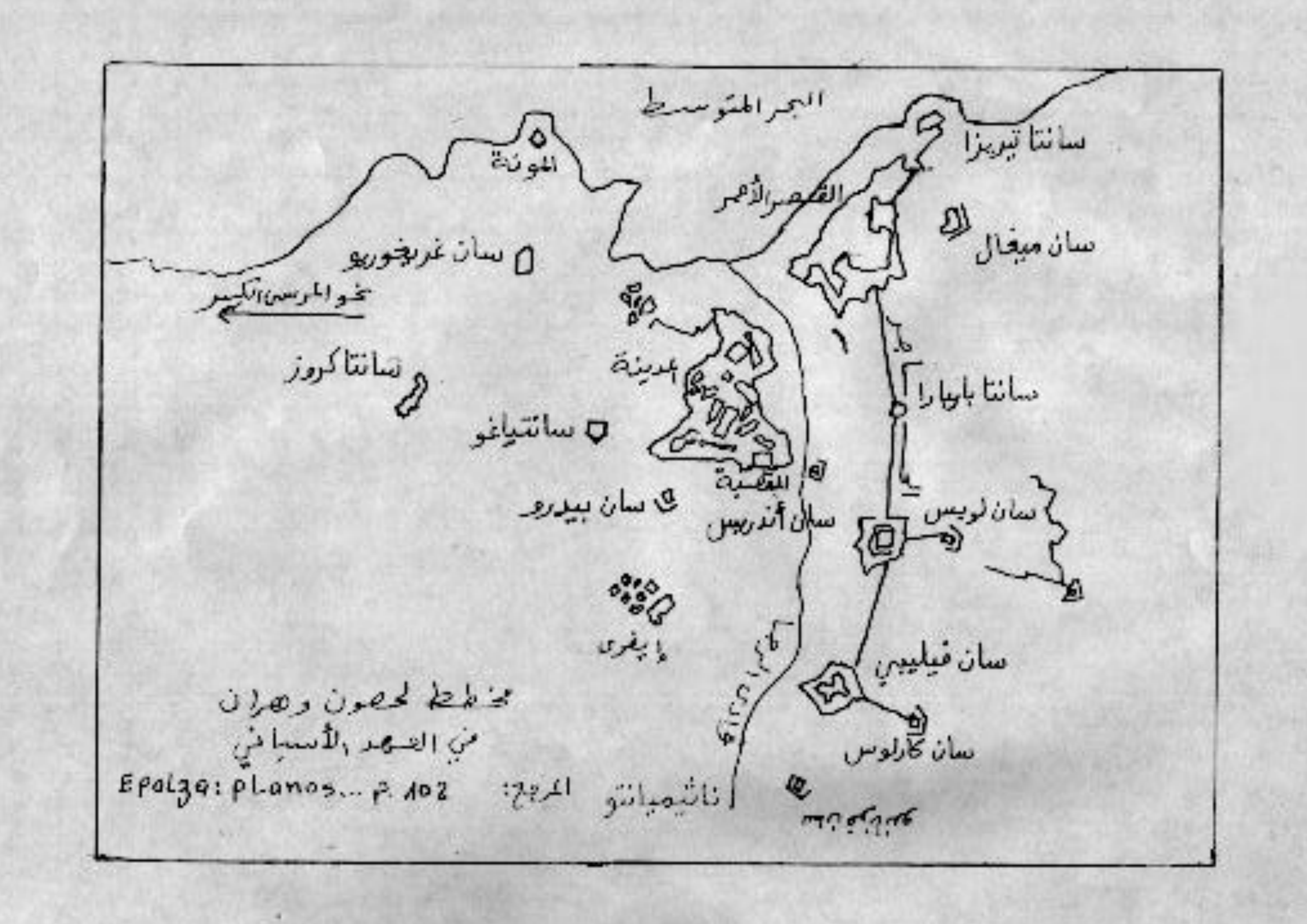
جدول النقود الأسبانية المستعملة في الجزائر

نوع النقود المستعملة	قيمة النقود أو وزنها	الملاحظات
الدبلون الفضي	5،40 فرنك	
الدوكة	24 أسبر أو 9 صائمة	أوائل العهد العثماني
الكرونة		نقود قديمة ونادرة
الدورو الأسباني	5،25 فرنك	
القرش الأسباني	5،43 فرنك	
الدولار الأسباني	3،40 فرنك	
قرش إشبيلية		
القرش المكسيكي	3،7 بدقة شيك	ويعرف بقرش بومدفع
الريال الأسباني	15 أسبر	
الأسبر الفضي المربع	15 ريال أسباني	

البستول الأسباني	4،4 بدقة شيك	نقود قديمة نادرة
الكاتريبل الأسباني	86 فرنك	Quatruple d'Espagne
الكاتريبل المكسيكي المضعف	1،68 فرنك	Double Quatruple du Mexique

---

(1) لمصدر : سعيدوني : النظام المالي للجزائر ، ص.201.



البحر المتوسط
المونة
القصر الأحمر
سانتا تيريزا
سان ميغال
سان غريغوريو
نحو المرسى الكبير
سانتا كروز
المدينة
سانتا باربارا
سانتياغو
القصبة
سان بيدرو
سان أندريس
سان لويس
إيفرى
سان فيليبي
سان كارلوس
مخطط لحصون وهران
في العهد الأسباني
Epalza: planos... P. 102
المرجع:
ناثيمياتو

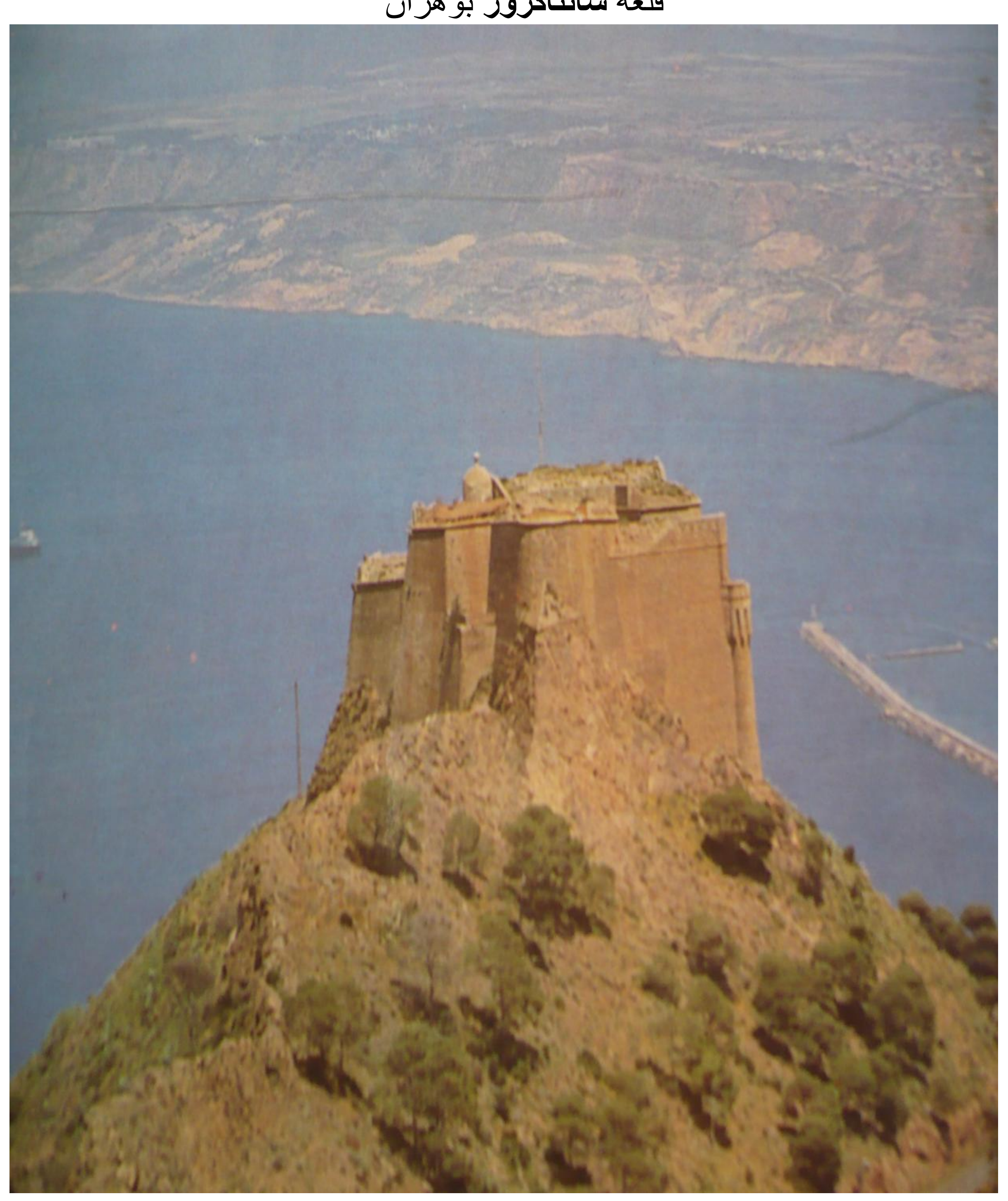






الملحق رقم :

قلعة **سانتاكروز** بوهران



صفحة من قائمة أسماء أسرى جزائريين ومسلمين آخرين في مدينة قرطاجنة في سنة 1782 (1)

Relacion delos Mahometanos Esclavos de S.M. que se hallan efectivos en el Real Arsenl. de esta Plaza.

Mahamet h.º de Suit nl. de Visenta en Tunes.

Tamet h.º de Aria nl. de Visenta.

Salel h.º del m.º nl. de Argel.

Mostafa h.º de Ali nl. de Argel.

Mahamet h.º de Asan nl. de turquia.

Abdelcader h.º de Cadi nl. de Argel.

Ali h.º de Mahamet nl. de Argel.

Mahamet h.º de Tamet nl. de Argel.

Ali h.º de Tamet. nl. de Argel.

Mahamet h.º de Abdala nl. de Vrla en Turquia.

Mostafa h.º de Mahamet nl. de Argel.

Mahamet h.º de Mostafa nl. de Focat en Turquia.

(1) المصدر : A.H.N.

المادتين الأولى والثانية من معاهدة الصلح بين الجزائر وأسبانيا 1786[1]

tigo 1.º

...leceo-se a Paz entre o Baxá
... seu Divan, e Milicia, e entre
... de Hespanha, pela qual terão
...llos de ambas as Cortes toda a
...ca, e não haverá entre elles
...a alguma, nem se lhes fa-
...ikima oppressão, em hum
Paiz.

فصل ١

وقع الصلح بين باشا جزاير وبين اهل ديوان
وعساكر مع راي اسبانيه على كل الوجوه
وتجار ادا مشو مراسيهم بعضهم بعضا
يكون الامن والامان بيناتهم ولا يكون الظلم
بينهم فيهم وجها من الوجوه ويكون على الاطمنان

١٢٠٠ شعبان

 (1)

Art.º 2.º

...trando-se os Corsarios de Argel
...uma Embarcação com Bandeira
...sorte de Hespanha, não lhe
...mal algum, nem lhe impedirão,
...carão a sua viagem, e se neces-
... de alguma provizão, ou qual-
...tra couza, lha darão; e se o Com-
...te do Corsario quizer mandar a
...ncha a bordo da dita Embarcação
...eminar o seu Passaporte, man-
...is sugeitos, alem dos Marinhei-
... estes dois enviados pelo Arraes
... abordo, e mais nenhum dos outros, só
... Capitão da Embarcação lho permi-
...a mesma sorte as Embarcações de
...Hespanholas quando se encontrarem com
...sario Argelino, depois de verem o Pas-
...lo Consul que rezide em Argel, o dei-
...xar a sua derrota.

فصل ٢

سفاين جزاير اذا خرجو للبحر وتلاقو
مع سفاين التي سنجق اسبانيه ويصه بورط بتاعهم
ما يكونو مانعين لسفرهم اصلا ولا يضرهم وان كانوا
يخصهم زاد وغيره من الاشيا يعطيهم وفلوقتهم
اذا نزلوا ينزلو فيه رجلين ويجري على خاطر يصه بورط
ومن غير رجلين ما ينزلو شي الاخرا ولا يطلعوا
لسفينتهم الا اذا اعطاهم الاذن رئيس المركب وكذلك
اسفاين اسبانيه اذا نظرو اليصه بورط قونصلو ابتاع
جزاير يعطيهم الطريق بالاحسان واللطف بلا كلام

١٢٠٠ شعبان

رسالة من إحدى قريبات أسير كان في مالقة
يعو د تاريخها على سنة 952هـ/1545 (1)

الحمد لله بعد السلام عليك يا معيزا من
ام الحسن من عند الشريفة تسلم
عليك كثير السلام وخرج وحشتم
من عينيه وهاكذا اراد الله وانا نزوج
لي عاعني كل ماليح وفيه كلمس
بمعيز السعايد فرج الله ما هو غافل
عليك ورقية تسلم عليك وتبكي عليك
بموقع عيني تبكي على يوما وعلى عماك الا
نفتكر لعينيك معاه انبقا نبكي حتا ما تسكت
الحروم من عاش حتا نراك انتي وحنونه
وفاطمة اختي وولاد محمد حبيب التالتة
والنكس العرج فريد واخته تسلم عليك
وتلك تسلم عليك وامة العالي تسلم عليك
واخوتك الصغار يسلمو عليك وام العز
ازنج يوبيبه تسلم عليك وستة الشليبه
تسلم عليك وانا ان ملتيتي نبعو لك
وان فريد الحوتشن نبعو لك هاذاك الا
فوين عليه الله يخلصك على خير وبخير مشقة
والسلام عليك ورحمة الله وانا نبوسك بغديك
والسلام

(1) المصدر : A.G.S.

البيبليوغرافيا

I - الوثائق الأرشيفية :

1 - الأرشيف الوطني الجزائري : لقد اطلعت محتويات الأرشيف الوطني ببئر الخادم، لكنني لم أعثر على وثائق هامة تخدم موضوع رسالتي ما عدا البعض منها التي تتناول الجانب الإقتصادي حيث أخذتها بعين الاعتبار .

الأرشيف الوطني الجزائري : العلبة رقم 12 ، الوثيقة رقم 62.

2 - دور الأرشيف الأسبانية :

- الأرشيف العام سيمانكاس (Archivo General Simancas):

A.G.S.,Estado,leg.3589.

A.G.S., Marina, leg.482.

- أرشيف التاريخ الوطني ، مدريد (Archivo Historico Nacional)

A.H.N., Estado, leg. 3589.

A.H.N., Estado, leg., 3588.

A.H.N., Estado, leg., 3579.

A.H.N., Estado, leg., 6153.

A.H.N., Estado, leg.3565/2.

A.H.N., Estado, leg., 3617.

A.H.N., Estado, leg., 3590.

A.H.N., Estado, leg.,6149.

A.H.N. Estado, leg.3562/2.

المكتبة الوطنية مدريد ، قسم المخطوطات :

. MSS/5065

أرشيف وزراة الخارجية الأسبانية بمدريد :

H.2311.

H.2305.

II - المصادر :

1 - باللغة العربية والمعربة :

- ابن أبي دينار ، محمد : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، تحقيق وتعليق ، محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، تونس ، 1967 .

- ابن أبي الضياف : أتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمـــان ، الدار التونسية للنشر ، ج. 1،2، تونس ، 1976 .

- **ابن حمدوش ، عبد الرزاق :** رحلة ابن حمدوش الجزائري ، المسماة: "لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال " ، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1983 .

- **ابن خلدون ، عبد الرحمن** : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، الجزء السادس ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1982 .

- **ابن رقية ، محمد التلمساني الجادري** : الزهرة النايرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة ، نشر سليم بابا عمر ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، العدد 3 ، 1967جويلية، صص.1-32.

- **ابن سحنون ، أحمد بن محمد بن علي الراشدي** : الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم ، المهدي البوعبدلي ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، 1973 .

- **ابن الشويهد ، عبد الله محمد:** قانون أسواق مدينة الجزائر(1107-1117هـ/ 1695-1705م) ، تحقيق وتقديم وتعليق د. ناصر الذين سعيدوني ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2006.

- **ابن عسكر ، محمد** : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق : محمد حجي ، ط.2، دار المغرب ، الرباط ، 1977.

- **ابن قاضي ، أحمد** : درة الحجال في أسماء الرجال ، تحقيق : محمد الأحمدي أبو النور ، ج.2، ط.1، دار التراث ، القاهرة، 1971.

- **ابن مريم ، أبو عبد الله محمد** : البستان في ذكر العلماء في تلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986 .

- **ابن ميمون ، محمد** : التحفة المرضية في الدولة البكدشية في بلاد الجزائر المحمية ، تحقيق وتقديم الدكتور محمد بن عبد الكريم ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981.

- **أبوراس ، محمد الناصري:** فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته ، حققه وضبطه وعلق عليه محمد بن عبد الكريم الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

- **بلحميسي، مولاي** ، الجزائر من خلال الرحالة المغاربة في العهد العثماني ، الشركة الوطننية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، الجزائر ،1981 .

- **التمغروتي ، أبو الحسن** ، النفحة المسكية في السفارة التركية ، طبعة حجرية ، دون تاريخ .

- **التنسي (محمد بن عبد الله)** ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق ، محمود بوعياد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985 .

- **حساني ، مختار** : تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الأسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال مخطوطتين : فتح مدينة وهران للجامعي ، الرحلة القمرية لابن زرفة ، جامعة الجزائر ، مخبر المخطوطات ، الجزائر ، 2003.
- **الزهار ، أحمد الشريف** : مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب الأشراف ، تحقيق : أحمد تةفيق المدني ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ، 1980.
- **الزياني ، محمد بن يوسف** : دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، تقديم وتعليق ، المهدي البوعبدللي ، الشركو الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1979 .
- **السراج ، محمد بن محمد** : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تقديم وتحقيق، محمد الحبيب الهيلة ، المجلد 2 ، ط. 1 ، دار المغرب الإسلامي ، بيروت، 1985.
- **العدواني ، محمد بن محمد** : تاريخ العدواني ، تقديم وتحقيق وتعليق ، د. أبو القاسم سعد الله ، ط.1 ، دار المغرب الإسلامي ، بيروت ، 1996.
- **كاربخال ، مارمول** : إفريقيا ، ج .ترجمه عن الفرنسية ، محمد حجي ، وآخرون، دار المعرفة ، ج. 1 ، 2 ، 3 ، ، الرباط ، 1989.
- **مجهول** : غزوات عروج وخير الدين ، تصحيح وتعليق ، نور الدين عبد القادر ، المطبعة الثعالبية ، الجزائر ، 1934 .
- **مسلم بن عبد القادر** : أنيس الغريب والمسافر ، تحقيق وتقديم : رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والإشهار ، 1974.
- **المشرفي ، عبد القادر** : بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحتت ولاية الأسبان بوهران من الأعراب كبني عامر ، تحقيق ، محمد بن عبد الكريم ، دار مكتبة الحياة، بيروت .
- **الوزان ، حسن بن محمد** : وصف إفريقيا ، ج.2 ، ترجمة ، حجي ، محمد الأخضر ،ط.2 ، دار المغرب الإسلامي ، بيروت ، 1982 .

2 - باللغات الأجنبية :

-**Ben Mansour ,Abdelhadi :** Alger xvi^{e}- xvii siècle ,Journal de Jean Batiste Gramaye << évèque d’Afrique >> ,Cerf , Paris ,1998.
-**Boutin :** Reconnaissance général de la ville d’Alger , des Forts et batteries d’Alger , In Nettement: Histoire de la conquête d'Alger .
-**Brunschvig , Robert :** Deux récits de voyage inédits en Afrique du nord au XVIe siècle Abdalbasit B.Halil et Adorne,Larose, 1936 .

-La Couronnation de l'Empereur Charles cinquième de ce nom, faicte à Boloingne la Grasse le mardy vingtdeuxième de fevrier: l'an de grasse mil cinq cent et trente, éditeurs, G.Dorrteman, avers, 1530.

-Cueva , Francisco de la: Guerre de Tlemcen , Traductoin de M.Camille Brunel , B.S.G.O., T.10, 1890.pp.347-395 ;T.11, 1891, 224-469.

-Dan, Pierre: Histoire de Barbarie et de ses corsaires, Rocolet,2ème édition, Paris, 1646.

-Dapper, D'O: Description de l'Afrique, Wolfgang, amsterdam, 1686.

-Emerit, Marcel: Le voyage de la Condamine à Alger (1731), Notes et documents, R.A., T.98, 1954, pp.355-381.

-Feraud , Charles : Conqètte de Bougie par les espagnols , d'après un Manuscrit arabe , R.A., T.12 , 1868 .pp.245-256 , 337-349 .

-Flechier ,Esprit: Histoire du cardinal Ximenés, t.1, J.Anisson, Paris, 1693.

-Guichardin,François: Histoire des guerres d'Italie, traduite de l'italien par: Favre et revue par Georgeon, Vaillant, vol.3, Londre, 1738.

-Haedo , Diego de: Histoire des rois d'Alger , Traduit , par H. D. Grammont , R.A., T.24 , 25 , 1880, 1881 .

-Haedo ,D.de: Topographie et histoire generale d'Alger , Traduit par: A Berbrugger, et Dr. Monnereau, R.A., T.14, 15,1870, 1871.

-Herault: Notes et Documents, Relation de ce qui s'est passé depuis le départ de la flotte assemblée en la baye d'Alicante , et des glorieux progrès de l'armée du Roy d'Espagne , en la conquete ou recouvrement de la place d'Oran en afrique , les 29, 30 juin ,

premier juillet de cette année 1732 traduite de l'espagnol. BSGO, t.52, 1931, pp.83-88.

-**Hontabat, Don Harnaldo:**Relacion general de la consistencia de la plazas de Oran y Mazalquivir, B.S.G.O., t.XLIV, 1924, pp.99-130,211-266.

-**Leon, l'Africain Jean:** Description de l'Afrique , traduit de l'Italien par A.Epaulard, Paris , 195, T.2 , p.348.

-**Lanfreducci et Basio:** Costa e discorsi di Barberia , Trauction francaise par Pierre Grandchanp et notes de Charles Montchicourt, R.A., T.66 , 1925 ,pp.481 –549 .

-**Marmol , Carbajal :** L'Afrique de Marmol , traduit en français par M.Perrot d'Ablaucourt, Paris, 1667.

-**Mazarredo, L'Amiral:** Expedition d'O'Reilly contre Alger en 1775, Une traduction textuelle d'un manuscrit, R.A., T.8, 1864, pp.255-266.

-**Montanes,Diego Suarez**: Mers-El-Kebir, Traduit parA.Berbrugger , R. A.,T.9, 1865,pp.251-267,337-355, 410-429.

-**Morales, Baltazar de:** Dialogues sur les guerres d'Oran , Imprimé a Cordoue 1593 , Traduit par R.Francisque-Michel, B.S.G.O., 1889, pp.94-155,223-255.

-**Pellecat,(Commandant):** Relacion general de la consistencia de las plazas de Oran y Mazalquivir, por el Colonel commandante de Yngenieros

-**Pont-Augustin:** Histoire abrégée des Papes depuis Saint Pière jusqu'à ClementXIV, Moudard, Amesterdam, 1776.

-**Primaudaie, Elie de la:** Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506-1574) , Jourdan , Alger, 1875.

-**Rang,Sander &Ferdinand Denis :** Fondation de la régence d'Alger, Histoire des Barberousses , T. 1 , 2 , J.Angé , Paris , 1837.

-Sandoval C.X.:Les inscriptions d'Oran et de Mers-El-Kebir , Traduit par , D[r]. Monnereau , R.A., T.15 , 1871 , pp. 179-183 , 271-284 , 353-361, 434 – 446 .
-Shaw: D[r]: Shaw, Voyage dans la Régence d'Alger , traduit de l'anglais par J.Mac Marthy , 2[è] éd. , Editions Bouslama, Tunis, 1980.
-Vallejo , José don : Contribution a l'histoire du vieil Oran , Traduit et annoté par J.Cazenave , R.A. T.66, 1925, pp.321–368 .
-Vallejo , José don : Contribution a l'histoire du vieil Oran , B.S.G.O., T.XLVI, 1926, pp.212-238.
-Mehkeme , sous titre , L'Expedition espagnole de 1541 contre Alger Traductoin de l'arabe , par . P.P., R.A. , T.35 , 1891 , pp.176 – 206.
-Tassy, Laugier de: Histoire du royaume d'Alger, Chez Henri du Sauzet,Amstterdam,1724.

III - الـمـخطوطات :

- ابن رقية ، محمد التلمساني : الزهرة النيرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، رقم : 1626 .
- الجامعي ، عبد الرحمن : مخطوط فتح وهران ، الكتبة الوطنية الجزائر،رقم: 2521.
- خوجة ، حسين : بشائر أهل الإيـمان بفتوحات آل عثمان ، المكتبة الوطنية الجزائر، رقم : 2912 .
- شقرون ، محمد بن أبي جمعة المغراوي : الجيش الكمين لمن كفر عامة المسلمين ، مخطوط ، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 2301.
- الناصري ، محمد أبو راس : الحلل السندسية في تاريخ وهران والجـزائر الأندلسية ، المكتبة الوطنية الجزائر ، رقم : 3182 .
- الناصري ، محمد أبو راس : عجائب الأسفار ، المكتبة الوطنية الجزائر ، رقم : 1632
- مجهول : تاريخ مجيء الصبنيول ، المكتبة الوطنية الجزائر ، رقم 2285 .

VI - الوثائق المنشورة :

1 - باللغة العربية :

- **التميمي ، عبد الجليل** : رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541 ، الأصالة ، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، العدد ، 23 ، جانفي- فيفري 1975 .
- **قنان ، جمال** : نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر 1500 – 1830 ، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الجزائر ، 1987 .

2 - باللغات الأجنبية :

-Basset , René : Documents musulmans sur le siège d'Alger en 1541 , Paris Oran , 1890 .

-Castries (de) : Les Sources inédites de l'histoire du Maroc.

-Cat , Edouard : Mission bibliographique en Espagne , Leroux , Paris , 1891 .

-Cervantès,Miguel: Information faite à Alger en 1580 , Traduction par Martel Douel , R.A., T.72 , 1931 , pp. 294 – 318 .

-Charrère , (E.): , Négociations de la France dans le lavant , Brurt Franklin New-York , S.D. , T.1,2,3.

Charrière, (E.): Négociations de la France dans le Levant , Imprimerie Impériale, Paris , 1853, t.3.

Grandchamp, Garrigou.(P.) : Documents relatifs à la fin l'occupation espagnole en Tunisie, 1569-1574 , Revue Tunisienne., 1914, T.21,

-Herault: Notes et Documents, La reprise d'Oran par les Espagnols en 1732 , BSGO, 1931, T.52, pp.83-88 .

-Plantet,Eugène: Correspondance des deys d'Alger avec la cour de France 1579 – 1833 , T.1,éditions Bouslama , Tunis , 1981 .

-Primaudaie , Elie de la : Documents inédits sur l'histoire de l'ocupation espagnole en Afrique 1506 - 1574 , R.A., T.19, 20, 21, 1875, 1876, 1877.

-Ricard, Robert: Ibero-Africana, textes espagnoles sur la Berberie (XV^{e},XVI^{e} et XVII^{e} siècles), R.A., t.89, 1945, pp.26-40.

V ـ الرسائل الجامعية :

1 ـ باللغة العربية :

ـ **ابن نعمان ، اسماعيل** : مدينة دلس دراسة عمرانية أثرية القرن 16 –19 م ، رسالة ماجستير ، في الآثار الإسلامية ، جامعة الجزائر ،السنة الجامعية ، 1995-1996.

ـ **بشاري ، لطيفة** : التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين (13 – 16م) ، رسالة ماجستير ، معهد التاريخ جامعة الجزائر ، السنة الجامعية ، 1986-1987 .

ـ **بلبوري ، سيد أحمد**: وهران وضواحيها اجتماعيا ، سياسيا ـ اقتصاديا لابان الاحتلال الإسباني 1505-1792م ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، قسم التاريخ، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس ، السنة الجامعية: 2006-2007.

ـ **بوحمشوش ، نعيمة** : مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن السادس عشر ، رسالة ماجستير ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1988- 1999 .

ـ **حساني ، مختار** : الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية للدولة الزيانية ، رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة ، جامعة الجزائر ، المعهد الوطني للدراسات التاريخية، 1985 – 1986 .

ـ **درياس ، الأخضر** : المدفعية الجزائرية في العهد العثماني ، رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1989-1990 .

ـ **سي يوسف ، محمد** : قليج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية ، رسالة ماجستير ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1988 .

ـ **شقرون : محمد بن أبي جمعة المغراوي** : الجيش الكمين لقتال من كفر عامة المسلمين تقديم وتعلق : فكاير عبد القادر ، مذكرة ماجستير ، غير منشورة ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، الموسم الجامعي 1995-1996 .

ـ **فكاير ، عبد القادر** : الصراع الجزائري الأسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن السادس عشر ، رسالة ماجستير ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 2001.

2 ـ باللغة الأجنبية:

-Messikh, Benselama: Identification du système défensif Ottoman d'El-Djezair (1516-1830), mémoire de Magistaire, Ecole polytechnique d'architecture d'Alger, Alger, 1996.

VI ـ المـراجع :

1 - باللغة العربية والمعربة:

- **ابن أشنهو ، عبد الحميد** : دخول الأتراك إلى الجزائر ، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر ، 1972 .
- **ابن خروف ،عمار** : العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري /السادس عشر ميلادي ، الجزء الأول ، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1427-2006 .
- **ابن خروف ، عمار** : العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرنين العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ، الجزء الثاني ، دار الأمل للطباعة والنشر ، الجزائر 2008
- **الأعرج ،أبو عبد الله** : تاريخ الجزائر بين قيام الدولة الفاطمية ونهاية ثورة الأمير عبد القادر، تحقيق ، الدكتور ، حساني مختار ، المكتبة الوكنية الجزائرية ، د.ت.
- **التر ، عزيز سامح** : الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا ، ترجمة ، د. محمود علي عامر ، ط .1 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1989 .
- **برنيان ، أندري وآخرون** : الجزائر بين الماضي والحاضر ، ترجمة اسطنبولي رابح ومنصف عاشور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984.
- **بروديل ، فيرناند** : البحر المتوسط ، ترجمة ، عمر سالم ، ألف ، منشورات البحر المتوسط ، تونس ، 1990 .
- **بروكلمان ، كارل** : تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، ط.9 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 181.
- **برينشفيك ، روبير** : تاريخ إفريقية الحفصية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى القرن 15، نقله إلى العربية ،حمادي الساحلي ، الجزء الأول ، ط. 1،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1988 .
- **البطريق ،عبد الحميد وعبد العزيز نوار** : التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا ، دار النهضة العربية ، بيروت ، بدون تاريخ .
- **بوعزيز ، يحي** : علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500 - 1830 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1985 .
- **بوعزيز، يحي** : وهران ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، رغاية ، 1985 .
- **جوليان ، شارل أندري** : تاريخ إفريقيا الشمالية ، تونس-الجزائر- المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830 ، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة ، ج. 2 ، الدار التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، تونس ، 1978 .
- **الجيلالي ، عبد الرحمن** : تاريخ الجزائر العام ، ج. 2 ، 3 ، دار الثقافة بيروت .1980

ـ **حاجيات ، عبد الحميد وآخرون** : الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي) ، ج. 3، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1984 .
ـ **حاطوم ، نورالدين** : تاريخ عصر النهضة ، دار الفكر ، 1968 .
ـ **الحفناوي، أبو القاسم محمد** : تعريف الخلف برجال السلف، جزءان، موفم للنشر الجزائر، 1991.
ـ **حليمي ، عبد القادر** : مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل سنة 1830، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي ، الجزائر ،1972.
ـ **حميدة ، عميراوي** : الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا) ، دار الهدى ، عين مليلة ، 2003 .
ـ **الراشدي ، أحمد ابن سحنون** : الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ،تحقيق وتقديم : المهدي البوعبدلي ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، 1973.
ـ **الزبيري ، محمد العربي** : التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792-1830 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984.
ـ **الزبيري ، محمد العربي** : مدخل إلى تاريخ المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر ط.2، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الجزائر ، 1985.
ـ **سبينسر ، ويليم** : الجزائر في عهد رياس البحر ، تعريب وتقديم ، عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1980 .
ـ **سعد الله ، أبو القاسم** : أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، 1978 .
ـ **سعد الله ، (أ)** :أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر المجلد ، الأول ، دار الغرب الإسلامي ، ط.5، بيروت ، 2005 .
ـ **سعد الله ، (أ)** : تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16 – 20) ، جزءان ، الشرطة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1980 .
ـ **سعد الله ، فوزي** : يهود الجزائر هؤلاء المجهولون ، دار الأمة ، ط.2، 2004.
ـ **سعيدوني ، ناصر الدين و الشيخ المهدي البوعبدلي** : الجزائر في التاريخ(العهد العثماني) ، وزارة الثقافة والسياحة ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1984 .
ـ **سعيدوني ، (ن)** : دراسات أندلسية ، مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2003 .
ـ **سعيدوني ، (ن)** : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 .
ـ **سعيدوني ، (ن)** : من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1999.

- **سعيدوني ، (ن)** : النظام المالي للجزائر فيالفترة العثمانية(1800-1830) ،الشركة الوطنية للنشروالتوزيع، الجزائر، 1979.
- **شالر ، وليم :** مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر(1816-1824) ، تعريب وتعليق وتقديم : اسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1982 .
- **شاوش ، الحاج محمد بن رمضان** : <u>باقة السوسان في العريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان</u> ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995 .
- **شوفالييه ، كورين** <u>: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541</u>، ترجمة ، جمال حمادنة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1991 .
- **الصلابي ، محمد** : الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط.2، القاهرة 2004.
- **الطمار ، محمد بن عمر** : <u>تلمسان عبر العور ودورها في سياسة وحضارة الجزائر</u>، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 .
- **الطمار ، (م)** : الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1983 .
- **عبد القادر ، نوالدين** : <u>صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء التركي</u> ، نشر كلية الآداب الجزائرية ، مطبعة البعث، قسنطينة، 1965 .
- **العربي ، إسماعيل** : <u>تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر</u> ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1986 .
- **العسلي ، بسام** : <u>الجزائر والحملات الصليبية</u> ، دار النفائس ، الطبعة الثانية ، 1986.
- **عنان ، محمد عبد الله** : <u>نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين</u> ، ط.1 ، مطبعة مصر ،القاهرة ، 1949 .
- **فارس ، محمد خير** : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ط.1 ، مطابع ألف باء – الأديب ، دمشق ،1969.
- **فريد بك ، محمد** : <u>تاريخ الدولة العلية العثمانية</u> ، تحقيق ، إحسان حقي ، ط. 2، دار النفائس ، بيروت ، 1983 .
- **فيشر ، هربرت** :<u>أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية</u> ترجمة ، زينب عصمت راشد ، وآخرون ، ط . 3 ، دار المعارف ، 1965 .
- **قاسم ، مولود نايت بلقاسم** : <u>شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830</u> ، ط ج.2 ، ط .1 ، دار البعث ، قسنطينة ، 1985.
- **قنان ، جمال** : <u>معاهدات الجزائر مع فرنسا 1609 – 1830</u> ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1987 .

- **كاثكارت** : مذكرات أسير الداي كاثكارت ، قنصل أمريكا في المغرب ، ترجمة وتعليق اسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982.
- **كاردياك ، لويس** : الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون ، منشورات المجلة المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية ، تونس ، 1983 .
- **كلو ، أندري** : سليمان القانوني ، ترجمة البشير بن سلامة ،دار الجيل ، بيروت ، 1991.
- **مالتسان ، هانريش فون** : ثلاث سنوات في شمال إفريقيا ، ترجمة الدكتور أبو العيد دودو، الجزء الثاني ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1979.
- **المدني ، أحمد توفيق** : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ، 1492 – 1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1962 .
- **المدني ، أحمد توفيق** : محمد عثمان باشا 1766 – 1797 ، سيرته حروبه أعماله نظام الدولة والحياة العامة في عهده ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 .
- **المزاري ، الأغا بن عودة** : طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وأسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر ، ج.2، تحقيق ودراسة ، د. يحي بوعزيز ، ط.1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 .
- **المطوي ، محمد العروسي** : السلطنة الحفصية ، تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي ، دار المغرب الإسلامي ، بيروت ، 1986 .
المؤذن ،عبد الرحمن وعبد الرحيم بنحادة :العثمانيون والعالم المتوسطي مقاربة جديدة ، تنسيق ، منشورات كلية الآداب ن الرباط ، كطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 2003.
- **مؤنس ، حسين** : تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، المجلد الثاني العصر الحديث للنشر والتوزيع ، ، بيروت ، 1992 .
- **الميلي ، محمد بن مبارك** : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ج. 3 ، مكتبة النهضة الجزائرية ، الجزائر ، 1964 .
- **هلال ، عمار** : العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (3/ 14هـ) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995 .
- **الهندي ، محمد إحسان** ، الحوليات الجزائرية ،تاريخ المؤسسات في الجزائر من العهد العثماني إلى عهد الثورة والاستقلال ، العربي للإعلان والنشر والطباعة ، دمشق ، 1977.
- **هورتز ، أنطونيو دوميـنغيز ، برنارد بنثنت** : تاريخ مسلمي الأندلس ، ترجمة، عبد العال صالح طه ، ط. 1 ، دار الإشراق ، قطر ، 1988 .

- **وولف ، جون :** الـجزائر وأوربا ، ترجـمة ، أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 .

2 - باللغات الأجنبية :

-**Auphin Paul :** Histoire de la Mediterranée , Coll. L'Ordre du jour , Table ronde , Paris , 1967 .

-**Arnaud, M.A.:** voyages extraordinaires et nouvelles agréables par Mohamed Abou Ras Ben Ahmed Abdelkader EN-NASRI , Récits historique sur l'Afrique septentrionale, traduit par: Arnaud, Adolphe Jordan, ,Alger 1885.

-**Ballester :** Raphael , Histoire de L'Espagne , Payot , Paris , 1928 .

-**Bargès , l'abbé :** Complément de l'histoire des Bani – Ziane rois des Tlemcen , Ernest Laroux , Paris , 1887 .

-**Bartolomé Bennassar:** Lucil Bennassar, Les chrétiens d'Allah , l'histoire extraordinaire des rénégats 16-17è siècles, Perrin , Paris, 1989 .

-**Bayard,Ferdinand:** Tableau analytique de la diplomatie française depuis la minorité de Louis XIII jusqu'à la paix d'Amiens , Prault, Paris, 1804.

-**Belhachemi , Jean Luis :** Barberousses corsaires et rois d'Alger, Fayard , Paris , 1984 .

-**Belhamissi , Moulay :** Alger la ville au mille canons , ENAL , Alger , 1990.

-**Belhamissi , (M.):**Les captifs algeriens et l'Europe chrétienne , ENAL , Alger , 1988 .

-**Belhamissi , (M):** Histoire de la marine algerienne 1516 – 1830 , ENAL, Alger , 1983 .

-Behamissi , (M.): Histoire de Mostaganem des origines a nos jours , SNED, Alger , 1982 .

-Belhamissi ,(M.): Marines et Marins d'Alger , T.2 , Bibliothèque Nationale d'Algerie , Alger , 1996 .

-Benoudjit , Youssef : La Kalaa des Ben-Abbès au 16è siècles , Dahlab , Alger , 1997 .

-Benseddik et autres: Cherchel , Direction des Musées, de l'Archéologie et des Monuments et Cites Historiques, Alger 1983.

-Berbrugger , André: L'Epoque militaire de la Grande Kabylie, Batiste , Alger , 1857 .

-Berbrugger , (A.) : Le Pegnon d'Alger , Alger , 1860.

-Bercazu , A.B.J.: Argel , noticia topografia é historia del reino y de la cuidad , Gorchs , Barcelona , 1830.

-Bertrand , Luis : Histoire d'Espagne , Paris , 1932 .

-Brandi ,(C.) : Charles Quint et son temps (1504 – 1558) , Traduit de l'allemand par , Guy de Budé , Payot , Paris , 1951.

-Braudel ,Fernand : Les espagnols en Algerie , in Histoire et historiens de l'Algerie , Félix Falcan , Paris , 1930 .

-Braudel , (F.) : La Méditerranée et le monde méditerranéen a lépoque du Phillipe II , Armand Colin , 5e ed. , T.2 , Paris , 1982.

-Bono , Salvatore : Les corsaires en Méditerranée , ed. La Porte , Edif 2000 , Cahors , 1998.

-Boulifa,Si-Amar: Le Djurdjura a travers l'histoire de l'antiquité a la période coloniale , Berti éditions , Alger , Sans date .

-Bourbon, Sixte de: Le Traité d'Utrecht et les los fondamentales du Royaume, Honnore ,Paris, 1914.

-Calvo Carlos: Recueil complet de traités, conventions, capitulations, armistices et autres actes diplomatiques de touts les

états de l'amérique latine depuis l'année 1493 jusqu'à nos jours, Durant, Paris, 1862.

-Card, E.Rouard de: Traités de France avec les pays de l'Afrique du nord, A.Pédone éditeur, Paris, pp.1-89.

-Castro , Americo : Cervantès et l'ambition de la contre réforme le captif à Alger , deuxième congrès des sciences historiques , Alger , 14 – 16 avril 1830 , Pub. Par : la Société Historique Algerienne , Alger , 1932.

-Cat , Edouard : Petit Histoire de l'Algerie , T.1 , Adolphe , Jourdan , 1889.

-Chac , Paul : Deux batailles navales Lepante – Trafalgar , 2eme. ed., Les éditions de France , Paris , 1935 .

-Chevalier , Corrine: Les trente premières années de l'état d'Alger 1510-1541 , O.P.U., Alger , 1986 .

-Coulet , René: La course et la piaterie dans la Méditérranée , Paris , 1980.

-Cour , Auguste: L'etablissement des dynasties des Cherifs au Maroc , leur rivalité avec les turcs de la régence d'Alger 1509-1830 , Ernest –Leroux , Paris , 1904 .

-Cruck, Eugène: Le fort de Mers –el -Kebir theatre de combats héoriques Imprimerie Heintz , Oran ,

-Daru, pierre: Histoire de la république de Venise, F.Didot, t.3, Paris, 1821.

-Delphin , (G.): Histoire des Pachas d'Alger 1515-1745 , Ext. Journal Asiatique , avril-juin 1922 , janvier-mars 1925 , Imprimerie National , Paris , MDCCCXXV(1825). .

-Derdour ,H'sène: Annaba 25 siècles de vie quotidienne et luttes, T. 2, S.N.E.D , Alger , 1982 .

-Dhina , Atallah: Les états de l'occident musulman aux XIII^{e}, XIV^{e} et XV siècles , OPU, ENAL, Alger , 1984 .

-Didier , (L.): Histoire d'Oran T. 5 , 6 , Imprimerie L.Petit , Oran, 1929 .

-Duruy , Victor: Histoire des temps modernes depuis 1453 jusqu'à 1789, Librairie Hachette et C^{ie}, Paris, 1899.

-Elliot , J.H.: La Espana imperial 1476-1716 , Barcelona , 1965 .

-Engel , C.E. : Le grand siège de Malte 1565-1965 , Société de l'histoire de L'Ordre de Malte , Paris , 1965 .

-Epalza, Mikel de y Juan Bta. Villar: Planos y mapas hispanicos de Argelia siglos XVI-XVIII , Instituto Hispanico-Arab de Cultura , Madrid 1988.
Esquer , Gabriel: La prise d'Alger , librairie ancienne , Paris, 1927.

-Esterhazy , Walzin : De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger , Paris , 1840 .

-Etchiali , Réda R.: L'épopee de Euldj Rais , Dahlab , Alger , 1999 .

-Fatio , Alfred-Morel: L'Espagne au 16 et au 17ème siècles , Heilbroun Henninger , Paris – Madrid , 1878 .

-Féraud ,Laurent-Charles: Histoire de Bougie, Bouchene, Paris, 2001.

-Morel-Fatio,Alfred: Historiograghie de Charles-Quint, Honore Champion , Paris, 1913.
-Ferrara , Ortestes: Le 16eme siècle , Vu par les ambassadeurs vinitiens ed. Albin Michel , Paris , 1954.
-Feraud ,Laurent Charles : Histoire de Bougie , éditions Bouchene, Paris 2001.

-Fey , Leon: Histoire d'Oran , avant , pendant et après la domination aspagnole , Adolphe Ferrier , Oran , 1858.

-Gaid , Mouloud : Lalgerie sous les turcs , SNED, Alger ,1974 .

-Gaid (M.): Histoire de Bejaia et de sa région depuis l'antiquité jusqu'a 1954 , SNED , Alger , 1976 .

-Gaillard Joseph: Description des monnaies espagnoles et des monnaies étrangères qui ont cours en Espagne depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours, Madrid, 1852.

-Galibert , Leon: L'Algerie ancienne et moderne , Fume , Paris , 1844 .

-Gandossi , Cristianne Villain: La Méditérrannée au 12 au 16eme, relations maritimes diplimatiques et commerciales , Variorum reprints , London , 1983 .

-Garrot , Henrie: Histoire generale de l'Algerie , Crescenzo , Alger, 1910.

-Grammont , H.D.: Histoire d'Alger sous la domination turques 1515-1830 , Ernest Leroux , Paris , 1887.

-Gravière , Jurien de la: Les corsaires barbarèsques et la marine de Solimane le grand , Plan , Paris , 1887 .

-Gravière , Jurien de la : Les Marins du XV et XVIème siècle, t.1, Plon, , Paris, 1879.

-Hammer , J.de: Histoire de l'empire ottoman depuis l'origine jusqu'à nos jours, traduit de l'Allemand par J.J.Hellert, Bellizard, t.6, Paris, 1837, p.202.

-El Hassar-Zeghari ,Latifa: Les captifs d'Alger , Casbah , Alger, 2004 .

-Heinrich,Pierre: L'Alliance Franco- Algerienne au 16èmesiècle, Mougin Russad , Lyon , 1898 .

-Hérvé Michel: Les débuts de la Régence d'Alger de 1518 à 1566, Corlet, Paris, 2005.

-Hubac , Pierre: Les Barbarèsques , Berger-Levrant , Paris , 1949 .

-Imbert, Jean: Histoire économique, des origines a 1789, P.U.F., 1965,

-Jordi, Jean-Jaques: Les Espagnoles en Oranie, 1830-1914, Histoire d'une migration , collection Africa Nostra, Montpellier, 1986.

-Kaddache , Mahfoud: L'Algerie durant la periode ottomane , OPU, Alger , 1998 .

-Kehl , Camille: Oran et Oranie avant l'ocupation Française, exstrait de B.S.G.O., T.63, mars-juin 1942, , Oran, 1942.

-Klein : Feuilles d'El-Djezair, t.6.

-Lacoste , (L.): La Marine algerienne sous les turcs (L'amirauté d'Alger à tous l'histoire) , S.E.G.M.C. , Paris , 1931 .

-Lapene, Edouard : Vingt six mois a Bougie, editions Bouchene, Paris 2002.

-Lapeyre , Henri : Geographie de l'Espagne Morisque, S.E.V.P.E.N. , Paris , 1959 .

-Latrie, Mas: Aperçue des relations commercials de l'Italie septentrionale avec l'Algerie au moyen age, Imp.Royale, Paris 1845.

-Latrie, Mas de: Histoire de l'Ile de Chypre, Imprimerie Impérial, Paris, 1855.

-Latrie, Mas de: Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique du nord au moyen age, H. Plon, éditeur, Paris, 1866.

-Lespes, René: Oran ville et port avant l' occupation française, 1934 .
-Leyden, John: Histoire complète des voyages et de découvertes en Afrique , t.3, A.Bertrand, Paris, 1821.

-Loup , Durand: Pirates et Barbarèsques en Méditerranée , Aubanel , Avignon , 1975 .

-Malki Nordine: Razzia, butin et esclavage dans l'Oranie du XVI ème siècle , Dar El Gharb , Oran , 2003.

-Manlau , Jean : Les états barbarèsques 2ème ed ,, P.U.F. , paris , 1973.

-Marçais , Georges : L'Architecture Musulmane d'occident , Tunisie, Algerie , Maroc , Espagne et Sicile , A.M.G., Paris , 1954.

-Masson, Paul: Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique Barbarèsques 1560-1793, Hachette, Paris, 1903.

-Maxange , Deffontin: Alger avant la conquette , Euldj Ali corsaire barbarèsque , Beyler Bey d'Afrique et grand amiral, Pedone , Paris , 1930.

-Mercier , (E.): Histoire de l'Afrique septentrional , T.2 , 3 , Ernerst Leroux , Paris , 1888.

-Merouche Lemnouar: Recherches sur l'Algerie à lépoque ottoman , I. Monnaies prix et revnues 1520-1830, édition Bouchene,Paris, 2002.
-Misermont, **Lucien :** Le double bombardement d'Alger, extrait de la revue des etudes historiques janv.-juin 1905, Picard.

-Pananti: Relation d'un séjour à Alger , Traduit de l'anglais, Le Normant, Paris, MDCCCXX(1820).

-Pechot , (L.): Histoire de l'Afrique du nord avat 1830 , Gojosso, Alger , 1914 .

-**Piquet , Ch.:** Apercue historique et Tographique sur l’état d’Alger , Paris , 1830 .
-**Poinssot L. & Lantier R.:** Les gouverneurs de la Goulette durant l’ocupation espagnol 1535 –1574 , Ext. de la Revue Tunisienne , 3ème trimèstre , 1930 , Ste. Anonyme de l’investissements , Tunis, 1930 .
Pool, Stanley Lane: The Loriscos of Spain, Beirut, S.D.
-**Prieur , Albert :** Les Barberousses , corsaires et rois d’Alger , Arc-en-ciel, Paris , 1943 .
-**Primaudaie , Elie de la :**Le commerce et la navigation de l’Algerie , Lahure , Paris , 1861 .
-**Renaudot :** Alger , tableau du royaume de la vielle d’Alger et de ses environs , état de son commerce de ses forces deterrs et de mer , 4ème ed. , Mongie , 1830 .
-**Rohrbacher, René François:** Histoire universelle de l'Eglise Catholique, t.9, Letouzey et ané, paris , 18..-1900.
-**Rotalier , Ch.de :** Histoire d’Alger et de la piraterie des turcs dans la Méditérranée a datte du seizième siècle , T.1 , 2 , Paulin , Paris , 1841.
-**Rochelle, Roux de:** Etats-Unis d'Amérique,Firmin Didot, Paris, 1839.
-**Rousseau , Alphonse:** Annales tunisiennes , Batisde , Alger , 1864.
-**Rousseau ,(A.**) , Chronique de la régence d’Alger, Alger , 1841 .
-**Ruff,Paul:**La domination espagnole à Oran sous le gouvernement du Comte d’Alcaudete (1543-1558), Leroux , Paris, 1900 .
(8) Rozet & Carette: Algerie, 2ème. Ed.,Bouslama,Tunis , 1980.
-**Salvatore ,Louis de Habsbourg Archiduc d Autriche :** Bougie la perle de l Afrique du nord , Traduction de Viviane Jambert , L Harmattan, Paris , 1999.
-**Sanz, Vicente Graullera:** La esclavitud en Valencia en lo siglos xvi y xvii ,Instituto Valenciano de Estudios Historicos, Valencia, 1978.

-Sari, Djilali: La renaissance d’un ancien débouché de l’or transaharien , Honaine, Office des Publications Universitaires, Alger, 1991.

-Schiller, Von Friedrich: Histoire de la révolte qui détacha les Pays.Bas de la domination espagnole , traduction française par: Adolphe Regnier , Hachette, Paris, 1883.

-Sebac ,Paul: Une relation inédite sur la prise de Tunis en 1574,publications de l'univerité de Tunis, 1971.

-Sebastien , Jimenes Sanchez: Jimenes Sanchez Sebastian: Presencia de Berberes en Canaries y de canarios en Berberia, Tipografia Alzola, Las Palmas, 1948.

-Tapié,(C.): La conquete d'Oran par les espagnoles en 1732, Imprimerie Emile Collet , Oran, 1923.

-Tapie V.L. & Bruley E.: Les temps modernes 1492-1789 , Hatier , 1959.

-Ursu , (J.) : La politique orientale de Francois 1er 1515-1547, Honore , Paris , 1908 .

-Vallée, Joseph La : L’Espagne depuis l’expulsion des Maures jusqu'à l’année 1847 , Fermin Didot frères ,Editeurs Paris , MDCCCXLVII(1887).

-Vaste, Henri: Les Grands traités du règne de Louis 14, t.1, Alphose Picard, Paris , 1893.

-Verrone , Chantal de la : Oran et Tlemcen dans la première moitié de 16ème siècle , Geuthner , Paris , 1983 .

-Vertot: Histoire des révolutions du Portugal, Borrane, Paris, 1859.

-Vertot , l’abbé: Histoire des chevaliers de Malte , Mame , Tours , 1841 .

Villar (J.) : Las fortificaciones hispanicas en Argelia : el sistema defensivo de Oran –Mazalquivir durante la dominacion espanola 1504-1791), publicacion ,consejo de cultura ,Melila.

-**Weissmann ,Nahoum:**Les janissaires études de l'organisation miltaire des ottomans , Oriont , Paris , 1964.

-**Wilhelm,Jaques:**Captifs chrétiens a Alger , extrait de Revue des Sciences Politiques , Librairie Feli Alcan , T.LVI, Janv.-Mars, Paris ,1933, pp.127-136.

VII- الدوريات :

1 - باللغة العربية :

- **ابن أشنهو ، عبد الحميد** : أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة دفين تلمسان أم فاس، الأصالة ، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، العدد ، 26 ، جويلية –أوت 1975، صص. 270 – 283 .

- **إيبالزا ، ميكال دي** : حول ثلاث أحداث غير معروفة من العلاقات التاريخية بين عنابة وأسبانيا ، ترجمة ، عبد الحميد حاجيات ، الأصالة ، العدد ، 34-35 ، 1976، صص.110-121.

- **إيبالزا ، ميكال دي** : مذكرة حول القلاع الأسبانية بالمغرب العربي ، نقله عن الفرنسية : عبد الحكيم الحفصي ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد 13-14 ، جانفي 1979، ص.101 .

- **إيبالزا ميقال دي والهادي الوسلاتي** : ملاحظات أب أسباني يزور وهران في عهد مصطفى بوشلاغم ، المجلة التاريخية المغربية ، رقم 12،1978.، صص.191- 201.

- **بلحميسي ، مولاي :** تحرير مدينة وهران سنة 1708، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد 9 ، 1970 ، صص.55-75.

- **بلحميسي ، (م.)** : الجزائر والغزو البحري في القرن السادس عشر ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، كلية الآداب ، جامعة الجزائر العدد 4 ، جانفي 1968، صص. 7-18 .

- **مولاي بلحميسي** : صفحات من تاريخ العلاقات الجزائرية الأسبانية ، معاهدة 1786 بين الجزائر وأسبانيا سبب إبرامها مضمونها نتائجها ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، العدد ، 11، 1974، ص.9 .

- **بلحميسي، (م)** : غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر ، 1541م/948هـ بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية ، الأصالة ، العدد ، 8 ، ماي-جوان، 1972 ، صص . 91 – 111.
- **بلحميسي ، (م.)** ، نهاية دولة بني زيان ، الأصالة ، العدد، 26 ، جويلية – أوت 1975، صص. 30-36 .
- **بورويبة ، رشيد :** جولة عبر مساجد تلمسان ، مجلة الأصالة، العدد 26 ، 1975، صص.171-182.
- **البوعبدلي ، المهدي** :أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التركي من خلال مخطوط "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني " ، الأصالة ، العدد، 8 ، ماي – جوان 1972 ، صص. 273 – 292 .
- **البوعبدلي (م.)** :أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ ونبذة مجهولة عن تاريخ بعض أعلامها ، الأصالة ، العدد 26 ، 1975، صص.124-135.
- **البوعبدلي ، (م.) :** الحياة الفكرية ببجاية في عهد الدولتين الحفصية والتركية وآثارها ، الأصالة، العدد 19 ، صص. 133 – 147 .
- **البوعبدلي ، (م.)** : الرباط والفداء في وهران والقبائل ، الأصالة ، العدد 13 ، مارس- أفريل ، 1973 ، صص.19-37 .
البوعبدلي ، (م.) : موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر عبر العصور ، الأصالة، العدد 14-15 ، ماي –جويلية ، 1973، صص.125- 138.
- **بوعزيز، يحيى** : أسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس ، مجلة التاريخ ، المركز الوطني للدراسات التاريخية ، رقم 25 ، 1983 .
- **بوعزيز ، يحي** : المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الوادالزيانية، الأصالة ، العدد ، 26 ، جويلية – أوت 1975 ، صص.3-28 .
- **بونار ، رابح :** مدينة الجزائر تاريخها وحياتها الثقافية ، الأصالة ، العدد ، 8 ، ماي – جوان 1972 ، صص. 77 – 89 .
- **التميمي ، عبد الجليل :** الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ، مجلة التاريخ المغربية، العدد ،23-24 ، نوفمبر 1981 .
- **التميمي ، (ع.)** : رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية في القرن السادس عشر ، المجلة التاريخية المغربية ، السنة العاشر ، العدد، 29-30 ، جويلية 1983 ، صص. 71 – 107 .
- **حاجيات ، الحميد :** الحياة الفكرية بتلمسان، ، الأصالة، العدد 26 ، جويلية –أوت 1975،صص.136- 156 .
- **حجي ، محمد** : العلاقات المغربية العثمانية في القرن السادس عشر ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ، 29-30 ، جويلية 1983 ، صص. 151-160.

- **حمادي ، عبد الله** : جزائر القرن السادس عشر من خلال وثائق بعض الأسرى الأسبان ، المصادر ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ، الجزائر ، العدد 6 ، مارس 2002 . صص. 247-275.
- **رمضاني ، محفوظ :** من المعالم الأثرية والتاريخية لبجاية ، برج موسى دليل عظمة تاريخ المدينة ، جريدة الشروق ، 22 ديسمبر 2007 ، العدد : 2178 ، ص. 21
- **زكرياء ، مفدي:** أمجادنا تتكلم ، ملحمة تاريخية عن بجاية ، الأصالة ، العدد. 20، ماي-جوان ، 1974،صص.117- 126.
- **الساحلي ، خليل** : تقليد صالح باشا ولاية جزائر الغرب سنة 1552، المجلة التاريخية المغربية ، 2/1974 ، صص.125-133.
- **سعد الله ، أبو القاسم** : مدينة الجزائر في كتاب إنجليزي قديم ، الأصالة ، العدد، 8، ماي –جوان 1972 ، صص. 27 – 47 .
- **سعيدوني ، ناصر الدين** : صفحات من ماضي الجزائر المجيد : البحرية الجزائرية (ظروف نشأتها وعوامل تطورها وأسباب ضعفها ، مجلة الدراسات التاريخية ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، العدد، 10 ، 1997، صص.23-51 .
- **شبوب ، عثمان** : موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ المغرب العربي ، الأصالة ، العدد، 14-15، 1973، صص.199-228.
- **صاري ، جيلالي** : أضواء على أحد موانئ دولة بني زيان (هنين) ، مجلة التاريخ ، المركز الوطني للدراسات التاريخية ، الجزائر ، العدد ، 12، النصف الأول من سنة 1986 ، صص. 17- 25 .
- **صباغ ، ليلى** : ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ (أواخر عام 1568) والدولة العثمانية ، الأصالة ، العدد، 27 ، سبتمبر – أكتوبر 1975 ، صص. 116-175 .
- **صباغ ، ليلي :** عنابة بين اسمها وموقعها وعلاقاتها مع العالم المتوسطي حتى الاحتلال الفرنسي ، الأصالة ، العدد: 35/34، جوان - جويلية ، 1976.
- **العربي ، إسماعيل** : بجاية ، الأصالة ، العدد ، 19 ، مارس – أفريل ، 1974، صص.363-373 .
- **العكاك ،عثمان** : عنابة قبل الإسلام ، الأصالة ، العدد 35/34 ، السنة الخامسة ، جمادي الثانية – رجب1393هـ/يونيو-يوليو، 1976، صص.52-53 .
- **فراد ، مد أرزقي** : المؤرخ التونسي عثمان العكاك والحضارة الأمازيغية ، جريدة شروق، 01 /2007/8، العدد.2060 .
- **فكاير ، عبد القادر** : دور العلماء في مواجهة العدوان الأسباني على الجزائر ، المواقف ، عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول : الظاهرة الدينية ، أيام 14-16 أفريل 2008، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطنبولي ، معسكر صص.281-290.

ـ **فيلالي ، كمال** : هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في العهد العثماني ، المواقف، عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول : الظاهرة الدينية ، أيام 14-16 أفريل 2008، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطنبولي ، معسكر .
ـ **المدني ، أحمد توفيق** : تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين 1533-1554 ، الأصالة، العدد 26 ، جويلية - أوت ، 1975 ، صص. 37-45 .
ـ **مزين ، محمد** : الكتابات التاريخية المتعلقة برصد الخطاب المعتمد في علاقات المغرب بالعثمانيين الفترة السعدية ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد 29-30 ، جويلية 1983 ، صص . 457-485 .
ـ **مصطفاوي ، رشيد** : بجاية في عهد الحماديين ، الأصالة ، العدد ، 1 ، مارس ، 1971 صص.83-91.
ـ **مكي ، الطاهر أحمد** : ثرفانتس قمة الأدب الأسباني كان أسيرا في مدينة الجزائر ، الأصالة ، العدد ، 8 ، ماي – جوان ، 1972 ، صص. 49 – 58 .
ـ **ياسين ، حكمت** : الغزو الأسباني للجزائر في القرن 16 الأصالة ، العدد 14- 15 ، 1973، صص، 241-255.

2 ـ باللغات الأجنبية :

- Augustin, Pont: Histoire abrégée des Papes depuis Saint Pière jusqu'à ClementXIV, Moudard, Amesterdam, 1776, p.161 et suivre.
-Berbrugger ,André: Négociations entre Hassan Agha et le comte d'Alcaudette , Gouverneur d'Oran 1541-1542 , R.A. T.9 , 1865, pp. 379-385.
-Berbrugger , (A.) : La mort du fondateur de la régence d'Alger , R.A., T.4 , 1859-1860 . pp. 25 – 33 .
-Berbrugger, (A.): Reprise d Oran par les espagnols en 1732 , R.A., t.8 , 1864 , pp.12-28.
-Blum, (N.): La croisade de Ximénès en Afrique , B.S.G.O., 1897,pp.319-366,1898,pp.1- 48.
-BODIN (L.): Note sur l'origine du nom de Mogatazes donné par les Espagnols à certains de leurs auxiliaires indigènes pendant leur occupation d'Oran, BSGAO, 43, 1923, p. 243-247.
-Bono, Salvatore: Achat d'esclaves turcs pour les galères pontificales (XVIe-XVIIIesiècles), ROMM, No39, 1ersem.1985, pp.79-92.

-Boyer, Pierre: Les Rénégats et la marine d'Alger , R.O.M.M., n°39, 1[er]trimestre, 1985, pp.94-103.

-Boyer (P.): Espagne et Kouko, Les négociations de 1598 et 1610, ROMM,1970/2,pp.26-40 .

-Braudel , Fernand : Les espagnols et l'Afrique du nord , R.A., T.69, 1928 , pp.184 –233 , 351-428.

-Brosselard: Les inscriptions arabes de Tlemcen R.A.t.6, 1862, pp.11-21,161-172.

-Cazenave,Jean: Cervantes à Oran, B.S.G.O., T.43, 1923, pp.215-242.

-Casenave : Deux razzias mouvementés des espagnols d'Oran au XVI[e] siècle, B.S.G.O, 1925, pp. 285-505.

-Cazenave, (J.) : Les gouverneurs d'Oran pendant l'occupation espagnole de cette ville (1505-1792), R.A., 1930, pp.257-300.

-Cazenave , (J.) : Oran cité Bérbère , B.S.G.O., T.45 , 1925, pp.144 – 157

-Cazenave, (J.) : Organisation militaire d'Oran pendant l'occupation espagnole (1509-1791) , L' armée de d'Afrique, N° 41,1928, pp.326-330.

-Cazenave, (J.). (1925). Pièrre Navarro conquérant de velez ,Oran, Bougie, Tripolie , B.S.G.A.O., T.45, pp.131-167.

-Cazenave : Organisation militaire d'Oran pendant l'occupation espagnole (1509-1791) , L Armée de l Afrique, No. 41, 1928, pp.326-330.

-Coudray: Le commerce de Tlemcen au moyen-age , B.S.G.A., 1897, pp.229-255, 422-431.

-Devoulx, Albert: Alger étude archéologique et topographique sur cette ville aux époques romaine , arabe et turque, R.A., .t.20, 1876, pp.67-74,145-163,245-256,236-251,470-489.

-Devoulx , (A.): La marine de la régence d'Alger , R.A. T.13 , 1869, pp.384 – 420 .

-Devoulx,(A.):Quelques tempètes a Alger , R.A., T. 15 , 1871 , pp. 341-352 .

-Emerit, Marcel : Le voyage de la Condamine a Alger 1731, R.A., T.98, 1954.

-Feraud, Charles: Attaque d'Alger par la flotte espagnole commondée par Don Antonio Barcello en aout 1783 , R.A., t.20, 1876, pp.302-319.
(13) Charles Feraud: Conquètte de Bougie par les espagnols, d'après un manuscrit arabe, R.A., 1868, T.12, pp.248-249.

-Feraud, (C.): Les Mokrani..BSGAC, 1871-1872 .

-Feraud ,Charles: les Beni Djelleb Sultans de Touggourt, R.A., N° 23, 1879, pp.49-64, 161-171, 262-272, 342-366.

-Grammont, H.D.: Relations entre la France et la Régence d'alger aux XVII siècle R.A.1879.

-Grammont, H.de: Relation des préparatifs faits pour surprendre Alger, R.A., N°26, 1882, pp.290-308.
-Guin, (L.) : Quelques notes sur les entreprises des Espagnols , pendant la première occupation d'Oran , X^e^ siecle de Hégire, R.A., N°30, 1886, pp.313-322 .
-Imbert , Alfred : L'Amirauté d'Alger, B.S.G.A., 1907, pp.418-437.
-Jacqueton,(G.):L'Expédition d'A. Martinez de Angulo contre Tlemcen (juin – juillet 1535) , R.A., T.36, 1892 .pp.149-165.
-Kehl,(C.): Le fort Santa-Cruz, B.S.G.O., t.54, 1933, pp.381-390.
Klein, (H).: Feuilles d'El Djezair, 1913, T.6,
Malfante, Antonio 1447, publié par de la Roncière, B. S. G. P., 1918, t.33,

-George Marçais: Bougie, Documents Algeriens, 1950, pp.225-229.
-Macais , Georges: Recherches d'acheologique , Honaine , R.A. T.28 , 1928 , pp. 333 - 350 .
-Mautran , Robert : L'Evolution des relations entre La Tunisie et l'empire Ottomane de XVIe au XIXe siècle , Les cahiers de Tunisie , T.7, 1959 , pp.319-333.
Malki: Le soldat espagnol et les razzias effectuées en Oranie durant la domination espagnole, B.S.G. A. O., 1977-1978 .
-Mazarredo , l'amiral: Expedition d'Oreilly contre Alger en 1775, R.A., t.8, 1864, pp.255-266.
(12) Monographie de la commune d'Ain –el turck, B.S.G.O. , 1915, T.35.
-NOËL (A.): Documents pour servir à l'histoire des Hamyan et de la région qu'ils occupent actuellement, BSGAO, 35, 1915,p.121-197, 249-303; t.36. pp.5-60,117-192.
-Paradis,Venture de : Alger au XVIII e siècle , R.A., t.40,1896.pp.33-78,256-277.
Pavy : La Piraterie musulmane , R.A., t.2, 1857-1858, pp.237-252.
-P.P.: L'Expédition espagnole de 1541 contre Alger, R.A.,N.35, 1891,pp.177-206.
-Pestemaldjoglou, (A .) : Ce qui subsiste de Oran espagnol, R.A., t.79, 1936,pp.665-686.
-Pestemaldjoglou, (A .): Le consulat Français d'Oran de 1732 à 1757 , R.A., t.86, 1942, pp.220-254.
-Pestemaldjoglou,(A.): Mers-el-kebir historique et Description de la forteresse, R.A., N.84, 1940, pp.154-185.
-Peyronnet,(R.): La Régence d'Alger son histoire et sa puissance militaire (1502-1830) , L'Armée d'Afrique , 1924, pp.14-17.
-Rinn,Commandant: Le Penon de Argel, B.S.G.A., 1902, pp.207-217.

-Syndicat Natonal des Instituteurs : La régence d'Alger et le monde turc , 4ème numéro spécial, 1953-1954 , 103 pages.

-Veronne , Chantal de la : Population de la région oranaise entre 1551-1577d'après des sourses espagnoles , Actes du III[e] congrès d'histoire et de la civilisation du Maghreb , Oran , 26-28 nov. 1983 ,T.1, OPU, Alger , 1987, pp.166-178.

-Vittu: Un document sur la Barbarie en 1680-1681, la relation de voyage du sueur Dancour, C.T., 1977.

-Watbled , Ernest : Etablissement de la domination turque en Algerie , R.A., T.17, 1873 , pp.285-363.

-Watbled & Monnereau : Négociation entre charles quint et Kheir ddin (1538 – 1540 , R.A., T.15 , 1871, pp.138-148.

-Wintzer,Paul: Bougie place forte espagnol , Ext. du B.S.G.A. , Minerva , Alger , 1932. pp.185-222.

VIII - أطالس ودوائر معارف وكتب بيبليوغرافيا وقواميس :

1 - باللغة العربية :

- دائرة المعارف الإسلامية ، نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندي وآخرون ، المجلد: 6، 7.

- ابن حمودة ، بوعلام : المفتاح ، قاموس إسباني - عربي ، شركة دار الأمة ، برج الكيفان (الجزائر) ، 1994.

- جبور، عبد النور ، سهيل إدريس : المنهل القريب ، قاموس فرنسي - عربي ، دار الآداب ، دار العلم للملاين ن ط.1، بيروت ، 1975.

2 - باللغات الأجنبية :

-Atlas Mondial , Hatier , 3ème ed., Novograph , 1986 .

-Cazenave, (Jean) : Les sources de l'histoire d'Oran, B.S.G.O., t.45, 1933, pp.305-379.

-Delof , Tubet G. : Biblographie critique du Maghreb dans la litterature française 1532-1715 , S.N.E.D., Alger , 1977.

-Encyclopedie de l'Islam , T.4 , 7 .

-**Fagnan ,E:** Catalogue general de manuscrits de la Bibliothèque Nationale d'Algerie , Première tranche du 1 aux 1987 , B.N.A., 2ème ed., Alger , 1995.
-La Grande Encyclopedie , T. 10 , Lamirault , Paris .
-Le Grand Atlas de l'histoire mondial , Verone , 1981 .
-**Malki , N.** : Bibliographie critique sur l'histoire de 'Algerie (XVIe siècle à 1830) , Cahiers Maghrebins d'histoire , Numéro hors – série , Mars 1989, O.P.U. , Oran ,
-**Miguel de Toro y Gisbert:** Larousse de poche , dictionnaire français – espagnol ; espanol frencés, Librairie larousse, Paris, 1968.
-**Serryn , Pierre :** Atlas Bordas , Bordas , Paris , 1985 .
-**Serryn ,Pierre & Plasselle ,René :** Atlas historique , Bordas , Paris , 1983

فهرس الموضوعات

الباب الثاني

الآثار السياسية

الباب الثالث

الأثار الاقتصادية

الباب الرابع
الآثار الاجتماعية

الباب الخامس
آثار الغزو على الجوانب الثقافية
والمخلفات العمرانية الإسبانية